بُرهان شاوي
فندق باب السماء
مطهر
الخطايا
المقدسة
إيفا ماجدولينا
2

مطهر الخطايا المقدسة

إيفا ماجدولينا

بُرهان شاوي

فندق باب السماء

مطهر الخطايا المقدسة

إيفا ماجدولينا

2

رواية

فندق باب السماء

الجزء الثاني مطهر الخطايا المقدسة

إيفا ماجدولينا

بُرهان شاوي

Novel

Heavens Gate Hotel

Part One Kingdom of the living dead
Purgatorio of holy sins

Eva Magdalena

BURHAN SHAWI

الطبعة الأولى 2022

الرقم الدولي ردمك (ISBN)
978-9922-9560-2-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

منشورات فلامنكو للترجمة والنشر والتوزيع

جمهورية العراق - بغداد

نقال:
00964 770 981 4644
00964 771 117646
البريد الألكتروني:
flamingo.publ@gmail.com

إن منشورات فلامنكو غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه .

التصميم والإخراج الفني: ماهر عدنان

يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

رجاءً عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف أو التشجيع على ذلك. نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين .

Copyright © 2021 FLAMINGO.PUBL
All rights reserved.

الفهرس

الفصل الأول: الوصول إلى المطهر 9
الفصل الثاني: إيفا ماجدولينا 26
الفصل الثالث: إيفا تريزين.. ملاك في الجحيم 55
الفصل الرابع: الحداد يليق بإيفا كليتمنسترا آرجوس... 78
الفصل الخامس: آدم الأوديبي البصير 89
الفصل السادس: الاتصال الغامض 97
الفصل السابع: فالس في المطهر 108
الفصل الثامن: فاوست وإيفا مرغريتا .. آدم السيد وإيفا ماجدولينا.. . 130
دفاتر الجحيم 221
الدفتر الأول 221
جوقة الفتيات المشاغبات 221
حواء الفاطمي 221
اعترافات آدم.. 236
الأخرس بإرادته 236
حكاية حواء الملاك 284
الدفتر الثاني 302
آدم الشاحب... السيمرغ الحزين 302
قناع حواء المهندس 310
الفصل التاسع: عودة آدم الحديدي 375
الفصل العاشر: حانة الجحيم السعيد 394

إلى توأم الشعلة في متاهة الوجود

الفصـــل الأول
الوصول إلى المطهر

- ما أرهب هذا المكان!...
- هذا هو باب السماء!...

كانا على مقربة من باب الفندق الذي بدا كقلعة أسطورية تجثم بعتمتها على ذلك الشارع المقفر في مثل هذا الوقت. ولم يكونا يدركان إلى أين سيقودهما هذا الباب..! هل هو باب يفضي إلى المجهول المخيف أو هو باب منه يكون المعراج إلى أعنان السماء.!!

ومع أن فندق «باب السماء» يقع في منطقة الحيدرخانة في بغداد ، على مقربة من تمثال الشاعر العراقي الشهير باتجاه منطقة الميدان إلا أنهما انعطفا في الزقاق الجانبي الضيق الذي يفضي إلى عمق المنطقة القديمة ، وحيث الدخول إلى الفندق من الجهة الجانبية حيث بوابته ، بينما واجهته تمتد على الشارع العام ، لكن فجأة انتبها إلى أن ذلك الزقاق الضيق قد اختفى وكأن المكان قد تحول إلى منطقة أثرية وخرائب مستوية بالأرض تنتصب هنا وهناك هياكل غريبة ، ومن خلف الخرائب يمتد طريق إلى هضبة تصعد إلى جبل يبدو في تلك اللحظات مشعًا على الرغم من عتمة الليل الدامسة. لكنهما انتبها أيضًا إلى باب الفندق الذي بدا مثل بوابة تقف شامخة لفندق حديث معاصر لا يوجد منه سوى في الأفلام ، تتوسطها كاميرا تتحرك يمينًا وشمالًا.

لكنهما ما إن أرادا التوجه نحو البوابة حتى تعالى الضباب فحجب عنهما الرؤية ، ثم سمعا خرير مجرى ماء يتدفق ، وانتبها إلى وجود نهر بينهما وبين باب الفندق. ولا إراديا جلسا عند

الضفة. ومدّا أيديهما إلى الماء ، غسلا وجهيهما ، ولا شعوريًا رفع كل منهما كفه المبتلة إلى عينيه ومسح عليهما ، وشيئًا فشيئًا تلاشى الضباب ، واتضح هيكل الفندق والوهاد البعيدة والجبل المشع بالنور على الرغم من الظلام الذي يعم الكون.

- انظر.. انظر.. انظر إلى تلك النجوم الأربع التي تلألأت فجأة..! قال الرائد آدم عبدالسميع.

- نعم.. نعم.. هذه النجوم تلألأت الآن.. وبشكل مفاجئ.. رد المستشار آدم السيد.

كان عليهما عبور النهر كي يصلا باب الفندق الذي صار على الضفة المقابلة ، وانتبها إلى أن ضفتي النهر أخذتا تقتربان من بعضهما حتى صار النهر جدولًا يمكن عبوره بسهولة ، لكنهما انتبها إلى أن هناك ثلاثة حيوانات مفترسة تربض في الجهة المقابلة أمام باب الفندق مع أن الضباب كان يغطي القسم الأسفل من الأفق. ارتعبا. كان ثمة أسد رابض بجلسته الملكية ، ويحوم حوله فهد مرقط وعلى مقربة منهما وكأنها منبوذة ثمة ذئبة متهيجة وكأنها تنوي القفز عليهما. كانت وجوه الحيوانات الثلاثة مضيئة وواضحة لهما. وحين انقشع الضباب نهائيًا اختفت الحيوانات الثلاثة واختفى النهر ، بل اختفى الجدول.

سارا نحو باب فندق باب السماء والرهبة تهز جسديهما.

ما إن وصلا باب الفندق حتى فُتح الباب أوتوماتيكيًا. ومنذ الخطوة الأولى لهما داخل الفندق شعرا بالارتباك والتشتت لوحشة المكان.. وكأنما دخلا إلى عالم ثان.

وجدا نفسيهما في صالة أشبه بصالات القرون الوسطى.. لكنها معاصرة ومؤثثة بطاقم من الصوفات والمقاعد والأرائك الجلدية بيضاء اللون. بدت الصالة وكأنها مكتب للاستعلامات وللاستقبال ، والصالة تقود إلى دهليز طويل لا ترى له نهاية.

على الجدار خريطة واضحة للمبنى الذي بدا من الشارع العام بطابق واحد لكن الرسم هنا يوضح بأنه يتألف من طابقين أو ممرين يقودان عبر جسر زجاجي مغلق من جميع جوانبه ، ويقود إلى مبنى من سبعة طوابق. وكان في أعلى الجدار ساعة جدارية دائرية كبيرة رقاص حساب الثواني والدقائق يدور للوراء عكس المعتاد..!...وهناك تقويم ورقي جميل يحوي صورة ملونة للمجرات مأخوذة من الصور التي أرسلها تلسكوب تابع لوكالة الفضاء الأميركية لكن التاريخ كان يشير بوضوح إلى العام 2021.!.. فاستغربا الأمر لكنهما لم يسألا نفسيهما لحشد الغرائب الغامضة في هذا الفندق.

وعلى جانب الصالة طاولة مكتب ولوحة إعلان عن شركة سياحية توضح مهام ووظيفة الشركة حيث كان مكتوبًا بخط عريض وباهت كانت اللوحة مليئة بالأخطاء الإملائية (وكالة الأرواح الميتة) في أسفل اللوحة كُتبت مهام هذه الوكالة السياحية: (إصدار تذاكر للسفر إلى الكواكب الأخرى – حج وعمرة في المريخ – سياحة داخلية لمجرة درب التبانة وسياحة خارجية لمجرة أندروميدا)..

كانت الصالة فارغة. كانا لا يعرفان ماذا يفعلان. وعلى الرغم من أنَّ الوقت خارج الفندق هو بعد منتصف الليل إلَّا إن أجواء الفندق تشير إلى أن الوقت نهارًا.!..

لا أحد هنا. فجأة سمعا هديرًا قويًا قادمًا من خلف مكتب الاستقبال ، فالتفتا ، فإذا بالجدار ينشق في جزء منه بحركة دائرية كاشفًا عن باب سري يلتف داخلًا إلى عمق الجدار محدثًا فجوةً وممرًا مظلمًا. ومن هناك ، من أعماق المكان خلف الجدار خرجتْ فتاة في منتصف العقد الثالث ، ترتدي بنطالًا أسود وقميصًا من حرير الأسود ، تطوّق عنقها قلادة تتوسطها قطعة من العقيق الأرجواني ، وتتدلى من أذنيها أقراط من العقيق الأسود.

توجهتْ إليهما وعلى وجهها ملامح من كانت تتوقع مجيئهما. انتبها لحضورها من وراء الجدار الغامض، وقبل أن يقولا شيئًا ابتسمتْ لهما وقالت:

- أهلًا وسهلًا بكما في فندق باب السماء.. أهلًا بك أيها المستشار د. آدم السيد، وأهلًا بك أيها الرائد آدم عبدالسميع.. لقد تأخرتما قليلًا.. كنا بانتظاركما!..

فوجئا. نظرا لبعضهما بعضًا بتساؤل. التفت إليها آدم السيد سائلًا:

- كيف تعرفين إننا سنتوجه إلى هذا الفندق؟ وكيف عرفتِ اسمينا؟ من أنت؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة كمن كانت تتوقع هذه الاستفسارات، على الرغم من أنها لم تنظر إليه مباشرة وإنما شغلتْ نفسها بترتيب أوراق على طاولة المكتب وقالت:

- كيف لا تعرفني وحواسك وذهنك أوجدوني؟ أنت تعرف إنني انعكاس في مرآة ذهنك.. أنا جزء من الفكرة التي في أعماقك عن الأشياء، وعن كل ما له علاقة بالدفاتر الثلاثة الغامضة!..

- لا تقولي لي إنك وهم من أوهامي.. وإنني أتخيلك بل وأجسدك أمامي..!!؟ لست ممن يؤمنون بأوهام الكهف!..

- بلى.. كل منا يعيش في كهفه بعيدًا عن الضوء.. لكل منا كهفه الذي يقبع فيه متوجسًا ويطل على العالم من فتحته!..

التفتَ آدم السيد نحو صديقه وعلى وجهه نظرة استغراب ودهشة من هذه المرأة الغامضة، وكأنه يستنجد به ليتدخل. فالتفتَ الرائد آدم عبدالسميع نحوها، تأملها لثوانٍ ثم قال مدفوعًا من غريزته الاستخباراتية:

- هل لي أن أعرف من أنت؟ ومن أين جئت؟ وكيف تعرفين إننا سنأتي إلى الفندق؟ مع أن الدكتور سألك لكنك لم تجيبي.. بل

أجبت بكلام غامض عن أوهام الكهف!..

- أنا حواء.. أنا لست أنا ، لقد كنتُ التي كنتها ، لكني الآن لست تلك التي كنتها!..

- هل هذه حزورة..؟ بلا تفلسف.. قال الرائد بنبرة فيها حزم وصرامة مكتومة.

انتبهت المرأة لنبرة صوته ، وبما أنها تعرفه أكثر مما هو يتوقع ، فقالت له بهدوء في نبرة استجابة واستسلام واسترضاء:

- ليستْ حزورة.. ولا أود التفلسف.. ما قلته صحيح جدًا.. أنا حواء التي يمكنك أن تسميني المسكينة.. عشت حياة مليئة بالحرمان.. لكنني الآن حواء أخرى.. تلك التي كنتها يمكنني أن أحدثك عنها بالتفصيل.. أما حواء التي أمامك فهي لا تعرف سوى مكانًا واحدًا ودورًا واحدًا وثوبًا واحدًا ومكتبًا واحدًا.. أنا أعرف أنك محقق جنائي ، وربما سيرضي فضولك لو حدثتك عن تلك التي كنتها..! هل تود أن أقدم لك تقريرًا عن نفسي..؟

أحس الرائد آدم عبدالسميع بالإحراج قليلًا لكن غريزته وفضوله في الاستماع إلى قصص الآخرين دفعه إلى أن يقول لا إراديا:

- لو تفضلت!

ابتسمت المرأة لأنها عرفت أن فضوله أكبر من لياقته في التعامل مع امرأة. نظرت إلى آدم السيد الذي كان حياديًا في تنصته للحوار بل وكان مندهشًا لإجابة المرأة الغامضة.. اتكأ على كاونتر مكتب الاستقبال وهو ينظر لصديقه المحقق والحوار بينه وبين تلك المرأة التي انطلقت بالحديث:

- ليس لديّ أحد.. باستثناء والدي.. فقد كان الوحيد الذي فكرتْ معه بصوت عال...كنتُ طفلةً غير مبرمجة.. لم يكن في خطط والديّ أن ينجباني ، فقد اكتفيا بما لديهما من ذرية ، لكن

أمي أصرّتْ على إنجابي. والدي أراد أن يسميني الكاهنة على اسم أميرة أمازيغية حاربت الغزاة العرب لبلادها نوميديا ، وكان قد قرأ عنها في كتب التاريخ ، لكن أمي لم تسمح بذلك فأسمتني باسم إسلامي..

أنا كنت الأصغر في العائلة.. كان لديّ أخت واحدة وأخوان. أبي كان لا أدريًا.. كان ينتقد الدين على العكس من أمي التي كانت امرأة متعبدة بتطرف.. كبرتُ في مضيق ضيق جدًا فكريًا ، ترعرعت بين قطعين صخريين يشكلان حافتين جبليتين حادتين ، التحرر والتشدد الديني الأقرب للتطرف.. لكني مع ذلك كنت منذ صغري مفضلة أبي من بين إخوتي. عشتُ طفولة رائعة لكن في سن المراهقة بدأت مشاكلي مع إخوتي.. ويمكنكما تصور ذلك.. إخوتي وأختي ومعهما أمي كانوا محافظين ومتشددين وأقرب للسلفيين المتطرفين كما قلت.. لكن مع ذلك ففي طفولتي كانت أمي تنسج لنا الملابس الصوفية ، ومنذ ذلك الوقت صارت ألوان الكرات الصوفية تشدني جدًا ، فتعلقت كثيرًا بالألوان لأني صرت في ما بعد فنانة تشكيلية ، أما أبي فكان أول مدرسة فكرية تنويرية مررت بها. كنّا نتبادل الأفكار بكل حرية ، على الرغم من الفارق في العمر بيننا. كان يحدثني كثيرًا عن العلمانية. طفولتي أجمل مرحلة عمرية عشتها. كنت بريئة. كل الألوان ألواني.. أنا ربة الألوان ، ولكل لون له طقسه لديّ ، لكل لون مكان و زمان. أحببت الألوان كلها ، ولا أستطيع التفريق بينها ، لكنني أبحث عن لون آخر لم أجده بعد ، لون لم تره عين قط..!

حين أستعيد طفولتي أشعر بالحب نحوها ، أحب طفولتي كثيرًا. أتذكر سن السادسة من عمري أول يوم دخولي للمدرسة ففي ذلك اليوم كنت في الشارع فحدث انفجار لقنبلة موقوتة لاغتيال مسؤول كبير.. لحظتها لم أرَ تفاصيل الحادث لكنني رأيت فزع الناس

وهروبهم في اتجاهات مختلفة. احتميت حينها في دكان لبيع الدخان مع امرأة حامل كانت تصرخ من آلام المخاض ، ومنذ ذلك اليوم صارت أمي لا تسمح لي بالخروج مع الأطفال. أثر في هذا الحادث لوقت معين لكنني تجاوزته بسرعة.. مرت سنوات الابتدائية والثانوية بدون ذكريات خاصة..

في سن الثامنة عشرة بدأت أتأمل جسدي.. لكني لم أشعر بالرغبة ولم أعيها ، إلّا في سن الحادية والعشرين ، لكني بقيت بعيدة عن أي انجراف جنسي جسدي حتى لو كان من باب المداعبة الذاتية.. لا مداعبات و لا قبلات ولا أحضان ، إلى لحظة مجيئي إلى هذا الفندق. آآه كم كنت أختنق ، وكم أتحسر الآن على شبابي الذي ضاع بين امتداد تأجج الرغبة من لحظة دخولي إلى النوم والتوهج عند الاستيقاظ صباحًا.. وياما كنت أستيقظ ليلًا على أثر تأوهاتي من شدة الرغبة. كنت أسمع قصصًا عن الجنس لكن تأثيرها كان حسب الراوي وأسلوبه.

علاقتي مع اللّه منقطعة. لست متعبدة لا أصلي ولا أصوم و لا أردد الأدعية لطرد الشرور. هو بالنسبة مثل صاحب هذا الفندق. نعرف أنه موجود لكن لا أحد من سكان هذا الفندق الهائل قد رآه..! لم أتزوج حتى ولو زواجًا تقليديًا فقد كانت العنوسة منتشرة والكثيرات لم يحالفهن الحظ مثلي في تكوين أسرة ، لكن لا أحد يستحق المغامرة معه للعيش دائمًا ، لكن حاجتي للرجل مرتبطة بمشاعر الحب. كنت أغرق في خيالات وأتخيل عاشقًا لي أحبه ، فكانت أنفاسي تتقطع. لا أحب المنبهات كالقهوة والشاي ، كنت أشرب علب وقناني البيرة التي كان يأتي بها إلى البيت.

أتذكر حينما توجهت أمي لأداء مناسك الحج حيث كنت أنا وأبي وحدنا في البيت مما سمح له بإحضار مشروباته الكحولية من مكتبه الموجود في حديقة البيت ووضعها في ثلاجة البيت ، فقد

كانت أمي لا تسمح بذلك ولا إخوتي. كنا نتحدث عن الدين وعن سيطرته وتحكمه في حياتنا وعن دكتاتورية الشعوب العربية.. وعلى الرغم من أن والدي كان متحررًا إلا إنه لم يسمح لي بالشرب، لكني كما قلت كنت أسرق بعض علب البيرة وأشربها في الحمام، واستلقي على الأرضية، وأتمرغ كالمجنونة، بعدها استحم وأذهب إلى غرفتي لكي لا يتنبه لي.

كانت أيامًا جميلة جدًا. أما عن السجائر فلا أحبها. أنا أجيد الطبخ، فهو بالنسبة لي فن وتاريخ وأصالة، أبحر فيه كلما دخلت المطبخ. الغريب هنا في هذا الفندق لا يوجد مطبخ، و كان أبي يمتدح طبخي ويغرقني بإطراءاته الجميلة، وهذا ما كان يحرك غيرة أمي وأختي. كانت لدي معاناة مع غيرة أمي وأختي. حتى أختي التي تزوجت ورحلت إلى مدينة أخرى كانت تتآمر مع أمي وتحرضها ضدي.

في تلك اللحظات تعالى صراخ قادم من أعماق الفندق.. صوت هائل لامرأة تنوح نواحًا مأتميًا. ارتبكتْ موظفة الاستعلامات، كما تشتتَ انتباه آدم السيد والرائد آدم عبدالسميع عن متابعة ما تقوله الموظفة عن نفسها، والتفتا إلى جهة الصوت، بل همّ الرائد بالتوجه نحو جهة الصوت ليعرف ما الذي يجري.. لكن الصرخة النائحة اختفت فجأة، فقالت المرأة:

- هذه إيفا اليونانية..
- إيفا اليونانية؟ سأل آدم السيد.
- نعم.. تلك التي عشقت ابن زوجها!..
- أتقصدين تلك المرأة التعيسة التي انتحرت واتهمت ابن زوجها بالاعتداء عليها لأنه رفض حبها؟!

نظرت موظفة الاستقبال إليه بدهشة وقالت:

- نعم.. نعم.. هل تعرفها..؟

التفتَ الرائد آدم عبد السميع إلى صديقه ونظر إليه نظرة إعجاب ، بينما أجاب آدم السيد الموظفة قائلا:

- نعم.. نعم.. لكن سفينة زوجها شغلتني كثيرًا ، أكثر مما شغلتني حكايتها..

فسألت بدهشة وبنبرة فيها تلهف:

- حكايتها تستحق المعرفة بها.. لكن هل تعرف قصة السفينة وسؤالها الفلسفي أيضًا..؟

- نعم.. في وقت ما فكرتُ بذلك السؤال..

- وما رأيك.. هل بقيت السفينة نفسها؟ أيهما سفينة الملك..؟ تلك التي تم تبديل كل مفاصلها قطعة قطعة ، أم السفينة التي أعيد بناؤها من القطع القديمة بالكامل؟

كان الرائد متوترًا وسأل بفضول:

- عن أية سفينة تتحدثان..؟

التفت آدم السيد إليه وقال موضحًا:

- هي سفينة أحد الملوك الأسطوريين في اليونان القديمة ، قتل وحشًا أسطوريًا بعين واحدة اسمه مينوتور ، وحين عاد من رحلته كان خشب سفينته قد تآكل فقام الناس بتغيير قطع السفينة كلها ، لكن هناك من أخذ القطع القديمة وعالج تآكلها وأعاد بناء السفينة من جديد ، لذلك صارت لدينا سفينتان ، فأيهما سفينة الملك. الأولى التي تم تجديدها قطعة قطعة بالكامل أم الثانية التي تم إعادة ترميمها وتركيبها من جديد بالكامل وبالقطع القديمة نفسها..؟

- هذا سؤال غامض..! قال الرائد

كررت موظفة الاستقبال سؤالها لآدم السيد:

- وماذا تقول حضرتك أستاذ آدم..

أحس آدم السيد ببعض الحرج والارتباك ثم قال:

- هذه معضلة كبرى وفيها وجهات نظر.. شخصيًا لا رأي لي في الأمر ، فكل الآراء نسبية. السفينة الجديدة التي بنيت من القطع القديمة هي السفينة نفسها وكأنها مستنسخة. فالنهر واحد لكن الماء يجري وليس هو الماء نفسه. هنا جانب عبثي في الحكاية كلها ، فلقد تم تجديد السفينة لأنها متآكلة وغير صالحة للإبحار ، وتم تبديل جميع قطعها. أجسادنا هي سفننا المبحرة في بحر الحياة الصاخب ، أجسادنا تتغير أيضا ونحن نتغير أيضا لكننا نبقى نحن..

هويتنا وأسماؤنا تبقى نفسها.. لو تم تبديل بعض القطع لبقيت السفينة نفسها ، لكن تبديلها كليا لا يبقيها نفسها.. هنا الأمر لا يكمن في معضلة السفينة الجديدة ، إنما في السفينة القديمة التي بنيت وتم تشكيلها بالكامل مجددًا بالقطع القديمة.. هذا الأمر ألغى ضرورة تبديلها أصلا وكشف عن عبثية السؤال المنطقي السوفسطائي!

ارتسمت ملامح التفكر على وجه موظفة الاستقبال وقالت بنبرة فيها بعض الإحباط والاستسلام:

- نعم.. هذا عبث.. لكن إذا كان الأمر كذلك ، فهل تبقى أنت نفسك عندما تفقد ذاكرتك..؟

لم يكن آدم السيد يتوقع من الموظفة الشابة هذا السؤال وهم في مثل هذا الوضع الغامض ، لكنه وجد نفسه يجيب:

- فاقد الذاكرة ليس هو ذاته. هو إنسان بلا هوية ، هويته في معرفة الآخرين له. حتى نحن أنفسنا لا نعرف أنفسنا ، نحن نعرف وعينا أو كما يقال أنانا. كل منا بعد جهد جهيد ومطالعات وتجارب وإعمال الفكر يستطيع أن يتعرف على أناه ، أناه فقط وليس ذاته ، لكننا نكابر ونشط ونتحدث عن ذواتنا ، ذواتنا التي هي الجزء الكبر من جبل الثلج الغاطس تحت سطح البحر!..

في تلك اللحظة انطلقت صراخات مأتمية متلاحقة من أعماق الممر المجاور. همّ الرائد بالتوجه نحو الممر ، لكنه ظل في مكانه ولم يتحرك ، وإنما استدار إلى صديقه آدم السيد ومن ثم لموظفة الاستعلامات ، وسأل وكأنه بطريقة وكأنه يلقي السؤال على كليهما:

– لكن من جاء بهذه المرأة إلى هنا؟ كيف لواحدة يونانية كانت تعيش قبل آلاف السنين أن تكون هنا في هذا الفندق وفي زماننا؟

تنقلت الموظفة بنظراتها بينهما ثم قالت:

– ألا تنظران إلى الساعة على الجدار هناك؟ هنا دورة الزمان مختلفة؟ خارج الفندق زمان وداخل الفندق زمان آخر..! ألم تنتبها إلى الوقت داخل الفندق بأنه نهار وخارجه ليل..! وإننا في العام 2021 بينما كنتما في خطوة خارج الفندق في العام 2010..! يفترض إنكما تعرفان بأن فندق باب السماء خارج دورة الزمان والمكان!..

نظر آدم السيد إلى صديقه الرائد بدهشة غير مصدق ما يسمع واعتبر الأمر سوء فهم لا أكثر أو أمر البحث فيه سيجرهما بعيدًا عن الهدف من مجيئهما ، لذا التفت إلى موظفة الاستعلامات قائلا:

– نحن جئنا ولدينا مهمتان أولًا: كلانا يبحث عن شخص اسمه آدم الحديدي لدغته كوبرا ويفترض أنه نزيل لديكم كما أخبرنا ، وثانيا: جئنا لنعرف قصة الأجنبي الذي وُجدتْ جثته في هذا الفندق.. والذي اتضح إنه يحمل أسماء مختلفة!..

نظرت الموظفة إليهما باستغراب وقالت:

– صحيح إننا كنا ننتظركما لأن اسميكما في سجل الحجز هنا ، لكن لم تخبرني مديرتي بأنكما ستأتيان للبحث عن قاتل ، وعن خبر كاذب عن وجود جثة لأجنبي في الفندق!..

– كاذب.. قال الرائد بغضب لم يستطع أن يكتم نبرة الحنق

التي في صوته.

- نعم.. خبر كاذب.. إذ لا توجد جثة أصلًا.. ولم يمت هنا أحد.. كما لا يوجد نزيل لدينا اسمه آدم الحديدي ملدوغًا بأفعى ، فهنا مطهر الخطايا المقدسة..

- مطهر الخطايا.. الخطايا المقدسة؟

- نعم.. هنا مطهر خطايا البشر.. البشر الذين يخلقون آلهتهم وأصنامهم ثم ينفونها ويهشمونها..! لكن لأسأل مديرتي عن سبب مجيئكما إلى فندقنا.. وأعود إليكما..

ولم تنظر الموظفة ما سيقولان ولم تعر اهتمامًا لرد فعلهما واندهاشهما لتصرفها ، إذ أنها استدارت ودخلت في الفتحة الموجودة في الجدار الذي أنغلق على نفسه ، واستوى كجدار اعتيادي. واختفت الموظفة وكأنها لم تكن موجودة قط.

بقيا وحدهما. التفت الرائد ناحية باب الفندق ولمح العتمة التي تجلل الكون في الخارج بينما الباحة التي تقابل الممرات الداخلية تضيء بنور النهار. ، وقال وكأنه يحدث نفسه:

- لكنها لم تكمل حكايتها ولم نعرف لماذا هي هنا؟

لم يجبه آدم السيد إذ ظل كل منهما منشغلًا مع أفكاره ودهشته بانتظار موظفة الاستعلامات ، لكنها لم تأت..! مرّ وقت طويل وهما ينتظران ، إلى أن شعر الرائد آدم عبدالسميع بدبيب الغضب يتسرب إلى نفسه ، فقال لصديقه:

- يبدو إنها نستنا هنا؟ ثم ما السر وراء انشقاق الجدار؟ من هناك وراء الجدار الغامض؟

كان آدم السيد منشغلًا مع نفسه ، لكنه انتبه لما قاله صديقه ، فقال مؤيدًا:

- إننا فعلًا في مكان غامض وخارج الزمان والمكان الذي نعرفه.. لذا لا تستغرب كل ما تراه وتسمعه في فندق باب السماء..!

لكن لماذا قالت الموظفة بأن هذا المكان هو مطهر الخطايا المقدسة؟

- لا أدري.. أنا مثلك لم أفهم ما تقصده؟

صمت آدم السيد للحظة ، وبدا وكأنه كان يحاور نفسه ، ثم قال لصديقه:

- ألا تعتقد بأن كل شيء غامض هنا؟ وربما نحن أمام أوهام تتجلى لنا ثم تلقينا ثانية في الوهم؟

فكر الرائد لثوانٍ في كلام صديقه ثم قال مؤيدًا:

- يبدو ذلك حقًا؟

صمتا للحظة ، فواصل الرائد آدم عبدالسميع:

- دعنا نذهب لنفتش عن قاتلنا آدم الحديدي وعن جثة الأجنبي ، لكن كما يبدو ليس من السهل أن نعثر عليهما.. فهنا أمامنا ممرات وطوابق تسعة.. دعنا نفتش بأنفسنا!..

- نعم أنت محق..

في تلك اللحظة سمعا هديرًا قادمًا من أعماق مكتب الاستعلامات ، وشاهدا كيف انشق الجدار وتحرك بشكل دائري إلى الداخل لتخرج من أعماق العتمة خلف الجدار امرأة أنيقة خمّن كلاهما بأنها المديرة.

أقبلت المرأة وعلى وجهها ابتسامة ترحيب وقالت لهما باهتمام:

- أهلًا بكما.. كنا بانتظاركما.. البرقية التي وصلتنا لتبلغنا عن وصولكما لم تؤكد على مدة الحجز لكما.. وهذا ما وضعنا في إحراج حقيقي.. فالفندق مكتظ . وفي مثل حالتكما نفهم منها إنكما معلقان بين الفندق والحياة خارجه.

- برقية وصلتكم..! من أرسلها؟

نظرت المرأة إليهما بارتباك لجهلهما بالمرسل الذي يفترض أنهما يعرفانه ، فقالت بدهشة واضحة:

- كيف لا تعرفانه..؟ إنه آدم الحديدي الذي كان نزيلًا عندنا ، لكن لا أعرف سبب تغيبه ، بيد أنه أرسل برقية ليخبرنا بوصلكما ، بيد أن الفندق له خصوصية ربما لم تتوقعانها ، فهو مكتظ بحواءات وأوادم انتقلوا إليه من فندق كان قائما على مقربة من بركان ، وتفجر البركان ولم يتم إنقاذ سوى هذه المجموعة الذين جاءوا بهم إلى هذا الفندق ليبقوا فترة إلى أن يحين موعد رحليهم بإيجاد مكان لهم في الفندق الذي بني فوق قمة جبل ، الغيوم تضلل منتصفه.

- الحقيقة نحن جئنا بحثا عن آدم الحديدي الذي تقولين حضرتك هو من أرسل إليكم البرقية ، وكذلك لمعرفة قصة جثة الأجنبي التي وجدت في الفندق! قال الرائد آدم عبدالسميع.

نظرت المرأة إليهما باستغراب بل واشتبهت بهما ، وفكرت مع نفسها: «لربما ليس هما».. لذا سألت مستفسرة:

- ألستما المستشار آدم السيد والرائد آدم عبد السميع؟

- نعم.. قال آدم السيد.

- إذن.. ما قصة جثة الأجنبي التي تحدثتما عنها؟ ليست لدينا أية جثة ولا أي أجنبي في هذا الفندق ، لا معنى لكلمة الأجنبي ، كلنا من هذه الأرض وإليها ننتمي..! هذا الفندق مكتظ بالخطاة ، بملائكة الجحيم لو أردنا تشبيههم حقا..! وهم من كل العصور..! من تفكر به ستجده هنا..!. قالت المرأة.

- لكن كيف لا توجد جثة؟ وما معنى كلامك هذا.. أيتها السيدة..! قال الرائد متعجبًا.

- أنا السيدة حواء الرحماني مديرة مكتب الاستعلامات في فندق باب السماء!

- تشرفنا.. تمتم آدم السيد..

نظرت لآدم السيد وابتسمت له ابتسامة طيبة لأنها أعلنت

عن لباقة ولياقة عندما ذكرت اسمها ، بينما ظل الرائد صامتًا ، منتظرًا توضيحها على سؤاله ، فالتفت له قائلة:

– هكذا ببساطة.. لا توجد لدينا أية جثة؟

نظر الصديقان لبعضهما بعضا باستغراب ، بيد أن آدم السيد أراد معرفة الوضع بشكل أوضح ، فسأل:

– ثمة شيء غير مفهوم هنا؟ فربما حدث خطأ ما؟ أولا بالإبلاغ عن مجيئنا من خلال برقية شخصية مجهولة بالنسبة لنا.. ثم قولك بأنه لا مكان لنا هنا مع أننا لم نفكر بالمكوث والمبيت في الفندق؟ ثم فضول آخر يراودنا ، فهل لك أن تكشفي لنا السر وراء امتلاء هذا الفندق بالخطاة.. بملائكة الجحيم..!؟

صمتا للحظات. نظرت هي إليهما وقالت بنبرة واضحة قائلة:

– إن البشر قبل أن يدخلوا إلى هذا الفندق لا يستطيعون الخلاص من تاريخ أجسادهم.. وأقصد من مملكة الحيوان التي انحدروا منها.. الإنسان ليس ملاكًا كما تعتقدان أيها السيدان ، لا وليس مقدسًا..! لينظر أعظم العظماء لنفسه ، لينظر الرجال ممن يعتقدون بقداستهم ، والزعماء ، وأجمل الجميلات ، بل وكل البشر ، لأنفسهم وهم يقعون ليتغوطوا ، حينها سيعرفون قيمتهم و ليتحدثوا بعد ذلك عن العظمة والجمال.. والمقدّس..؟

لو كان آدم وحواء قد بقيا في الفردوس لحولاها إلى مرحاض كبير..! بل هم هنا ، هنا في مطهر الخطايا يعترفون بخطاياهم ، وجاءوا إلى هنا ليتطهروا منها ، ومع ذلك فحنينهم لخطاياهم قوي ومندفع على الرغم من إن الندم والتعطش للغفران هو الذي دفعهم إلى ها هنا..! البشر ملائكة سقطت في الجحيم أو شياطين تحاول السمو لتكون ملائكة..! من نُقل إلى هذا الفندق كان من سكان الجحيم الأبدي الذي بلا أمل ، لكن مستهم ريشة رحمة القدير فصار لديهم أمل ما ، إنه مطهر الخطايا المقدسة ،

المعاناة والعذاب يطهرهم ..والانتظار.

انطلقت من فم الرائد آدم عبدالسميع تمتمة:

- ماذا؟

لكن حواء الرحماني لم تعره اهتمامًا فواصلت:

- الإنسان حيوان جميل ، بل هو سوبر حيوان أيها السيدان! كائن بايولوجي لا يختلف كثيرًا في وظائفه البيولوجية عن الحيوان! فما موجود في أحشاء الحيوان موجود في الإنسان.. وفسلجة جسد الحيوان قريبة جدًا من فسلجة جسم الإنسان..! بل حتى بعض إناث الحيوانات تحيض..!

انظر للحيوانات المتطورة نوعًا ما كالأبقار والجياد والفيلة والأسود والغزلان والقرود والخنازير ، ثم تأملها جيدًا فهي مهووسة بالأكل لتنتهي بالتبرز والتغوط..! مثل البشر.. فمليارات البشر في الواقع ليس لديها سوى الأكل والتغوط..! والجنس طبعًا..! بل الإنسان من الناحية الأخلاقية أدنى من الحيوان ، وأكثر طمعًا ونهمًا وجشعًا من الحيوان.. فالحيوان يكتفي بالشبع ، ولا يهجم إلا عند الجوع ، بينما الإنسان حيوان لا يشبع..! بل الحيوانات أفضل من البشر لأنها لا تكذب ولا تنافق ولا تضع الأقنعة..!

لا أجرؤ أن أقودكما في هذا الطابق الذي تصلكم صرخات ساكنيه..! هناك سبعة طوابق من غير هذين الممرين.. إنه مطهر الخطايا.. إنه الجحيم السعيد..! لقد جئتما من مملكة الموتى الأحياء.. أليس كذلك؟

نظر المستشار آدم السيد والرائد آدم عبد السميع لبعضهما بعضا ، وتمتما في وقت واحد تقريبا:

-نعم.. وما دام آدم الحديدي غير موجود في الفندق فنحن نريد البحث عن جثة الغريب الذي وجد ميتا في فندقكم.. فندق باب السماء!..

ارتبكت حواء الرحماني وقالت مستغربة إصرارهما على وجود جثة في الفندق وقالت:

– لنترك حكاية الجثة جانبًا.. فلا جثة هنا ولا موت حتى..! هنا الباب إلى المطهر..

شعر الصديقان بالارتباك من تأكيد المديرة على عدم وجود جثة. استغلت المديرة حيرتهما المرتسمة على وجهيهما ، وقالت وهي تشير إلى الممر المقابل:

– ذاك ممر أحزان النساء التعيسات. لا تخافوا منهن ، لا يؤذين أحدًا ، لكنهن تعيسات..! أتمنى لكما رحلة خالية من الأحزان!..

قالت ذلك ومن دون أن تنتظر ردة فعلهما أو أي جواب منهما توجهت نحو الجدار الذي انشق عن فجوة مظلمة. دخلت في الظلمة واستدار الجدار سويًا.

انتبها إلى غيابها المفاجئ. نظرا إلى بعضهما بعضا بارتباك ، لكن نظراتهما اتفقتا على الدخول إلى ممر النساء التعيسات.

الفصل الثاني
إيفا ماجدولينا ..

في اللحظة التي قرّر فيها الصديقان أن يتوجها نحو الممر المقابل لهما ، « ممر النساء التعيسات »كما سمّته مديرة مكتب الاستعلامات ، فُتح الباب الخارجي للفندق ودخلتْ امرأة ناصعة البياض.. وبشعر أسود داكن ، وبدت في العشرين أو في بداية العشرينات.

منذ اللحظة الأولى التي رآها آدم السيد أحس بأنه ثمة قوة جاذبة جرته إليها. ارتعش قلبه لرؤيتها ، لكنه لا يعرف لماذا أحس بأنه ثمة خطأ ما في أمر وجودها هنا ، فربما لم تكن هذه وجهتها.

حين رآها شعر بشكل غامض بأنه قد التقاها في زمن ما ، زمن سحيق قبل آلاف السنين ، وحينها لم يكن اسمه فيه آدم السيد..!

نعم.. نعم.. هذا ما يشعر به..» لا.. لا.. أنا مجنون..! كيف لي أن أفكر هكذا؟ لكن ثمة أصوات متداخلة في أعماقي تؤكد لي بأنني كنت أعيش في زمن آخر ، مت ، ثم عدت مجددًا ، ولم يكن اسمي فيه آدم السيد أيضًا ، لا.. لا.. ما هذا الهذيان ياآدم السيد.. تأثير الفلسفة الهندية ، الهندوسية والبوذية ، وطقوس الدروز وعقائدهم ، ومسألة التناسخ أكلت مخك..!!..أتعتقد حقا إنك كنت حيًا في زمن ما ، وتناسخت عبر العصور؟ اهدأ ياآدم.. لكن من هي هذه المرأة بريئة الملامح وفائقة الحسن ؟ .

كان منجذبًا لها بشكلٍ مسحور ، تشده رغبة قوية في أن يتعرف عليها ، فهو متأكد من أنه يعرفها وقد رآها في مكان ما.

كانت تلبس بنطالًا من الجينز الأزرق وعليه بلوزة بنية وتلقي

بخصلة كبيرة من شعرها على جانب كتفها الأيسر. بينما تختفي قدماها في حذاء رياضي يزيد من طولها مع أنها متوسطة القامة بل تميل إلى الطول. تنبه إلى جمال صدرها ونهديها ورقة عنقها التي ذكّرته بالغزلان.

لا يعرف لماذا شعر بتدفق جارف من الحنين إليها. وسأل نفسه وهو منشغل بتأملها: «أمن المعقول أن ترى شخصًا لأول مرة بل ولأول نظرة وتحس نحوه بكل هذا الحنين الذي يرتعش له القلب، وتترقرق الدموع في المآقي؟ من هي هذه الغزالة، و من جاء بها إلى «فندق باب السماء»؟ أمن المعقول أنها كانت في الجحيم الأرضي؟ ومع كل هذه الاحتمالات، أشعر بقوة بأنني أعرفها، وأنني رأيتها في مكان وزمان آخر».

بدتّ المرأة مرتبكة وشاردة النظرات. كأنها تبحث عن شيء مجهول. كانت نظراتها بريئة، غامضة، مليئة بالتساؤلات والخوف الغريزي، وشفتاها ممتلئتين طغى عليهما اللون الوردي، وأهدابها سود تم تلوينهما بقلم كحل خفيف لكن كثيف السواد، ما يشير إلى تناقض ما بين براءة نظراتها وحسية شفتيها.

ارتبك الصديقان وتريثا للحظات، وفي نفس كل منهما رغبة في أن يمتع نظره بجمال هذه المرأة الجميلة، مثلما راودهما فضول لمعرفة سر مجيئها لفندق باب السماء في مثل هذه الساعة من الليل.

ارتبكتّ المرأة وبدتّ الدهشةُ واضحة على ملامحها ونظراتها، إذ يبدو أنها فوجئت حين رأت الرجلين، لأنها تسمّرت بعد خطوة من دخولها الفندق، وبقيت للحظات صامتة لا تعرف ماذا تفعل. ولا إراديًا ألقت التحية عليهما بتهذيب وبصوت طفولي جدًا يكاد لا يتناسب مع هيئتها، وبنبرة تشبه الهمس، وكأنما طفل يبدأ بالكلمات ويصوغ الجمل.. قالت:

- مساء الخير.. أو ليلة طيبة!..
- أهلًا وسهلًا بك!..
- أعتذر عن ارتباكي.. لقد فوجئت بحضرتكما...إنني.. إنني..

كان ارتباكها واضحًا. بل من شدّة ارتباكها أرادت أن تغادر الفندق ، فهي لا تزال قرب باب الخروج ، فهي ليست من نزلاء الفندق وجاءت إليه بشكل عابر.

- هل نستطيع أن نساعدك؟ قال آدم السيد وكأنه كان يريد أن ينقذها من ارتباكها.
- لا أدري..! قالت المرأة ببراءة.
- كيف لا تدرين..؟

صمتت المرأة المرتبكة للحظات ثم تمتمت:

- نعم.. لا أدري..
- هل تدرين إنك في فندق باب السماء؟ ولا يوجد أي مطعم في الفندق إذا كنت تقصدينه ، كما ليس هنا مقصف تقام الحفلات فيه ، بل ولا غرف فيه للنوم..! اسمه فندق باب السماء لكنه ليس فندقًا كما يُفهم من اسمه.
- نعم.. أعرف إنه «فندق باب السماء».. ولم أجيء إلى أية حفلة أو مطعم..! تمتمت المرأة بصوتها الخفيض.

كانت اللحظات مشحونة لكنها تغري بالحديث ، فقال لها آدم السيد بحيوية وكأن صاحبه الرائد آدم عبدالسميع غير موجود:

- تفضلي اجلسي للحظات هنا ، وستأتي موظفة الاستقبال.

شعرت المرأة بالأمان قليلًا من النبرة الواثقة والهادئة التي استشفتها في صوت آدم السيد فتقدمت قليلًا .. وسألت وهي تشير إلى المقاعد الجلدية البيضاء على الجانب:

- هل يمكنني أن أجلس فأنا أحس بالتعب قليلًا..؟
- طبعًا طبعًا.. خذي راحتك... قال آدم السيد..

جلستْ المرأة على مقعد في الجهة المقابلة لمكتب الاستعلامات ، بينما ظل الرجلان ينظران إليها من دون أن يتعجلا الذهاب إلى «ممر النساء التعيسات.“

– هل أُرسلتِ إلى هنا أم جئتِ طواعية..؟ سأل آدم السيد.

– لا.. جئتُ طواعية أو في الحقيقة وجدتُ نفسي أمامَ الفندق وقلت لأدخله فأنا أجدني مأخوذة بقوة قدرية ، وكأنه المكان الذي تصبو إليه روحي! قالت المرأة بصوتٍ طفولي.

شعر آدم السيد بالشفقة على هذه المرأة التي بدتْ له تائهة النظرات ، بينما إحساسه يؤكد له بأنه يعرفها ، فسألها:

– هل أنت متأكدة من أنك تقصدين فندق باب السماء..؟

نظرت المرأة إليه بعينين واسعتين مليئتين بالبراءة وقالت بصوت مرتبك ومتردد:

– نعم.. أعرف إن هذا هو فندق باب السماء..

– أو هو «مطهر الخطايا المقدسة»..! قال آدم السيد بهدوء وكأنه لا يريد أن يفزعها وأنما ليوضح لها.

فوجئت المرأة. نظرتْ إليهما نظرة حائرة لكنها خصّت ، لاشعوريًا ، آدم السيد بنظرة طيبة وآمنة ، إذ شعرت بالأمان من أول نظرة ألقتها عليه ، وقالت:

– أعرف ذلك.. لدي أسبابي التي دفعتني للمجيء إلى هنا.. أولها إنني جئت أتطهر من خطيئتي المقدسة..

نظر آدم السيد إلى صديقه الرائد وكأنه انتبه إلى وجوده فجأة ، لكنه لم يقل شيئًا ، وأنما التفت ثانية إلى المرأة التي شعر بالارتياح لوجودها ، فتقدم منها خطوة وسأل وعلى وجهه ابتسامة طيبة:

- وما خطيئتك أيتها الطيبة.. أجمالك هو سبب خطاياك..؟
- خطيئتي إنني لا أعرف نفسي. لقد ضيعتها في دروب

الحياة المظلمة! أحس إنني تائهة ، لا أعرف شيئًا عن جدوى وجودي ، أريد أن أعرف نفسي.. من أنا؟ وهناك سبب آخر ، إنني جئت أبحث عن ..

لم تكمل المرأة جملتها التوضيحية ، إذ في تلك اللحظة انشق الجدار وسُمع هدير عال ، وأطلت مديرة مكتب الاستقبال حواء الرحماني التي فوجئت بوجود المرأة الغامضة ، فتوجهت إليها سائلة بلطف:

- من أنت أيتها المرأة الجميلة؟ وما الذي جاء بك إلى فندق باب السماء..؟ أية عاصفة عاتية دفعتك إلى هنا؟

وقفت المرأة ما أن شاهدت مديرة المكتب ، وقالت بارتباك من دون أن تتقدم إليها:

- أنا إيفا .. إيفا ماجدولينا..

نظرت المديرة في قوائم أمامها ثم قالت:

- إيفا ماجدولينا.. إيفا ماجدولينا.. اسمك ليس موجدًا لدينا.. لكن ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- جئتُ أبحث عن نفسي التائهة.. كما جئت أبحث عن..؟

قاطعتها المديرة وهي تنظر إليها بدهشة ممزوجة بشفقة خفية قائلة:

- أجئت تبحثين عن نفسك التائهة؟

- نعم.. وقيل إنني يمكن أن أجدها هنا في فندق باب السماء!

فقاطعتها المديرة مرة أخرى:

- هنا أيتها المرأة الجميلة «مطهر الخطايا المقدسة» ، هنا «الجحيم المتوج بالأمل» ، هنا قصر المرايا.. مرايا النسيان.. هنا ممر الأحزان ، هنا مستقر الأرواح الضائعة!..هنا من مستهم ريشة الرحمة وغفران القدير.

كان لكلام مديرة مكتب الاستقبال تأثير واضح على المرأة التي اسمها إيفا ماجدولينا التي قالت بثقة ممزوجة بتردد:

- أحدس إن فندق باب السماء هو منزل الأرواح التائهة..! ومع ذلك ربما أنا موجودة هنا ولا أعرف ذلك؟ أريد أن أعرف من أنا ، كما جئت لأمر آخر..

كان الصديقان يسمعان الحوار ، ولكن كلما تواصل الحوار بين المرأتين تدفق شعور في أعماق آدم السيد وإحساس بأنه يعرف هذه المرأة لكنه لا يستطيع أن يستحضر زمان ومكان رؤيته لها.

في تلك اللحظة نظرت المديرة إلى الرجلين وقالت:

- هذان السيدان أحدهما محقق جنائي وهو الرائد آدم عبدالسميع والآخر أستاذ ومستشار في علم الخطوط هو الدكتور آدم السيد.. وهما هنا للتحقق في أمر ما.. ربما يستطيعان أن يساعداك في البحث عن نفسك ، وعن أي شي آخر تبحثين عنه..!..

رنّ جرس من هاتف على طاولة المكتب فارتبكتْ المديرة ، وتوجهت إلى أعماق المكتب ليُفتح الجدار ولتختفي خلفه ، بينما ارتسم الارتباك والخوف الخفي على وجه إيفا ماجدولينا ، التي لم تفهم كيف انشق الجدار بحركة دائرية. وتذكرت فيلما عن الفتى البغدادي والأربعين حرامي وتتبعه لهم إلى مغارة الكنز وكلمة السر:» افتح ياسمسم...«

بعد لحظات توجهت إيفا ماجدولينا لتجلس ثانية على مقعدها. انشغلتْ للحظات مع نفسها وكأنها تستجمع قوتها ، لذا سرعان ما غادر الارتباك والخوف ملامحها. رفعت رأسها إليهما ، ثم خصّت آدم السيد بنظرتها البريئة المتسائلة وقالت بصوتها الطفولي:

- سأكون ممتنة لو ساعدتني على أن أجد نفسي أولا وأيضًا في بحثي الآخر!..

- سيسعدني ذلك.. قال آدم السيد مبتسمًا. من دون أن يدعها تستكمل جملتها.

في تلك اللحظة سُمع هدير رعد يأتي من خارج بوابة الفندق. التفت الجميع نحو البوابة ، بينما علّق الرائد قائلًا:

- رعد وبرق وظلام يهيمن على ليل بغداد.. ليل مخيف.

- نعم. تركت بغداد ورائي وهي في ظلام دامس مخيف!..قالت المرأة.

- ليس الظلام في هيمنة العتمة فقط ، فأحيانًا يهيمن الظلام في الظهيرة أيضًا ، وظلام العراق والمنطقة إنما هو ظلام في الظهيرة الحارقة. نحن نعيش في الظلام منذ قرون.. ظلامنا كثيف برغم الظهيرة ، وبرغم ضوء شمس الحقيقة الساطع. عقّب آدم السيد.

شعرت إيفا ماجدولينا بشيء غريب يراودها وكأنما غيوم سود تنقشع من سمائها ، فهذا الرجل يتكلم بلغة لا تفهمها لكنها تشعر أيضًا بأنها تفهم ما يريد قوله وتشعر بأن ما يقوله قد سمعته من قبل.

انتبه آدم السيد لملامحها الجميلة الساكنة التي تشير لانشغالها بتفكير داخلي ، ولنظراتها التي تخفي خوفًا باردًا من الرجال. ومع ذلك أحس بميل شديد نحوها على الرغم من فارق السن الكبير بينهما ، فقد رقّ قلبه لها ، وانجذب بقوة لبراءتها ، وأحس أنها تذكره بشخصٍ ما في زمان ومكان ما ، تذكره بحياة سابقة ، فاقترب قليلًا منها وسألها بأدب واحترام:

- هل لي أن أجلس؟

نظرتْ إليه بتوجس خفي ، لكن راقها تعامله المحترم معها ، فقالت له بلطف أيضًا:

- تفضل. هو مكان عام يخص الفندق..

جلس على طرف الأريكية التي تسع لثلاثة أشخاص. بقي الرائد آدم عبدالسميع واقفًا ، واستغرب أن صديقه تناسى المهمة وجلس مع المرأة ليتبادل الحديث معها ، فعبّر عن ضيقه المكتوم وقال:

- أنا سأجري جولة استطلاعية في المكان وأرجع إليك ، عندها سنذهب معًا.

أحس آدم السيد لثوانٍ بالإحراج ، لكن ما أن غادر صديقه حتى شعر بالارتياح الخفي والغامض الذي لا يعرف سرّه حتى تلك اللحظة لمغادرة صديقة المكان.

كانت إيفا ماجدولينا في حيرة خفية ، لكنها كانت أيضا تشعر بالأمان لوجود آدم السيد قربها ، فالمكان يبعث على الرهبة ، ولم يبق في صالة الاستقبال غيرهما. ولأنها لا تعرف ماذا تفعل فقد بادرتْ بسؤاله بصوتها الطفولي:

- هل من الممكن أن توضح لي إلى أين ذهبت المديرة ، وكيف انشق الحائط لتدخل فيه؟

صمت آدم السيد للحظات ، إذ كان منشغلًا في التوغل بذاكرته عسى أن يتذكر أين رآها وفي أي زمان ومكان ، لكنه تنبه لسؤالها ، فقال لها:

- لا تسألي كثيرًا ما دمتِ في فندق باب السماء ، فهنا كل شيء معقول وغير معقول ، منطقي وخارج على قوانين المنطق ، مرئي ولا مرئي ، واقعي وخارج قوانين الواقع. عليك الاعتياد على ذلك!..

كانت المرأة تنظر إلى وجهه وكأنها تلتهم كلماته وفي الوقت نفسه تحاول أن تستعيد بمن يذكرها هذا الرجل ، وما إن انتهى من جملته الأخيرة حتى سألته ببساطة ونبرة فيها تساؤل حزين:

- إذن كيف سأعثر على نفسي؟ كيف سأجد إيفا ماجدولينا

الأخرى التي كنتها.. وأين أجد..؟

فقاطعها سائلًا:

- من أين جاءك هذا اللقب؟

وللمرة الأولى ارتسمت ابتسامة بريئة على وجهها وقالت:

- إيفا ماجدولينا هي نسخة من ماريا ماجدولينا.. المجدلية.. وربما أيضا هذا اللقب يجسد بلائي وأخطائي.. فدروب الظلام التي مررت بها تجسد هذا اللقب الذي حملته.. لي!..

- لكنك تبدين واعية وتعرفين نفسك ، بل وتعرفين ماذا تريدين؟

ابتسمتْ له ابتسامة حزينة وقالت:

- يبدو لنفسي ذلك أيضًا. لكن مع ذلك هذا ليس دقيقًا ، فأنا أعرف نفسي بأنني لستُ أنا..! هناك إيفا أخرى هي أنا وهي ليست أنا..! التي أمامك لا تعرف نفسها جيدًا ، أحيانًا أحس إنني أعرف نفسي جيدًا ومتأكدة مما أريد ولدي دافع يدفعني إليه.. لكن كثيرًا ما يتضح إنني لم أكن أعرف من أنا وماذا أريد؟

انتبه هو إلى طريقة كلامها التي لا تتناسب مع عمرها ، فسألها بطريقة أقرب للمزاح:

- طيب. دعك عن إيفا ماجدولينا.. التي تبحثين عنها.. فماذا عن إيفا التي تعرفينها..؟ من هي؟

لم تعرف إيفا ماجدولينا من أين تدفق الأمان إلى روحها وهي تستشعر وجود هذا الرجل وحضوره في عالمها منذ لحظة دخولها إلى فندق باب السماء.. وأحسّت للحظات بأن سر مجيئها إلى هذا المكان الغامض هو نداء غامض من أجل أن تلتقيه ، فربما هو الذي سيكون دليلها لمعرفة نفسها ، وإلى مهمتها الأخرى التي لم تعلن عنها بعد.. فوجدت سيلًا من الأشياء التي تود أن تقولها له ، لكنها كانت مرتبكة.

انتبه آدم السيد لارتباكها وترددها فقال لها مشجعًا وهو ينظر إلى وجهها الهادئ البريء ، وبنبرة دافئة ومتعاطفة:

- انزعي قناعك وستجدين نفسك؟

استغربت جملته ، وسألته بعفوية:

- هل تجدني مقنّعة؟ هل تراني ألبس قناعًا على وجهي؟ أعتقد ربما في اللحظات الأولى من دخولي إلى الفندق كنت كذلك؟ وطبعًا حين كنت خارج الفندق فأنا كنت مضطرة للبس القناع ، لكني نزعته.. ولا أخفيك.. ارتياحي لك ربما ساعدني على نزعه!..

ابتسم لها بطيبة وقال بهدوء:

- كلنا كنا نضع الأقنعة خارج الفندق. لا تخافي.. انزعيه.. فلا أقنعة في فندق باب السماء..

صمتت للحظات وكأنها تريد أن تحسم أمرًا داخليًا وقالت:

- أنا أحب النوم. لكني لا أحب الجلوس في البيت.. أحب القطط.. كنت في حياتي السابقة غزالة شاردة خائفة انقض عليها نمر وحشي..! حدث ذلك في غابة كثيفة ، وكانت هناك امرأة حامل جاءت لتقطف ثمار المشمش ، وجاءها الطلق.. وشعرتُ أن أنياب النمر تمزق شريان رقبتي وتسد مجرى الهوى ، وفي لحظة الظلام تلك انتقلتْ روحي إلى رحم المرأة التي كانت تطلق صرخات المخاض المفاجئ ، وولدتُ في تلك اللحظات بجسد طفلة جميلة جدًا لكنها ولدت ميتة. هل تصدق هذياني هذا؟ حين خرجت روحي من جسدي واستقرتْ في جسد الطفلة الميتة فأخذت بالبكاء المفاجئ.

كان آدم السيد يستمع إليها بانتباه شديد وكأنها تروي قصة يعرفها ، لكن لم يعلق لحظتها ، وأنما قال لها بنبرة دافئة:

- وماذا بعد!.

صمتت المرأة للحظات ثم فجأة ركزت نظراتها في وجهه

وقالت:

– أتعرف. أشعر معك بأمان غريب.. لم أشعر بمثل هذا الأمان مع رجل في حياتي أبدًا.. ، فقد كان ثمة هاجس للغدر مثل غيمة سوداء في سماء تفكيري عن الرجال..!

كان آدم السيد يستمع لها بانتباه شديد مع أن ذلك الانتباه لا يبدو على ملامحه ، لكنه علّق على كلامها بنبرة هادئة:

– في هذه الحالة أنتِ كنتِ تؤذين روحك من حيث لا تشعرين ، فربما التقيت في حياتك خارج الفندق بالرجال الخطأ!.

صمتت للحظات وكأنها تسترجع مشاهد من حياتها:

– ربما. ربما أنت محق.. لاسيما وأن الأمر وصل إلى هذه الخيبة والأذية التي تتحدث عنها..! ربما سأروي لك عن ذلك لاحقًا إذا ما بقينا معًا في هذا الفندق..

ابتسم آدم السيد لها بمودة واضحة وقال:

– من يدخل فندق باب السماء عليه أن يواصل الرحلة عبر مطهر الخطايا المقدسة ، لكن واصلي حديثك عن إيفا التي تعرفينها!

قبل أن تواصل حديثها سُمع صوت هطول المطر المدرار الذي كان ينهمر من السماء المظلمة خارج الفندق ، ظلت تحدق عبر زجاج بوابة الفندق إلى الظلام في الخارج ، وبعد لحظات التفتتْ إليه وواصلتْ حديثها:

– لا أحب أن ألفت الأنظار نحوي ، ولا أريد أن أكون موضوع أحاديث الآخرين!. لا أنافق ، ولكني قد أتهور في علاقات تؤذيني فيما بعد ، وأحيانًا أقدم عليها وأعرف مسبقًا ستدمرني ، ومع ذلك أمضي إليها بتهور..! واعترف إنني إنسانة عاطفية لكن عقلي بارد ، بارد جدًا ، فاللامبالاة هي أحد أبرز صفاتي الشخصية. أتعرف ، وأنا أتحدث إليك الآن أحس بأنني رأيتك في زمان ما..

أحس بالراحة والأمان الذي افتقدهما في حياتي.. ربما تجدني امرأة متهورة تبوح ذلك بسهولة وفي لقاء أول ، أو أبدو لك بريئة لحد السذاجة ، لكني لست كذلك ، فأنا أحيانًا أحس وكأنني امرأة ناضجة وحكيمة ، وأحيان أخرى أشعر بأني طفلة عنيدة. أنا متناقضة إلى حد اللعنة. أحب القمر ، أحب الورود ، والغيوم ، والغموض. أحب غموض فندق باب السماء ، أحس إنني عشت قصصَ حبٍ جارفة ، وعشت حيوات مختلفة في عصور سحيقة وحضارات مختلفة ، كنت أنا نفسي ، لكنني كنت متعدّدة أيضًا. كيف أشرح لك هذا..! ومع ذلك فأنا أحب غموض جلستي معك الآن.. من أنت؟ ومن أنا؟

-وماذا تحبين أيضًا؟ قال آدم السيد بانبهار وهو ينظر إليها.

-أحب لغز وجودنا هنا في هذا المكان. أحس ثمة قدر جمعنا هنا. أحب الأساطير والخرافات ، وربما أحيانًا أمقت هذه الخرافات لأنني تأثرت بها كثيرًا. أحب الرقم 18 ، وكذا الرقم واحد ، والرقم 8. في طفولتي كنت أحب اللون الأسود ، مثلما أحب اللون الأبيض ، والأحمر القاني ، وأحب الأزرق ، بل أحب اللون الزهري ، أحب الحوارات الهادفة ، لكني أشعر بالملل سريعًا..

أنا عنيدة ، فولادية ، أحب عنادي في معرفة نفسي وبحثي عنها ، وهو ما قادني إلى فندق باب السماء. أحب النظرات الغامضة ، أحب غموض شخصيتك أنت مثلًا. أحب نظرة الإعجاب في عينيك نحوي الآن..! وأحب الضحكة الطاغية من دون تخطيط وتصنع ، أحب الملابس التي لا تقيدني ، البسيطة والتي تظهر الكثير من تفاصيل جسدي ، أحب الشعر القصير ، ولكن والدتي ترفض أن أقص شعري. أحب العطور ومرطبات الجسم المُعطرة ، بل أنا مهووسة بها ، في غرفتي خارج الفندق عدد هائل منها وبمختلف الروائح ، ولكنّي أفضل رائحة جوز الهند والفانيليا ، أحب

أصباغ الأظافر الهادئة البصلية ، وأعشق أقلام الشفاه ، لاسيما تلك التي تحتوي على نكهات ، وبالأخص نكهة الفاكهة والفراولة والتوت البري..

أحب حقائب الظهر الكبيرة .. فحينما أخرج آخذ الكثير من الأشياء ، وأحيانًا أضع بلوزة إضافية ، سماعاتي ، شاحنة هاتفي ، قلم ودفتر ، كما أضع داخل الحقيبة عدة محافظ جلدية صغيرة ، واحدة منها للأوراق والآخرى أضع فيها أحمر الشفاه والكونسيلر. حسنًا ، أكره هالاتي السوداء ولذلك أخفيها. وأيضًا أضع في حقيبتي مرطب مُعطر صغير وقنينة عطر ، أحب المكياج وأحب لمساته البراقة ويعجبني كثيرًا أن أبرز تفاصيل ملامحي باستخدامه ، يشعرني بالحيوية. أحب أشكال الأشخاص العادية ، أحب تجاعيد العيون ، الملامح المُميزة التي لا يركز عليها أحد غيري ، البشرة الداكنة ، العيون الصغيرة ، والهالات التي تُزينها ، حزنها والكلام الذي أقرأه حين أتأملها ، أحب لغة العيون ، لكني جبانة أخاف التحدث بها وأتهرب منها ، أحب أن أصلي ، لكني أدرك بأن ما أفعله وهم وخرافة وبأني كنت قد خُدعت بهذا الأمر ، لكني ما أزال أفعل هذا لا شعوريًا كلما رادوني القلق..

أحب مختلف أنواع الأغاني وبكل اللغات ، وأحب أن يهديني أحدهم أغنية ، أشعر وكأنه هو من كتبها لي ، أقدس الوقت الممتع والضحكة الصاخبة بلا تفكير ، أحب الحرية والجنون ورغم ذلك لا أحب إبداء الرأي أبدًا.. ودومًا ما أتهرب من ذلك واحتفظ بفكري لنفسي ، أحب التسامح والمحبة ، أحب الجمال ، الكتب ، الأفلام ، وأحب الأشياء العتيقة ، والتحف الفنية واللوحات والمنحوتات ، فطالما حلمت بأن يكون لدي منزل ، وحدي ، حتى استطيع أن أزيِّن الجدران بلوحاتي المفضلة ، وزوايا المنزل بالمنحوتات. أحب الموسيقى وحين استمع لها أشعر بأن روحي

تتطهر ، وأحيانًا أقع في حالة حب مع أحد الفنانين أو الملحنين الموسيقيين لدرجة الهوس..

ومرة أخرى أقول إنني أحب شعور الأمان الذي ينبعث من رجل يمنحني شعور الرجولة والثقة والاحترام لذاتي الممزوج بأمان الأبوة النادر ، لكني سرعان ما أشعر بالملل في أية علاقة ، فأنا أحب أبي جدًا ، ودومًا ما شعرت بأني لن أجد من يشبهه. ورهبتي العظمى هي أن أفقد لهفة الحديث ، وأعتاد المصافحة الباردة والدردشة المجاملة والضحكات المصطنعة. أنا أخاف الأصدقاء الذين لا لون لهم ، وأخشى فقدان الرغبة بالبكاء ، كلّ هذه الأشياء توقظ روحي من سباتها ، ودونها ستمسي روحي رمادا..

توقفت للحظات. وحين طال صمتها ، سألها بفضول:

- وماذا أيضًا..؟

نظرت إليه وكأنها مترددة في القول ، لكنها واصلت:

- أحب الرجل المثقف.. المثقف يثيرني بذكائه أكثر مما يجذبني شكله ، بل لا يهمني شكله وعمره وأنما تهمني ثقافته فأنا أحب الذكاء بكل أشكاله. لا أحب العلاقات القوية العميقة ، أحب العلاقات السطحية ، لكني أحب الثقة ، مع أني لا أثق بسهولة ، وبالتخصيص لا أثق بالرجال ، فأحَبّ الأشياء إلى روحي ونفسي وكياني هو الأمان والارتياح. أول علامات الحب الأساسيّة عندي هي الشعور بالأمان مع الرجل ، وهذا ما لم أشعره مع أحد إلا عند أبي. أحب أن أجد نفسي مع الرجل الذي يفهمني..! لكن كيف يفهمني وأنا لا أفهم نفسي..!!

قد أبدو لك من خلال وعيي بعدم فهمي لنفسي بأنني أفهم نفسي وأعرفها..! لكنني مع ذلك أدرك بأنني لا أعرفها حقًا ، وأريد من يدلّني عليها..! وفوق كل هذا أنا جبانة وجريئة في آن واحد. أنا كتلة من التناقضات. الكوابيس ترافقني ليلًا ، وفي

النهار أعيش نوبات من الهلع. أجل فأنا أعاني من العديد من العقد النفسية ، وأعرف إنني متناقضة ، واعترف بذلك. أنا متحررة جدًا لكني لا أفصح عن أفكاري لأحد ، وربما وحده الذي سأشعر معه بالأمان يستطيع أن يزيح مخاوفي وتناقضاتي جانبًا..

قالت جملتها الأخيرة وهي تنظر إليه باهتمام ، وفي تلك اللحظة وصل الرائد آدم عبد السميع ، فتوقفت إيفا ماجدولينا عن الكلام ، بينما التفت آدم السيد إلى صديقه ونظر إليه مستفسرًا ، فبادر الآخر:

- لقد ترددت أن أتوغل وأفتش فهذا المكان ليس كما يسمى فهو ليس فندقًا. لا أعرف كيف اسميه.. إنه قاعات وغرف وطوابق مختلفة. لم أذهب بعيدًا ، لكن هذا الطابق هو فعلًا كما أطلقت عليه مديرة الاستعلامات : ممر النساء التعيسات.. فهل يمكننا الذهاب الآن لنكتشف ما في الممر!!..

أحس آدم السيد بالحرج فهو لا يريد أن يترك إيفا ماجدولينا وحدها ، فلقد صار متأكدًا بأنه يعرفها من زمن بعيد وليس نصف ساعة تحدثا فيها ، وهي بدورها نظرت إليه نظرة خائفة وكأنها تستنجده ألا يتركها وحدها في هذا المكان الغامض..! نظر إلى صديقه ثم إليها وقال لها:

- أتودين أن ترافقينا في الكشف عن المكان!..

أشرق وجهها عن ابتسامة شكر وأحست بمشاعر غامضة تجتاحها نحوه ، وقبل أن يقف كانت هي قد نهضت عن مقعدها وقالت لهما:

- أنا جاهزة. فربما سأجد نفسي أيضًا.

قام آدم السيد وهو يشعر بنشاط وحيوية إذ كان يخشى ألا ترافقهما ، بينما ارتسمت علامات الامتعاض الخفية على وجه الرائد ، و نظر إلى صديقه باستفهام ، لكن الآخر لم يرد عليه.

وقرّر الثلاثة التوجه نحو ممر أحزان النساء التعيسات.

★★★

في اللحظة التي تحرك الثلاثة فيها تعالى هدير انشقاق الجدار المعتاد الذي يخفي خلفه مكتب إدارة الفندق. توقفوا فجأة ، والتفتوا ، فرأوا السيدة حواء الرحماني وقد ارتسمت علامات الدهشة المستفزة على وجهها وسألت بنبرة فيها غضب مكتوم:

-إلى أين أنتم ذاهبون؟ وأنتِ بالذات ياإيفا ماجدولينا ، إلى أين أنتِ ذاهبة؟

ارتبكتْ إيفا ماجدولينا ونظرت إلى آدم السيد وكأنها تستنجد به أن يساعدها ، لكن المديرة لم تعطها فرصة حتى للجواب وأنما واصلتْ:

-نحن لا نعرف من أنتِ؟ لم نستلم أية رسالة برقية باسمك مثلما وصلت باسم هذين السيدين ، فأنتِ دخلت علينا فجأة وقلت لنا بأنك جئت تبحثين عن نفسك وعن أشياء أخرى لم تعلنيها ، لكننا نريد أن نعرف قصتك وأصلك وفصلك.. فتعالي معي إلى لجنة إدارة الفندق ، ودعي السيدين يذهبان في مهمتهما!..

في تلك اللحظة أحسّتْ إيفا ماجدولينا بالخوف ، فهي لم تصدق أن تجد إنسانا تشعر معه بالأمان إلى حد ما ، وإذا بهذه المرأة تريد أن تأخذها إلى مكانٍ مجهول..! بل وتريد أن تعرف قصتها التي هي لا تستطيع البوح بتفاصيلها..! وللمرة الأولى شعرت بفراغ كبير وحاجتها لوجوده معها!..

شعر الرائد آدم عبد السميع بفرحٍ غامر لعدم تمكن المرأة الغريبة أن تمضي معهما ، فهو قد شعر بميل صديقه آدم السيد نحو هذه المرأة ، وهذه هي المرة الأولى له يرى فيها صديقه الذي يعرفه منذ سنوات يتعامل بتعاطف مع امرأة شابة تصغره

سنًا بعقود.

وبإرادة مسلوبة انسحبت إيفا ماجدولينا منهما وتوجهت نحو المديرة.. وقفتا أمام الجدار فانشق عن نفق مظلم ، وقبل أن تلجأ إلى الشق المظلم التفتت هي نحو آدم السيد فرأت عينيه حائرتين ومليئتين بالتعاطف الدافئ. وكأنه يقول لها لا تخافي نحن هنا.

ودخلتْ إيفا ماجدولينا إلى النفق المظلم.

كان النفقُ مظلمًا.. يضيء عتمته المخيفة مصابيح شاحبة على جداري النفق تتباعد في ما بينها كل عشرة أمتار على امتداد النفق.

ظلتا تمشيان في النفق المظلم فترة طويلة إلى أن وصلتا إلى صالة شبه معتمة ، تتوزع الإضاءة فيها من مصابيح جانبية. القاعة فارغة. قاعة تشبه قبوًا في دير قديم. حيث السقف المنحني بالأقواس.. لكنها قاعة كبيرة.. فارغة وخالية من الأثاث إلا من طاولة يجلس خلفها ثلاثة رجال بهيئات صارمة ، يرتدي كل منهم جبة خشنة بطاقية واسعة تغطي رؤوسهم. ملتحون ، أصغرهم تجاوز الأربعين ، وكأنهم رهبان الدير أو أشباح في محكمة من محاكم التفتيش التي قرأت عنها سابقًا حينما كانت خارج الفندق ، والتي كانت قد شاهدتها في أحد أفلام العصور الوسطى المتخصصة بالفلسفة والعالم المظلم.

أشارت لها المديرة بالجلوس على كرسي كان موضوعًا بمواجهتهم. بعد لحظات أشار الرجل الذي يتوسط الرجال الأشباح على المديرة بالذهاب ، فغادرت الصالة وضاعت في عتمة النفق مع خفوت وقع حذائها على أرضيته.

كانت إيفا ماجدولينا تشعر بالخوف والرهبة من وجودها هنا في هذا المكان شبه المعتم ، وتمنت لو كان آدم السيد موجودًا ، فمجرد وجوده يمنحها الثقة بالنفس والقوة. شعرت لحظتها وكأن

القاعة مكتظة بالأنفاس والأشباح التي تتأوه.

-من أنتِ؟

سمعت صوتًا صارمًا يضرب سمعها. انتبهتْ. لكنها لم تستطع أن تتبين من سألها من بين هؤلاء الثلاثة ، ومع ذلك أجابت بصوت مرتبك:

-أنا إيفا ماجدولينا..

-ماريا المجدلية؟

-لا.. أنا إيفا ماجدولينا ولست ماريا المجدلية..

وسمعتْ صوتًا آخر يسألها:

- كيفَ جئتِ إلى هنا؟ وما قصتكِ؟

أحسّتْ إيفا ماجدولينا بدبيب الخوف يسري في جسدها. هي تعرف نفسها جبانة في مثل هذه المواقف. ارتبكتْ ولم تعرف كيف تجيب ، فسمعت أحدهم يخاطبها:

-أخبرينا من أنتِ؟ كيف كنتِ خارج الفندق؟ وأية خطايا قادتكِ إلى هنا..

ارتبكتْ.. وتمتمت بما يشبه الهمس:

-خطيئتي الكبرى إنني تهت عن نفسي وجئت أبحث عنها.. وعن!..

ارتبكت. ولم تكمل جملتها.. سمعتْ همسًا لم تتبين ألفاظه ، لكنها انتبهت لضحكة قصيرة مكتومة انطلقت من الرجل الذي كان في الوسط. ثم صوتًا يخاطبها:

-وكيف تهت عن نفسك؟ هل تهت حين تركت نفسك بين أحضان الرجال كما المجدلية..! أم تهت بعد أن أردت التوبة ، لأنك لم تتعودي على الحياة الفاضلة..؟

صُدمت إيفا ماجدولينا من صرامة ووقاحة وصراحة ما سمعته ، ووجدتْ نفسها تجيب لا عن شجاعة وأنما عن خوف:

-مررتُ بمواقف سيئة في حياتي خارج الفندق ، ورافقت في دروب حياتي أناسًا سيئين. طفولتي كانت غريبة. كانت أمي عادية وشبه باردة في تعاملها معي ، لكنني كنتُ قريبة من أبي جدًا جدًا. أحب أبي كثيرًا ، حنانه الذي كان يغمرني به يمنحني السعادة. أنا رومانسية ، وأحب القصص الرومانسية ذات النهايات السعيدة ، لكن نهايات عائلتي دائما كانت مأساوية ، لاسيما في شهر ديسمبر وقبل أو أثناء أعياد رأس السنة ، وكأنها لعنة تلاحق عائلتي. أنا وبصراحه منذ طفولتي أخاف من الرجال ، بل وارتعب منهم ، خيالي يصور لي كل رجل وكأنه ذئب. كانت عندي كوابيس كثيره تتعلق بالرجال وبالأرواح الشريرة التي تسكن الأجساد ، هكذا ربتني أمي. أبي هو الوحيد الذي كنت أحس معه بالأمان ، لكني لا أعيش بسلام مع نفسي لأني أجهل نفسي ، وأجهل ما أريد!

هيمن صمت على القاعة. كان الرجال الثلاثة ينتظرون منها أن تواصل لكنها صمتت ، فسألها الرجل الأربعيني:

-لم المآسي تلاحقكم في أعياد رأس السنة..؟ ما هذه اللعنة التي تلاحقكم!..

-لا أعرف...

-ربما أنتم عائلة سكنت الشياطين أجسادها وأكلت أرواحها..!! لكن كيف اكتشفتِ إنكِ تائهة ؟

صمتت للحظات وكأنها أرادت التأكد مع نفسه من صحة ما قاله لها هذا الصوت الغامض ، ثم قالت:

-أعذروني. أنا لا أعرف كيف أتحدث ، ولا كيف أصوغ كلامي. أكثر جملة أرددها في حياتي هي: لا أعرف.. نعم.. حاضر.. صار.. لم أعرف أن أعترض وأقول لا..! لا لنفسي ولا للآخرين.. لم أقل لا قط!.

فأجابها صوت صارم:

-ليس مهمًا ألا تعرفي كيف تتحدثينَ وتصوغينَ كلامك ، وإنما المهم أن تعرفي ماذا تقولين ، مهما كانت صياغته ركيكة..! لذا لا يهمنا أن تروي لنا ما جرى لعائلتك ، وأنما أخبرينا عن حياتكِ خارج الفندق.. وخطاياك؟

صمتت إيفا ماجدولينا وهي تشعر بحيرة وارتباك. كان المشهد لمن يراه عن بعد متناقضًا جدًا ، فهي أنيقة ومعاصرة وفي ثياب القرن الحادي والعشرين ، وهم أشباح يلبسون جببا خشنة تذكر بالرهبان في الأديرة ، ويجلسون كقضاة وراء طاولة بعيدة.

-هل أنتِ خرساء؟ تكلمي.. جاءها الصوت ساخرًا.

شعرتْ بقشعريرة تسري في جسدها. ووجدت نفسها فجأة تقول:

-خطيئتي إنني كنت ساذجة وعاطفية جدًا بحيث انجرفت ، تحت اسم مستعار ومقنع ، في علاقات سطحية مع عدد من الرجال ، من خلال وسائل التواصل الاجتماعي الافتراضية وبالتحديد ما يسمى (السناب). ولأني ملولة فكنت أحذفهم بعد يو م أو يومين. كنت أبحث عن شيء مجهول ، وهذا ما سبب لي انهيارًا نفسيًا وأخلاقيًا. ومع أن لديّ أخوان وأخوات ثلاث لكني كنت شبه وحيدة أعيش عزلتي وسط عائلتي.

كنت كئيبة جدًا ، يمكنني القول إنني عشت طفولة ومراهقة هادئة.. هادئة جدًا.. كنت شبه ميتة الغرائز ، بل لم أعرف معنى المراهقة. لا أعرف كيف قادتني الأقدار السيئة أو الجيدة كي أتعرّف على عالم الرجال. كم تمنيت لو إنني ولدت في عائلة غير عائلتي. كنت على الرغم من صغر سني أود الهروب من هذه العائلة بقبول أي عرض للزواج ، ومن طرفهم قد أرادوا التخلص مني هم كذلك..! لكن الأنانية التهمتهم ، فلم يودوا أن أتزوج من اختاره ، فحين بدأت عندي مشاعر نحو أحدهم رفضوه.

المهم. وجدتُ نفسي ، من يأسي ، لا أبالي بأي شي ، كمّن يلقي بنفسه من حافة جرف وقطع جبلي إلى أعماق الوادي المظلم. أردتُ الانتقامَ من حجج أهلي الأنانية لتدخلهم في حياتي ومستقبلي ، لكني لم أكن أعرف إنني كنت انتقم من نفسي ، وهكذا وجدت نفسي أتوغل في عالم غريب عليّ فجأة ، وكأن انقلابًا جرى في عالمي ، فقد كنت في قمة اليأس لأنني أيقنت بأنني لن استطع أن أقرّر شيئًا في حياتي. ربما أردت أن انتقم لنفسي من خطوبة أُبطلت من قبل أهلي وأخي.

-أكنت مخطوبة؟

-نعم.. لكن أخي الغيور لم يشأ أن أتزوج فتحجج وتشبث بأشياء واهية ليبطل خطوبتي..! بعدها وجدت نفسي أنجرف في هاوية بلا قرار!..

صمتتْ منتظرة أي تعليق من الرجال الأشباح ، لكنها لم تسمع أي سؤال أو تعليق ، فواصلت:

-ربما لأني بشكل عام إنسانة منطوية على نفسي وأعيش عزلتي ، كنت أعيش في خيالاتي قصص حب رومانسية ذات نهايات سعيدة ، ولأني لا أعرف شيئًا عن الرجال والرغبة ، لهذا وجدت نفسي ألقي بنفسي في حوض النهر الجارف من دون أن أعرف الفوج والسباحة.. لكني قفزتُ بكل ما أحمل من رومانسية ومفاهيم تشكلت لديّ عن الحب الرومانسي.. خضت التجربة من دون خبرة واحتراز..من دون رغبة جسدية حقيقية.

كنتُ أصدق ما يُقال عن الحب على الرغم من خوفي من الآخرين. كنت أحاول التقرب من عالم الرجال. أردت أن أجرب معنى الحب ، معنى العلاقات العاطفية. كنت أظن أنَّ حب الروايات والأفلام شيء يُعاش في الواقع أيضًا. أردت أن أخلق لي حكايات حب وغرام ، وأكوِّن لي ذكريات ومغامرات. كنت أجد حياتي

تافهة ، فصديقاتي اللاتي بعمر ي خضن على الأقل تجربة أو اثنتين بل وأكثر ، وحين كنت أجد نفسي بلا أيَّ علاقة أو مغامرة. كنت أشعر بفراغي وربما بسذاجتي ، ولذلك وجدت نفسي فجأة في عالم غريب ، أجهله. غصت داخل عالم الرجال المظلم لكن من دون أي رغبة جسدية وأنما كنت أبحث عن الحب والمشاعر الدافئة ، لكني صُدمت بعالمهم المليء بالغرائز الحيوانية. لم أكن أفهم شيئًا عن كل هذا. كنت أعيش بوهم الحب البريء ، لكني صحوت ووجدت نفسي متسخة بوحل الواقع ، وعالم الشهوات. وفجأة تنبهت لروحي ، فصرت أشبه بملاك من ملائكة الجحيم..!

صمتت إيفا ماجدولينا للحظات فقال لها صوت ما بنبرة فضولية:

- وماذا فعلتِ حينها؟

انتبهت إيفا ماجدولينا لنبرة الفضول الشبقة في الصوت وقالت:

- في أعماقي ثمة خوف لاشعوري من الرجال ، على الرغم من إنني صرت مُتحرّرة في علاقاتي بشكل متهور ، وكنت أبدو قوية ومتماسكة في العلاقة معهم..لكن أؤوكد لكم بأنه لم ينلني أي منهم ، حتى الو كان في العالم الافتراضي ، على الرغم من محاولاتهم المكشوفة وغير المكشوفة..فحينما كنتُ أشعر بالخطر كنت أحذفهم..! وطبعا كل هذه العلاقات ، كما قلت ، في عالم افتراضي هو عالم (السناب) وباسم مستعار ..! لكني كنت لا أعي سذاجتي وطيبتي وتعلقي الرومانسي بالحب.. كنت أحب أن أعيش قصة حب قوية..! لذا ألقيت بنفسي في علاقات تتحول من أحاديث لطيفة إلى قصص تافهة تثير قرفي.. كنت كمّن لا يعرف السباحة لكن رغبته في العوم قوية..

شخصيًا ، أنا مزاجية في تعاملي مع كل شيء وحتى في

العلاقات ، وأنا أعلم الآن ماذا يدور في عقولكم ، لكني لم أدخل في علاقة مع عدد هائل من الرجال كما تفكرون ، فالأشخاص الذين تواصلت معهم بشكل شبه دائم هم اثنان لا غير ، وحتى العلاقة مع هذين الشخصين كانت غير جسدية ، على الرغم من محاولاتيهما اليائسة في جرفي نحوهما. إنني هنا أتكلم من دون ذكر التفاصيل ، فلقد ابتعدتُ عن الأغلبية العظمى بعد حوار أو حوارين. أجل فقد تركت العديدين بعد حوار أو حوارين ، ولأسباب تافهة ، منهم من لم يعجبني صوته ، ومنهم من لم تعجبني مفردات لغته ، ومنهم من يذكرني بإخوتي أو أحد أقاربي ، وهناك من تركتهم وحظرتهم بلا سبب حتى! فكل علاقاتي كانت افتراضية ومقنعة. كنتُ لا أعرف التقرب من الرجال في الواقع ، لذا كنت أسعى للتعرف على الرجال في العالم الافتراضي ، وكان هذا التعرف ينتهي بأن أحذفهم بعد حوار أو حوارين مباشرة.

وعلى الرغم من أني واصلت علاقتي مع اثنين كما أسلفت ، إلا إني تركتهم أيضًا ، ومن دون أن أخبرهم بأني سأتركهم.. اختفيت ببساطة عن عالمهم..فقد شعرت بالقرف من علاقتي معهما ، على الرغم من إعجابي بهما في البداية.

أجل أنا أحب التخلي والهجران بلا سبب أو ربما بسبب كل شيء ، فبعد أن سُلبت مني روحي خلال هذه العلاقات ، وتهت بينهم ، وضاعت نفسي مني ، تركتهم لأني كنت في لا وعيي ، وأكره سيطرة أي شخص عليَّ كما أكره تبعيتي لأي كان ، لذا كنت أكره إلزامي بالتواصل معهم ، فقد كان هذا يُذكرني بأخي وعائلتي المُتشدّدة..

لقد لجأت إلى هذه العلاقات لأهرب من عالم عائلتي السوداوي المُعقد ، لكني وجدت نفسي في الدوامة نفسها ، لكن في سيناريو مختلف ومع أشخاص مختلفين. أنا ياسادة أود التحرّر ، وأكره أن

أُكبّل بقيود العادات والتقاليد أو حتى بقيود العلاقات التي اعتقدت بأنها سوف تُحررني ، أوَّد الحُرية. أنا لا أبحث عن الحُرية التي تجعلني أمارس الرذيلة مع من هب ودب ، لأني لا أطيق هذا الشعور المقرف ، وعرفتُ بأن الحُرية لا تعني أن أجعل من نفسي رخيصة ومتاحة للجميع. لا ، ليست هذه الحُرية التي أبحث عنها ، بل أنا أبحث عن حرية نفسي ، نفسي التي سُجنت بسبب عائلتي. اعتقدتُ بأني سأجدها في عالم الرجال والعلاقات ، لكني أخطأت ، ولهذا تركتهم بشكل فجائي ، ولم أتركهم لأني أخاف عقاب الرب أو لأن هذا الأمر مُحرم في العقائد. لا. فأنا لا اعترف بهذه الأمور ، لأننا لسنا دمى بيد الآلهة. لقد تركتهم لأني لم أجد الأمان والتحرُّر اللذين كنت أرغب فيهما..

اكتشفت أن هذا العالم ليس كما تصورته ، ففي مخيلتي كنت أتصور بأني سأدخل عالم الحب البريء والضحكات الصادقة التي ستحرّرني من قيود عائلتي التي تدعي الشرف وتبجله ، لكني وجدت نفسي في عالم مظلم لا يستحق العيش فيه ، عالم فقدت روحي فيه ، وسرقَ لهفتي للحياة ، عالم شدّ وثاقه حولي بشكل أكبر. لستُ ملاكًا ، ولا أدعي ذلك ، ولست بالطاهرة. بل أنا شيطان ، شيطان حزين لم يجد ملجأ له. لقد أردتُ التحرُّر من قيود عائلتي وإذا بي قد كبّلت نفسي بقيود علاقات تافهة مع رجال تحكمهم رغباتهم المُقززة ، لقد وجدت أن الدخول إلى عالم الرجال والعلاقات السائبة هو غرق لكن ليس في عالم الماء وإنما التيه في مكان مظلم اكثر من ظلمة الجحيم ، وأشد من عتمة مطهر الخطايا المقدسة الزرقاء..

اعترف بأني عشت سجينة رغبات لم أكن أرغب فيها. دوافعي كانت الانتقام غير المباشر من عائلتي وأيضا رغبتي في تقليد صديقاتي بإقامة العلاقات ، ومع أني كنتُ غير راضية عما أقوم

به لكنني كنتُ أجد التبريرات لذلك. كنتُ أقنع نفسي بأن ذلك سيساعدني لإزالة الخوف من الرجال وعالم العنف، وبأني سأكتسب الخبرة وأتعلم كيف أتعامل مع المجتمع، وربما هذه العلاقات ستحرّرني..! لكني وصلت إلى حدود القرف القصوى، القرف من الرجال لأني عرفت أعماقهم الوسخة، وطبائعهم الذئبية الغادرة، ومع ذلك بقيت على حبي الكبير للمخلّص.

كنت أشعر بأنني قديسة خاطئة وتعيسة مثل ماريا المجدلية! فحتى وأنا في قاع خيبتي كنت أحب المخلّص وأفكر فيه، فشعوري شعور قديسة تعاني من هول فكرة الخطيئة، وتعيش تجربتها القاسية.

تعالت ضحكة من أحد أعضاء اللجنة فشاركه فيها الآخران.

-تتشبهين بالقديسات!!؟

أحستْ إيفا ماجدولينا بغضب لكنها كتمته، فنبرة السخرية والاستهزاء كانت واضحة، وعلى الرغم من ذلك فتلك الضحكة الساخرة كشفت لها نظرة الآخر لها، بينما كانت هي قد بررت لنفسها كل تفاصيل الجحيم الذي مرت به وعاشته تحت وهم الحب.

-واصلي أيتها القديسة الخاطئة..

جاء الصوت ساخرًا. صمتتْ لحظة.. أحست بالاستياء. لكنها واصلت:

-صرتُ كئيبة من هذه العلاقات... فتركت الجميع! لم أوَّد العودة إليهم أبدًا.. لأني أردت النجاة.. نجاة نفسي والنجاة من نفسي.. أصبحت باردة.. غريبة الأطوار.. وازداد كرهي لعائلتي..

-الاكتئاب ليس علامة ضعف، بل هو شكل من أشكال المقاومة النفسية..! قال أحد الثلاثة.

صمتت لحظة ثم واصلت:

-لم أعد استطيع تحمل ذلك الشعور القاسي. أردت أن أضع النقاط على الحروف ، لكني لم أتمكن من ذلك.. فقد هربت من هذه العلاقات.. أخذت أشعر بالتقزز من رغبات الآخرين المريضة..! وربما أنا التي كنت مريضة ، وبسبب ما عشته ، ضاعت نفسي مني..

ثم صمتتْ للحظة فقال أحد أعضاء اللجنة بنبرة حقودة تشير بشبق مكبوت ، نبرة خافتة:

- هل طردتِ ظل المجدلية التي في داخلكِ أم بقيتْ ظلال منها..؟ أأنت المجدلية في ظل قديسة ، أم تشعرين بأنك قديسة فيك بقايا المومس المجدلية ؟

لم تقل إيفا ماجدولينا شيئًا أمام هذا الاستجواب المهين ، لكنها كانت مضطرة على الإجابة.. فقالت باستسلام:

-- لا أدري.. ، لكني منذ أن هجرت عالم العلاقات وانقطعت عنه ، استعدت ظل القديسة! لا أعرف الإجابة الدقيقة ، لكن الذي أنا متأكدة منه هو إني لا استجدي انتباه أحد ، ولا يهمني شيء ، إذ كنت قديسة أو شبيهة بالمجدلية ، فما يهمني هو أن أجد نفسي والطمأنينة ، فقد بحثتُ عني وعن الحرية في هذه العلاقات ولم أجد سوى الخيبة. أردتُ الخروج من عزلتي وحصار عائلتي ، وكنت مقتنعة بتمردي ، لأني أيضًا تمردت على وهم الحب الذي بدأته مع من كان يفترض أن يكون خطيبي ، لكني وأنا في طريق حريتي وجدت بأنني تهت عن نفسي. تهت عني. أنا متحرّرة اجتماعيًا لكني مكبلة بالعقد النفسية والقيم ، وأحاول تبرير عقدي النفسية ، وقيمي هذه بأن حريتي لا تعني بأن أتخلى عن المخلص ، مع أن هذه القيم هي نفسها التي عانيت منها سنين وسنين!..

-إذن لماذا جئتِ فندق باب السماء؟

-لكي أبحث عن نفسي التي ضيعتها في الدروب المعتمة خارج

الفندق.. إلى جانب إنني جئت أبحث عن مخلّصي.. وشخص آخر!
وسمعت صرخة ثلاثية تنطلق من الأشباح خلف الطاولة ، بل رأتهم يقفون:

- ماذا؟ ماذا تقولين أيتها المرأة التائهة؟ كيف تتجرأين على قول ذلك!..

حينها شعرت بقوّة مفاجأة وقالت بجرأة:

- ألم ينقذ المخلّص المجدلية من الرجم..؟ ألم تتبعه وكسرتْ قارورة العطر وبللتها بخصلات شعرها ومسحت قدميه المدميتين..؟ أنا أبحث عن مخلّصي أيضًا الذي سيدافع عن خطاياي ويحتضن انكساري النفسي وسيداوى جراحي الروحية ، ويتزوجني زواجًا روحيًا.

- إنك تجدفين أيتها المرأة..! ستنالين عقاب القدير.. ستلاحقك لعنتنا..

في تلك اللحظات بالذات تعالت ضجة أتت من أعماق النفق ، وصوت المديرة اللاهث:

-يادكتور آدم هذا غير مسموح به.. أرجوك.

وعلى غير توقع من أحد دخل آدم السيد إلى القاعة وعلى وجهه علامات التوتر والغضب الذي بالكاد يكتمه. وقف أمام الرجال الثلاثة من الأمام وإيفا ماجدولينا من الخلف.

لم تصدق هي أنه هنا. اجتاحتها مشاعر دغدغت أعماقها ، وأيقنت أنه ربما هو سيكون مخلّصها ، وفي تلك اللحظة مرقت في ذكراها لقطة كالبرق بأنها كانت في موقف كهذا ، وكان ثمة شخص يشبهه لحد ما دافع عنها وانقذها. لحقت به المديرة وصارت إلى جانبه وخاطبت اللجنة قبل أن يقول هو شيئًا:

-ياسادة ياكرام.. الدكتور آدم السيد اقتحم النفق عبر الجدار من دون استئذان ، فهو يريد أخذها معه.

في تلك اللحظة قال الرجل الذي في الوسط:

-نحن ما جئنا بها إلى هنا كي نستجوبها ، لكننا أردنا أن نعرف ماذا تريد؟ ولماذا جاءت الفندق؟ لاسيما وأنه لا معلومات عنها.. ولا حجز ولا برقية وصلتنا بصددها.. ناهيك أنها تجدف بأنها تبحث عن مخلّصها الخاص مثلما كان للمجدلية مخلّصها.

فقال آدم السيد بعصبية وبنبرة فيها غضب مكتوم:

-هي روح تائهة.. جاءت تبحث عن نفسها الضائعة.. كما تبحث عن شخص يهمها.. وأعتقد إن عليها أن تأتي معنا فنحن نبحث أيضا عن أرواح تائهة.. أنا والرائد آدم عبد السميع نبحث عن آدم الحديدي وآدم تسفايغ الأجنبي!..

كان الر جلان الآخران يقفان بتكاسل إلى جانب الرجل الذي في الوسط والذي بدا وكأنه رئيسهم ، والذي أجاب آدم السيد بهدوء ومن دون ضغينة قائلًا:

-ياسيد آدم نحن أردنا معرفة شخصيتها. ومع إنها لم تكمل كل حديثها ، بل هي اِدعت بأنها ظل المجدلية هنا ، لكنك شخصية معروفة لدينا ، ولا مانع من أن ترافقك في بحثها عن نفسها ، لكن لعنتنا ستلاحقها وعليها أن تنال العقاب..

-حتى لو كانت هي ظل المجدلية هنا؟ ألم تسمعوا صرخة المخلّص المدوية عبر عشرات القرون: «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر.»..ثم نحن في المطهر حيث لا عقاب سوى الانتظار..!

لم تصدق إيفا ماجدولينا ما سمعته من رئيس اللجنة. نظرت إلى آدم السيد وذكرتها شخصيته الحنونة القوية بوالدها ، وكأنها شعرت بأنه مُخلصّها الّذي سوف ينير حياتها بحبه وحنانه ومشاعره الأبوية.

التفتَ آدم السيد إليها واقترب منها. لم تتمالك نفسها. نهضت

عن كرسيها وكأنها تشعر بالقوة ، فلم تعد تخاف الأشباح الثلاثة ، ولا الظلام ولا عتمة النفق المظلم. فلقد ذكّرهم آدم السيد بكلمة الملخّص المدوية عبر القرون ، وهي تنتظر مخلّصها الذي سيعيد بناء خرابها النفسي وانزلاقها المشين ، تتخيله يقول لها: «من أنا كي أحكم عليك. ألم تسمعي المخلص قد قال:» من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر»..

نظر آدم السيد إليها بلطف وقال لها بلهجة طيبة:

-دعينا نمضي.. فلا وقت لدينا..

شعرت إيفا ماجدولينا بأن عليها أن تسمع توجيهاته وتطيعه ، فتبعته غير آبهة بالأشباح الثلاثة ولا بمديرة مكتب الاستعلامات.

مشت خلفه بخطوة. كانت تنظر لقامته الطويلة وتشعر برضا يسري في أعماقها. ظل الأشباح الثلاثة ومديرة مكتب الاستقبال صامتين وعاجزين عن فعل شيء.

حين توغلا في أعماق النفق. أحسّتْ إيفا ماجدولينا برغبة في أن تسأله إن كان يعرف هؤلاء الرجال الثلاثة ، فقد كانوا هم يعرفونه ، لكنها كانت مترددة. وهكذا غادرا النفق.

★★★

كان الرائد آدم عبدالسميع مندهشا وهو يراهما يخرجان من فوهة الجدار. ولا تعرف لماذا أحسّت بأن الرائد لا يميل إليها كثيًرا ، مع أنها تحتاجه كثيرًا فهو محقق جنائي.

توجه الرائد لصديقه قائلًا بنبرة فيها دهشة وغيرة مكتومة:

-لم أتوقع إنك ستحررها من هذه اللجنة القابعة في الظلام.

لم يقل آدم السيد شيئًا. كانت عيون إيفا ماجدولينا تائهة وشاردة ووجها يُعبر بأنها معهم وليست معهم ، وملامحها تؤكد بأنها تفكر بأشياء بعيدة عنهما.

الفصل الثالث
إيفا تريزين.. ملاك في الجحيم

وقف الثلاثة عند مدخل الممر. كان الممر خاليًا والسكون يهيمن على المكان ، حتى الباحة الجانبية التي تكشف عن طوابق الفندق العديدة بدت مقفرة ، إلّا إن المكان مع ذلك كان يموج بحركة غامضة وأنفاس حارة وآهات مكتومة وشهقات متعبة وفحيح لصرخات سأم صامتة وكأنه يضج ويعج بالأرواح غير المرئية.

ومع أن الجانب الأيمن من الممر تقاطعه أبواب مقفلة ذات فتحات علوية تشبه نوافذ الزنزانات ، لكن الإقفال الشديد للأبواب يشير لعدم وجود من يشغل تلك الغرف ، وكأن المكان عالم أسرار لا يكشف عن سره بسهولة.

- من أين نبدأ...؟ سأل الرائد آدم عبد السميع

فجأة تعالى صوت نسوي ، صوت جهوري فيه مرارة وحرقة أشبه بالأنين المشبع باللعنات:

- أيها الماءُ المجّ. أيها الغبارُ الخانق. أيتها النارُ المقدسة. أيها البحرُ الحكيم. أيتها الصحراءُ الشرهة الزاحفة كالأفعى. أيها الظلُ الحنون. أيتها الشمسُ اللاهبة ، لكم ذاكرتي المسكونة بالأشباح وبأهوال جحيم الانتظار في هذا المطهر الغامض. أما أنتِ ياتريزين ، يامدينةَ الحصى ، يامدينةَ الريح الساكنة. عليكِ لعنتي الأبدية..! عليكِ كل نيران الجحيم التي مررتُ بها. أنت يامدينةَ الأقنعة المزيفة والجرائم الغامضة ، والكهنة الفاسقين ، مدينة النساء المزيفات الشبقات الفاجرات ، والنساء المتزوجات اللواتي يوقدن الشموع في المعبد علانية بأبهة المؤمنات العفيفات بينما يزرعن القرون لأزواجهن في الخفاء ، والعذراوات اللواتي

يدّعِّين العفة والطهارة لكنهن ضعيفات أمام شهواتهن ، فهن يبكن للحظات بعد كل خطيئة ، ويندبن ضعفهن ، لكنهن يعيدن الخطأ الفاسق ثانية من دون تردد أو تأنيب ضمير..!! أنتِ ياتريزين ، يامدينة اللعنة والهلاك ، لتخنقك رياح الجحيم المسمومة والعاتية ، مثلما لعنتك الطبيعة بأن جعلتك رمزًا للزيف وللجدب.

سرتْ رعشة في أجساد الأشخاص الثلاثة الواقفين عند بداية الممر. كل منهم تقبل سيل اللعنات المخيفة وكأنها تشمله. آدم السيد عرف المرأة مباشرة ، فهي إيفا تريزين التي سمعوا صرخاتها حينما كانوا في مكتب الاستعلامات ، إنها المرأة التي عشقت ابن زوجها ، ابنها بالشرع ، وخلّفت مأساة ولعنة مسّت الجميع عبر القرون.

أما الرائد آدم عبدالسميع فقد انتبه لسذاجته وعجزه عن فك رموز أية جريمة مرت به وها هو الآن يواجه جرائم غامضة أخرى حدثت في مدينة لم يسمع بها ، اسمها تريزين ، مما أشعره بتعقّد مهمته إذ عليه أن يحل جرائم مدينة تريزين أيضا ويكشف لغزها.

وحتى إيفا ماجدولينا فقد اهتزت أعماقها بقوة ، إذ إن لعنات هذه المرأة قد مسّتها ، فكأنما هي المقصودة بالنساء الشبقات الفاسقات اللواتي يخونن في الخفاء ويشعلن الشموع في المعبد علانية ، لكنها أيضا المقصودة بالعذراء التي تدعي العفة والطهارة لأنها في فترة ما كانت ضعيفة أمام رغباتها التي لم تكن ترغب بها. وتذكرت سؤال الأشباح الثلاثة في الكهف المظلم عن تداخل الظلال في أعماقها.. وما الذي بقي في جوهرها ظل القديسة أم ظل المجدلية!..

التفتَ آدم السيد إليها. أدرك أنها تعيش تناقضات ومشاعر سيئة نتيجة لهذه اللعنات المهولة ، فهمس لها:

- لا تخافي... ستجدين ما جئت من أجله..! لكن عليك

بالصبر.. تماسكي ولا تخافي..

– هل نمضي...؟ قاطعه الرائد وهو ينظر بعدم ارتياح لإيفا ماجدولينا ، فانزعاجه الداخلي منها بدأ يسخن.

تحركوا بحذر في الممر باتجاه مصدر الصوت. كان الممر يتخذ أشكالا وديكورات غريبة وبسرعة فائقة ، فليس من ثبات للأشياء هنا. فقد اختفت الزنزانات الجانبية ، ومن دون أن يشعروا وجدوا أنفسهم في نفق يقود إلى مغارة ، حيث وصلوا إلى باحة مغلقة تشبه قاعة أو ديوانا للاستراحة في مغارة جبلية ، حيث هناك دكة صخرية دائرية عريضة في وسط الباحة المغلقة غطتها الأفرشة ، وثمة مصابيح زيتية تضيء المكان من كوات صغيرة في جدران المغارة الدائرية ، وثمة فجوات أشبه بفوّهات تقود إلى غرف جانبية ، وانتبهوا إلى سيدة أربعينية ذات ملامح مثيرة ، لكنها شاحبة بسبب المكان ، ترتدي ملابس غريبة تعود لقرون مضت ، لكنها ملابس تشير إلى نبل وثراء ومكانة.

كانت المرأة في حالة غضب ، وكانت قد صمتتْ للحظات عن صب لعناتها. فجأة انتبهت للقادمين الثلاثة ، ارتسمت علامات الفزع والاستنكار على ملامحها الغاضبة وصاحت بهم باستنكار واحتقار:

– من أنتم...؟ وأية لعنة جاءت بكم إلى هنا..؟

ثم التفتت نحو إحدى الفوهات الجانبية وصاحت منادية:

– أنت أيتها الساحرة الملعونة تعالي اسألي هؤلاء الغرباء الذين تطفلوا على مغارتي ، وتنصتوا إليّ وأنا أصب لعناتي على تريزين الملعونة!...

صُدم الزائرون الثلاثة بردّة فعلها ، ولم يستطيعوا أن يوضحوا موقفهم في اللحظات الأولى ، وقبل أن يتحدث أحد الرجلين لتبيان سبب مجيئهم ، فوجئوا بامرأة تخرج من تلك الفوّهة وهي تقول

بنبرة مطيعة وقلقة:

– نعم سيدتي.. نعم سيدتي..

والتفتت إلى مدخل المغارة ورأت الزائرين الثلاثة بملابس العصر الحديث ، فاستغربت ، لكنها استمدت من غضب سيدتها شراسة ، فقالت بغضب مفاجئ:

– من أنتم؟ وكيف وصلتم إلى هنا؟ وما هذه الملابس التي ترتدون؟ من أية جزيرة جئتم؟

ارتبك الزائرون الثلاثة. التفت الرائد محدّقًا بتساؤل في وجه صديقه وكأنه يقول له: « أجب..» عليك الرد ، فتردّد آدم السيد للحظات ثم قال:

– نحن من بغداد؟ جئنا ، أنا وصديقي الرائد آدم عبدالسيمع إلى فندق باب السماء باحثين عن قاتل هارب لدغته أفعى ، وعن أشخاص معينين ، أما هذه المرأة الشابة واسمها إيفا ماجدولينا فقد جاءت الفندق باحثة عن نفسها وعن شخصٍ آخر!....

فقاطعته السيدة الآمرة بنبرة متسائلة وهادئة قليلًا:

– بغداد...؟ وفندق باب السماء؟ قاتل لدغته أفعى في المطهر؟ امرأة شابة تبحث عن نفسها وعن أحدهم؟ عن أي بغداد وأي فندق تتحدث ، وأي قاتل وبحث عن النفس تبحثون هنا؟ من لا يعرف نفسه فكيف يعرفها هنا؟

ارتبك آدم السيد أما الآخران فارتبكا من رهبة المكان. انتبه هو لارتباكهما ، فالتفت موجهًا كلامه للسيدة الغامضة بنبرة محايدة ، من أجل كسب الوقت قليلًا إلى أن يتاح لهم مغادرة هذه المغارة ، وقال:

– بغداد مدينتنا ، سيدتي ، التي جئنا منها؟ وفندق باب السماء هو المكان الذي نحن فيه الآن..! أما القاتل الذي لدغته أفعى فهو من نبحث عنه كلانا أنا وصديقي ، وفيما يخص هذه المرأة الشابة

فهي جاءت المكان بشكل مفاجئ.. وكلنا عالقون ما بين عالمين.. عالم خارج هذا المكان ، وهذا العالم هنا في فندق باب السماء..!

بدا للمرأة صاحبة المكان أنها لم تفهم كلامه بالدقة ، فاستدارت نحوهم بكامل جسدها وسألت بنبرة آمرة:

- اِسمع.. لا أريد الاحتمالات والظنون ، وإنما اليقين..! أنا لا أعرف ما تعني بالفندق ، وإنما أعرف إنني في مطهر الخطايا المقدسة..! أتعرفونني من أنا؟

فقال آدم السيد بنبرة دافئة مؤكدة وكأنما يريد أن يهدأها ويكسب ودّها:

- نعم سيدتي. أعرف إننا في مطهر الخطايا المقدسة ، لكن الفندق هو بمثابة بيت الضيافة كما عندكم في تريزين!..

انتبهت السيدة له عند ذكر تريزين ، فقاطعته متسائلة:

- هل تعرف مدينتي الملعونة.. تريزين؟

- نعم.. وأعرف حكايتك كلها.. وأعرف حكاية زوجك وبطولاته وسفينته!..

ارتبكت حين ذكر بأنه يعرف حكايتها وحكاية زوجها فقالت بنبرة هادئة:

- زوجي هو بطل للآخرين ، لكنه بالنسبة لي كان شخصًا مضجِرًا ، وفي الوقت نفسه كان يعيش في سأم دائم..! الأبطال والآلهة هم أكثر الكائنات سأمًا وضجرا ومللًا..!! أما قصتي وعشقي لابن زوجي فتلك جريمتي.. أليس كذلك؟

صمت آدم السيد للحظات مفكرًا بالإجابة المناسبة ، ثم قال:

- أعتقد كل مَن روى حكايتك ، وكل من فسّرها ، توقف عند جريمة الانتحار أكثر مما توقف لعشقك.. فالعشق ليس جريمة؟

ارتسمت ملامح الدهشة على وجه السيدة وقالت بنبرة مستفسرة:

- جريمة الانتحار؟ ولماذا يُعدّ انتحاري جريمة؟ الحياة هي حياتي ولم أسلب أي إنسان آخر حياته لتكون جريمة..! اسمعني جيدا أيها القادم من العصور المظلمة..

الإنسان في الحياة وحده يعاني من سؤال وجوده ، وحده من دون أي معين.. حتى لو كان وسط عائلته وأحبته ، فكل من أفراد العائلة يعاني من سؤال وجوده وحده أيضًا ، وهو يلوذ إلى الآخرين هربا من الوحدة.. لا أحد يقف بوجه الموت ، فالأولى أن يوجه الإنسان السؤال عن طريقة حياته قبل أن يسأل عن طريقة موته!..

أحب آدم السيد طريقتها في تبرير انتحارها ، فالانتحار جريمة في نظر الأديان فقط..! فقال لها:

- أحد المفكرين في زماننا ، واسمه سيوران ، قال بأن المتفائلين هم الذين ينتحرون..!

- المتفائلون ينتحرون؟ عجبًا..

- نعم.. هو يقول إن المتفائلين الذين لم يعودوا قادرين على الاستمرار في التفاؤل ينتحرون ، أما الآخرون ، غير المتفائلين فلا يكون لديهم مبرر للموت ما داموا لا يملكون مبررًا للحياة!..

استمعت له بانتباه ، وصمتت للحظة ثم قالت:

- صاحبك هذا يهذي ويتلاعب بالكلمات.. ما معنى أن ينتحر المتفائلون..!! اليائسون هم الذين ينتحرون.. إنه اليأس.. اليأس هو الذي يمنحك القدرة على اختيار السبيل للخلاص من وجودك!..

-ربما هو المعنى نفسه.. فحين يكف الإنسان عن التفاؤل يقع في هاوية السأم واليأس..! وحينها يسير على حبل رفيع على جانبيه الشجاعة والجبن.

ومع أن آدم السيد يعرف أن هذه المرأة عاشت في زمن وثني وقبل ظهور الأديان ، لكنه مع ذلك سألها:

- ولكن.. الأديان التي ظهرت في عصور لاحقة قد اعتبرت

الانتحار جريمة.. وتذهب بصاحبها المنتحر إلى الجحيم.. ، لو سمحتي لي بسؤال سيدتي ، كيف أنت هنا ، في المطهر..!؟ كما لديّ سؤال آخر بماذا شعرت لحظة الانتحار.. أكانت شجاعة أم جبن وخذلان؟

فقالت بلامبالاة ومرارة وهي تنظر إلى شيء بعيد:

- لا.. لا أعرف شيئًا عما تتحدث عنه.. أية أديان تلك التي تتدخل في علاقة الإنسان مع جسده.. آه من السأم. السأم. والانتظار. الانتظار الذي تعب من الانتظار. لقد تجاوزت محنة وجودي في الحياة من خلال اليأس ، اليأس من معنى استمراري في الحياة.. ، لكن هنا في هذا المكان ليس لديّ سوى السأم ، السأم الذي هو أمرّ من اليأس ، السأم جحيم بارد ، أما السؤال عن الانتحار ، هل هو شجاعة أم جبن؟ فهذا ما لا يعرف كنهه سوى المنتحر في لحظة تحقيق فعل الانتحار. لكن ماذا تعرف عني..؟

صمت الجميع أمام كثافة السأم ومرارة الضجر في صوتها ، بينما ظلت المرأة الخادمة تتنقل بنظراتها الحائرة بين سيدتها وبين الغرباء ، في حين احتار آدم السيد كيف يجيبها. في تلك اللحظة همست إيفا ماجدولينا لآدم السيد سائلة:

- هل تعرفها؟ وتعرف زوجها أيضًا؟

التفت إليها لكن من دون أن يبتسم للسؤال الطفولي ، لكن نظراته كانت ناعمة ، وقال هامسًا:

- نعم.. أعرفهما.. فقصتهما معروفة في تاريخ التراجيديا الإغريقية!..

نظر الرائد لإيفا ماجدولينا بغضب مكتوم غير مبرر. بينما كانت هي تفكر بأن والدها كان بالتأكيد يعرف هذه المرأة فهو يعرف التاريخ جيدًا. انتبه آدم السيد إلى نظرة صديقه التي تشع حقدًا مكتوما ، لكنه فكر مع نفسه بأن الوضع لا يحتمل أن ينشغل

بهذه التفاصيل ، وتنبه بأن عليه أن يجيب السيدة التي يعرف أنها زوجة ملك تريزين ، فقال لها:

- لدينا روايات مختلفة عن مأساتك سيدتي!..

نظرت المرأتان بتعجب عند سماع ذلك.. وقالت السيدة:

- روايات مختلفة..؟ من رواها؟ أي مجنون فعل ذلك؟ ثم أنا جريمتي ليس في حبي لابن الأمازونية ، وأنما جريمتي تكمن في صمتي عن تبرئته حينما واجه عقاب زوجي بالنفي نتيجة أكاذيب خادمتي اللعينة هذه ، التي ذهبت إليه لتخبره بحبي وعشقي له ومحاولته اغتصابي..! جريمتي في صمتي..

فتمتم آدم السيد وكأنه يوافقها الرأي:

- ربما.. فالصمت عن الحقيقة يكون بمثابة خيانة في الكثير من الأحيان!..

في تلك اللحظة قالت الخادمة مدافعة عن نفسها:

- أنا لم أخبر أحدًا. أنا الآن في مطهر الخطايا.. وأعرف إنني كنت في الجحيم لأنني الطرف الثالث في هذ الحكاية.. فسيدتي وابن الأمازونية وأنا كلنا ندور في فلك هذه الحكاية..

فقاطعتها سيدتها بنبرة آمرة:

- لم أستطع أن آتي بالمعجزات ولم أتمكن من التخفيف عن المأساة.. لقد فشلتُ.. كنت أخطط للوقيعة به لكني سقطت في لحظة انتصاري..! بيد إن في هزيمتي كانت انتصاري أيضًا!..

- لم أفهم..!! سأل آدم السيد.

نظرت إليهم جميعا في نظرة شاملة ثم ركزت على إيفا ماجدولينا متأملة ، بينما واصلت حديثها:

- كنت منتصرة وأنا أرى هزيمة ابن الأمازونية وهو يتعرض لنقمة والده الذي قرّر نفيه ، لكني في تلك اللحظة كنت قد قرّرت أن اكشف عن برائته. وكنت مزهوة بانتصاري لقول الحقيقة ،

ففي قول الحقيقة سعادة وانتصار ، حتى لو كانت الأمور ليست في صالحك..! وفي تلك اللحظة رأيته مع حبيبته يودعها ، فتراجعت ولم أبرئه ولم أقل الحقيقة ، انهزمتُ ، لكني انتصرت حينما انتحرت. نعم. أنا أعرف إنني امرأة عاطفتها وشهوتها قادتها نحو الدمار ، ليس دمارها فحسب وإنما دمار كل شيء حولها!..

كان المشهد يبدو غريبًا ، فالخادمة واقفة بكل طاعة ، والرائد مرتبك لأنه لا يعرف شيئًا عن تاريخ التراجيديا الإغريقية ، وكذلك إيفا ماجدولينا التي تمنت لو أنها كانت قد قرأت عن الأدب الإغريقي ، فمعلوماتها عن هذه الشخصية وبشكل عام عن عالم الأدب الإغريقي ليس واسعة ، كما أنها في ارتباك وتوجس من غموض المكان وهول جريمة هذه المرأة.

في تلك اللحظة قالت الخادمة بهدوء وعلى استحياء موجهة الكلام أولا لسيدتها ثم إلى الزائرين الغرباء:

– رجائي لو سمحت لي سيدتي كي أكفّر عن خطاياي في هذه الحكاية ، بأن أروي الحكاية كما عشتها أنا!..

نظرت السيدة إليها نظرة متفحصة وقالت:

– هل هناك شيء غير الذي قلته أنا..؟

ارتبكت الخادمة قليلًا ، ثم قالت بتردد موجه كلامها إلى سيدتها لكنها كانت تنظر بين الفينة والأخرى نحو الغرباء:

– لستُ أنا التي ذهبتُ لتخبره بعشقكِ ورغبتك فيه ، ربما أنا التي حرّضتك على البوح. أنت أحببته منذ أن رأيته وجئت عروسة إلى تريزين ، لكنكِ كتمت حبك ، بل إزداد شوقك وحبك لأنك كنت ترينه كل يوم ، لكنه كان من أتباع ومريدي آلهة العفة ، بينما آلهة الحب والرغبة أرادت الانتقام من غريمتها الآلهة الأخرى بأن تشعل النار في قلبك الطاهر. أنتِ قاومت شهوتك بكل نبل ، وحافظتِ على نبل مشاعركِ ، وكنتُ أراكِ تتحرقين شوقًا له ، إلى أن سافر

زوجكِ في رحلته الشهيرة ، وجاءتْ الأخبار بعد سنة بأن قضى أجله ، وصار حضور ابن الأمازونية إلى قصركِ يوميًا تقريبًا ، من باب إبداء اهتمامه بزوجة أبيه التي بمقام أمه ، وتأجج شوقكِ له ورغبتك فيه أكثر فأكثر..

بل إنك كدتِ تنهارين صحيًا ، ورأيتُكِ تذوين جسديًا أمام عينّي ، وربما جريمتي إنني أقنعتك بمفاتحته ، فطلبتي مني أن استدعيه لغرفة نومك ، وهذا ما فعلته. لم أخبره بحبكِ له ولا عن سر دعوتكِ له ، أنت أخبرته بذلك حين كنت متأججة الروح والجسد في غرفة نومك ، لكنه رفض ، فهو كما تعرفين يعرض عن النساء تقديسًا لآلهة العفة والطهارة ، لكن قدره التعيس أشعل فيه الغضب ، فنسى سيفه في مخدعك من شدة رفضه لإرواء رغبتك وعجلته في الهروب منك ، واتضح في اليوم نفسه أن زوجك لم يمتْ ، وجرى كل ذلك بضربات متلاحقة للقدر في ذلك اليوم نفسه..

لذلك طلبتِ مني ، بل أمرتني بأن أخبر والده بتحرشه بك ، وأن اختلق حكاية اغتصابك ، فأخذتُ السيفَ كدليل ، لكنك من شدّة خوفك وخجلك من عارك وهول جريمتك انتحرت بتجرع السم ، فتأكدت جريمة ابن الأمازونية ، ونفي ، وطلبَ والده من آلهته أن تنتقم من ابنه ، فانتقمتْ. لكنكِ للتكفير عن جريمة الانتحار كتبت رسالة تبرئته ، لذا لم تقيمي في الجحيم وإنما جئتي مطهر الخطايا. هنا. وجررتني معك.

- اسكتي. أيتها الأفعى..! صرختْ السيدة بنفاد صبر.

في تلك اللحظة تدخل آدم السيد قائلًا ، ومؤيدًا حكاية الخادمة:

- قرأت عن هذه الحكاية.. إنها الحكاية الأخرى عما جرى في تريزين..

في تلك اللحظة ، وعلى غير توقع نظرت السيدة إلى إيفا ماجدولينا وسألت مستفسرة:

- وأنتِ أيتها المرأة الجميلة ، التي جاءت مطهر الخطايا المقدسة بكامل زينتها ، ما حكايتك..؟ هل لديك خطيئة جاءت بك إلى هنا؟

ارتبكتْ إيفا ماجدولينا ، ولا إراديًا نظرت إلى آدم السيد مستفسرة وحائرة ، فقال لها مشجعًا وفي عينيه نظرة تشجيع:

- تكلمي.. لا تخافي.. نحن هنا معك.. أنا معك!..

شعرت بشيء من الجرأة ، بينما شعر الرائد بالغيرة لإهماله من قبل السيدة ، وقبل أن تنطق إيفا ماجدولينا بشيء قالت السيدة لهم:

- يا لسهوي.. اعذروني.. لم أقدم لكم بما يليق من ضيافة.. تعالوا اقتربوا.. اجلسوا هنا على هذه الدكة التي أمامي!..

اقتربوا إلى وسط الباحة ليجلسوا على دكة حجرية كانت تحيط بالباحة من كل جوانبها الدائرية. وحين جلس آدم السيد تعثرت إيفا ماجدو لينا قليلًا قبل أن تمسكها السيدة لتجلسها بنفسها على الدكة إلى جانب آدم السيد ، بينما جلس الرائد منزعجًا نوعًا ما إلى الجانب الآخر.

استغربتْ الخادمة موقف سيدتها ، لكنها عرفت أن هؤلاء الغرباء ليسوا من سكنة مطهر الخطايا المقدسة فوجوههم نظرة ، بينما وجهيهما ، هي وسيدتها ، شاحب شحوب الموتى ، فالمرأة الشابة متبرجة ، وانتبهت إلى أظافرها الملونة باللون البصلي ، وقلادة تتدلى على صدرها.

نظرت السيدة إلى الغرباء الثلاثة نظرة متفحصة ، ثم ركزت نظرها على إيفا ماجدولينا ، وسألت:

- تحدثي.. ما هي حكايتك؟ إنني أسمعك؟ أنت صغيرة جدًا

في أن تكوني هنا في هذا المكان.. في هذا الجحيم.. جحيم الانتظار!..

كانت إيفا ماجدولينا مرتبكة في كيفية البدء بالكلام. نظرت تائهة إلى أرجاء المكان ، ثم خفضت رأسها وقالت بارتباك وببطئ:

- لا أعرف كيف أتحدث.. لست مؤهلة للحديث الطويل عن نفسي.. لكني سأسعى..

حدّقت السيدة في وجهها من دون أن يرف لها جفن ، وقالت:

- تكلمي.. على الأقل.. بحديثك ستنقذينني من ثقل لحظات الانتظار شبه الأبدي!

أطرقت إيفا ماجدولينا برأسها وقالت:

- ربما حديثي لن يروق لك.. وستملّين منه.. وربما ستعتبرينه تفاهات امرأة ساذجة..!؟

- تكلمي أولًا.. ودعي الأحكام لأصحابها.. هذه مشكلة من يسمع الحكايا!..

أحسّت إيفا ماجدولينا بشيء من الدعم النفسي فقالت:

- شكرًا لك.. لكن واللّه لا أعرف كيف أتحدث؟

ارتسمتْ ملامح التعجب على وجه السيدة وقالت:

- اللّه..؟ من هذا الإله الذي تقسمين به؟

رفعت إيفا ماجدولينا رأسها مستغربة وقالت ببراءة:

- إنه الإله الأحد..

- أتقصدين رب الأرباب زيوس.. أم تقصدين كاوس؟

- كاوس؟

نظرت السيدة للزائرين الثلاثة نظرة متفحصة ، وقالت:

- ألا تؤمنون بكاوس..؟ إنها الربة الأولى للكون.. ربة الفراغ والظلام ، والتي أنجبت الكون..! لكن دعينا من كل هذا.. فمهما كانت آلهتك أو ربك.. حدثيني عن نفسك!..

من بين الزائرين وحده آدم السيد فهم ما قصدته السيدة. ارتبك الرائد آدم وإيفا ماجدولينا التي واصلت بصوت خفيض ومحايد وكأنها تتحدث عن شخص آخر:

– أنا انتمي لعائلة كبيرة من ناحية الأم والأب.عائلة ينحدر كل من ينتمي إليها إلى رجال الدين والرهبان والقساوسة ، هؤلاء أثروا فيّ بشكل سلبي بحيث صرت غير مؤمنة بالدين ، لكني مع ذلك أحب المخلّص.. والمُثير للسخرية هو بأني في فترة ما أردت أن أدخل الدير وأصبح راهبة.

المهم ، عائلتي كانت غريبة بعض الشيء. والدتي في صغري كانت مهملة ، وتكره البنات ، وحتى إنها كانت قد ألقت بي في الميتم في فترة ما من صغري. نشأتُ في عزلة ، عزلة لم تعزلني عن حب أبي الحنون جدًا ، ووجدت في هذه العزلة ما يمنحني الوقت في التفكير بنفسي ، لكنني وجدت نفسي تائهة ومشتتة.

تربيتي كانت دينية ، وصارمة بعض الشيء عقائديًا ، عقائد وعادات لا يُقبل النقاش فيها ، حتى لو كانت غير منطقية ولا يتقبلها عقلي ، فهي صائبة جدًا ودائمًا ، لكن جاءت فترة حين تكشف لي زيف الكثير من دعاة الأخلاق والدين ، وأخذت أسال نفسي أسئلة عن اللاعدالة في هذا العالم ، ووصلت شكوكي إلى العدل الإلهي ، لكن حينما كنت أسير في هذه الحياة من دون إيمان بإله أو عقيدة أو حتى خالق ، كنت أشعر بأنني ضائعة ، بلا هدف ولا غاية. العدمية التهمتني. وقد وصلت في نهاية المطاف إلى استنتاج وقلت لنفسي: آمني بالمخلّص حتى إن كان أسطورة أو شخصًا عاديًا ، آمني بالله حتى إذا كان مجرد وهم ، فالوهم الجميل هذا أفضل من الحقيقة المؤلمة التي تعذبني..!.

لم أجد من حنان في عائلتي سوى عند أبي وأختي الكبيرة ، وحينما رحلا عن ذلك العالم خارج الفندق فقدتُ توازني ، ومن

دون حنان ، وقوة روحية. كنت أسعى للزواج بشخص يُخلصني من عائلة الأشباح المعقدة هذه ، وحدث أن عرّفتني أختي على صديق من معارفها ، وتحدثنا ، ونشأت بيننا علاقة مودة ، وتقدم لخطبتي ، إلا إن لديّ أخ شرير ، مليء بالحقد والعقد ، فتدخل لينهي كل شيء بيني وبين من كان يفترض أن يكون خطيبي ، أي قبل أن تبدأ الأشياء. بعد ذلك أُصبتُ باليأس الذي يقود إلى اللامبالاة ، . وتمرّدتُ على عائلتي ، فبدأتُ أسعى لإقامة علاقات افتراضية. ظننت إنني سأجد الحب ، وبأني سأصبح حُرة من عُقد عائلتي ، لكنني كنت واهمة ، فكلمات الحب لدى الرجال ليست سوى قناع ومخدر للوصول إلى جسد المرأة ، ولم تستهويني لعبة الجديث عن الجسد ، بل قرفتها. وقد خنقتني تلك العلاقات التي اعتقدت بأنها سوف تُحررني ، ووجدت نفسي أفقد الكثير من إيماني بنفسي ، أفقد إيماني بالحُبّ ، وقرفت الرجال ، ويأستُ من الأخلاق المزيفة والوعود الكاذبة. كرهت العلاقات العاطفية ، بل وزادتني عقدًا نفسية. عصرنا مُظلم ، لقد مات الحُبّ الحقيقيّ فيه ، لقد قتلته غرائز الرجال الطائشة.

نظرت السيدة إلى الغرباء الثلاثة ببرود ، وكأنها استغربت من حكاية إيفا ماجدولينا ، وقالت:

- البشر كائنات عجيبة ، يريدون الطيران والتحليق عاليًا ، بينما يتعثرون كالعميان على الأرض! هم يطيرون في الأحلام لكن الكوابيس على الأرض تحيطهم ، لا يتعلمون من عثراتهم ، ومن الحفر التي انكبوا على وجوههم فيها ، ذاكرتهم قصيرة جدًا. فكل الحيوانات ، على ضعفها المهول كالنملة ، لا تنسى ولا تتيه في الدروب ، إلا البشر فهم يتجهون إلى الهاوية بوجوه مبتسمة ساذجة ، وهم على يقين بأن خياراتهم صحيحة جدًا..!..

رد آدم السيد عليها مؤيدًا وهو يقول:

- لدينا مثل بغدادي ساخر يقول شيئًا بهذا المعنى: بعضهم مثل الديك.. قدماه في الخراء لكنه يعوعي.. أي يطلق صوت: كوكو كوكو..! يظن أنه أيقظ الشمس من سباتها!..

- أمثالكم عجيبة...! لكنها حكيمة.. تمتمت السيدة بصوت خافت.

تضايق الرائد عن هذا الإهمال المقصود وغير المقصود ، فهو يريد أن يكون موضع اهتمام أيضًا ، فخاطب السيدة قائلًا:

- أنا أستطيع أن أحقق في مسألة انتحارك ودوافعه وما خلفه من أسرار محتملة ، فلربما كانت هناك مؤامرة ضدك شاركتْ بها خادمتك هذه بالاتفاق معه ، لإزاحتك ودفعك للانتحار.. ولربما كانت مسألة عودة زوجك حيًا أكذوبة! فهو لم يرجع قط ، وإن ابن الأمازونية أراد الزواج من حبيبته ومن ثم ليعتلي العرش لكن وجودك كان هو العثرة ، لذا اتفق مع خادمتك لاختلاق قصة عودته والتهديد بالفضيحة ، بأنه سيخبر والده.. فدفعك للانتحار..! هل تأكدت حينها من عودة زوجك حيًا؟ هل قابلته؟..

- لا..! ردت السيدة لا إراديًا.

كان لوقع كلماته تأثير على السيدة التي نظرت إلى خادمتها نظرة مخيفة وسألت:

- ماذا تقولين في هذه التهمة ياوجه البومة..؟ فأنا حقًا لم أتحقق من عودة زوجي.. ولم أقابله بعد عودته!..

ارتبكت الخادمة وارتسمت ملامح الهلع على وجهها وقالت:

- ما هذا الكلام ياسيدتي.. اتشكين فيّ وأنا تبعتك إلى أغوار الجحيم ، وها نحن قد خرجنا منها سوية وأنا اتبعك في مطهر الخطايا المقدسة..!!؟ هذا الغريب رجل مهووس يتخيل القصص والاحتمالات.. إنه يهذي ويتحدث عن ترهات!..

هيمن صمت بارد على المكان للحظات. شعر الرائد بالإهانة

لكنه صُدم من ردة فعل السيدة التي بدا أنها اقتنعت بكلام خادمتها لذا فقد تجاوزت الأمر ونظرت إلى إيفا ماجدولينا قائلة:

- واصلي حديثك أيتها المرأة الباحثة عن نفسها..! لكن قولي لي هل أنت فعلًا تبحثين عن نفسك أم أنت تكذبين على نفسك بمسألة البحث..؟

كان الرائد يغلي في داخله غيرة من إيفا ماجدولينا ، وشعر بغضب مفاجئ لم يستطع السيطرة عليه ، فقام عن مكانه وقال بنبرة فيها غضب ورد فعل متأخر قليلًا على كلام الخادمة :

- هذه إهانة لي.. أنا لا أهذي وحديثي ليس ترهات..؟ إنكم تستمعون إلى تفاهات هذه الفتاة الغامضة من دون أي استفسار عن هويتها وعن حقيقة ما ترويه ، بينما حين أتحدثُ أنا بحقائق واحتمالات علمية في علم التحقيق الجنائي تقول هذه الخادمة بأنني أهذي؟

وتوجه إلى خارج المغارة. لم يعرف آدم السيد ماذا يفعل ، فقد أعجبه حضوره عند إيفا تريزين بطلة تلك التراجيديا التي أثارته في شبابه حين قرأها. نهض بدوره ، بينما بقيتْ إيفا ماجدولينا جالسة للحظات متفاجئة من كم الغضب والبغض الذي عبّر عنه الرائد ضدها ، لذا لم تود المغادرة ، لكنها لا تستطيع أن تبقى هنا وحدها ، ووجدتْ نفسها تنهض متتبعة آدم السيد الذي التفتَ إلى السيدة وخادمتها ، وقال وهو يغادر المغارة ليبحث عن صديقه:

- عفوا منكما.. أعذراه فهو حساس جدًا.. ربما سنلتقي ثانية!..

ثم واصل طريقه مغادرًا. بعد لحظات تبعته إيفا ماجدولينا.

★★★

حين غادر آدم السيد المغارة ، وجد نفسه في ممر هو أقرب إلى ممرات أي فندق من الدرجة الأولى ، حيث تتوزع آرائك وطاولات على جانبيه ، ومزهريات زجاجية مليئة بزهور النرجس مختلفة

الألوان ، وإضاءة خفيفة رومانسية هادئة تهيمن على المكان.

كان هو منشغلًا بتأمل المكان الغريب. رأى إيفا ماجدولينا مقبلة ، شعر بالشفقة عليها ، ثم تلفت وكأنه يبحث عن صديقه الرائد آدم عبد السميع الذي خرج مستاءً.

لم يكن يعرف إلى أين يذهب كي يجد الرائد ، لذا جلس بانتظاره لأنه فكر بأن صديقه سيرجع أيضًا مفتشًا عنه ، فجلس على مقعد جلدي حول طاولة هناك. ظلت إيفا ماجدولينا واقفة احترامًا منتظرة دعوته للجلوس ، وفعلا قال لها بلطف:

- اجلسي!..

جلستْ على المقعد الجلدي الوثير المقابل له ، وتلفتتْ في المكان الرومانسي غير مصدقة ، فقد كان هنا نفق يقود إلى المغارة ، ولم يكن كل هذا موجودًا. ووجدت نفسها تسأله:

- كأنني في حلم.. ولا ينقصني سوى فنجان قهوة!..

نظر إليها وقال وعلى وجهه ابتسامة خجولة:

- نعم أنت محقة.. كأننا في حلم.. ولكن مع إني أحب الشاي لكن لا ضير في أن أتمنى شرب القهوة معك..

نظرت إليه وكأنها تفكر في شيء تود قوله لكنها تتردد. انتبه هو إلى ذلك.. وسألها:

- ما بك؟ وكأنك تودين أن تسأليني عن شيء ما لكنكِ مترددة؟

ارتسمت علامات الدهشة على وجهها وقالت:

- نعم راودني سؤال في المغارة لكني خفت أن اسأله في حضرة تلك المرأة النبيلة..

- ما هو؟

ترددت إيفا ماجدولينا للحظات ثم سألت:

- هذه المرأة كانت متزوجة... فلماذا عشقت شابًا بعمر ابنها ، بل هو ابنها شرعًا؟

ارتسمت علامات الاهتمام والتأمل على وجه آدم السيد للحظات ثم قال:

– ألم تنتبهي حينما مدحتُ زوجها وبطولاته كيف ردتْ عليّ، حين قالت: «زوجي هو بطل للآخرين، لكنه بالنسبة لي كان شخصًا مضجرًا، وفي الوقت نفسه كان يعيش في سأم دائم..!»..؟

– وماذا يعني ذلك..؟

– يعني أنهما متزوجان، لكنهما لم يكونا سعيدين... بل ربما في البداية ككل الأزواج، يكونوا سعداء ومتلهفين للجنس والأمومة والأبوة.. لكن مع مرور الوقت يذبل كل شيء، ويفقد بريقه الأول، فحتى الذهب والفضة يفقدان لمعانهما وبريقهما بمرور الوقت!! فالروتين والضجر يتسرب إلى العلاقات البشرية، فالإنسان كائن ملول..! وربما عدم اهتمامه بها وانشغاله بالحكم والسفر والصيد جعلها تشعر بالإهمال، وربما أيضًا جسدها المتقد يحتاج لحطب الروح، أما لماذا ابن زوجها، ففي تلك الأجواء كان هو المتاح أمامها، وربما هو ذكّرها بعطشها..!

هي مثل النساء المحكوم عليهن بالجلوس في البيت أو مقيدات الحركة، فليس أمامهن سوى أي رجل قريب أو في زماننا أي رجل يدخل على المرأة في صفحات وحسابات وسائل التواصل الاجتماعي، فتجد الفتاة أو المرأة أمام الإغراء في الانخراط بعلاقة ما، وكثيرًا ما يكون الرجل رجلًا وهميًا، واسمًا وهميًا!..

في أثناء حديثه كانت علامات الاهتمام والغرابة ترتسم على وجهها، وحين توقف قالت له بشكل مفاجئ:

– أتعرف.. أنا كنتُ أرى أحلامًا وكوابيس تتكرر كثيرًا، أقصد حينما كنت خارج الفندق..

انتبه لها وسأل:

– وماذا كنتِ ترين في منامك بشكل متكرر..؟

استرخت في جلستها ، وسرّحت بصرها في البعيد ثم قالت:

– عادة كنت أرى نفسي في بيت مهجور.. في صالة شبه معتمة.. لكنها تقود إلى ممر مظلم وغرف مظلمة.. وأرى وكأن روحًا شريرة تقودني بالقوة إلى ذلك الممر وتلك الغرف..

نظر آدم السيد إلى وجهها المتناقض ، وإلى نظرتها الطفولية وإلى شفتيها الشهوانيتين ، وقال لها:

– وفق قراءاتي في كتب تفسير الأحلام الحديثة فالبيت المظلم هي أعماقنا المظلمة.. والروح غير المرئية النارية المخيفة هي تجسيد لفكرتنا عن الخطيئة والرغبة..

صمتتْ إيفا ماجدولينا ، لكن بدا أنها تفكر مع نفسها في تطابق تفسير آدم السيد مع ما تشعر هي به في أعماقها ، ثم قالت:

– هذا تفسير مهم ، لكن لماذا يقودني بالقوة من دون رغبتي..؟

نظر هو إليها ، وفكر مع نفسه باحثًا عن أقل الكلمات والتعابير حدّة ومباشرة ، فقال لها:

– مما سمعته عند حديثك عن نفسك قبل قليل إنك في أعمق أعماقك لا تريدين عالم الظلام ، عالم الغرف المظلمة والقاع المظلم ، قاع الرغبة المنفلتة ، وأنما تريدين شيئًا نظيفًا ، ولأنك لم تجدي عالم الضوء ، ولأنك بقيت لفترة في تلك الأعماق المظلمة ، فأحيانًا تُقادي إليها عنوة ، فإذا بقيتي لفترة طويلة من دون علاقات تجدين نفسك منجذبة لا إرديًا من قبل ذاكرتك للرجوع إلى تلك الغرف التي يقطنها أناس ربما تعرفينهم وأساءوا إليك ، وعلى الرغم من مقاومتك بعدم الانجرار والذهاب مع الروح الشريرة لكنك ما زلت في ذلك المكان ، ولم تغادريه حتى وإن لم تذهبي للممر أو الغرف المظلمة!...

صمتت وكأنها أدركت مصداقية هذا التفسير ، وسألت:

– وهل هذه الروح اللامرئية غريبة عني.. من هي..؟

صمت للحظة وهو ينظر إلى وجهها المرسوم بدقة ثم قال بهدوء:

- هي أنت أيضًا.. هي رغباتك التي تضج بها أعماقك.. هي تجسيد لمشاعرك العدوانية تجاه نفسك.. رد فعل ضد إساءة تعرضتِ لها.. لغدر.. لإهانة تعرضت لها مشاعرك الصادقة والبريئة ، وأردتِ بدورك أن تقضي على ما تبقى من تلك المشاعر في أعماقك!..

فقاطعته إيفا ماجدولينا بصوت طفولي وبنبرة فيها توسل وعناد:

- لكني لستُ عدوانية ، على العكس أنا أعاني من خوف مبطن من الآخرين ، فابتعد بقدر ما استطيع عن الآخرين ، وبصراحة ، في داخلي ثمة خجل مكتوم من الآخرين لا أعترف به على الرغم من تهوري أحيانًا ، لذا أسعى إلى الابتعاد عنهم ، وإذا لم يعجبني أحد لا أطيل في علاقتي ، ليس تكبّرا ، لكني مزاجية ، أو بالأصح أنا انتقائية. لست انعزالية ولا حتى اجتماعية وإنما اختار الأشخاص الذين ارغب في رفقتهم بحذر ، وأحيان كثيرة وغالبا ، وبالرغم من انتقائيتي ، فأني أخطأ في اختياراتي ، برغم قراري ألّا أكرر الخطأ ، وقد قالت السيدة شيئًا حكيمًا: نحن البشر لا نتعظ.

صمت آدم السيد بينما كانت هي تنظر لوجهه منتظرة أن يقول شيئًا ، وكانت تحس وكأن كلماته نبؤة عن وضعها ، في أثناء ذلك كان هو يبحث عن كلمات يكون وقعها أقل ثقلًا وإحراجًا ، فقال:

- اعذريني على ما سأقوله ، ما تصفينه هو انعكاس لا واعٍ لصراعك النفسي الداخلي ، أنت تقسين على نفسك بطريقة لا واعية أيضًا ، فأنت على الرغم من جمالك وجاذبيتك تجدين نفسك لست في محل التنافس ، ولا تريدين أن تتنافسي مع أحد ، وانطوائيتك هذه فيها شكل من أشكال اللاثقة في النفس ، بل

ربما هي عقدة من عقد النقص التي لديك ولدى كل منّا.. لذلك فأنت لا تسعين لإقامة علاقات نتيجة لهذه الخصومة مع نفسك اللاواعية..!

أو لأكن أكثر دقة. أنتِ تمردتِ لأنك عانيت في حياتك ، بل أردت الانتقام لتدخل أهلك وأخوك بالتحديد لإبطال خطوبتك. تمردك كان تمردًا اجتماعيًا وليس تمردًا فكريًا وروحيًا ، فقد تغيّر شكل حياتك اجتماعيًا بشكل انقلابي ، من فتاة خجولة بريئة إلى متهورة ، ومع ذلك فأن أفكارك لم تتغير ، لأنك تخافين مواجهة أفكارك وشكوكك. أنت حرة اجتماعيًا في الخروج واللبس وربما بالتعرف على الرجال وممارسة تفاصيل الحياة الحديثة لكنك ، لا تزالين عبدة للتربية المتزمتة التي نشأت على قواعدها ، فعائلتك دمرتْ شخصيتك ، وألغتْ خصوصيتك ، والمشكلة إنك تدركين هذا التناقض ، لكنك تتفقين مع التبرير بأن تحررك لا يعني التمرد على جذورك ، على مخلّصك ، فمثل هذا الأمر لا يقبله عقلك الديني في جوهره!...

ارتسمت ملامح الخوف والحزن على وجهها وقالت:

– لا أعرف إن كنتُ كذلك؟ صدقني أنا لا أعرفني..

نظر إليها بحنان وقال محاولًا أن يطيب من خاطرها:

– أعتقد إنك عانيت أو تعانين شعورًا لا واعيا بالذنب ، وتشعرين بأنك مقصرة في شيء ما ، وحين لا تستطيعين التأكد من ذلك يتحول شعورك إلى رغبة في معاقبة النفس ، لكن بالانطواء أكثر ، وإغلاق كل النوافذ على النفس ، والشعور بأنك غير قادرة على مواصلة الحياة العاطفية بعد فشلك فيها ، وبأنك غير قادرة على إقامة أية علاقة أخرى في حياتك؟

والمشكلة تكمن فيكِ ، وربما تحررك المبالغ فيه من خلال الكلام والإدعاء بالتحرر والتمرد يجعل كل من ترتبطين معه بعلاقة

يعتبرك امرأة سهلة وفي متناول اليد ، لذا لا يفكر بإقامة علاقة جادة معك ، وإذا ما أقامها شخص أو اثنان فلأنك امرأة جميلة ومغرية ، وربما يجدان عندك أرواء لبعض عقدهما النفسية.

رفعت رأسها إليه بدهشة وقالت:

- أنا لم أخبر أحد بما فعلته أبدًا..! فخارج هذا الفندق أرتدي الأقنعة ، لكن لإني الآن في المطهر فقد أفصحتُ عن كل شيء. وأنا في الواقع لم أكن أبحث عن الارتباط الجاد ولا الزواج والاستقرار فكل ما فعلته مازلت أجهل سببه. أدّعي إنني أعرف الدوافع بأني كنت انتقم من نفسي وعائلتي حينها أو ربما أحاول أن أقلّد صديقاتي ، لكن يبدو لي أن هذا ليس كل شيء ، لكن لديّ سؤال لك: هل تعرفني سابقًا؟ أنت تتحدث عني وكأنك تعرفني!..

فوجئ بدهشتها وسؤالها ، وقال:

- لا أدري. لقد اندهشتُ عند أول مرة رأيتك تدخلين الفندق..! لقد شعرتُ ، وما زلت أشعرُ ، بأنني رأيتك في مكان ما ، أو التقيتك في زمان ما..! ففي لحظات عزلتي استشعر وجود كائن ما يشبهك..! أنا إنسان وحيد برغم الضجيج الذي حولي ، وأحتاج شعلة روحية تساعدني على السير في دروب الحياة المعتمة. ليكن وهمًا جميلًا ، لا ضير ، مع أني أرى هذا الوهم الجميل يتجسد فيك ومن خلالك في مطهر الخطايا المقدسة ، فأحيانًا أشعر بأنني عشت في قرون مختلفة ، بل أشعر بما يشبه اليقين بأنني كنتُ كاهنًا في أحد معابد سومر أو في أحد معابد الهند ، وفي روما. لا أعرف ، أرى كل تلك الأمور بوضوح!..

لا شعوريا مدّت ذراعها إليه فمسك كفّها لا إراديًا ، وكأنما بتلك اللمسة الخفيفة قالا ما لم تستطع الكلمات التعبير عنه ، وقالت له بلطف ومودة:

- عليك أن تروي لي ذلك بالتفصيل المُمل.. لأنني استحضر أحيانًا أشياء مماثلة.. في معبد سومري.. وفي معبد هندي.. بل وفي أماكن أخرى..وأبعد من ذلك..في سفينة نوح.. وأرى الكثير أمام عيني الداخلية كما أراك الآن!..

- في سفينة نوح؟ أنا كنتُ دبًا أبيض في سفينة نوح..!

- وأنا كنت قطة.. بزونة..!

- ماذا؟

نظر إليها بدهشة وكأنه اكتشف شيئًا ، لكنه بقى صامتًا. مرتْ لحظات.. سحب كفه فجأة حينما سمع خطوات مقبلة عليهما. وفوجئا بوصول الرائد آدم عبدالسميع راجعًا ، والذي صُدم حينما وجدهما بهذا القرب من بعضهما. وقال:

- أين كنتما.. كنت أبحث عنكما.

- نحن هنا نتظرك..

- علينا الذهاب فلقد سمعت صراخات ولعنات امرأة في زنزانة في آخر ذاك الممر من الجهة الأخرى!...

- امرأة أخرى...!؟ صاح آدم السيد ووقف من هول المفاجأة.

نظرت إيفا ماجدولينا مستفسرة وقالت:

- هل هذا يعني إن هناك غير تلك المرأة وخادمتها..؟

نظر إليها الرائد ببرود وقال:

- هذا ليس من شأنك!

استغرب آدم السيد نبرة صوت صديقه والجملة التي وجهها نحو إيفا ماجدولينا ، ولم يسأله عن ذلك ، لأنه كان متلهفًا لمعرفة هوية تلك المرأة.

وغادروا المكان.

الفصل الرابع
الحداد يليق بإيفا كليتمنسترا آرجوس.. أميرة الكراهية والانتقام

حين انعطفوا في الممر الجانبي كانت ثمة كلمات غير مفهومة تصل آذانهم ، وكلما اقتربوا اتضحت الكلمات التي تنطلق من أفواه تبتهل وصوت أنثوي غاضب يرد عليها وكأن المكان يضم أكثر من شخص.

صاروا عند المكان الذي تنطلق منه الأصوات ، فتنبهوا إلى أن المكان قد تغير فلم يعد ممرًا لفندقٍ حديث ، وأنما وجدوا أنفسهم أمامَ بهوٍ حجريٍ شبه بدائي يقود إلى صالة مرمرية فارغة ، صالة أشبه بقاعات للاجتماعات والاحتفالات الرسمية في العصور القديمة ، كما في صور الآثار المتبقية من تلك الأزمنة ، وكان هناك في صدر الصالة ما يشبه العرش الحجري ، وفي وسط تلك الصالة ثمة موقد لنيران تشتعل.

دخل الثلاثة بحذر شديد ، بينما كان ثمة أصوات متداخلة تنطق بنبرة ونغمة واحدة وهي تنشد بصوت شجي:

– أيتها الأرض.. أيتها الأرض.. ليتك أخذتينا إليك قبل أن تأخذي ملكنا الذي اغتيل غدرًا..! من سيدفنه؟ ومن سيبكي؟ هل ستفعلين ذلك يامن قتلتِ زوجك؟ هل ستبكي وتتوجي جريمتك الدنسة بجميل غير مشكورة عليه ، تسدينه لروحك تكفيرًا عن أفعالك الوحشية؟

حين تجاوزوا الموقد رأوا امرأة أربعينية مثيرة القسمات ، ذات شعر أسود كث ، وعينين سوداوين واسعتين تحفهما رموش سود واضحة للناظر ، تجلس على عرش منحوت من الصخر في عمق

القاعة ، وكانت تنصت غاضبة لما يقال لها من أصوات مجهولة تأتي من اللامكان.

رأت الغرباء الثلاثة يتقدمون ، لكنها في تلك اللحظة لم تعرهم انتباها وإنما التفتت تنظر إلى جانبي القاعة وكأنها ترى أشخاصًا غير مرئيين ، قالت بصوت عال وغاضب:

– لقد كان ما كان.. وما كان كان لا بد أن يكون ، وهكذا كان لا بد من فعل ما فعلناه..! ألا تفهمون أيها الشيوخ العجائز ، لقد تركني وحيدةً وذبح ابنتي قربانًا لغروره ولكبريائه المقيتة. أعرف إنني لم أصن شرفه ولم أصمد أمام الكلام المعسول الرقيق لذلك التافه ، ذلك الممثل لدور العاشق الذي كان هدفه الانتقام من زوجي ، من خلال تدنيس فراشه الزوجي ومن ثم استخدامي في قتله..!

أعرف ذلك. هو أراد الانتقام من زوجي لأسباب تخص الثأر بينهما ، وأنا أردت الانتقام منه لأنه ذبح ابنتي البريئة بلا رحمة.. ولكل منا أسبابه ، ولم نجد ميدانًا للانتقام سوى فراش الزوجية الذي أردتُ تحطيم كبرياء زوجي فيه. وحين عاد بعد أن ألقت الحرب أوزارها أنقضضنا عليه..!

نعم. نعم. ربما أنتم محقون. لقد بكيت كثيرًا. بكائي ودموعي الصادقة هي التي جاءت بي من الجحيم إلى هنا ، إلى مطهر الخطايا المقدسة. نعم. كنت انتظر ، خلال سنوات الحرب ، على سطح قصري هذا ، كنت منتظرة الإشارة المتألقة الآتية بالبشارة من تلك المدينة الملعونة التي حاصرها جيش الإغريق لسنوات ، كنت انتظر حتى تعلمت سرَّ سير نجوم الليل وعوائلها وتجمعاتها. أنا إيفا كليتمنسترا زوجة قائد جيوش الإغريق ، لم أصن فراشي الزوجي الذي كان يُبلل بالندى وبأوراق الورد ، فصار الخوف والانتقام هما ما يقفان كشبحين فوقه.. آه.. وكأن جريمة القتل

التي كانت مهرجان خلاصي وعرس انتقامي قد انطفأت جذوتها.

وبعد لحظات صمت قليلة جاء الصوت الجماعي من اللامكان مرة أخرى:

– إنك لمتغطرسة الروح ياإيفا كليتمنسترا .. لقد أصابتْ الجريمةُ البشعة عقلكِ بلوثة.. كيف تبررين جريمتك النكراء؟ ألأنه من أجل انتصار الإغريق قدم أعظم تضحية يمكن لكائن أن يتخيلها وهو التضحية بابنته؟ ما قام به يجب أن يخلد في صفحات التاريخ المجيد للإغريق..!! ثم عليك ألّا تنسي أنه هو أبوها وكانت قرة عينه وبكره. أتعتقدين أنه لم يتألم لهذه التضحية الجليلة..؟

واحسرتاه عليكَ يا ملكنا. كيف وقعتَ في نسيج العنكوت ذاك ، كيف لم تتنبه إلى الأفعى التي دنستْ فراشك..!!؟

انقبض وجه السيدة التي كانت تتلفتْ بنظرات تتقد بالألم والحقد والسخرية المرة وقالت بتحدٍ:

– مرحبًا أيها اللهب.. أنا الأم المنكوبة تناديكَ يالهبَ الحقد والانتقام.. وأنتم.. مَن كان يصدق منكم ياكهنةَ المدينة بأن فرحي المتوهج لدى وصول الأنباء عن عودة زوجي ليس هو فرح الزوجة بعودة بعلها ، وأنما فرح المرأة المخيفة التي تفرح لاقتراب ساعة الانتقام..!

ألم تتنبهوا كيف بالغتُ في الترحيب وبمراسيم الاستقبال؟ فلقد أطلقتُ صيحاتِ الفرح في أرجاء القصر ، وأشعلتُ النيران في هذه القاعة. كل من رآني ظن أني مجنونة بزوجي حبًا. نعم. أمامكم مسكته واحتضنته ، لكنني كنت قد أقفلت على لساني بالمفتاح ، ولو كان لجدران هذه القاعة القدرة على النطق ، فلتشهد كم كنت انتحب حزنًا وكمدًا على ابنتي التي تشهد هذه القاعة نفسها أيضًا على طفولتها وضحكاتها الملائكية ، فقد ضجتْ هذه القاعة بكركراتها البريئة ، ابنتي التي قدّمها زوجي قربانًا من أجل

أن تبحر سفن جيشه التي رستْ عند تلك الجزيرة الملعونة..

نعم. نعم. أذكر يوم الرحيل لإنقاذ أختي، زوجة أخيه، التي هربتْ مع الضيف الوسيم مخلفة العار وبراكين الحقد والانتقام. أذكر يوم الرحيل حيث صرخت النسور في السماء منشدة أغنيةَ الويلات! أنا التي كنت أعطف على الأشبال الغضة والمتوحشة، بل وكنت أشفق على كل حيوان رضيع لكل مخلوق وحش يجول في حقولنا، لكن السماء لم تشفق عليّ، أنا الأم المنكوبة التي ذبح زوجها ابنتها البكر، وهل هناك أسوأ من الموت للابنة البكر بيد والدها..! بينما هو خدعني فقدمتها بنفسي نحو المذبح ظنًا مني أني سأزفها في عرس بهيج لأحد الأبطال النبلاء..

كان آدم السيد قد عرف من هي هذه السيدة، فقد ورد ذكرها في ملاحم الإغريق وأساطيرهم ومآسيهم الأدبية.. لكنه كان يتلفت لمعرفة مصدر الأصوات الجماعية ذات النبرة الواحدة..! فلم يجد أحدًا. هو يعرف أن هذه هي أصوات المجاميع في المآسي الإغريقية، أصوات الجوقة، الكورس، لكنه هنا لا يرى أحدًا..، وكان الرائد وإيفا ماجدولينا مأخوذين برهبة المكان الفارغ، والأصوات التي تأتي من كائنات لامرئية..!. فجأة جاء الصوت الجماعي مخاطبا السيدة:

- أنتِ تحاولين استعطاف القدير لتبرري فعلتك الشائنة؟

تلفتت السيدة النبيلة متنقلة نظراتها الوحشية بين جدران القاعة وقالت:

- أنتم أيها الكهنة، يارأس البلاء، إنكم لا تعرفون معنى الأمومة. ما زلتُ وأنا هنا أسمع صرخة ابنتي لحظة الذبح واسمع توسلاتها. كانت ابنتي البكر، التي دخلت مرحلة الأنوثة توًا، تتوسل والدها «أبتاه»، لكنه لم يبد شفقة إزاء توسلاتها أو صرخاتها المذعورة، كان الكبرياء أمام بقية قادة جيش الإغريق

أقوى من أبوته ، لذا أمر الجند بالانقضاض عليها ، فلفّوها بثيابها ورفعوها إلى فوق المذبح كما لو كانت جديًا يُذبح ، ووضعوا كمامة قوية على فمها الجميل كي تمنع من النطق والصراخ.

ومع ذلك انطلقت منها صرخة وحشية مليئة باللعنات عليه وعليّ ، أنا التي أنجبتها وهيئتها لمثل هذا الموت الفضيع ، أنا التي أتيت بها للمشاركة في جريمة لا أعرف تفاصيلها. صرخاتها ظلت تدوي لعشر سنوات هنا في هذه القاعة ، ابنتي التي ألقت على الجنود وعلى أبيها وعلى القادة نظرة متضرعة من أجل الرحمة ، لم أكن لحظة الذبح هناك ، فقد أمرهم بإبعادي عن المذبح..

لم أستطع ولن أستطيع أن أروي تفاصيل لحظة الذبح الوحشية ، لقد خدعني زوجي ، وخدعني قادة الأغريق ، وخدعتني السماء ، خدعني الجنود ، وخدعتني سفن الحرب وعربات المحاربين.. ياويلتي. ياويلتي. إنني الهالكة من ثقل الانتظار ، يالمحنتي ، ياللدمار الذي جاء به انتقامي ، ويالخستي حين توجهت للانتقام بروح باسلة ، ياللدمار الذي جاء به انتقامي ، أنا إيفا كليتمنسترا أميرة الكراهية وسيدة الانتقام النبيل ، أنا التي يجري السم في عروقها بدل الدم!..

صمتتْ لحظات حين رأت الغرباء الثلاثة يتقدمون وعلى وجوههم علامات الحيرة والاستغراب والفضول ، فقالت لهم بنبرة متوجسة:

- من أنتم..؟

- نحن.. نحن من نزلاء فندق باب السماء..!

نظرت إليهم متفحصة أشكالهم وثيابهم ، وقالت:

- من أي طبقات جحيم جئتم..؟ نحن في مطهر الخطايا المقدسة.. من أنتم.. وماذا تريديون؟ وكيف وصلتم إلى هنا؟

نظر الثلاثة لبعضهم في حيرة.. وتقدم آدم السيد خطوتين

للأمام وقدم لها أنفسهم قائلًا:

- أنا آدم السيد ، وهذا صديقي الرائد والمحقق الجنائي آدم عبدالسميع ، وهذه المرأة الشابة هي إيفا ماجدولينا!..ونحن أيضا في مطهر الخطايا المقدسة ولسنا في الجحيم..!

صمتت المرأة للحظات ثم قالت:

- وماذا تفعلون هنا؟ لم جئتم لهذا المكان.. ودخلتم قصري الملعون الذي تنطق كل حجارة فيه بهول الجريمة التي اقترفتها!..

- لقد سمعنا صرخات غاضبة وحوار.. فتتبعنا الصوت لنعرف ما يجري.. ووجدنا أنفسنا هنا..! قال آدم السيد!..

تفرّست المرأة في الغرباء الثلاثة وكأنها تريد أن تعرف حقيقتهم ، ثم قالت:

- أنا لدي كلام لمن يعرف قصتي ، أما لمن لا يعرف قصتي فقد فقدتُ ذاكرتي!.

تقدم آدم السيد خطو أخرى إلى الأمام وقال بهدوء وبنبرة محايدة:

- أنا أعرف قصتك..! قرأت عنها كثيرًا!..

- قرأت عن قصتي..؟ هل صرت موضوعًا للتراجيديات..؟

- لولاها ما كُتب عن قصتك لما سمعنا بها؟

نظرت المرأة الغاضبة إلى إيفا ماجدولينا وسألتها:

- وأنت أيتها المرأة الفتية.. ماذا تفعلين هنا في هذا المكان الرهيب..!؟ هل تعرفين قصتي أيضًا؟

ارتبكت إيفا ماجدولينا وسرتْ رعشةٌ في جسدها ، فهي لم تعرف من هي هذه المرأة سوى ما فهمته من كلامها بأنها قتلت زوجها الذي قدم ابنتها قربانًا ، وأنها دنست فراش الزوجية بالارتباط مع عشيق حقود تقرب منها لإهانة زوجها من خلال مضاجعتها على فراشه ، لكنها لم تقرأ عنها ، فما قرأته أغلبه كان

روايات رومانسية ، ناهيك أنها لا تقرأ قصص الحروب والنهايات المأساوية..! لذا ارتبكت. ثم قالت:

– لا.. لكني من خلال حديثك وحديث تلك الأصوات للكائنات اللامرئية عرفت شيئًا عنها.. وبالنسبة لي لا أدري كيف وجدت نفسي هنا.. لكنني منذ أول خطوة في هذا الفندق وجدتني أبحث عن نفسي..؟

تأملتها السيدة وهي جالسة بأبهة على عرشها الصخري ، وقالت بنبرة محايدة:

– كيف تجدين نفسك هنا في هذا المطهر الرهيب..؟ لا بد لك من دليل.. لكن أي أثم وخطيئة قمت بها في عالمك بحيث فقدتِ نفسك ، وجئتِ الآن باحثة عنها..؟

ارتبكتْ إيفا ماجدولينا قليلا ، ثم قالت:

– وهل هناك خطيئة أكبر من أن يفقد الإنسان نفسه في دروب الحياة المظلمة؟

– أحسنتِ القول..!. قالت السيدة وهي ترمقها بنظرة متعاطفة.

كان آدم السيد يشعر بالفرح لإجابة إيفا ماجدولينا الذكية ، ونظرا لبعضهما البعض ثوان ، فواصلت إيفا ماجدولينا قائلة بنبرة مشحونة بالمشاعر الرقيقة:

– سأبحثُ عن نفسي في منعطفات ودهاليز وأروقة مطهر الخطايا المقدسة.. أظن هناك من يساعدني في إيجاد نفسي ، وسيرافقني في كل المنعطفات والدروب الملتوية إن قدّر لها أن تصادفني..

نظرت السيدة إلى آدم السيد وأدركت أن الفتاة الشابة تقصده ، فقالت:

– تمسكي إذن به.. فلا نجد دائمًا من يكون رفيقنا ودليلنا في

الحياة..! الكل يتركوننا في أول منعطف مفاجئ..! تمسكي بالكبير في روحه وعقله وتواضعه..! تعلمي كيف تذهبينَ إليهِ كي ترجعي لنفسك..! تعلمي مني أنا المرأة التي نبذها التاريخ. اذهبي إلى دليلكِ ورفيقك ولا تخافي شيئًا ، تمسكي به مهما مررتِ بمنعطفات وظروف..

أنا ضيعت نفسي أيضًا. لقد كنت زوجة لرجل كريم ، أقول ذلك مع كل حقدي عليه لأنه قدم ابنتي قربانًا لآلهة حقودة منتقمة انحازت لأعدائه فأراد ترضيتها بأضحية قاسية وغالية هي ابنتي..! ومع ذلك تواضعه أذهلني ، بل صادر بعض ظلال الانتقام من عقلي ، فقد رفض أن يمر على الطنافس والثياب الثمينة التي نشرتها ليدوس عليها وهو يدخل البيت ، فقد قال إنه لمن العار لقدميّ أن تتلف أمتعة البيت وتدوس على هذه الألبسة الثمينة التي حاكتها بدقة عشرات الأيدي الناعمة..!! لكنني ألححتُ عليه ، والرجال كما تعلمين ضعفاء أمام النساء..! أو تعلمين ، مع انتظاري لعشر سنوات للحظة الانتقام ، لكنني كنت أخاف مما سيحدث..! لقد وطدّت نفسي على الانتقام ، لكن حين اقتربت الساعة ترددت وخفت..! لكنني شحنت نفسي بنفسي ، استرجعت معنى تلك الحرب ، واستحضرت نحيب الزوجات المرتميات فوق جثث أزواجهن وأخوتهن ، والأطفال وهم ينكفئون إلى جانب أمهاتهم المنتحبات ، أي عبث أن يُقتل الرجال من أجل نشوة ورعشة امرأة تافهة ومغرورة وخائنة مثل أختي التي هربت مع عشيقها الخائن الذي داس على نبل الضيافة وآدابها!..

آه أيها الليل الرحيم الذي وهبنا راحة الانتقام. تبًا لكم ياقادة الحروب. أيتها الخنازير النتنة..! انتبهي أيتها المرأة الشابة. أنا تائهة. لقد ضعت. لا أستطيع الذهاب إلى نفسي ولا أن أرجع إليها ، تمسكي بمن معك.. بدليلك..

أنا الآن كمن يجلس في قارب منخور ، وصلتُ إلى وسط البحر وغاب الشاطئ عن أفق بصري حين التفتُ ، لكن العاصفة قد هبّت ، فلا أستطيع الجدف للأمام ولستُ قادرة على العودة..! أنا هنا في مطهر الخطايا المقدسة تحت رحمة المصير الغامض ، أنا المرأة البائسة التي قتلت زوجها ودنست فراش الزوجية ، وصب التاريخ عليها رصاص اللعنات الأبدية..! اسمعي كلامي وتمسكي بدليلك. اسمعي كلمات امرأة حكم عليها بالانتظار وحتى إن طالتها رحمة القدير فستبقى رمزًا للحقد والانتقام!..

شعرت إيفا ماجدولينا بفرح عامر حين حدثتها تلك المرأة بهذه اللغة ، وقالت بدفء وحنان:

- سأتمسك به.. وكلما أخطو خطوة نحو نفسي سأتمسك به أكثر فأكثر!..

- لكن كيف ضيعت نفسك وأنت بهذا العمر الفتي؟

في تلك اللحظة التي همّت فيها إيفا ماجدولينا أن تروي حكاياتها ، تقدم الرائد آدم عبدالسميع ، مقاطعًا إياها ، وقال بنبرة حائرة مليئة بالحماسة:

- أيتها السيدة النبيلة.. يمكنني أن أحقق في أمر الاغتيال الذي تعرض إليه زوجك!..

شملته السيدة بنظرة متسائلة وقالت بنبرة ساخرة مبطنة:

- هل فهمتَ شيئًا مما قلته؟ أنا نفسي اعترفت بقتلي لزوجي ، بينما أنت تريد أن تحقق في أمر الاغتيال؟

- وماذا في ذلك.. البعض يجرّم نفسه ، من باب تأنيب الضمير..! ويتقبل العذاب والعقاب!..

نظرت إليه متفاجئة من صلافته في حضرتها ، وقالت:

- اسمعني ياأيها الغريب. لقد مررتُ بكل طبقات الجحيم المظلمة.. ، روحي كانت ترتجف ، ومع ذلك مررتُ بالمستنقعات

المظلمة. لا نهايات في الجحيم وأنما ليل طويل ، والنبؤة الغامضة بأن أصل المطهر لم تكن قد أُعلنت بعد.

كنتُ أدرك لماذا اقترفتُ جريمتي ، لذا كنتُ أتحمل العقاب ببسالة ، فما كان يثقل عليّ ليس اندفاعي بسبب صرخة ابنتي البريئة وهي تذبح ، فذلك كان طوق نجاتي ، وأنما خطيئة وأثم الزنا مع النغل الذي منحته جسدي ، وتركته يخترقني على فراش زوجي ، كان يؤجج جسدي وفي الوقت نفسه يؤجج جذوة الانتقام في روحي.. لكن نقطة ضعفي كانت غيرتي من تلك السبيّة التي جاء بها بعلي بعد أن أحرق مدينتها وقتل أهلها.. وقد كانت فتية وجميلة..! نقطة ضعف المرأة ، حتى وإن كانت ملكةً وبيدها السلطة ولديها الجمال ، هي الغيرة ، لذا لا تبحث لي عن أسباب تحاول فيها تبرئتي..! لقد أسلمت سفينتي إلى رحمة الأمواج المظلمة!..

بهت الثلاثة وشعر الرائد بالإحراج ، وتمتم قائلًا:

- جريمتك كانت آمنة وخفية.. لو لم تعترفي لما شك بك أحد!..

- اسمعني أيها القادم من عصر لا أظنه مضيئًا. لقد أدركتُ حينها إنه من الحماقة أن أقف وسط الطريق عند اقتراف الجريمة. فمن يجد دافعًا وسببًا للجريمة فسيكون من السهولة عليه أن يكدّس الأسباب لاقترافها ، لا سيما إن وجد أنّ السبب الأول ضعيف..

أحس الرائد آدم عبدالسميع بالحرج من قوة شخصيتها واعترافها الصريح بجريمتها وإصرارها الأقوى في عدم إيجاد التبريرات لتلك الجريمة ، فقال بطريقة فيها شيء من التملق الواضح:

- مع أن مهمتي هي التحقيقات الجنائية والكشف عن الدوافع والأدلة ، لكن دائما يمكن إيجاد التبريرات المختلفة وتضليل

الرأي!..

نظرت المرأة إليه شزرًا وقالت من دون توجيه الخطاب له:

- يالآلام الانتظار. أنا التي ذُبحتْ ابنتها من أجل الرياح التي تدفع أشرعة السفن المبحرة لاقتراف جريمة الحرب..؟ بل ومن أجل ماذا أُشعلتْ تلك الحرب؟ أمن أجل أختي العاهرة التي تركت زوجها وهربت مع الضيف الشاب حتى بعد خراب طروادة..! ...

وها أنت أيها الرجل تحاول أن تزرع الشك في نفسي وتوهمني بالبراءة..! لماذا تنوي ذلك؟ لقد اجتزتُ الجحيم المظلم والخانق ، وها أنا في جحيم الانتظار. انتظر وانتظر وانتظر ، وأكلم هؤلاء الأشباح غير المرئين.. فكفّ عن محاولاتك البائسة. اذهبوا من هنا. لا مكان لكم في هذه القاعة ، أنتم أبناء زمان آخر.. وأنت أيتها المرأة الشابة ، انتبهي ، لا تخافي أي شي في طريقك لإيجاد نفسك!..

قامت السيدة من مكانها مغادرة العرش الحجري ودخلت في منطقة مظلمة تمتد في عمق الصالة خلف العرش.

شعر الثلاثة براحة نفسية لمغادرتها ، فقد كانوا لا يعرفون كيف ينتهي موقفها منهم..! وخلال ذلك سُمعت ضجة تأتي من الرواق ، وتعلو صرخات تأتي من مكان قريب. فغادروا الصالة بسرعة.

الفصل الخامس
آدم الأوديبي البصير

ما إن غادروا الصالة حتى سمعوا الصرخات بشكل أوضح ، إذ كانت صرخات رجل غاضب ، ورأوا حواء الرحماني تمشي ، في الممر الذي ينعطف يسارًا ، بسرعة وعجلة وخلفها حواء المسكينة. تتبعوهما ، وحين اقترب آدم السيد منهما ، وقبل أن يسألها شيئًا ، قالت حواء الرحماني له وهي تمشي في عجلة نحو جهة الصوت:

- إنه آدم الأوديبي جاءته نوبة النحيب.

ومضتْ المرأتان نحو جهة الصوت. ظل الثلاثة واقفين في حيرة من أمرهم ، لا يعرفون إلى أين يمضون ، فقرروا أن يتبعوا المرأتين. ومضوا في ذلك الاتجاه ، ولم يكن الممشى طويلًا ، إذا وجدوا ما يشبه المعبد الحجري ، ورأوا رجلًا مسمول العينين ، والدم ينزل منهما على لحيته ، وبيده عصا طويلة يستند عليها ، لكنه بدا جالسًا على مصطبة حجرية تمتد على طول الجدار. ورأوا المرأتين ، حواء الرحماني ومرافقتها ، واقفتين بالقرب منه ، وكان هو يحدثهما بأدب لكن بصوت يشوبه الغضب. وحين دخلوا تنبه لدخولهم ، لكنه لم يسألهم ، وأنما واصل:

- كانت المدينة تعيش فوضاها وخرابها بسبب انتشار وباء غريب وغامض ، لذا كان يهيمن عليها عبق البخور الذي يشعل الخاصة والعامة لطرد العفن من الهواء ، ويتعالى ضجيج الأناشيد الممزوجة بالنواح. وكان أبناء شعبي المنتشرون في الميادين وأمام المعابد يندبون تفشي الوباء الغامض والجدب والدمار الذي يصيب البذور في تربتها ، وينفق الثيران ، ويجفف أرحام النساء ، بل ويجفف الماء في ظهور الرجال. فأية آلهة أشد نحسًا من

هذه..!؟ لا. لا. لا معنى للسفينة من دون الشراع..! ولا معنى للشراع من دون الصارية ، وقد كنتُ الشراع والصارية والربان أيضا لهذه المدينة..! آه يا حواء الرحماني ، وأنت ياحواء المسكينة.. تعبتُ أنا. تعبتُ..! لقد قتلتني طيبتي!..

لقد أخطأت من خلال بحثي وإصراري على معرفة الحقيقة ، مع أن بعض الكهنة حذروني من السعي وراء الحقيقة وطلبوا مني ألا أغالي بالتبجح البطولي والعناد لمعرفتها.. يالعنادي حين أرسلتُ الرسول إلى تلك المدينة المجاورة ليأتيني بالحل..! ولم يكن الحل سوى تطهير المدينة من الرجس..! لكني بتهوري بالغتُ في تنفيذ نداء الآلهة.. كيف لي أن أعلم بأن عليّ الانتقام لأبي من نفسي ؟

فجأة توقف عن الكلام ورفع رأسه بحركة وكأنه يصغي لشيء ، ثم قال:

- أيها الغرباء الذين قادكم فضولكم إليّ تعلموا الإصغاء والتقطوا نصائحي ، لا تبالغوا في الامتثال لرغبات الآخرين ، لا تبالغوا في تحقيق العدالة لأنكم بذلك ستظلمون الآخرين..! بل ربما ستظلمون أنفسكم ، فلا عدالة من دون انتقام.!..

ارتبك الثلاثة ، واستغربوا كيف رآهم ببصيرته ، وفي تلك اللحظة سحبت إيفا ماجدولينا ساعد آدم السيد ففهم أنها تود أن تهمس له بشيء فمال بجذعه قليلًا وقرب أذنه من فمها ، فهمست له:

- من هذا الرجل الأعمى المفقوء العينين..؟

فقربت أذنها منه حين أراد الإجابة قائلًا:

- إنه التعيس ، آدم الأوديبي ، الذي قتل أباه وتزوج أمه وأنجب منها أربعة من الأولاد!..

- أف..ياويلي..

لكنها كانت تريد لو استمر آدم السيد في الحديث ، إذ كان هواء أنفاسه يمس أذنها فتشعر بخدر لذيذ. وفي تلك اللحظة سمعوا الرجل الأعمى يقول بصوت أشبه بالنحيب:

– آه أيتها الثروة الخبيثة ، وأيها التاج الطاغي ، وأيها العلم بما لا يُرى ، لم أعد أطيقكم.. أنا آدم الأوديبي ، العالم بكل شيء والجاهل بكل شيء..! لا أريد أن أكون ملكًا ، ولا أن أكون مبجّلًا ، ولا أن أكون خالدًا ، وأنما أريد أن أعيش بهدوءٍ كملك منسي ، جليل النفس ، طاعنٍ في الغياب.

يشرّفني إذا ما نساني التاريخ ولم يذكرني ، فكم من أمور قمت بها على الرغم من نفسي..! حتى صار الحب عارا والشهوة نجاسة وخطيئة!..

أرادت إيفا ماجدولينا أن تسأل آدم السيد أي سؤال لكي ينحني إليها ويهمس في أذنها ، فتنبهت حواء الرحماني إليها وخزرتها بنظرة تأنيب ، فكفّت عن محاولتها ، بينما واصل الأعمى هدير بوحه القاسي:

– كنتُ أريد أن أعرف الحقيقة لكني لم أتوقع أن تكون بشعة هكذا وقاسية ومرعبة..! لقد أطلقتُ بنفسي العنان لجياد الهم كي تدك بسنابكها أرض قلبي ، يالشقائي..! لماذا لم أسمع صوت حبيبتي ، زوجتي ، وأمي ، كان لديها هاجس بالحقيقة المرعبة ، كانت تتوجسها بغريزتها ، لكنها كانت تخنق كل تلك الأدلة التي ترفع رؤوسها كالأفاعي.

كانت لا تريد أن تفقد سريرها الدافئ..! كانت تقول لي: أعرض عن هذا ياحبيبي ، لا تولي التنبؤات قيمة.. لكني المهووس بالعدالة كنت أبحث عن قاتل الملك السابق..! ولم أكن أعرف إنني هو ذاك القاتل. كنتُ أبحث عن نفسي..! كنت أظن إنني بخير وإن سعيي للحقيقة يمنحني القوة..! لكن الحقيقة قالها في وجهي

كاهن المعبد الأعمى اللعين ، حين صرخت به:

- أيها الأعمى أنت تعيش في الظلمات بينما تلقي بلعناتك السود علينا!!..

نعم. ما زلت أذكر كلماته الصاعقة حينما قالها في وجهي من دون خوف:

- أنت الأعمى.. أيها التعيس التائه في الظلمات..! أنتَ في الجحيم الأرضي.. أنت ترى النور بعينيك ، لكنك لن ترى إلا الظلام.. لا شواطئ ستضم صرخاتك ، ولا وديان ستردّدها.. ستحل عليك اللعنة الأبدية..!

وها أنا هنا ، ولولا أنني سملت عينيّ بدبوسيّ جلبابي بعد معرفتي الحقيقة ، وعاقبتُ نفسي وقدري ، لما شملتني عين القدير برحمته ، ولما رأفت بي وجاءت بي إلى المطهر. لقد سملت عينيّ وغرزت دبوسين في محجري عينيّ كي لا أرى الشر متجسدًا في امرأتي وأمي وأولادي الذين هم أخوتي أيضًا ، وكي لا أرى بشرًا ، ولا يبقى في ذاكرتي سوى وجه المرأة التي أحببت!..

لكن ماذا عليّ أن أفعل ، ها أنا في مطهر الخطايا المقدسة أود أن أنفي نفسي ، لكن إلى أين؟ ها أنا منفي في اللاوجود.. الحقيقة البشعة نفتني ، والماضي أطلق حكمه الأبدي عليّ!..

وما إن انتهى الرجل الأعمى من كلامه الشجي حتى استدار ودخل في غرفة جانبية يتقد مشعل كبير على جدار مدخلها.

هيمن صمت على المكان. كان الجميع مثقلًا بالألم من حزن هذا الرجل الأعمى الذي لا يرى سوى كوابيس الخطيئة والتاريخ المكتظ بالنبؤات الغامضة. وبخطوات منكسرة غادروا المكان ، وما إن صاروا في الممر حتى التفتت حواء الرحماني نحو آدم السيد وقالت له:

- لقد ورد لكم أنتم الثلاثة اتصال من خارج الفندق!..

- اتصال من خارج الفندق..؟ قال آدم عبد السميع متفاجئًا.
- نعم من مستشفى للطوارئ هناك!..
فعقبت حواء المسكينة:
- أول مرة تم السؤال عنكما أنتما الاثنين ثم جاء اتصال يسأل عن إيفا ماجدولينا!..

ارتبكت إيفا ماجدولينا حين سمعت أن هناك مَن اتصل من خارج الفندق يسأل عنها.. وسألت وهي تنظر بخوف إلى حواء الرحماني مديرة استعلامات الفندق:
- من اتصل بي؟ هل كان الصوت لرجل أم امرأة؟
التفتتْ حواء الرحماني إلى مساعدتها حواء المسكينة وسألتها:
- من كان المتصل الذي سأل عنها ، صوت رجل كان أم صوت امرأة؟
- لا أحد..الاتصالات تكون عادة مجهولة ، فلا أحد يكون على الطرف الآخر ، وليس هناك سوى رنين جرس الهاتف.! قالت المساعدة

فجأة رنَّ الهاتف النقال الذي بيدها فارتبكت حين نظرت إلى شاشة الهاتف النقال واستمعت للمتصل:
- نعم..مَن؟ إيفا ماجدولينا؟ لديها اتصال من خارج الفندق. أية غرفة..؟ رقم 9.. أمرك!..

وأنهت الاتصال بين ذهول الثلاثة ، لاسيما إيفا ماجدولينا التي سمعت اسمها يُلفظ في استفسار مديرة مكتب الاستعلامات ، التي التفتتْ إليها قائلة:
- لديك اتصال من خارج الفندق؟ اذهبي للغرفة رقم 9 ، هنا في هذا الممر الجانبي ، وأجيبي على الاتصال ، .وأشارت لها إلى الممر الجانبي.

ارتبكت إيفا ماجدولينا وارتسمت علائم الألم والخوف على

وجهها. نظرت إلى آدم السيد وكأنها تستنجد به أو تودعه ، ومضت إلى الممر الجانبي وهي تنظر إليه قائلة:

- سأرجع إليكما..

لكنها كانت تخاطب آدم السيد ثم نظرت إليه وقالت: لا تذهب بعيدًا.. الفندق واسع ومن دونك سأتيه.. انتظرني..

- لا تخافي.. أنا موجود وانتظرك إلى أن تعودي.؟..

واختفت إيفا ماجدولينا في الممر الجانبي ، بينما قالت حواء الرحماني للرجلين:

- انتم ضيوفنا.. لقد أعددت لكم جناحًا واسعًا ومريحًا..؟

غادرت مديرة مكتب الاستقبال ومساعدتها الممر. اختفتا في ممر جانبي. احتار الرجلان ماذا يفعلان ، فقد تداخلت الأحداث وغاب عنهما ما جاءا بحثًا عنه.

- هيا دعنا نبحث عن آدم الحديدي.. والأجنبي؟

ارتسمت ملامح الإحراج على وجه آدم السيد وقال له بارتباك:

- لننتظر الفتاة.. ستنهي مكالمتها وترجع إلينا؟..

نظر الرائد آدم عبد السميع إلى صديقه وقال له بنبرة متسائلة ومعاتبة:

- ما بك يادكتور آدم..؟ هل أحببتَ هذه الفتاة؟ أراك متعلقا بها جدًا..؟ أمن المعقول إنك بعد كل تجارب العمر وحشد النساء في حياتك تتعلق بفتاة بعمر ابنتك..؟ خذ حذرك ياصديقي فهذه البنت خطيرة ، ألم تسمع حين تحدثت عن نفسها ، إنها تلعب بك ، فأن سعة تجربتها سيجعلها تعاملك بالمثل وتسحرك وكأنها لك فقط ، لكن الحقيقة هي بإمكانها أن تلقي بك جانبًا وتستمر في علاقات أخرى..؟

قد تكون هي فتاة رخيصة ومبتذلة ، وهي تتسلى من خلال علاقتها بك..؟ أقول لك هذا عن تجربة عشرات الحالات التي

حققتُ فيها..! وسأثبت لك حين نغادر الفندق إن هذه الفتاة لايزال لديها علاقات متعددة لا تعرف عنها شيئًا. هي ربما تلعب دور الفتاة العاقلة والضحية التي تبحث عن الرجل الحلم الذي وجدته فيك ، وأنها تعرضت لسوء الفهم من قبل الآخرين وضيعت نفسها وأنها جاءت تبحث عنها..

كان آدم السيد يستمع إلى كلام صديقة بألم وإحراج وشك ، ولم يطق أن يسمع أكثر فقال:

- ربما ما تقوله صحيحًا في بعض جوانبه ، وربما ما تقوله مجرد ظنون وتفسيرات ، ومهما يكن ، فأنا أشعر إنها صادقة في رغبتها للبحث عن نفسها..! وإنني لا أخفي انجذابي إليها. وأحس إن لديها اطمئنانا وراحة لي من دون أن تشعر هي نفسها بذلك ، لديها إحساس الأمان معي ، والعمر هنا لا يلعب دورًا في العلاقات الإنسانية ، على الأقل بالنسبة لي ، ومهما يكن ، علي أن انتظرها ، فأنا وعدتها ، ووعدي لن أتنازل عنه أو أحرفه وألغيه مهما حصل..! سانتظرها هنا. يمكنك أن تواصل بحثك وترجع إليّ فأنا هنا سانتظرك ، فحتى لو جاءت فسانتظرك أيضًا.

امتدتْ لحظات طويلة كان الرائد ينظر فيها بصمت إلى صديقه ، وغادره متوترًا من دون أن يقول شيئًا. بقي آدم السيد في مكانه محرجًا من التوتر والعتاب بينه وبين صديقه ، لكنه كان مع ذلك يفكر في كلامه ، ويسأل نفسه:

- أمن المعقول إن إيفا ماجدولينا تلعب بي وتقضي وقتا مسليًا معي. لا. لا . هي إنسانة صادقة.

مرّ أكثر من نصف الساعة ولم تأت إيفا ماجدولينا ، فقرر آدم السيد أن يذهب إلى الممر الجانبي حيث الغرفة رقم 9 . وحين وصل الغرفة وجد الباب مفتوحًا ولا أحد هناك.

★★★

خارج الفندق كانت بغداد غارقة في الظلام ، بينما في غرفة صغيرة تضم سريرًا للعناية المركزة ، بدأت المرأة المريضة ، والتي كانت في غيبوبة منذ ساعات نتيجة إصابة بضربة قوية في الرأس ، تتحرك.

لم يكن أحد موجودًا في الغرفة ، بينما استمرت هي تحرك رأسها يمينًا وشمالًا وعلامات الألم مرتسمة على وجهها المرسوم بدقة ، ورأسها المشدود بالشاش الملطخ بالدم. ولم تمض سوى دقائق حتى صادف مرور إحدى الممرضات فرأتها ، من خلال الباب المفتوح ، تحرك رأسها يمينًا وشمالًا ، فدخلت الغرفة مباشرة ، ومسكت يدها ، ففتحت المرأة عينيها الذابلتين ، ونظرت باستغراب وحيرة كمن لا يعرف أين هو!..

أسرعتْ الممرضة إلى الطبيب الخفير ، الذي جاء بدوره وفحص المرأة التي أفاقت من غيبوبتها ، وأراد أن يتصل بالمحقق الجنائي آدم المسماري ، الذي كان هناك مصادفة ، حين جيء بهذه المرأة ، في مستشفى الطوارئ؟ فقد جاء ليستفسر عن حالة الدكتور آدم السيد والرائد آدم عبدالسميع اللذين تعرضا لمحاولة اغتيال أيضًا ، وطلب من الطبيب أن يتصل به حين تفيق المرأة المصابة من غيبوبتها. لكن نظر الطبيب إلى الساعة وكان الوقت بعد ساعات من منتصف الليل لذا آثر أن يتصل بالمحقق صباحًا.

الفصل السادس
الاتصال الغامض

حين دخل الطبيب المختص صباحًا ومعه طبيب مساعد وممرضتان ، وهو يقوم بجولته الصباحية الروتينية ، إلى غرفة العناية المركزة ، ورأى المرأة الشابة المصابة في سريرها نائمة ، تنبه إلى أن نومها مضطرب فهي تهز رأسها على الوسادة يمينًا وشمالًا ، وكأنها ترى كوابيس.

وقف الطبيب عند سريرها وأخذ اللوحة المثبتة عليه أوراق عن تشخيص وتطور حالتها الصحية وتدوينات الطبيب الخفير ، وقرأ الملاحظات التي كُتبت عن التشخيصات الأولية ، وكما شرحت له إحدى الممرضات المساعدات بأن هذه الفتاة الشابة قد ضُربت ووقعت أرضًا على رأسها.. مما سبب لها ارتجاجًا في الدماغ ، وهو سبب الغيبوبة التي حصلت لها ، لكن بعد ساعات من نقلها إلى المستشفى أفاقت من غيبوبتها فجرا بعد ساعات من منتصف الليل ولفترة قصيرة جدًا. وقد نطقت ببعض الكلمات والجمل ثم عادت لغيبوبتها ، وبدا أن حالتها غير مستقرة ، فهي تسقط في الغيبوبة وتخرج منها ، وطوال دقائق العودة القليلة غالبًا ما كانت تهذي باسم شخص محدد: «آدم السيد»..و « الر ائد».. وتُردد أيضًا جملة «مطهر الخطايا المقدسة» و «فندق باب السماء..“

وبينما الطبيب المختص يقرأ في الملاحظات ، التي كتبها الطبيب الخفير منذ لحظة المجيء بها إلى مستشفى الطوارئ ، صدرتْ عن الفتاة المصابة تأوهات وكلمات غير واضحة. لم يفهم الجميع شيئًا مما قالت ، لكن بعد ذلك اتضحت الكلمات التي كانت تهذي بها: «آدم السيد» و«الرائد» و«فندق باب السماء»..! كانت تتلفظ

بهذه الأسماء والجمل بشكل واضح ونبرة مليئة بالألم والتوسل.

ظن الطبيب أن للأمر علاقة بالحادث فلربما هذا هو اسم الشخص الذي ضربها.. لحظتها التفت إلى الممرضة وطلب منها الاتصال بالمحقق آدم المسماري الذي يتابع هذه القضية.

★★★

كان النقيب آدم المسماري حينها في غرفة مدير مستشفى الطوارئ الذي هو، في الوقت نفسه، رئيس الأطباء. كانوا قد أتوا بالتقرير الصباحي إليه. كان النقيب المحقق يستمع للتوضيحات الطبية عن حالة المرأة المصابة التي يجهلون اسمها. وتنبه للأسماء والجمل التي قيل له إنها كانت ترددها لحظة عودتها من غيبوبتها، وظنونهم أنها ربما تقصد الأشخاص الذين ضربوها، فابتسم المحقق وقال:

– مع إن الأمر غامض في ذكر تلك الأسماء، لكن ربما كانت تقصد بكلمة «الرائد»، رائدنا آدم عبدالسميع، وتقصد بـ«آدم السيد»، الدكتور الخبير في علم الخطوط، والذي كان يعمل مع الرائد على فكك خطوط الدفاتر الثلاثة لجثة الأجنبي، وكلاهما تعرض للاغتيال، ولولا جارة الدكتور آدم السيد التي اتصلت بنا وبالطوارئ لفقدناهما، وهما هنا يرقدان في غيبوبة منذ منتصف الليل، لكن ما علاقتهما بهذه المرأة الشابة، مع أنه يبدو أن لهما علاقة بها، وإلّا كيف نطقت باسميهما..!..“

كان مدير المستشفى يستمع له ويشاركه أفكاره وتساؤلاته، لكنه أوضح للنقيب المحقق:

– من ناحية تشخصينا فأن حالة المرأة الشابة حرجة، ونتائج الأشعة المصورة لرأسها تشير إلى رجّة قوية تعرض لها الدماغ نتيجة الحادث، والتي والحمد لله لم تهشم الجمجمة لكن أحدثت رضوضًا واضحة، المهم الآن ألاّ تتعرض لنزف داخلي.

– وماذا عن الرائد آدم عبدالسميع والدكتور آدم السيد؟ سأل المحقق آدم المسماري.

– كلاهما في غيبوبة. أخرجنا الرصاصات من جسديهما ـ لكنهما كما يبدو قد نزفا كثيرًا.. ولولا السيدة جارة الدكتور آدم السيد التي رأتهما في تلك الحال واتصلت بالطوارئ لما استطعنا أن نفعل شيئًا..! لكن حالتهما حرجة مثل المرأة الشابة!..

– هل تعرفون اسم المرأة الشابة التي ترقد في العناية المركزة..؟ قلب مدير المستشفى ملفا أمامه وقال:

– لقد قيل لنا من استعلامات المستشفى بأن رجلًا شابًا أتى بها إلى المستشفى ، وانشغل العاملون باستلامها وتوفير المستلزمات السريعة. الرجل أعطى اسمها وبعض المعلومات البسيطة عنها ، وكان منشغلًا مع العاملين.. لكن بعد أن أُدخلت صالة الفحص ، واتجهت الموظفات لتسجيل كل المعلومات عنها اختفى الرجل الشاب. لقد استطاع موظفو الاستقبال أن يسجلوا اسمها: إيفا ماجدولينا ، وهي تعيش منذ سنوات في بغداد ، لكن أصلها من منطقة عُرفت بوجود الأديرة القديمة فيها!

– هل لديكم عنوانها..! من الضروري زيارة شقتها ، والاتصال بأهلها أو معارفها لمعرفة ملابسات الحادث!..

– مع الأسف ليس لدينا أي عنوان ، فالرجل الذي أتى بها اختفى.

في تلك اللحظة دخلت إحدى الممرضات ، هلعة وهي تخاطب المدير:

– دكتور ، من فضلك أسرع ، فالمريضة المصابة الموجودة في العناية المركزة تنهار صحيًا.. دخلت في غيبوبتها مرة أخرى.

وأسرع الجميع بمن فيهم النقيب آدم المسماري مغادرين الغرفة.

كان آدم السيد يشعر بالتوهان ، فمنذ أن دخل الغرفة رقم 9 في الممر الجانبي ، ولم يجد إيفا ماجدولينا ، غادر الغرفة وهو يشعر بانقباض ووخزة في قلبه ، وأخذ يشك في حقيقة الاتصال الذي استلمته مديرة مكتب الاستعلامات..! وأخذ يؤول الأشياء وفق الضغط النفسي الذي خلفه غياب هذه المرأة التي شعر بأنها دخلتْ عالمه بكل قوة ووضوح ، لذا راوده خاطر بأن الاتصال جاء من هؤلاء الأشباح الغامضين الذين يقبعون في المغارة خلف مكتب الاستقبال ، وأنهم نسّقوا مع مديرة مكتب الاستقبال مدعية بأن هناك اتصالا يخصها ، وما أن دخلت الغرفة حتى ألقوا القبض عليها وأخذوها عنوة إلى المغارة خلف الجدار ليواصلوا استجوابها..!

كما راودته مشاعر الاستياء من صديقه الرائد الذي أدرك أنه ليس لا يميل إلى إيفا ماجدولينا فقط ، بل ويبغضها ، فقد أراد أن يسمم عقله بالحديث السيء عنها..! لكنه بطبيعته لا ينجر إلى الأحكام السريعة ، لذا راجع نفسه ومشاعره وانفعالاته ، وسأل نفسه: «من هذه المرأة بالنسبة إليّ..؟ لماذا انقلب حالي بغيابها؟ ثم من جهة أخرى ، أليس من الممكن أن يكون كلام الرائد صحيحًا؟ فربما هي تلعب معي..؟! أمن المعقول بأنه ليس لديها أحد؟ هي نفسها اعترفت بأنها كانت تتنقل بين الرجال ، فلماذا أوهم نفسي بأن ثمة توافقًا نفسيًا وروحيًا بيننا؟ لماذا لا أنظر إلى فارق العمر الكبير بيننا؟ لكن أين هي الآن؟ أنا متعطش لرؤيتها. كيف سأعيش هنا من دون رؤيتها ومن دون قربها مني..!!؟ إذا لم أجدها هنا في الممرات سأذهب إلى مكتب الاستعلامات».

كان مشتتًا ومنقبض النفس ، وقال لنفسه:» لا بد لي أن أسأل مديرة مكتب الاستقبال».

في تلك اللحظات نفسها ، وفي الغرفة التي تحمل الرقم 9

أفاقت إيفا ماجدولينا ، فوجدت نفسها جالسة على مقعد وثير. تنبهت إلى أنها وحدها في هذه الغرفة ، واستذكرت ما يشبه الكوابيس التي عاشتها خلال غفوتها على المقعد ، وسألت نفسها: « كيف جلستُ هنا؟ أين آدم السيد؟ » وشعرتْ بخوف من أنها لن تراه بعد الآن..! واجتاحتها الرغبة في رؤيته ، فنهضت عن مقعدها وغادرت الغرفة.

في تلك اللحظة بالذات رآها آدم السيد مقبلة من الممر الجانبي. كانت شاحبة وخائفة ، وحين رأته غمرها فرح وشعرت بالأمان ، وفي ضجيج تلك اللحظات وفوضاها ، سمعت صوتًا داخليًا في أعماقها يهمس لها: « إنه هو.. إنه هو.. هذا هو مخلّصي.. هو الذي سيحميني من نفسي ، بل وسيساعدني على أن أجدها ، ويخرجني من تيهي»..

ولا إراديًا ، ومع أنها لا تحب أن تحتضن أحدًا ولا أن يحضنها أحد ، ولا أن يمس جسدها أحد ، لكنها وجدت الرغبة في احتضانه لأن ذلك يمنحها الشعور بالأمان ، بل مجرد وجوده يشع أمانا بالنسبة لها..

وأحست بالشعور ذاته من الأمان الذي يمنحه لها حضور والدها ، ولأن والدها قد غادر الحياة فهي تحسه وكأنه والدها الثاني ، فقد صار يعرف عنها عن أسرارها الخاصة أكثر مما يعرف والدها عنها..!.

شعور غامض كان يجتاحها وهي تخطو نحوه ، فهو كالأب بالنسبة لها وأكثر ، بل وهو ليس أبًا لها.. فالأمان الذي يشع منه لن تجده إلا مع أبيها ، لكنه أمان وحضور مختلف أيضًا.!..

ارتبك هو حينما اقتربتْ منه.. صارت أمامه.. هي طويلة لكنه أطول منها.. تنبه لارتباكها الشديد.. ووجدها تقول بخجل وارتباك كطفل يطلب السماح:

- لا أدري ما الذي جرى.. كان الهاتف يرن فعلًا.. وما أن رفعت سماعة الهاتف حتى وجدت نفسي في الغياب.. لا أدري ما الذي حصل.. رأيت نفسي وأنا أنظر لنفسي ، رأيتني راقدة على سرير في مستشفى..! ورأيت طبيبًا ومساعده وممرضتين يتناقشون حول حالتي.. ثم فجأة وجدت نفسي مرة أخرى في الغرفة رقم 9 .. لقد خفت من أنني قد فقدتك؟

- وأنا أيضًا خفت من إنني فقدتك.. وظننتُ الظنون بمديرة مكتب الاستعلامات!..

- لا .لا.. رأيت كوابيسًا.. سأروي لك كل شيء..

هذه الجمل القصيرة والبسيطة التي تبادلاها منحت كلا منهما الشعور بالأمان والراحة ، وفجأة قال لها:

- المديرة قالت بأنهم خصصوا لنا جناحًا لنستريح فيه ويكون مكان إقامتنا ، لكنها لم تعطنا المفتاح. .لنذهب إليها ونأتي بالمفتاح ونذهب لنستريح قليلًا!..

- وأين الرائد..؟

- لقد ذهب يفتش عن الهدف الذي جئنا من أجله ، لكن دعينا نأتي بالمفتاح أولًا!..

ومضيا باتجاه مكتب الاستعلامات.

★★★

فوجئت حواء الرحماني حين رأت آدم السيد وإيفا ماجدولينا يدخلان مكتب الاستعلامات ، ولم تستطع أن تخفي استغرابها ، فسألتها:

- ألم تذهبي..؟ عادة حين يأتي اتصال لشخص ما من خارج الفندق فيعني ذلك إنه ينتمي إلى عالم خارج الفندق؟

- لا أعرف.. لم يكن هناك أحد على الخط الثاني.. فجأة رأيت نفسي وكأني في مستشفى ، ثم وجدت نفسي نائمة على مقعد في

الغرفة ، بينما كل ما أذكره إنني كنت واقفة وبيدي سماعة الهاتف بيدي!..

ابتسمت مديرة المكتب ونظرت إلى آدم السيد نظرة خاطفة ثم نظرت إليها نظرة أنثوية ملغزة وقالت بمزاح:

- يبدو إنك لا تريدين مغادرة الفندق!..

ارتبكت إيفا ماجدولينا وقالت بإحراج وخفر:

- بصراحة.. لا!..

وقبل أن تستطرد في الحوار قال آدم السيد:

- جئت أسأل عن الجناح الذي علينا الإقامة فيه واستلام مفتاحه!..

ابتسمت مديرة المكتب وقالت بعجالة وطريقة احتفائية:

- نعم. نعم. هذا صحيح ، لكن أين الرائد آدم عبد السميع..! إذ أن في كل طابق يوجد جناح يضم غرفتين وصالة وملحقات أخرى ، ويمكنكما كلما قضيتم نهاركم في طابق أن تمضوا الليل في أحد هذه الأجنحة ، لكنكم ثلاثة ، والجناح يضم غرفتين ، أي أن ثالثكم عليه أن يسكن في غرفة منفردة.. فأما تكون أنت يادكتور آدم السيد مع الرائد آدم عبدالسميع ، وتكون السيدة إيفا ماجدولينا في غرفة لحالها..! وأما أن تكون معك؟ والرائد في غرفة منفصلة أو تكونان أنت والرائد كل بغرفة وهي تنام في الصالة.. أو أن أحدكما ينام في الصالة.. لا حل آخر أمامكم!..

- هذا مقترح جيد..! قال آدم السيد.

- لكن أين الرائد آدم عبد السميع؟ فلربما لا يقبل بهذا المقترح!..

- صحيح .. قال آدم السيد مستسلمًا.

تنبه آدم السيد إلى أن مديرة المكتب أخذت تنظر إلى الممر ، فالتفت لا إراديًا فرأى صديقه الرائد مقبلًا وعلى وجهه إمارات

الاهتمام ، فقالت المديرة:

- ها هو الرائد جاء بنفسه..

التفتت إيفا ماجدولينا بارتباك. شمل الرائد الجميع بنظرته. ثم توجه لصديقه قائلًا:

- كنت أفتش عنك.. ألم تقل إنك ستبقى في مكانك لا تتحرك بانتظار السيدة (وألقى نظرة لا مبالية على إيفا ماجدولينا ، ثم واصل)..أظن إننا نبحث عن وهم هنا.. أتعرف من رأيت في جولتي التي لم ترافقني فيها..؟

- من؟

- آدم بهاء الدين..

- مَن؟ آدم بهاء الدين الذي حققتَ معه بصدد الشبح الهلامي في تلك الليلة البغدادية؟ الشبح الذي جاء إلى فندق باب السماء؟

- نعم هو بعينه!..

- وهل حدثته؟

- لا.. لقد لمحني فتهرب مني واختفى في أحد الأروقة؟

كانت مديرة الفندق تتنصت بانتباه للحوار ، بينما أحسّت إيفا ماجدولينا بعدم الارتياح لطريقة تعامل الرائد معها ونظراته التي لا تخفي ضيقه منها ، فهي لا تعرف لماذا هو متحامل عليها؟ في تلك الحظة سأل آدم السيد المديرة:

- هل بالإمكان أن تعطينا رقم غرفته أو جناحه ، والطابق الذي يسكن فيه؟

ارتبكتْ المديرة قليلًا وقالتْ بتردد ، لكن بوضوح رصين:

- أعتذر عن ذلك.. أنا لا أعرف من يعيش هنا ، وفي أية غرفة أو جناح أو طابق ، بل ولا أعرف مدة بقاء كل واحد من نزلاء الفندق أو كم سيبقى هنا ، ولا لماذا هو هنا؟ نحن نستقبل من تأتينا معلومات عنه؟ بعضهم يبقى لأزمنة لا تحسب بطريقة

الوقت خارج الفندق؟ فهنا مطهر الخطايا المقدسة وليس الجحيم لا ولا الفردوس. أعتذر مرة أخرى ، لا معلومات عن الشخص الذي سألتني عنه. وحتى لو لدينا تلك المعلومات فنحن لا نمنحها لأي سائل.

ثم توجهت نحو الرائد آدم عبد السميع ، من دون أن تمنح أيًا منهم فرصة لمقاطعتها ، سائلة:

- بالمناسبة ، لدينا جناح خاص لكم ، وفي كل طابق تزورونه لديكم جناح أيضًا ، لكن لدينا مشكلة صغيرة.. هو إنكم الآن صرتم ثلاثة أشخاص.. والجناح فيه غرفتان.. فكيف سيتم توزيعكم فيه؟

- نحن اثنان.. قال الرائد مقاطعًا.

- والسيدة إيفا ماجدولينا ؟

- هي ليست معنا.. هي جاءت بمفردها.

- لكنها الآن معنا..! قال آدم السيد مؤكدًا.

- قل معك.. وليس معنا..! رد الرائد بنبرة فيها إشارة لما يجري بينهما من مودة واستلطاف.

قاطعتهما مديرة الفندق حينما تنبهت للتوتر الخفي بين الصديقين بسبب إيفا ماجدولينا فقالت مدارية الوضع:

-لكن من أجل أن نصل للوضوح.. يمكن أن تكونوا كلكم في الجناح.. لكل منكما غرفته وتنام السيدة في الصالة؟

- ولماذا تكون معنا؟ سأل الرائد مستفسرًا.

- لأنها تخاف أن تكون وحدها في غرفة في هذا الفندق..! قال آدم السيد مبررًا.

- ماذا كانت تتوقع حينما جاءت إلى الفندق؟ هل كانت تفكر أن تنام في جناحنا؟ قال الرائد بنبرة فيها سخط مكتوم.

استاء آدم السيد من نبرة وطريقة صديقه في الكلام لما فيه من إحراج وإهانة مبطنة ساخرة من إيفا ماجدولينا ، فقال له:

- لا عليك صديقي الرائد آدم عبدالسميع.. ستنام في غرفتك المخصصة ، وهي تنام في غرفتي ، وأنا سأنام في الصالون..

أحسّت إيفا ماجدولينا بموجة من المشاعر المخدرة تجتاح جسدها وروحها ، للمرة الأولى تشعر بصفاء المشاعر من رجل نحوها ، وكل هذا التقدير لوجودها من دون أي غرض ، وشعرت أنها لا تريد أن تفترق عن هذا الرجل ، بينما صمت الرائد حينها للحظة ونظر إلى صديقه باستغراب لِما وجده من إصرار على أن تكون الفتاة معهما في الجناح نفسه ، فقال بعصبية مكتومة موجهًا كلامه إلى مديرة مكتب الاستعلامات قائلًا:

- هل بالإمكان الحصول على غرفة أخرى منفصلة لي؟

- طبعا.. المشكلة في الآنسة إيفا ماجدولينا التي تخاف أن تنام بغرفة وحدها..

- إذن جدي لي الغرفة وليكونا هما في الجناح معًا..! قال الرائد آدم..

ثم التفت الرائد إلى صديقه قائلًا:

- انتهينا من قصة الجناح الآن.. لكن هل نبدأ بقصة البحث عن آدم بهاء الدين ، فكل ظني إن لديه مفتاح السر. هو الذي رأى الشبح الهلامي الذي دخل فندق باب السماء في تلك الليلة.. وصباحًا وجدوا جثة الأجنبي!..

- وكيف سنجده..! سأل آدم السيد.

- بأن نفتش عنه نحن.. وسنجده!..

- الآن..؟ سأل آدم السيد..

في تلك اللحظات سمعوا صوت نفير ينطلق من بوق هائل. لم يفهم الثلاثة شيئًا فقد كان صوت النفير مفزعًا ، بينما ارتبكت المديرة ، وقالت لهم:

- هذه جوقة الملائكة جاءت لتأخذ أحدهم إلى مكان آخر..

إلى الفردوس ، أو تنقل أرواحا من الجحيم إلى هنا.. أسرعوا إلى غرفكم.. وحين تسمعون رنين جرس هائل يدوي في الفندق ، حينها يمكنكم الخروج.

ومدت لهم بطاقات عاجية تفتح بها الأبواب.

أخذ آدم السيد البطاقة العاجية الخاصة بالجناح ، وقرأ عليها: « فندق باب السماء- مطهر الخطايا المقدسة- جناح الجدي والحمل والميزان». واستلم الرائد بطاقته لكنه لم ينظر إليها. وغادروا مكتب الاستعلامات.

في الطريق إلى غرفهم ، تنبه آدم السيد وإيفا ماجدولينا إلى أن الرائد سبقهما على عجل وكأنه لا يرغب في المشي معهما.

سألتْ إيفا ماجدولينا بإحراج مستفسرة:

- ما به؟ لماذا يعاملني بهذه الطريقة؟

فأجابها محاولًا أن يهدئ من قلقها:

- لا عليك.. هو بحكم مهنته شكّاك..

- المهم أنت معي.. لا يهمني هو ولا كيف يتعامل.. هذه مشكلته. المهم لقد عدتُ....

- لم أفهم..؟ عدتِ من أين؟

وابتسمت بعينيها ابتسامة كلها رضا ومودة وقالت:

- سأفهمك كل شيء!..

- لكن لدي سؤال؟

- ما هو..؟

- ألا تشعرين بالإحراج وإنك ستكونين معي في الجناح..؟

نظرت إليه بعينين مليئتين بالحنان والعرفان وقالت:

-إنني أثق بك..!

الفصل السابع
فالس في المطهر..

كانا جالسين في الصالة الفارهة والواسعة. انتبهت إيفا ماجدولينا من لحظة رجوعها من الغرفة 9 بأن آدم السيد مرتبك ، ومتوجس ، وكأنه يخفي شيئًا ، بل كان يحاول ألّا ينظر في عينيها مباشرة كعادته حين يتأملها وهي تتحدث ، أو حين تمسكه ينظر إليها خلسة ، فهو الآن صامت ، ويتجنب الحديث معها وكأنه لا يريد أن يُعمق علاقاته بها ، حتى إنه حينما خرجا من مكتب الاستقبال ومشيا إلى جناحهما كان يمشي أمامها مسرعًا بقصد ألا يكون هناك مجال للحوار بينهما. وحتى حينما دخلا الجناح الأنيق والفاره الذي تتوسطه صالة أنيقة من جانبها الأريكة الجلدية الأنيقة وأمامها المطبخ والثلاجة وعدة القهوة والشاي ، بينما تقع غرفة على اليمين بابها على الصالة وغرفة على الشمال.

أشارَ إلى الغرفة التي تقع على اليمين وقال لها: «هذه ستكون غرفتك» ، وأشارَ إلى الغرفة المقابلة لها وقال: «وهذه ستكون غرفتي». لكنه من دون أن يذهب إلى غرفته جلس على الأريكة الجلدية ، فجلست على الطرف الآخر من الأريكة. شعرت بأنه يعاني صراعًا في داخله ، وأن هناك شيئًا يشغله ، وهذا الشيء يخصها هي بالذات. ولأن هذا الشيء مفاجئ في سلوكه معها لذا سألته:

- هل لي أن أسألك سؤالًا وتردَّ عليَّ بصراحة؟

تنبه آدم السيد لها وكأنه توقع سؤالها ، ورغب في ذلك لأنه يريد أن يسمع منها بصراحة حكايتها ، فأجابها:

- تفضلي..

تأملته للحظة. وأدركتْ أنه مكتظ بالأسئلة أو ربما هو سؤال واحد ، وشعرت مع ذلك بقربه منها ، فقالت:

- أريد أن أعر ف سِرّ هذا التحول في طريقة تعاملكَ معي؟ هل بدر منيّ ما جعلك تجفل مني وتحاول تجنب الحديث معي ؟ أنا أعرف أنك رجل حقيقي وشجاع ، فلماذا لا تواجهني بما يدور في رأسك عني؟

أحسّ آدم السيد بالحرج المشوب براحة نفسية ، فهو يعرف أن القلوب النقية وحدها التي لا تخاف من خطاياها ، لذا توجه إليه بكامل جسده وأعادة جلسته بحيث صار وكأنه يواجهها ، وقال:

- طيب... أرجوك ، قبل كل شيء أن تعذريني لقساوة ما سأقوله ، لكنك توجهتي لشجاعتي الأدبية ـ لذا سأقول لك ما جرى وما يجول في رأسي.

- وأنا سأتقبل كل ما ستقوله بروح طيبة مهما كان قاسيًا.. مع أني أتوقع ما ستقوله.. لدي حدسي في ذلك..الشكوك تحاصرك..!

صمت للحظة معجبا مع نفسه بحدسها القوي ، ثم قال:

- الحدس أحد أشكال المعرفة البسيطة وطرقها ، كما قال سبينوزا ، وفيما بعد كرره إيمانويل كانت..

أحسّت أنه يمهد لنفسه كي يهدر بما يجول في ذهنه ، فقالت له كي تحسم الموقف:

- إنني أسمعك..

- اسمعيني جيدًا.. قد يبدو لك غريبًا ما سأقوله.. أنا أكبر منك عمرًا بل أكاد أن أكون ضعفيّ عمرك ، ومع ذلك لا أشعر بهذا الفرق في العمر بيننا. لكني على الرغم من ذلك أدرك بأن هناك فرقًا في الخبرة والتجارب والطموح.. وحين رأيتك ومن خلال أول جملة تبادلناها وجدت فيك توأمًا روحيًا ، وكأني رأيتك في زمان ما ، وفي عصر ما ، بل وفي عصور مختلفة. هل تؤمنين

بتناسخ الأرواح؟

نظرت إليه متأملة ومستغربة ، فليس هذا ما كانت تتوقع أن يحدثها عنه ، لكنها وجدت نفسها تقول له:

- نعم.. إلى حد كبير أؤمن بذلك..

أحس آدم السيد بدبيب الحيوية والطاقة يسري في كيانه ، فقال:

- طيب هذا ما يسهل علي ما سأقوله..

ظلت هي صامتة منتظرة أن يواصل ، وتنبه هو إلى أنها تنتظر أن يواصل كلامه ، فقال بعد لحظات:

- أنا على يقين بأني كنت كاهنًا في أحد معابد سومر ، ولم أكن الدكتور آدم السيد ، بل كان اسمي آ دم طريد الفردوس ، فذات فجر أفقتُ من غفوة غامضة ، فرأيت نفسي تحت شجرة سدر عملاقة ووحيدة في تلك الأنحاء المجهولة. كنت عاريًا ، ولا أعرف كم كان لي من العمر. ربما وفق الصورة التي ترآت لي للرجل الذي كنته ، كنتُ في الأربعين تقريبًا. لم أعرف معنى الثياب ، ولا من أين آتي بها. كان الأفق أمامي عاريًا ، أجردَ ، لا يصد بصري فيه سوى مبنى عالٍ ومتدرج ، عرفتُ في أزمنه لاحقة بأنه يسمى الزقورة ، ومضيتُ إليه ، وحين اقتربتُ رأيت الدرج الذي يصعد إلى قلب المبنى.. فصعدتُ.. ودخلته..

لم أكن أعرف شيئًا عن المكان الذي كان دافئًا. وكانت ذُبالات فتائل المشاعل تكاد تنطفئ ، وأشياء تحترق في صحون صغيرة تنشر رائحة طيبة في المكان.. ولا يمكنني أن أفسر أبدًا كيف عرفت الأشياء بأسمائها ، فكأن الأشياء ومسمياتها تظهر أمام عيني الداخلية كلوح ضوئي..

المهم.. رأيتُ هناك صحنًا كبيرًا فيه فواكه من الأعناب والتين والتمر.. وطاسات من اللبن.. فأكلت وشربت. لكن راودني الرقاد

ثانية ، من دون أن أعرف من أنا ، ومن أين جئت..؟ أذكر كل ذلك بوضوح شديد وكأنه جرى قبل قليل ، بيد إني صحوت على صوت طفل يبكي. التفّتُ في القاعة الفارغة ، وعرفتُ مصدر الصوت ، وحين تقدمت منه ، رأيت طفلًا رضيعًا حديث الولادة ملفوفًا بخرق ، وحين فككتها عرفت أنها أنثى ، حملتها بين ذراعي وجئت إلى حيث كنت راقدًا لكني تنبهت إلى أن هناك ما يشبه الغرفة في الزاوية التي كنت أرقد فيها. وحين دخلتها وأنا أحمل الطفلة وجدت أنها مخزنًا فيه أشياء مختلفة. ما يشبه الأفرشة ، من جلود الأغنام ، وجرار فيها عسل التمر ، وجفنه فيها الخبز ، وأخرى كان فيها زيت الزيتون. طبعًا لم أكن أعرف معنى الطعام الأرضي ولكني كنت أعرف أسماء تلك الأشياء التي رأيتها لأول مرة.

وفي زاوية من تلك الغرفة وجدت صندوقًا فيه ثياب وأوشحة ومناديل مزركشة.. فوضعت الطفلة على الأرض وأخرجت الأقمشة وللفقتها حولي. وللفت الطفلة التي أخذت بالبكاء ثانية ، ثم غمست أصبعي في جرة عسل التمر ، ومن ثم قربتها من شفتي الطفلة فأخذت ترضع أصبعي. وهدأت ، بل ونامت. ففرشت لها جلدة كبش مصوف ووضعتها عليه..

أثناء ذلك سمعت هديرًا يأتي من خارج المكان..حين اقتربتُ من فتحة المكان التي تفضي نحو الدرج.. رأيت جمعًا غفيرًا من الناس.. خفتُ على الطفلة منهم.. فحملتها هي وبساط الصوف التي ترقد عليه وأخفيتها في غرفة المؤنة.. وجلست مقرفصًا هناك لأرى وأسمع ما يجري..؟ هل تصدقين.. مع إني لم أرَ إنسانًا قبل ذلك.. لكنني لم اندهش لرؤيتهم.. كنت أعرف لغتهم ، وهي ليست هذه اللغة التي نتحدث بها أنا وأنت الآن. كانت لغة أخرى مختلفة لكنني لا أعرف كيف كنت أفهم ما كانوا يتبادلونه من جمل ، مع أني أصلًا لا أعرف من أنا..؟ وحين دخلوا المكان سمعت أحدهم

يقول:» إن مشاعل المعبد قد انطفأت وهذا نذير شؤم ، علينا أن ندع المرأة تقوم بخدمة المكان» ، وسمعت أحدهم يقول: «علينا أن نختار كاهنا جديدًا بعد موت الكاهن الأقدس آدم الأوري» ، وسمعت صوت امرأة تقول: «أنا سأكون خادمة المعبد كما عرضت الأمر عليكم» ، وسمعتهم يتحدثون عن القرابين ويتلون صلوات وابتهالات جميلة.

وفجأة ، سمعت صرخة عظمى ، فقد دخلت المرأة إلى الغرفة الداخلية ورأتني ، وخلال لحظات التّم الرجال حولي وفي يد بعضهم أجفان مليئة بالفواكه واللبن والعسل وشراب الشعير ، وجروني إلى وسط المكان الذي عرفت كان اسمه المعبد ، بينما تلقفت المرأة الطفلة بين أحضانها وكأنها هي أمها التي تركتها في هذا المكان.

وحين بدأت أروي لهم قصتي ، وكيف أني أفقت ووجدت نفسي عاريًا تحت شجرة السدر ، فإذا بهم يخرون سجدًا لي. ويبتهلون لي ويتبركون بلمسي وهم ينادونني: «أبانا آدم طريد الفردوس»...

ووجدت نفسي مبجلًا ومقدسًا لدى هؤلاء الناس ، وصاروا يأتون لي باللحم والزبد والأفرشة والدهن والعطور والخرز الملون و.و.و. لم أكن أفقه الأمر لكن المرأة التي احتضنت الطفلة وأبدت استعدادها لخدمة المعبد شرحت لي كيف أن الناس مهووسون بالأساطير وكل ما له علاقة بالغيب.. وأن عليَّ أن استفيد من ذلك لأضمن عيشي ، ثم شرحت لي قصتها بأن هذه الطفلة هي ابنتها ، ولدتها في غابة ، لكنها ليست ابنتها أيضًا ، فقدت كانت هي عاهرة المعبد ، وكانت عشيقة الكاهن الأقدم الذي مات بمرض خبيث لم يعرف أحد سره ، لكنها مع ذلك حملت منه..

وواصلت حكايتها لي قائلة: « لكي لا ينالني العقاب ذهبت إلى الغابة ، وولدت طفلة لكنها كانت قد ماتت لحظة ولادتها ، وعلى

مقربة مني كانت ثمة غزالة انقض عليها نمر متوحش ، وفي لحظ انقضاض النمر على الغزالة بدأت ابنتي الميتة بالبكاء ، واعتقدتُ أن روح الغزالة استقرت في جسد هذه الطفلة.

هي طفلتي وليست طفلتي..! ولخوفي من أهل قريتي جئت بها إلى المعبد وقلت في نفسي بأني سألجأ إلى المعبد ، لاسيما وأنه يحتاج للخدمة ومشاعله يجب أن تكون متقدة دائما ، لكننا فوجئنا بوجودك. ولأنك جئت من اللامكان فأنت الكاهن المقدس الآن. وأتمنى أن تشملني ببركتك. وأنا سأعلمك كل ما يدور في عقول هؤلاء الناس المرعوبين من المجهول.

ومرتْ السنواتُ ، وتوسعت القرى وصارت مدنًا ، وجرت الحروب ، وازدادت نِعم وهبات المعبد ، كما صرت أتقن مهنتي ككاهن مقدس ، وترعرعت الفتاة في المعبد ، وصارت فتاة في العشرين. كانت تشبهك تمامًا ، وكأنك نسخة منها ، ممشوقة القوام وفيها أنوثة طاغية ، كانت بشرتها بيضاء وردية ، وشعرها بسواد الليل ، كانت ملامحها مرسومة بدقة ، تشبه إلهة الجمال.

كانت هيئتها مثلك طبق الأصل ، وحين رأيتك ذُهلت. كنت أسأل نفسي أين رأيتك؟ كان اسمها إيفا وتعني واهبة الحياة..! لكن حدث وأنا كنت في الستين وإيفا في العشرين ، جاء حاكم المدينة بعد انتصاره على مدينة مجاورة ، وأراد تقديم الابتهال والشكر للآلهة في السماءن ورأى إيفا الغزالة ، فظنها عاهرة المعبد وأراد أن يضاجعها ، وحين تمنعت أراد اغتصابها ، فاعترضتُ عليه ، وكان ذلك أمام القادة وأعيان المدينة ، فلم يغفر لي ، وفي ليلة غاب فيها القمر قتلوني..! هذا ما أذكره...

كانت إيفا ماجدولينا تستمع إليه مأخوذة بالحكاية ، فقد تذكرتْ نفسها وحياتها السابقى الموغلة في القِدم ، لاسيما المعبد في أور ، وليلة مقتل آدم طريد الفردوس ، لكنها لم تقلْ شيئًا ،

وإنما سألته بهدوء:

- وهل هذا سبب تهربك من محادثتي..؟

سكتَ آدم السيد للحظات ، وقرر أن يكاشفها بشكوكه ، وقال:

- لا. الرائد قال كلامًا يخص واقعنا ، استنادًا لما رويتيهِ أنتِ لإيفا تريزين ، فقد قلتِ عن نفسك بأنك أردت التحرّر والهرب من عقد عائلتك ولجأت إلى العلاقات المنفلتة ، وتواصلتِ مع عدد من الرجال ، وفعلتِ أشياء لم تكوني راغبة فيها ، وقد تنبه الرائد لانجذابي إليك بشكل قوي ، وهذا الشيء لا يمكنني نكرانه ونفيه ، لذا أسمعني كلاما ولّدّ الشكوك في نفسي..

- ماذا قال لك..؟ سألت إيفا ماجدولينا بحزن.

- تنبه إلى إني متعلق بك جدًا ، وإنه من المعيب عليَّ والمستغرب مني إنني بعد كل تجارب العمر وحشد النساء في حياتي ، و رؤيتي للعالم والبلدان المختلفة ، أن أتعلق بفتاة بعمر ابنتي..! وحذّرني منكِ قائلا بأن لديكِ تجارب ، وإنك ستلعبين بي بسهولة من خلال خبرتك في العلاقة مع الرجال ، كما أن لديكِ من السحر والجاذبية ما سيجعلني طوعكِ..!

ثم في لحظة ما يمكن أن تملّين مني أو في أول خلاف بيننا قد يجذبك رجل ما أو إغراء ما وستُلقين بي جانبًا ، فأنت مزاجية كما تقولين عن نفسك ، وتؤكدين ذلك ، وكنتِ قد اعتدتِ على القطيعة مع مَن كنت تتواصلين منهم ، وربما هذا سيحدث معي..!.

أحسّت إيفا ماجدولينا بشيء من الارتباك والخجل ، فهذه لغة تسيء لها ، لم تعرفْ كيف تُجيب!! ، وكيف عليها أن تشرح له بأنها لم تستمع بكل ما جرى لها من علاقات وممارسات !! بل ، على العكس ، فقد كانت تشعر بالقرف من تلك الممارسات!!..

كيف تُخبره بأنها دخلتْ إلى عالم العلاقات الافتراضية ظنًا منها بأنها سوف تشعر بالحُرية ، وبأنها سوف تخوض مغامرات

حب وغرام مثل صديقاتها ، مغامرات تمنحها المتعة والسعادة ، لكنها حصدت الخيبة والقرف..!.

كيف يفهم بأن دوافعها كانت لا واعية..فحين كانت تتأمل واقعها وبأنها لم تدخل بعلاقة حُبّ كانت تشعر بأنها غريبة الأطوار ، لذا تمنت أن تدخل في أيِّ علاقة ، أي علاقة ، المهم تكون مثل صديقاتها تتبجح بأن لديها علاقة حب وغرام!!..

وحين تهورت ، سرعان ما ملّتْ من كل شيء ، ملّتْ من الرجال ، ومن الحبِ أو ما كانت تعتقده حبًا ، ملّتْ العلاقات التي تمنتها سابقًا ، فتركتْ كل شيء ، إذ أنها لم تجد نفسها في ذلك العالم ، ولاتزال تبحث عن نفسها ، فلم تُثر إعجابها تلك الحياة وسرعان ما خرجت منها ، لكنها انتبهت إلى أنها موجودة في حياته هو ، وهو مُتعلق بها ، وإلا ما تنبه صديقه الرائد آدم عبدالسميع لذلك وفاتحه بهذا الوضوح ، فقالت له بعد لحظات من الصمت:

– سأقول لك شيئًا يا آدم السيد عن نفسي ، وبوعي الكامل وبكامل إرادتي أقولها لك بملء الفم. أجل أنا مزاجية ومتناقضة ، لكنك الشيء الوحيد الذي حتى تناقضاتي ترغب فيه ، وتستجيب له ، وتنسجم معه ، هو أني أريد أن أكون معك..!! كل تلك العلاقات التي عشتها كانت افتراضية ومعدودة ، فهناك أشخاص تركتهم بعد حوار أو حوارين وهم ليسوا سوى هوامش ، وقد تخليتُ عن الجميع بكامل إرادتي.. ، ثم أريدك أن تفكر معي قليلًا ، إذ كنت قد استمتعت بالعلاقات فلماذا تركتها؟!

أنا لا أبرّر لنفسي ، وإنما أفكك نفسي. أنا أتفهم وجهة نظر الرائد آدم عبدالسميع ، وربما أنت تتقنع بها إلى حد ما ، فأكيد بعض هذه الآراء مستكَ ، لذا كنت تتهرب مني. أتفهّمُ قول صديقك بأنني ربما سأملّ منك وألقي بك جانبًا لانتقل إلى شاب بعمري أو يكبرني قليلًا ، لكني أقولها لك: إنها ليست المرة الأولى التي أشعر

فيها بأنني معجبة برجل ، لكنها المرة الأولى أشعر فيها ، وبقوَّة ، بأنني أحب رجلًا.

صحيح إنني تعرفتُ على الكثيرين ، لكنني لم أشعر قط بأنني أوّد البقاء والاستمرار مع أحد إلا معك ، لأني فعلًا أريد أن أكون معك. أنا لا أقول هذا الكلام لأسباب عاطفية ، أنا أعرف إنني دخلتُ حياتك ، بينما أنت محاط بالنساء بحكم عمرك وخبرتك وموقعك ربما. لكن ألم تسأل نفسك لماذا أريدك وأريد أن أكون معك ، وأكون لك وحدك؟.

أريدُكَ أن تفهمني. أنا لم لست طالبة في الكلية التي تُحاضر فيها ، ولستُ موظفة في المكان الذي تعمل فيه ، ولم أعرف أن لديك منصبًا رفيعًا. أنا تعرّفتُ عليك كآدم السيد ، الرجل البسيط ، المتواضع عن عظمة ، الذي لا يتكبّر ولا يرى نفسه أعلى من الآخرين ، لكنه لا يرى هناك من يعلوه أيضًا.

أنا التي وجدتُ فيكَ تجسيدًا للمخلّص الذي أريده في حياتي. غمرتني بحنانك واهتمامك منذ الخطوة الأولى لي في هذا المكان المخيف. ومع ذلك أنا لا أريدك لأنك تهتم بي ، فقد اِهتم بي الكثيرون ، لكني أريدك من دون أيَّ سبب أو تفسير.. ، ولم أشعر بهذه الرغبة قط نحو أي مخلوق سوى أبي وأمي.

أحبك بلا سبب أو غاية. عرفتُ الكثيرين من الرجال ولم أشعر بهذا الشيء أبدًا ، ولهذا أنا متأكدة من حُبي لك ، لأني لم أشعر بهذا الشعور من قبل. أنا أحببت شخصيتك ، وأحببت الإنسان الذي في أعماقك ، ولا يهمني عمرك أبدًا ، فقد عرفتُ شبابًا خنازير وتافهين ، أرواحهم نتنة ويفتقدون لمثل روحك الوثابة.

أنا لا أقول هذا الكلام وأنساه ، وألقيه وراء ظهري ، وإنما أعني كل كلمة فيه وأقف بوعي وراء كل جملة قلتها لك الآن ، أما عمّا قاله الرائد عن سلوكي السابق فسأقول لك ليس دفاعًا ، ربما أنت أكثر

إنسان يمكنه تفهم خلفيات سلوكي ودوافعها. أتحدث بكل صراحة وبتجرد كامل لأني أجد نفسي أتطهر حين أروي لك أنت بالذات ، كل شيء.

كان آدم السيد يلتهم كل إشارة صوتية أو صورية تصدر عنها ، لم يشأ أن يقاطعها ، مع أنه أراد أن يسألها ليتأكد من جملتها بأنها تريد أن تكون معه وله وحده. فقال لها:

- أتمنى أن لا تترددي في بوحك..!

جملته شجعتها ، فاستعدلتْ في جلستها وقالت:

- بالنسبة لي فقدتُ ثقتي بالناس ، فقدتُ ثقتي بالكلمات الجميلة ، فقدتُ ثقتي بالحب ، بالمثاليين والمثاليات الذين يعتقدون أنهم أفضل الناس وفوق البشر ، فقدتُ ثقتي حتى بنفسي ، فبالنسبة لي سقطتْ جميعُ الأقنعة ، سقطتْ الأقنعة الأخلاقية والفكرية والشعارات والفضائل الدينية. رأيتُ النفاقَ الصريح بوجهه الساخر كوجه المهرج ، رأيتُ كيفَ يلعب الرجال بالكلمات ، يقولون كلامًا لا يقصدونه ، يثيرون عطف الأنثى وغريزة الأمومة لديها ، من أجل أن تمنحهم حنانًا مفقودًا ، لكنني كنتُ أفقد خلال ذلك الكثير من مشاعري واحترامي لنفسي ، مما ولّد لديّ شعورا بأن ما أفعله ليس ما أريده وأرغب فيه ، وليس هذا ما أبحث عنه.. أدركت أن هذه العلاقات لن تُحررني.. أو تُبعدني عن جو عائلتي المُعقد.. أو حتى تُسليني.. فهذه المغامرات ، التي أردتُ تقليد صديقاتي فيها ، تافهة ، فالرجال كاذبون ، حتى إني كرهت الرجال.. وابتعدتُ عن الجميع ، حذفتهم حتى من دون أن أخبرهم ، اختفيت عن عالمهم وكأنني لم أكن ، وأخرجت نفسي مما كنت متحمسة لتجربته.

ببساطة لأني اكتشفت حقيقة الوهم الذي كنت أسعى إليه وأرغب فيه ، لأنني وجدته سخيفًا ، فبعدما أن خضت بعض

العلاقات أخذت أسخر من نفسي ، وببساطة لم أحب تلك الحياة ، لذلك سحبت نفسي منها.

أتعرف يا آدم ، أنا فتاة بسيطة ، رومانسية ، حالمة ، وعلى الرغم من أني لادينية إلا إني أحب المخلّص ، بل مهووسة بالمخلّص ، وكنت أؤمن بأن المخلّص يسمعني ويحقق ما أطلبه منه ، لكنه خذلني ذات مرة... وسأروي لك ما أقصده.. كم أنا متناقضة أليس كذلك؟ لا أؤمن بالمعتقدات الدينية ولا بذوي الشفاعة لكني أطلب منهم تحقيق رغباتي ورجائي.. هذه أنا ببساطة.. كتلة من التناقضات..!

كان هو يتأمل وجهها ويسأل نفسه متى تتحدث عن التفاصيل.. لكنه لم يسألها وأنما تركها تتحدث:

- حياتي الشخصية السرية لا يعرف بها أحد سوى صديقة طفولتي التي أحكي لها كل ما يمر بي وما أمر به ، وما أعنية وما لا أعنيه ، من دون أقنعة أو تجميل. هي تعرف منزلقاتي وسقوطي ، بل وتعر ف جميع الرجال الذين كنت أتعرف عليهم ، كما هي تعرف تفاصيل معاناتي مع أهلي. والحقيقة أشعر بشيء من عدم الراحة من رواية تفاصيل حياتي ، فأنا لا أود أن تنظر إلي نظرتك إلى كما ينظر الرائد آدم عبد السميع إليّ..وأنما أريدك أن تحتويني وتتفهم كل ما عانيته وما مرَّرت به..!

فقال لها بحنان:

- أنا معك..وسأكون معك وإلى جانبك.. أنت تُعيديني إلى آدم طريد الفردوس.. وإلى أصلي.

نظرتْ إليه بحنان ، وتمنتْ لو تلقي بنفسها في أحضانه ، لكنها تماسكتْ وواصلتْ:

- الكل ذئاب تنهش ، وإن الحديث مع أيَّ رجل شاب أو غير شاب يُعتبر عيبًا وخروجًا على السلوك القويم. وكنتُ قد ترعرتُ

على مبدأ بأنه لا علاقة مع أي رجل من دون أن تنتهي بالزواج. وطبعا من شروط عائلتي هو وجوب أن يكون هذا الشخص من ديانتي ، بل ومن طائفتي.

المهم ، وكما حدثتك حدث مرة إن انجرفت في علاقة شُبه عاطفية مع شخص ما ، تقدم لخطوبتي ، وكنت فرحة بذلك ، لكن الذي حدث إن أحد أخوتي ، وهو شخص معقد جدًا ، ومتعلق بي جدًا ، ومحافظ جدًا جدًا ، مع أنه لا يؤمن بالدين أو دعني أقول بأنه ملحد ، بل هو ملحد متحفظ ومهووس بالشرف..! وبدعم من إحدى أخواتي سعوا إلى تخريب الأمر بحجج واهنة. ومرتْ الأيام ، وسقطتُ في حالة اكتئاب ، ولم أنهض منها إلا وأنا قد صرت متمردة ، لا مبالية..!

فقال بأسى وهو يتأملها:

- إذن وقعتِ في هاوية الفراغ العاطفي..!

نظرت إليه بحنان وقالت:

- لا أعتقدُ كانت هاوية الفراغ العاطفي وأنما وقعت في هاوية اللاشيء ، وفقدتُ ثقتي بالأشياء وبالمنظومات الأخلاقية أو على الأقل نتيجة خيبتي العاطفية ، سعيتُ ، بلا مبالاة ، إلى التعويض وأيضًا إلى الانتقام من نفاق عائلتي ، فوجدتُ نفسي مندفعة بكل مشاعري ، وبدافع من صديقاتي ، أردت أن أجرب العلاقات العاطفية ، فتعرفت على شاب جامعي خريج كلية أكاديمية الفنون ، وبعد كل الكلام الرومانسي كشف عن وجهه الحقيقي وغايته وهي الوصول إلى جسدي على الإنترنت ، فذات يوم أرسل لي صورة مقززة لعضوه.. صُدمت.. أغلقت الهاتف وذهبت لأتقيأ ، وصرت أتجنبه ولم أتواصل معه ، فبادر هو معتذرًا ، ومبررًا ، لكني بعد فترة حذفته.

بيد إني كنت أقنع نفسي بأنه من غير المعقول بأن جميع

الرجال هكذا ، فتعرفت على شخص آخر ، اتضح أنه رجل مريض نفسيٍا. أعجبني في بداية تعارفنا ، كان يكتب ومثقف ، فكنتُ أحلّق في أحلامي ، لكني كنت أدرك أن كل ذلك يجري في عالم افتراضي ،عالم من الكلمات ، لكني لست كما يظنني الرائد آدم ، فقد كنت أقف أمام المرآة وأنظر للإنسانة التي صرتها بألم.

ومع أن كل شيء يجري في عالم افتراضي ، وباسم مستعار ، وعلى الرغم من اندفاعي ، إلا إنني كنت متحفظة وأتقزز من عالم الرجال ، فحتى في هذا العالم الافتراضي لم يمسسني أحد كما تعتقدون ، بل وواقعيا أيضًا ، وفي حضوري وتجسّدي في هذا العصر ، لم يُقبلني بل ولم يلمس جسدي رجل إلى الآن مع أن كل من عرفت عليهم حاولوا لكني كنت أشعر بالتقزز كلما تقربوا.. ولذلك كنت انسحب بسرعة.

المهم بسبب تلك العلاقات الافتراضية تحطّمتُ نفسيًا ، ونزل وزني وأصابني الهزل ، وصارتْ نوبات الهلع والتقيؤ وفقدان الشهية العصبي تلازمني ، فقررت إنهاء كل شيء ، وقد فعلتُ ذلك ، إذ عطّلت حسابي على (السناب) ، واختفيت عن عالمهم ، سحبتُ نفسي ، وتخلّصتُ منهم بشكل نهائي ، نعم لقد تخلّصت منهم ، لكني لم أتخلص من نوبات الهلع وفقدان الشهية العصبي إلا بعد أشهر عديدة ، ورجعتُ وكسبت الوزن الذي فقدت ، لكن لم ترجع حياتي مثلما كانتْ في السابق ، فقد تغيرتُ كثيرًا ، أصبحت باهتة وحذرة جدًا ، أخاف الرجال بل وأتقزز منهم ، وأخاف نفسي ، أجل بدأت أخاف من نفسي ، فكيف يمكن للإنسان أن يتغير بشكلٍ جذري بهذه السهولة والسرعة؟! لكن استمرتْ معاناتي مع عائلتي..!

بعد عام من مغاردتي عالم العلاقات وإغلاقي كل منافذ التواصل مع الآخرين ارتبط أخي بفتاة. كانت هذه الفتاة لا تستلطفني ومن دون أيِّ سبب على الرغم من محاولاتي للتقرب

منها ، إلا إنها لم تتقرب مني ، وفي أحد الأيام حين كنت في الكنيسة يوم الأحد ، كانت حبيبة أخي أيضًا هناك ، وكانت قد التقطت صورة لي وأرسلتها لأخي وقالت له:

- انظر إلى ملابس أختك ونهديها المفضوحين»..

لم أعرف بأنها فعلت ذلك حتى عدتُ إلى المنزل ، وإذ بأخي يستقبلني بالصورة ، ومن دون أيِّ تفاهم ضربني بقوّة وحشية ، فسقطت مباشرة على رأسي الذي ارتطم بطاولة مرمرية كانت هناك ، وغبت عن الوعي. ضربته جاءت بي إلى فندق باب السماء...!

صمتتْ إيفا ماجدولينا للحظات ، وأحست أن آدم السيد يتعاطف معها من خلال بوحها الصريح والجريء الذي كان يستمع إليه بصمت وتنبه. لم يعلّق هو شيئًا ، وأنما أراد أن يستمع لها ويعرفها جيدًا.

كانت أجواء الجناح رومانسية ، الإضاءة الخافتة ، الأناقة في الأثاث ، والتوزيع الذكي للأشياء في المكان الذي يذكّر بالغرف والصالات الأرستقراطية ، بل وحتى الشموع على الطاولة التي أمامهما ، كل ذلك منحها طاقة شعورية تدفعها للبوح أمام الرجل الذي تحب أن تكون معه بلا أقنعه..! ولما طال الصمت بينهما واصلت بوحها:

- أنا دائمًا واضحة ، وبسيطة ، قد لا أكون ملاكًا ، ولكنني حقيقيّة. لا أضع القناع على وجهي وشخصيتي مع من ارتبط به. أتعلم يا آدم نحن البشر كثيرًا ما نخطئ في معرفة الناس ، لأن بعض الناس يرون أن الوضوح والبساطة ليست وضوحًا وبساطة وأنما هي قناع للوضوح والبساطة ، وأننا نمثل ذلك ، لذا قلتُ لك لقد سقطت جميع الأقنعة أمامي ، لكن صدّقني أنا معك واضحة وبسيطة وبلا قناع.

أكره ادعاء الفضيلة وتمثيل دور العفيفة الطاهرة ، أجل أنا أعترف بأني تهورت في فترة ما من حياتي ، لا أنكر ذلك ، لأني إنسان من لحم ودم وغريزة ومشاعر ، وإنما كائن بشري معرّض للتجربة ، الانجراف ، للزلل ، لكن لو لم أجرب ذلك فلربما بقيت حتى الآن أعيش في ظل ذلك الوهم معتقدة أن عالم العلاقات رائع وأنا محرومة منه ، بيد إني جربته ، واكتشفت بأنه عالم لا أرغب فيه. لربما يكون رائعًا لغيري فنحن على الرغم من سيرنا في قطيع بشري لكننا أيضا بشر منفردون برغباتنا الخاصة ، وبعد تجربتي شخصيًا أدركت أني لا أستطيع أن أحيا واستمر في تلك الحياة..

أشعر بعد تلك التجربة ، برغم مرارتها ، بأني سعيدة نوعًا لأني خضتها ، تعلمتُ الكثير من الأمور ، فقد وعيتُ بسببها على الكثير من الحقائق. جرّبت ما تمنيته وأدركت تفاهته وسذاجتي. قرّرت مع نفسي أن اعتزل عالم العلاقات ، وحتى إن تواصلت مع الآخرين فلا أكون كما كنت سابقًا. وهكذا انطويت وصرت أعيش عزلتي ، فتلك التجربة حطمتني ، حطمت تلك الطفلة التي بداخلي ، ولسوف تستغرب إذ قلت لك بأني لست نادمة ، نعم. لستُ نادمة ، لأني بسببها تغيرت كثيرًا نحو الأفضل. صرت حذرة في تعاملي مع الرجال ، وأدركت حقيقة تصوراتي عن هذا العالم..

صمتت ّهي للحظات .نظر إليها متأملا وجهها ،وقبل أن تواصل قال لها:

- الذي حيّرني وأنا استمع إليك ، هو إنك إنسانة مهذبة وعاقلة ورزينة فكيف انزلقتِ إلى تلك الهاوية بهذا الشكل المؤلم ومع هؤلاء الأوغاد..وأنا متأكد من أنهم أوغاد لا يليقون بكِ ، وإلا لبقيت مع أحدهم على الأقل..؟!

أسعدتها ملاحظته ، فقالت مؤيدة وبنبرة في اعتذار مبطن:

- لا أجد ما أدافع فيه عن نفسي.. لكني انزلقت بسبب دوافع

عدّة وذكرتها لك..لكن صدقني الحرية أعمق بكثير من علاقة عاطفية سرية.. أجل كانت الدوافع كثيرة وليس دافعًا واحدا قادتني لهذا الأمر..

عمّ الصمت.. لكنها قالت له:

- وهناك سبب آخر لوجودي هنا.. سبب أعمق من بحثي عن نفسي..

فوجئ آدم السيد وسألها متعجبًا:

- ما هو؟
- أنا جئت أبحث عن أختي..!
- أختك..؟
- نعم أختي التي انتحرت وحرقت نفسها نتيجة قصة حب فاشلة..
- أف.. وكيف حدث ذلك؟
- سأروي لك لاحقًا قصة عائلتي وأبي.. وقصة الشهر الأخير من السنة الي توفت فيه ثلاث من أخواتي وأبي..! وجدتي.. لكني أشعر بالراحة لأني رويت لك كل شيء عن نفسي.. من دون أقنعة..

لاشعوريًا مدّ يده ليمسك بكفها التي مدّتها له. فأخذ كفها بكفه وأخذ يضغط عليها ضغطًا خفيفًا ، بينما نظرت هي إلى وجهه بعينين مليئتين بالحنان والدفء وقالت له بنبرة مشحونة بالعاطفة:

- أنت هدية القدر لي ، نعمة أرسلها الله لي ، لقائي بك كان بإرادة القدير ، مخططًا من قبل البارئ القدير.. ربما ستقول بأننا التقينا منذ فترة قصيرة جدًا وإنك أكبر مني عمرًا وخبرة.. لكن هذا ما حصل.. التقينا في حيوات أخرى بغض النظر عن العمر والخبرة ، وقدّر لنا أن نلتقي هنا في فندق باب السماء.. الأقدار غريبة.

صمتَ قليلا ثم قال بنبرة حيادية لكن فيها تأكيد:

- لكن مرة أخرى أقول إن هذه الأشياء حقيقية.. أقصد الفوارق العمرية والخبرة الحياتية والفكرية..!

نظرت إليه بحنان وقالت:

- نعم صحيح.. لكني لا أنظر للفارق العمري أبدًا..ثم أن هذه الفوارق لا تصمد أمام التقاء روحين وفكرين وعقلين مهما كان الفارق بينهما. فربما هذا اللقاء الفكري والروحي أقوى وأشد كثافة من علاقة امتدت سنوات.

نظر آدم السيد إليها نظرة متأملة ومتفحصة بهدوء وكأنه يريد أن يعرف هل هي تعني ما تقول بوعي منها ، أم أنها تتحدث بعاطفة. ويبدو أنها أدركت ما يفكر فيه ، فقالت له بنبرة يشوبها حزن شفيف:

- يبدو إنك لست واثقًا كليًا مما قلته لكَ عن عدم اهتمامي بفارق العمر.. لكني أقولها لك بكامل وعيي وبشكل عقلاني جدًا: إنك هدية القدر لي.. معك أحس بالأمان والراحة التي لم أعرفها مع أحد من قبل..

وقبل أن تواصل حديثها ، قال:

- نعم.. أنت محقة.. لكن لا أدري أين قرأت ، ربما في متاهة من متاهات أحد الكتاب التائهين ، حيث كتب بما معناه: «معرفة الإنسان للإنسان لا تُقاس بعدَّد السنين التي التقيا أو كانا فيها معًا ، وإنما بكثافة لحظات اللقاء بينهما مهما قصرت.. ، فقد يكون اللقاء ساعات ، أو ليلة ، أو أيام ، لكنه يبقى متوهجًا العمر كله ، لأنه لقاء بين عقلين وروحين ، وربما يكون أعمق من علاقة دامت سنوات أو من تواجد يومي معا»...

كانت تتأمل كلماته ، وتشعر أن هذا ما جرى ويجري معها منذ أن التقته هو ، لذا أرادت أن تكشف عن أسرار وجودها في

الفندق ، فقالت:

- أتدري ما الذي جرى لي في الغرفة رقم 9 التي كان يفترض فيها الهاتف حيث هناك اتصال لي..!

- لا.. كل ما سمعته هو الذي رويتيه لي وما أخبرتنا به مديرة مكتب الاستعلامات..!

كانا جالسين على الأريكة الجلدية الوثيرة في الصالون ، كل منهما على طرف منها ، لكنهما كان متوجهين بجسد كل منهما نحو الآخر.. كانت تشعر بدفق من المشاعر المتضاربة تجول في نفسها ، مشاعر ماضيها وتجاربها خارج الفندق والمشاعر الجديدة منذ أن صار هذا الرجل مهما في أعماقها ، وقالت بصوت هادئ ورقيق لكنه مشحون بالمشاعر:

- أتبدو لك حكايتي مملة وعادية وغير درامية..!

ارتبك آدم السيد من سؤالها المفاجئ ، وقال لها:

- حكايات الناس وقصصهم تتشابه كلها تشابه الأشجار ، ومثلها أيضًا ، حيث لكل شجرة وهي تمد جذورها في ظلام تربتها الخاصة بها ، حكايتها الخاصة بها..! الجدول الجاري بانسياب لهو مثل البحر صاخب الموج ، لديه حكايته وأسراره..!

- بالمناسبة.. أردت أن أعقب على حكاية الكاهن المقدس آدم طريد الفردوس..! قالت بهدوء.

- كيف..؟ سأل بفضول.

وقبل أن تواصل إيفا ماجدولينا حديثها ، رن الهاتف في الصالة ، فقام آدم السيد ، وهو يقول لها:

- عفوًا.. يجب أن أرد؟

ارتسمت ملامح الهلع على وجه إيفا ماجدولينا ، وقالت له بنبرة فيها شيء من الرجاء:

- لا ترد على الاتصال.. أرجوك لا ترد..!

التفت آدم السيد إليها مستغربًا ، وسألها:

- لماذا؟

- لا أدري.. أنا خائفة..؟

- خائفة؟ مِمَ أنت خائفة؟

- لا أريد أن أكون وحدي.. لا أريد أن تختفي وتذهب خارج الفندق.. لا أريد أن أفقدك..! دع الهاتف يرن.. لا ترد أرجوك..

ظل آدم السيد حائرًا أيذهب ليرد على الهاتف الذي استمر في الرنين ، أو يلبي طلبها في عدم الرد..؟ لكن الهاتف توقف عن الرنين. فما كان منه إلا أن جلس ثانية.

امتدَّ الصمتُ بينهما ، وكانت علائم الحيرة مرتسمة على وجه آدم السيد ، وأدركت أنه يفكر بكلامها الذي قالته عن عدم الرد على الاتصال. ارتبكت للحظات ، لكنها سرعان ما استعادت اتزانها ، وقالت له:

- سأروي لك كل شيء وستفهم لماذا قلت لك لا ترد على الاتصال..! لكن دعني أكمل حكايتي وستفهم ما أقصده..!

وامتدت لحظات صمت عميق بينهما. فجأة سأل آدم السيد:

- ماذا تقصدين؟

- لا أدري.. منذ تلك اللحظة التي مسكتُ فيها سماعة التليفون صرتُ خارج الفندق..وجدت نفسي راقدة في مستشفى.. وكان هناك أطباء وممرضات ومحقق حولي.. لكني عدتُ إلى هنا فجأة.

- لا أفهم..!

- وأنا لا أفهم.. لذا طلبت منك ألا ترد على أيَّ اتصال..!

- لماذا..؟

- لا أدري.. لا أريد أن تختفي من عالمي.. فربما لن تعود إلى الفندق؟

في تلك اللحظات رنّ هاتف باب الجناح. نظرا لبعضهما بعضا بتساؤل ، ثم قام آدم السيد وفتح الباب ، فدخلت مديرة مكتب الاستعلامات ، وتساءلت مستغربة لماذا لم يرفعا سماعة الهاتف لأنها اتصلت بهما ، وأخبرتهما بأنها جاءت لتخبرهما بأن هناك ثيابًا مختلفة لكل منهما في الخزانات بغرف نومهما..! وغادرت من دون أن تطيل أو تسمتمع لهما.

بقيا في حيرة من أمرهما ، لاسيما ما أخبرت به المديرة من وجود ملابس لكليهما في الخزانات بغرفتيهما. ولكي يتأكدا من ذلك ، قال لها آدم السيد بهدوء محايد:

- اذهبي لغرفتك.. وتأكدي ، فإن كان صحيحًا فيمكنك أن تغيري ملابسك..!

غمرها شعور دافئ فقالت:

- وأنت أيضًا.. خفف من هذه الملابس القاتمة..!

ابتسم لها وقال:

- أمرك سيدتي ..

واتجها إلى غرفتيهما.

★★★

لم يصدق آدم السيد عيناه حين خرج من غرفته. كان الانبهار واضحًا على وجهه وهو يرى إيفا ماجدولينا بثوبها الأسود القصير ، عارية الذراعين ، وكان شعرها الكثيف الأسود مرفوعًا إلى الأعلى.. وقد أظهر بوضوح معالم وجهها الوردية المرسومة بدقة.. عيناها الواسعتين.. وشفتيها الممتلئتين.. كانت تشبه واحدة من آلهة الجمال لدى الإغريق. فقال لها بانبهار واضح:

- ما كل هذا الجمال المفرط؟

شعرت بالخجل من انبهاره بجمالها وكلماته الواضحة ، لكن دفقًا من الفرح كان ينتشر في كل خلايا دمها وعروقها.

تلفت آدم السيد في ما حوله ، وتوجه إلى زاوية حيث جهاز للموسيقى ، ووجد مجموعة أقراص مدمجة لموسيقى كلاسيكية ، قرأ الأقراص وأبقى واحدًا بيده ، ثم وضع القرص في الجهاز.. فتعالت موسيقى فالس جميلة.. وتقدم منها قائلًا وهو يحني رأسه كما يفعل الراقصون..:

- هل تسمحين سيدتي بهذه الرقصة..!

ابتسمت له برقة وحنان ، ولم تكن تعرف كيف تجيبه ، فبادر هو ووضع ذراعها على كتفه وأخذ بكفها الأخرى وأحاط خصرها بذراعه ، وبدأ يرقصان.

كان لحن الفالس يتعالى في أرجاء الصالة ، وهو يدور بها في حركة رشيقة ، وكانت يتماسان أحيانا ، صدرها بأعلى بطنه ، فهي طويلة نسبيًا.. لكنها كانت تبدو قصيرة أمامه.. وحركاتهما الرشيقة كانت تجعلهما وكأنهما كائن واحد.

كانت الموسيقى تنساب في أرجاء الصالة وهما يحلّقان بروحيهما مع أنغامها ، لكن فجأة رنّ جرس باب الجناح مرة أخرى. توقفا عن الرقص ، وذهب آدم السيد سريعًا ليوقف جهاز البث. وتوجه نحو الباب ، وحين فتحه رأى صديقه الرائد آدم عبد السميع واقفًا.

- لم أشأ أن أزعجك مع فتاتك.. لكن الأمر ضروري؟
- خيرًا.. تفضل..
- لا.لا. يفضل أن تأتي معي..
- إلى أين..؟
- إلى غرفتي.. هناك مفاجأة لك..!
- مفاجأة..؟ ما هي..؟
- ستجدها في الغرفة.. دعنا نذهب الآن..!

ظل الرائد ينظر إلى داخل الجناح ، وسمع آدم السيد يقول

لإيفا ماجدولينا:

- عليّ أن أذهب ياإيفا لأمر ضروري.. وسأرجع إليكِ..
- أرجوك تنبه لنفسك.. ولا تجب على أيَّ اتصال..
- لا تقلقي..
- سأدخل غرفتي..!
- ابقي فيها لحين عودتي..
- حاضر..

ومرقت من وسط القاعة متجهة إلى غرفتها فرآها الرائد بشكلها الجديد فانبهر بجمالها أيضًا ، ولا شعوريًا اجتاحته الغيرة من صديقه آدم السيد ، لكن في تلك اللحظة قال له آدم السيد:

- لنذهب..!

وغادرا المكان.

الفصل الثامن
فاوست وإيفا مرغريتا..
آدم السيد وإيفا ماجدولينا..
الأحدب وإسميرالدا!

- ما بك ياصديقي المستشار آدم السيد.. أراك مسترخيا لإنجذابك نحو هذه المرأة اللعوب ، وكأنك قمر مظلم يدور في مدار كوكب منير.. للمرة الأولى أراك مهتمًا بهذا الشكل القوي والواضح بامرأة لا تعرفها جيدًا ، بينما أنت محاط بنساء يحاولن بشكل مكشوف أن يثرن اهتمامك..!!..أنت منذ أن رأيتها انجذبت لها بشكل مسحور ، بل وغامض ، لم أعده فيك أبدًا ، فكما أعرف أنت حذر جدًا في علاقاتك بالنساء ، ولا تثق بأية امرأة بشكل خاص وحميمي ، لكنك خلال ساعات صرت ولهان بها ، وكأنك تعرفها منذ آلاف السنين.. بل أراك قد بسطتَ عليها جناح حمايتك.. ناهيك إنها تصغرك عمرًا بكثير.. هي تكون بمقام ابنتك.. بينكما فارق في السن.. فعمرك ضعفيّ عمرها.. لكنك مهتم بها جدًا جدًا.. أنا أخاف عليك من النساء ومكرهن..! ولست مرتاحًا لها.. ناهيك إنها اعترفت وباحت بأنها كانت تتنقل من رجل إلى آخر.. إلى جانب أمر مهم ، فهي تشغلك عن المهمة التي جئنا من أجلها!..

قال الرائد آدم عبد السميع ذلك وهما يسيران في الممر الذي كان في ذلك الوقت يغمره فضاء أزرق ، وكأن المطهر يقع تحت شمس زرقاء ، فالضوء المنتشر أزرق اللون.

ارتسمت علامات الاستياء على وجه آدم السيد لتجاوزه

بالكلام في توصيف إيفا ماجدولينا باللعوب.. ، لكنه كتم ذلك ، فقد كشف الرائد آدم عن أفكاره العدائية بشكل صريح وشخصي للمرة الثانية ، فقال له ، وهما يمشيان ، محاولًا أن يهدأ من مشاعر صديقه الرائد:

– سأقول لك شيئًا صديقي ، أنت محق.. أنا مُنجذب لها بقوّة منذ اللحظة التي رأيتها فيها ، وأؤكد لك بأنني أشعر وكأني رأيتها منذ آلاف السنين ، وهذا هو شعورها أيضًا.. ناهيك أن الانجذاب وما يتبعه من مشاعر ليس له علاقة بالعمر..! من قال لك إنني لم انتبه لفارق العمر..!؟ في الحياة خارج الفندق أعرف بين الكاتب الايطالي الشهير البرتومورافيا ورفيقة دربه أو لأقل زوجته الثانية ما يقارب الأربعين عامًا.. وبين ديكنز وحبيبته أكثر من ثلاثة عقود ونصف العقد ، وبين بطل « لوليتا» والصبية المشاكسة لوليتا أكثر من أربعين عامًا ، وأستطيع أن آتيك بعشرات الأمثلة عن الفارق العمري الذي لم يؤثر على الانسجام النفسي والروحي بين المرأة والرجل ، بل أنت تعرف أن نبي الإسلام تزوج صبية وعمرها تسع سنوات بينما كان يكبرها بستة وأربعين عامًا..!.. كان في الخامسة والخمسين من العمر بينما هي في التاسعة..!!.

ثم من قال لك بإنني أريد منها ما تفكر أنت فيه..!؟.. ناهيك أن التعارف والتقارب والانجذاب بين إنسان وإنسان لا يقاس بعدد السنين التي كانا فيها معًا أو عرف بعضهما بعضا ، وأنما بكثافة لحظات اللقاء وعمق الانجذاب بينهما مهما كان الوقت قصيرًا الذي قد يكون ساعات أو أيامًا أو أسابيع ، لأنه التقاء روحين وعقلين.. التقاء روحين وعقلين يبحثان عن الأمان وعن معنى وجودهما في هذا المطهر ، بل وحتى خارج الفندق... هناك نساء يتزوجن وينجبن ويعشن عقودًا من السنين مع أزواجهن لكن يتضح إنهن لا يعرفن أزواجهن على حقيقتهم..! وكذا الرجال هناك مئات

الألوف من المتزوجين يعيشون في حالة غربة واغتراب أحدهما عن الآخر مع أنهما يعيشان في بيت واحد ، وما يربطهما هو الأولاد والمصالح العائلية المشتركة..

أما عن مكر النساء.. فأنا كما تعرف أخاف الغدر.. عقدتي هي الغدر والخيانة.. وهذا ما أخافه من الجميع رجالًا ونساء.. وأتوقعه من الجميع.. ، فكما تعرف لقد طُعنت في الظهر مرارًا وتم الغدر بي لأكثر من مرة ، لكني وأقولها لك بصراحة أنا أثق بهذه المرأة التي اسمها إيفا ماجدولينا ، وربما هذه الثقة الداخلية والنفسية العميقة هي ما يشدني إليها ويجذبني إليها..! وشخصيًا لا أريد منها الكثير ، سوى أن نكون قريبين من بعضنا ونثق ببعضنا ونستمد القوَّة من بعضنا بعضا. كأيّ رجل وامرأة تربطهما محبة عميقة وثقة راسخة لا تقبل الشك ولا يستطيع أحد أن يهدها ويهدمها ويشوهها!..

فجأة توقف الرائد آدم عبد السميع فوقف الآخر أيضًا. نظر الرائد لصديقه وكأنه يستغرب منه ما سمع وسأل بنبرة شبه محبطة:

- يبدو لي إنك تحبها بعمق ..أتحبها فعلًا..؟

- أعترف لك. نعم.. وفي كل الأحوال أنا مرتاح لها وأحس بالدفء والراحة والأمان حين أراها!..

ارتسمت علامات الشفقة مع غضب مكتوم وسأل:

- وهي..؟ ألديها مثل هذه المشاعر نحوك..؟ هل تشعر معك مثلما تشعر أنت بالأمان والراحة والانجذاب نحوك!..

- لا أدري.. قالت ذلك.. لكني لستُ متأكدًا بالكامل..

- لا تنزعج مني ياصديقي مما أقول: أنا أشك فيها.. أنت لا تعرف عنها شيئًا.. ولا تعرف شيئًا عن أسرارها.. فربما لم تترك الرجال كما زعمتْ.. وهي تبدي لك لطفها كي تحميها وتساعدها..

أي مصلحتها معك كرجل يحميها وترتاح معه بينما أنت تمنحها من المشاعر ومنجذب إليها أكثر مما ينبغي..!! ربما هي تعيش أزمة مع أحدهم وتعوض عن ذلك من خلال علاقتها بك.. فأنا متأكد هي كانت مع كل رجل ، قريبة ، ولطيفة ، وعاشقة ، كما هي الآن معك.. وكانت تؤكد لكل منهم بأنها له.. له وحده.. وتقسم له بأن أي رجل لن يدخل حياتها.. ولأنها دائما تعودتْ أن يكون لديها رجل ، لذلك فهي بعد أزمتها لجأت إليك.. على الأقل لتعوضها عن أزمتها النفسية.

انزعج آدم السيد من إصرار صديقه على الإساءة الجار جة لإيفا ماجدولينا ، فقال بنبرة فيها تحدٍ مكتوم:

- لا يهمني هذا الأمر.. مشاعري وانجذابي نحوها صادر من أعماقي بشكل طبيعي ، وأنا لا أقايضها بأن تكون لديها المشاعر نفسها نحوي.. أنا لديها مثل والدها..شعورها نحوي مزدوج.. أنا أقرب رجل إليها الآن ، مثل والدها الذي هو أقرب إنسان لديها ، بل أنا أعرف عنها أسرارًا ما كان لوالدها ، حتى لو كان حيا خارج الفندق ، أن يعرفها..!! لكن هي تعرف بأنني لستُ أباها ، لذا أنا أقرب إليها نفسيًا حتى من أبيها!..

نظر الرائد آدم وكأنه يأس من صديقه ، وقال بغيرة مكتومة:

- أعترف إنها امرأة جميلة جدًا.. لكن تنبه من الغدر ياصديقي.. تنبه. أنت لا تعرفها جيدًا.. وربما لم تكشف لك كل أسرارها.. فربما روت لك بعض أسرارها لكن ليس كلها.. أخفت ما لا يمكنك سماعه من ابتذال أو ارتباط قوي بأحدهم أو أكثر من واحد.. حذاري ياصديقي!..

لم يشأ آدم السيد أن يتمادى صديقه الرائد في التشكيك بعلاقتهما ، فقال وكأنه يريد أن ينهي الحوار:

- لا أعتقد ذلك..فكلامك ليس صحيحا..هي ليست امرأة

لعوب تتسلى من خلال إقامة العلاقات مع الرجال..! هي ليست غانية تعطي شعورًا لكل رجل تتحدث معه بأنها تخصه. لو كانت كذلك لما قالت إنها تائهة وجاءت تبحث عن نفسها..!؟ لقد حدثتني كثيرًا وبصراحة عن نفسها ، وكشفت لي أبعاد الوحل الذي تلطخت به.. ومعاناتها مع ذلك.. هي تعرف إنها مرت بفترة عاشتها بكل تهور ولا مبالاة ، وربما نرى نحن في تجربتها موقفا أخلاقيا مختلفا عمّا تراه هي فر بما هي لا ترى ما نراه.. لكنها مع ذلك أخبرتني به بكل جرأة.. وكأنها تتطهر من كل ماضيها.

وبرغم نبرة التعاطف لآدم السيد في الحديث عن إيفا ماجدولينا ، إلا إن الرائد رد قائلًا ، ومصرًا على موقفه :

- ومع ذلك.. كن حذرًا منها..فربما أغوتها لعبة الجسد والعلاقات وتنكر ذلك..ناهيك أن رزانتك وحكمتك وأناقتك في التعامل ربما يرضيها لفترة ، لكنها لن تصبر كثيرًا.. فاللعوب لا تتوب.

- أنت تسيء الظن بالبشر بشكل مطلق. وتسيء إليها من دون مبرر.

- هم كذلك.. البشر لا يستحقون الثقة..قال الرائد بنبرة حازمة.

توقفا عن الحوار حينما وصلا إلى الغرفة التي منحتها حواء الرحماني للرائد ، وقبل أن يفتح باب الغرفة قال له:

- يبدو أن لغز الدفاتر التي جاءت بها النساء الثلاثة إلينا حينما كنّا خارج الفندق لم يحل ، فأنت لم تستطع أن تميز إن كانت الدفاتر كتبها شخص واحد أو أكثر..! أنا حين دخلت الغرفة وجدت دفاتر جديدة!..ولا أدري إن كان كاتبها هو نفسه من كتب الدفاتر الثلاثة حين كنا خارج الفندق.؟.

- ماذا تقول؟ سأل آدم السيد بتعجب.

- نعم.. لهذا جئت بك لترى الأمر بنفسك!..
- من جاء بها!..
- لا أعرف.. لكني رأيت شخصًا يشبه آدم بهاء الدين..
- أتعتقد أنه جاء بها؟
- لا أدري!..

خلال ذلك فتح الرائد باب غرفته ودخلا.

★★★

حين غادر آدم السيد غرفة صديقه الرائد آدم عبدالسميع كانت العتمة الزرقاء الداكنة قد غطت فضاء الفندق ، والشمس الزرقاء غابت بينما المساء الأزرق قد غطى فضاء الفندق ، فاستغرب ذلك لأن الوقت مضى سريعًا مع أنه لم يشعر بأنه امتد طويلًا!..

وحين دخل الجناح الخاص به وبإيفا ماجدولينا تنبه إلى السكون المدوي في الجناح ، حيث إن الصالة شبه معتمة لولا ضوء المصباح على الطاولة التي عليها التليفون الذي منذ لحظة فتحه للباب كان يرن. تردد قليلًا ، لكنه قرَّر أن يرد ، وما أن صار في وسط الصالة حتى توقف الرنين.

ظل واقفا في وسط الصالة عسى أن يرن الهاتف ثانية. نظر إلى غرفة إيفا ماجدولينا ، فرأى الباب منفرجًا قليلًا. في تلك اللحظة استغرب عدم صحوتها من رنين التليفون العالي جدًا. اقترب من فرجة الباب ، فصار سرير النوم أمام ناظريه ، لكن السرير كان فارغًا ، بل ومرتبًا بطريقة تشير إلى أن لا أحد قد استلقى عليه واستخدمه.

خطر له في تلك اللحظة بأن إيفا ماجدولينا غير موجودة في الغرفة ، استغرب ذلك.. فقد قال لها بألا تغادر الجناح وتبقى في انتظاره..!. دفع باب الغرفة فاتحًا فلم يجد أحدًا. تمنى لو أنها

موجودة ، فهو يدرك جيدًا أنه على الرغم من الفارق الكبير بينهما في العمر والتجربة الحياتية والاختلاف الفكري والثقافي ، فهو يحبها.. ومتعلق بها جدًا ، بل ولا يشعر بفارق العمر بينهما ، فكأنه بعمرها أو أنها ناضجة و قريبة من عمره. وراوده شعور بأنها رافقته قبل آلاف السنين ، ومع أنها أبدت ارتياحها ومحبتها لوجوده في حياتها ، إلا إن حديث الرائد آدم خلخل ثقته بمشاعرها ، فبعض كلامه منطقي ، لاسيما في مسألة استسهال العلاقات واللامبالاة فيها ، لذا أحس أنه غير واثق من مشاعرها ورغبتها نحوه وتعلقها به كما هو الحال لديه..!..

وتذكر العديد من الكُتّاب والفنانين الذي ارتبطوا بعلاقة حب قوية وبوله ، على الرغم من فارق العمر والتجربة بينهما ، ولا يعرف كيف استحضر حكاية فاوست الفلسفية للشاعر الألماني ، وكيف أن البروفيسور فاوستوس كان مستعدًا لمنح روحه لمفيستوفل — الشيطان مقابل أن يمنحه فتاة أحلامه الفتية ، والتي ربما كانت أصغر من إيفا ماجدولينا.

سحب مقبض الباب غالقًا ، وحين التفتَ متوجها لغرفته ، فوجئ بوجود كائن يجلس على الأريكة الجلدية ، استغرب واندهش تنبه إلى أن هذا الكائن هو رجل أحدب مشوه الوجه ، يتدلى جفن عينه اليسرى إلى الأسفل مشوهًا شكل عينه بشكل بشع.. ، لم يكن يتذكر أين رأى هذا الكائن ، لكنه في كل الأحوال متوجس مما يرى..! ولا إراديا استذكر شخصية أحدب نوتردام.

رفع الكائن الأحدب رأسه ونظر إلى آدم السيد محاولًا الابتسام ، مما شوه وجهه أكثر ، لكنه قال بطيبة:

– أنا أعرف إنك خائف مني لبشاعتي ، فأنا مسخ بشري ، وإنك مندهش لوجودي هنا ، كما أنك مستغرب لغياب إيفا ماجدولينا..!! صح..؟

ظل آدم السيد صامتًا للحظات ، ثم استعاد تماسكه ، وسأله بتردد لكن بحزم مصطنع:

- من أنت؟ وكيف دخلت؟

ابتسم الآخر وقال له بطيبة وببساطة:

- ألا تعرفني...؟ ألا تعرفني حقًا يا آدم السيد.؟ أنت المثقف والقارئ النهم. أنت الذي زرت كنيستي في باريس مرارًا..؟

- لا أذكرك؟ قال آدم السيد بنبرة فيها غضب مكتوم ونفاد صبر.

- لا ضير.. لا يهمني إنك لا تتذكرني ، لكنني ذكّرتك بشخصية روائية ما.. أليس كذلك..؟ لاسيما ونحن الآن خارج الروايات.. نحن في مطهر الخطايا المقدسة .. ثم أنا مثلك تمامًا!..

- مثلي..؟ قال آدم السيد وقد بدأ يألف وجود هذا الكائن المسخ.

- نعم مثلك..! قال المسخ بنبرة حزينة وهو يخفض رأسه للأسفل.. ثم واصل..:

- أنا يا آدم مثلك.. أنا آدم كوازيمودو.. أحدب كنيسة نوتردام.. أشهر عاشق مشهوه وقبيح عبر التاريخ ، الذي أحب أجمل فتاة غجرية التي هي مثل إيفا ماجدولينا واسمها إيفا أسميرالدا.. ألا تذكرني الآن..؟

ذهل آدم السيد ، فقد رأى في عين ذاكرته كل الأفلام التي شاهدها خارج الفندق عن رواية «أحدب نوتردام».. وتذكر كم أحب هذه الشخصية وعطف عليها.. ونظر لعشقه نظرة تبجيل ، لكن ساوره الشك قليلًا ، وسأله:

- لكنك شخصية روائية ، كيف خرجت من الرواية وجئت إلى هنا؟

نظر الأحدب إلى آدم السيد بعينه اليمنى محاولًا أن يخفي

الجانب الأيسر المشوه من وجهه ، وقال:
- إذا كنتُ أنا شخصية روائية فأنت مثلي أيضًا.. أنت أيضًا شخصية روائية.. وأنت إنسان واقعي أيضًا.. وأنا كنت إنسانًا قبل أن أصير شخصية روائية واقعيًا. الرواية حياتي الثانية والخالدة.. وكذلك أنت.. أنت هنا في مطهر الخطايا المقدسة.. وكنت خارج الفندق أيضًا.. وكذلك إيفا ماجدولينا...فهي خارج الفندق أيضا.. وحبيبتي إيفا أسميرالدا كذلك.. كانت فاتنة باريس.. لكنكما أنت وإيفا ماجدولينا واقعيان وتنبضان بالحياة.. مع أنكما الآن في مطهر الخطايا المقدسة!..
أحس آدم السيد بالهدوء يتسلل إلى نفسه ، فسأله:
- لكن كيف جئت إلى هنا ، إلى مطهر الخطايا المقدسة..؟ ما هي خطيئتك؟
- أنت تعرف قصتي.. حين ولدتني أمي .. وخافت من شكلي المسخ لحظة ولادتي.. لم تشاء أن تقتلني لحظتها ، فتركتني عند باب كنيسة نوتردام...ثم أخذني راعي الكنيسة.. ورباني.. وبقية القصة تعرفها أنت من خلال الرواية.. لكن ما لم يكن في الرواية هو إنني على الرغم من تربيتي الدينية وترعرعي داخل الكنيسة فأنني لا أؤمن برب الكنيسة والأديان.. كنت أسخر من المصلّين المنافقين وأنا أنظر من سقف الكنيسة إليهم.. فقد منعني راعي الكنيسة من أن أظهر لجمهور المصلّين حتى لا يرتعبوا من منظري البشع والمخيف.. لذا كنت اختفي.. بيد إني كنت أنظر إليهم من فوق.. وكنت أرى كيف أن بعض الرجال كانوا يتحرشون بالنساء القادمات لصلاة القداس وهم في ذلك الموقف الديني الجليل ، ويمسوهن أو يستغلوا الزحمة أحيانا فيلتصقوا بهن وكأنما من غير قصد..
نعم.. كنت لا أؤمن بهذا الرب ، ولا بكل الطقوس التي أسهم

في إقامتها.. مع أني كنت أقرع الأجراس منبها الناس إلى الصلاة وذكر الرب.. فهذا الرب هو الذي فرّق بين الناس فأنزل الأديان المختلفة التي تحارب بعضها بعضا.. وهو الذي يرزق بعضا من الناس ويمسك يده عن بعضهم ويتركهم للفقر ، والجوع ، والحاجة ، والبؤس.. ويقول إنه يفعل ذلك ليمتحنهم.. لماذا يمتحنهم..!؟ لماذا خلقهم ولماذا يمتحنهم..؟

كما هو الذي جعل الناس طبقات ، بل هو يميل للأغنياء منهم لأنهم يتبرعون أكثر..! ثم أوصى الأديان بأن تلقى اللعنة على الشيطان ، الشيطان البريء من غنى الأغنياء وبؤس الفقراء ، لا علاقة له بمنح الرزق لمن يشاء ولا بتفضيل الناس بعضا على بعض في الرزق.. ولا يد له في خلق المشوهين والمسوخ أمثالي..

لكن ما أنقذني من جحيم إلحادي هو إيماني بالقدير.. ليس برب الأديان ، وإنما القدير.. خالق الجمال.. جمال الكون ، والمجرات ، والنجوم في السماء ، وشمس الصباح ، وتغريدات العصافير ، ومهرجان الألوان في الزهور والفواكه والأحجار ..وخالق حبيبتي أسميرالدا..وأيضا خالق إيفا ماجدولينا!...

شعر آدم السيد بكلمات الأحدب وكأنها تزيح كل اشمئزازه منه ، وتزرع بدلًا عنه ، تعاطفًا وحنانًا ، فقال له:

– لكن لماذا جئتني إلى هنا؟ قال ذلك بنبرة فيها لطف خجول.

– لأن حبيبتي أسميرالدا التقت شاعرا ألمانيا كان يسأل عنك.. ويقول إنك البروفيسور آدم الفاوستي نفسه ، وإنه جاء إليك بحبيبتك إيفا مارغريتا ، التي هي نفسها إيفا ماجدولينا..! وهو يبحث عنك.. وإنه يريد أن يعيد إيفا ماجدولينا إلى خارج المطهر..! لذا جئت لأنبهك أن تكون حذرًا ، لأنه ممكن أن يصل إلى إيفا ماجدولينا..! أنا جئت لاستشعاري بأنك عاشق مثلي ، لقد استقبلت مجسات لظلال الرغبة في أعماقك!....

فوجئ آدم السيد ووجد نفسه في ظل حشد من الشخصيات الروائية والتاريخية والمثيولوجية ، وحتى هذا المسخ يعرف كل شيء عنه ، فسأله:

- من أين تعرف أنت إيفا ماجدولينا؟ وأين ذهبت؟

ابتسم المسخ ابتسامة ملغزة ، وقال:

- هي إنسانة بسيطة ، عفوية ، طيبة وحنونة.. وكأنها ولدت من رحم الحُبّ.. لديها اندفاع عظيم نحوك.. هي مُتعلقة بك جدًا وإن لم تكشف عن ذلك صراحة..! ورغم إنها كانت في علاقات مُتعددة لكنها ليست مندفعة حينما تكون في كل علاقة.. ولم تمنح نفسها لأحد قط.. ستكون أنت أول من تمنحه نفسها بحب.. أجل لقد مرَّت بعدة علاقات لكنها لم تفعل ذلك.. وحين تمنح نفسها للحبيب ستجعله يشعر بلذة الحياة الحقيقيّة.. ستكون شمسه.. وقمره.. ونجومه.. ستكون كل عالمه.

- ومن أين تعرف عنها ذلك؟ قال آدم السيد بتوجس.

- غير مهم من أين أعرف..؟ لكنها تحبك.. كانت قد اندفعت بالبحث عن المجهول.. تحدثت مع الكثير وتركت الأكثر.. فلم تشعر بهوس الحب والرغبة في البقاء والاستمرار مع أحد إلا معك..

- وعن ماذا كانت تبحث؟ قال آدم السيد بنبرة فيها غيرة واضحة.

- كانت تبحث عن الحب.. الحرية.. والخلاص من تعقيد عائلتها وتبجيلهم للشرف.. كانت تبحث عن نفسها وظنت أنها بتقليدها لصديقاتها وخوضها عالم الرجال ستجدها.. كانت بريئة جدًا.. لم تدخل بأية علاقة حتى الثامنة عشرة من عمرها.. لذلك أرادت التجربة.. اِعتقدتْ بأنها سوف تستمتع.. لكنها كانت تتعذب.. ومعك تشعر بأن روحها في عافية.. هي تعرفك من

قرون.. وأنت تعرف ذلك.. ولذلك تركت ذلك العالم بكل سهولة ولم تندم عليه.. لم تفقد براءتها لكنها فقدت روحها.. وعليك أن تساعدها في إيجادها..

- من أين لك كل هذه المعرفة بها..؟ وأين هي الآن؟

صمت المسخ للحظات.. نظر إلى آدم السيد مشفقًا على غيرته ولهفته على إيفا ماجدولينا ، وقال:

- أنا استلهم الأشياء.. تظهر أمام عين أعماقي.. أما أين هي ، فلربما هي هنا وليست هنا..لكن لا تغار فهي لا تستطيع أن تكون مع أي رجل كان ، هي مزاجية وغير مبالية.. لا تستطيع أن تستقر إلا حين تقرّر هي ذلك.. وإذا قررت ذلك معك فستكون محظوظًا جدًا.. فهي لا تستطيع أن تتقيد بفعل الحب أو غيره.. إلا إذ أحبتك بشكل حقيقي.. هي فراشة جميلة تُزيّن السماء وإذا أمسكت بها بقوّة فسوف تنكسر أجنحتها ولن تحلق مجددًا.. لذا هي ربما لا تستطيع العيش في المطهر.. ثمة صراع نفسي في أعماقها.. هي ازدواجية.. بالرغم من أنها تركت الجميع لكنهم يلاحقونها.. وسرعان ما تطردهم خوفًا على نفسها.. لكن ماذا أرى؟ ها هي غيرة الحب تظهر عليك بسبب كلامي..

دهش آدم السيد من توصيفه له بالغيرة.. فسأل معترضًا:..

- أأغار أنا..! ممن؟ ولماذا؟

نظر الرجل المسخ إليه بتأمل ، ثم قال بعفوية وبنبرة مواسية:

- لماذا شعرتَ بالإهانة حين قلت لك بإنك تغار..؟ الحب عادة يخضع للغيرة ، حتى لو كانت أوهامًا مزيفة.. فالغيرة تفترض وجود المنافس.. وأنت تعتقد أن لديك منافسون ، منافسون في ذاكرتها و ماضيها ، ومنافسون ربما وهميون في حاضرها ، منافسون ليسوا حقيقيين وأنما من تشكيل خيالك واندفاعات مشاعرك نحوها..! لكن هذا من تناقضاتك أيضًا.. فأنت عاشق

لها.. عاشق ومحب.. الحب الذي يفترض الحميمة والولع والشغف والالتزام.. فالولع والشغف يعني أيضًا استقلالية المشاعر والأحاسيس وعفوية الرغبة، فهما يستمدان يستمد قوتهما واستمراريتهما ذاتيا وليس من وجود الغريم!..

- من أين جئت بحكمة الحب هذه!..

حاول الكائن المسخ أن يضحك لكن وجهه تشنج وتشوّه، وبعد لحظات تمكن من استرخاء عضلات وجهه البشع، وانطلقت كلماته متقطعة:

- ألم تعرف بعد.. أنا مررت بالجحيم.. بجحيم الحياة.. وجحيم المثيولوجيا.. وجحيم الدين.. يافاوست!!؟

- فاوست؟ أنا لستُ فاوست أنا آدم السيد!..

- الشاعر الألماني يبحث عنك باعتبارك فاوست وعن حبيبتك إيفا ماجدولينا باعتبارها إيفا مارغريتا !..كما أنك مثلي وإيفا مثل إسميرالدا..

- أنا لستُ أنت وإيفا ماجدولينا ليست إسميرالدا...

- أنت واهم... إيفا ماجدولينا هي إيفا مارغريتا وإسميرالدا أيضًا!

في تلك اللحظة سُمع سقوط شيء في غرفته، فاستغرب، فخطر له بأن إيفا ماجدولينا ربما هي في غرفته، فانطلق إلى غرفته، فتح الباب ودخل، لكن الغرفة كانت فارغة، ولا شيء ملقى أو منكسر كي يظن أنه مبعث الصوت..! وضع الدفاتر على عجل فوق المنضدة المجاورة للسرير فسقطتْ علب الزيت والشامبو التي كانت على تلك المنضدة، لكنه لم يلتقطها من الأرض، وأنما رجع إلى الصالة، فلم ير الكائن المسخ.

استغرب.. مشى باستعجال نحو الباب الخارجي ليعرف إن كان قد غادر، لكنه لم يرَ أي أثرٍ لوجود هذا المسخ الأحدب، فعاد

مذهولًا إلى الصالة وهو يحاول إقناع نفسه بأن كل شيء من وحي خياله وخوفه من فقدان إيفا ماجدولينا..لكنه فوجئ حين رأى إيفا ماجدولينا في ثوبها الأسود الأنيق جالسة على الأريكة الجلدية. فقال لها مستغربًا:

- منذ متى وأنتِ هنا؟
- منذ أن خرجتَ مع الرائد؟
- لكني لم أراك حين عدتُ!..
- ربما كنتُ في غرفتي..
- نعم.. لكنني نظرت في غرفتك ولم أجدك..؟
- ربما كنتُ في الحمام..
- ربما..

وجلس إلى الأريكة نفسها بالقرب منها لكن على مسافة قليلة جدًا. وسألها:

- وددتُ أن تروي لي شيئًا عن أختك وعائلتك..!؟
- نعم.. هل أنت في وضع نفسي يمكنك الاستماع إليّ..؟
- نعم.. أحبُ أن استمع لك وأعرفك جيدًا..

صمتت للحظات وكأنها تبحث عن بداية لما ستقوله ، ثم حزمت أمرها وقالت:

- أتعرف.. إنني أتذكرك حين كنتَ الكاهن الأقدس بمعبد السومريين في أور..! كنتَ تلاعبني.. وأنا صغيرة.. وتصنع لي الدمى من العجين وبقايا فتات الخبز ، بل أذكر إنك صنعتَ لي يقطينة كبيرة جدًا.. فتحتَ لها عينين.. وأفرغتها فصارت مثل صندوق كبير.. وكنت تضعني هناك أحيانًا.. حين يأتي جبابرة القوم من أهل سومر.. فكنتُ أرى وأسمع ما يجول من خلال عينيّ اليقطينة الكبيرة.

كان آدم السيد مأخوذًا بما ترويه فقد كان يستعيد مشاهد

غارقة في القدم ، لكنها صحيحة جدًا وجرت بالفعل..وتتجسد أمام عينه الداخلية حيّة نابضة ومتوهجة ، فقال لها بلطف:

- وماذا تتذكرين أيضًا..؟

- أتذكر يوم ليلة مقتلك لأنك عارضتَ حاكم المدينة الذي أراد اغتصابي باعتباري عاهرة المعبد المقدسة..! لكن لا أعرف ماذا جرى معي..فقد رأيتهم يقتلوك..واختطفوني.. وكنت محظية في بيت الحاكم. وبعد أن استهلك جسدي.. بعثَ بي إلى قصر حامل الأختام هديةً.. ، لكنكَ عدّتَ بعد فترة في هيئة أمير جميل.. وشاعر جوال ، تنشد الابتهالات في حبي. نظرتَ إلى شرفتي ، فعرفتك. لكن جنود حامل الأختام ، ألقوا القبض عليك ، وشقوا صدرك بخنجر من فضة. استأصلوا قلبك.. وقطّعوه مِزقًا.. ألقوا به إلى كلاب السلوقي ، الكلاب التهمته ثم ماتت فجأة..!..وذاتَ يوم كنتُ على ساحل البحر.. وحيدة.. اِستذكرتُ وجهك الوسيم ، فحلّق نسر فوقي.. ورمى درةً في حضني.. كانت الدرة قلبك!..

كان آدم السيد يلتهم كلماتها وكاد ينهض واقفًا بتأثير اندفاعات تيارت المشاعر في أعماقه ، وقال لها بحب:

- وماذا أيضًا..؟

- لا أدري.. كنتُ أحيانًا أصحو من النوم على رؤيا ، أنساها حين أفتح عينيّ.. لكن كل رؤيا كانت مقترنة بك.. وكأنك الرجل الموعود لي.. إلى أن ولدتُ في عائلتي الحالية.. وكم تمنيت لو كان بإمكان المرء أن يختار في أية عائلة عليه أن يولد ، فعائلتي هذه تلاحقها لعنة شجرة السدر.. تلك الشجرة التي أفقتَ أنتَ تحتها كآدم طريد الفردوس.

- وماذا عن عائلتك هذه؟ وما علاقة شجرة السدر باللعنة..!؟ سأل آدم السيد مستفسرًا.

صمتت للحظات.. وقالت وكأنها تسعيد مشهدًا يجري أمام

عينيها:

-	من عادتي أن أعجب بأشخاص.. بشباب.. وبرجال ناضجين..فأسعى إلى التقرب منهم.. وحين يتم ذلك ويعجبوا هم بي.. يتجمد كل شيء لدي ، وينتهي شغفي بهم.. وحين أخبرت طبيبة نفسانية صديقة لأمي.. قالت لي «أنت ترغبين بالإثبات لنفسك بأنك تستطيعين الحصول على كل ما ترغبين به.. لذا حين يعجبك أحد ، تسعين إلى لفت انتباهه والتعرف عليه ، لكنك لا تكوني معجبة به حقًا ، وأنما أنت تريدين من هذا الشخص أن يهتم بك ويلتفت إليك وتحصلين عليه ، وحين تحققين تلك الرغبة ، ويتم ذلك ، وترتوي رغبتك في الحاجة إلى إثبات النفس والقدرات ، تختفي الرغبة في ذلك الشخص فجأة ، وتسعين للفت انتباه شخص آخر.. وهكذا».

انتبه آدم السيد إلى أنها ابتعدت عن سؤاله ، فسألها:

-	وأين قصة الشجرة..؟ قال مبتسمًا.

أحسّت بالحرج وانتبهت لما في سؤاله من مزاح ذي قصد ، وقالت:

-	عفوًا.. أنا أسهو حين أتحدث أحيانًا.. لقد كانتْ في بيتنا شجرة سدر قديمة ومعمرة.. كانت هناك قبل أن يشتري أبي البيت.. ولا أعرف أي سبب من الأسباب الذي دعاهم إلى قطعها. فاعترضت جارتنا وقالت : « الأشجار مثل البشر.. وشجرة السدر شجرة مباركة.. وهي من الأولياء ، وإنكم إن قطعتموها فأنها ستلعنكم..!».. لكن لا أحد استمع لكلام الجارة. كان ذلك في أيام نهاية العام ، ومن ذلك العام ، وفي مثل ها التاريخ تحدث لدينا كارثة. ثلاث من أخوتي غادرن الحياة في مثل هذا التاريخ خلال سنوات مُتعاقبة ، وكذلك جدتي ، بل حتى أبي مات في مثل هذا التاريخ.. فسمّيتها لعنة ديسمبر.. أو لعنة شجرة السدر.

كان آدم السيد يستمع إليها مستغربا حكاية الشجرة لكنه تقبلها كحقيقة ، فهو يشعر بأن الكائنات كلها متآخية وتشعر ، لكنه سألها بطريقة مفاجئة:

- وماذا عن أختك التي جئت تبحثين عنها؟

فجأة خيّم حزن على ملامحها ، وتدفق الحنين في كيانها ، وقالت:

- ذات عام تعرض أبي للاعتقال بتهمة ما ، كان بريئًا منها لكن دُبرت له بشكل مُتقن ، وربما لأنه كان ناجحًا وميسور الحال ، وكان له بعض الأعداء والحسّاد من أبناء الأديان الأخرى الذين استاءوا لوجود رجل من غير ديانتهم في وضع ميسور وأفضل منهم. المهم دخل السجن بتهمة إلى الآن لا أعرف مضمونها. أمي الوحيدة التي كانت تعرف ولم تخبرنا ، لكنها كانت تؤكد لنا بأن والدنا بريء والتهمة ملفقة. وحُكم عليهِ بالإعدام ، لكن بعد جهد جهيد ورشاوى ودفوعات مالية كبيرة ، وتحرك أمي واتصالاتها ومقابلاتها مع المسؤولين خُفف الحكم عليه من الإعدام إلى سجن لسنوات عديدة.... كانت أمي وإحدى أخواتي يزرنه في السجن....

أختي هذه هي الأكبر بيننا ، الأقرب إلى أمي وأبي ، كما كانت الأقرب إليّ. كانت هي أمي الثانية ، فمسؤولية متابعتي أوكلت إليها. لم تكن بشرًا وأنما ملاك يمشي على الأرض. كانت جميلة جدًا ، ورقيقة ، ومهذبة ، ودائما تسعى لخدمة الجميع من دون تذمر ، وتتحمل مشاكسات أخويّ من دون شجار ، مع أنها أكبر منهما..

كانت قريبة من أبي جدًا ، كان يحبها جدًا وكثيرًا ما كان يردد أمامنا جميعًا بأنها ليست ابنته البكر فقط وأنما هي صديقته. كانت تزوره في السجن بمفردها من غير المرات التي كانت تذهب فيها مع أمي.. ولا نعرف كيف حدث إن تعرفتْ على ضابط في إدارة السجن ، ونشأت بينهما علاقة حب عميقة. لكن المشكلة هي

أن الضابط كان من ديانة أخرى.

عائلتي متعصبة جدا من هذه الناحية ، فهي ترفض تزويج بناتها إلى أبناء طائفة أخرى من ديانتنا فكيف تزوج بناتهم لأبناء الديانات الأخرى..!!؟ وحدث أن سمعتها أمي وهي تتحدث مع حبيبها هاتفيًا ، فجن جنونها ، وكان أحد أخوتي يشاكسها بحقارة ، هذا الأخ الذي يزايد بالشرف والعفة ، كان يضاجع إحدى أخواتنا طوال فترة مراهقتها ، وقد فضحته لي فيما بعد بسنوات..

المهم .. أخي الحقير هذا كان يجرحها بكلامه.. ويبدو أنها أخبرت الضابط بأن أهلي عرفوا بأمرها ، ومنعوها من الحديث معه ، لكنها أخبرته من هاتف قد أخفته عن أمي.. وكان الضابط شهمًا ، فتقدم إلينا طالبًا يدها.. لكنه استقبل استقبالًا مهينًا.. لم تخرج أمي لاستقباله ، بينما ظل لفترة جالسًا عندنا في غرفة الضيوف ، وبل طلبت من أخوي ألا يصافحاه ولا يناقشاه عن طلبه ، ويتم إغلاق أي باب للنقاش....

وهذا ما جرى ، فكان هذا التصرف كافيا لتدمير أختي وتحطيم آمالها في أن تتزوج الرجل الذي تحبه ويحبها ، لاسيما وهو أبدى تمسكه بها وحسن نواياه حين تقدم إلينا. لكن أمي كانت عنيدة ، ومتطرفة في تعصبها الطائفي والديني بشكل عام..

تشكل ملامح الحزن والكآبة على وجه آدم السيد وهو يستمع لقصة الحب الحزينة هذه ، فسألها:

- وماذا جرى بعد ذلك؟

سكتت هي للحظات وكأنها تسترجع مشهد ما جرى. واسترسلت:

- ذات يوم.. وكانت أعياد رأس السنة ، خارج الفندق طبعًا.. ، فقالت لنا أمي:.. تحضروا للخروج كي نذهب لنؤدي القدّاس.. الغريب في الأمر أن أختي رفضت أن تأتي معنا.. ولا أتذكر بماذا تحججت كي تبقى في البيت... لكن حين رجعنا

من نزهتنا رأيناها وكأنها كائن آخر..... كانت حزينة ، وشاردة الفكر ، ولم نفهم ما جرى لها أثناء غيابنا ، لكنني بعدما كبرت فكّرت في عدد من الاحتمالات.. من بينها إنها اتصلت بحبيبها.. وربما أخبرها بأن عليهما الانفصال ، لأن أهلها لم يستقبلوه أصلًا بل احتقروه ، وأن عليها أن تجد مستقبلها بعيدًا عنه ، وربما أخبرها بأنه قرر أن يتزوج بعد أن يأس من الزواج منها..!! لا أدري.. أنا أفكر بالاحتمالات.. لأنه لا أحد يعرف أي ألم وصراع دفعها إلى ذلك..!....

بعد عودتنا من القدّاس قالت أمي: استريحوا قليلًا وبعدها جهزوا أنفسكم لمدينة الألعاب.. فوالدكم أوصاني بأن نقضي وقتا طيبًا. وشدَّدت على أختي الكبرى.. ووافقت هي حينها ، وقالت بأنها توَّد أن تتحمم أولًا فقالت لها أمي «بما إنك تريدين الاستحمام ، فخذي إيفا معك ، وحمميها..!».. رفضت هي أن تحممني حينها.. وزعلتُ أنا منها.. لكني لم أزل أذكر حين تقربت مني وقالت لي بأنها لا تستطيع فعل ذلك.. وكأنها كانت تخبرني بأنها لن تحممني بعد اليوم..

المهم.. دخلتْ هي الحمام الذي كان في الطابق الأسفل.. ولأن التدفئة كانت ضعيفة فقد أخذت مدفأة معها لتدفئ غرفة الحمام. لا أحد يعرف ما جرى هناك. ما عرفناه منها قبل موتها وهي في الرمق الأخير ، بأنها أراد التخلص من عائلتنا الملعونة ، فقد نزعت ثيابها إلا من دشداشة خفيفة من النايلون وحمالة صدر.. وسكبت النفط على جسدها وعلى الثياب وأشعلت النار في جسدها..!!

لكن الإنسان مهما كانت إرادته قوية فأنه لن يتحمل الألم الجسدي.. لاسيما حريق الجسد.. لذا خرجت من غرفة الحمام والنيران تشتعل في جسدها.. كنتُ أنا أريد النزول من الطابق العلوي الذي هو مباشرة بمواجهة الحمام.. والجميع في الصالون

القريب من الحمام.. ورأيناها وهي كتلة من اللهب تخرج من الحمام راكضة من شدة الوجع .. والذي حصل أن أخي الحقير الذي كان يشاكسها ، من جهله ، أخذ جردلًا من الماء وسكبه عليها.. بينما كان المفروض لأن تلف ببطاني أو غطاء سميك..

المهم.. مأساة أختي الملاك هذه انتهت ، ولم تنته الأقاويل التي انتشرت حول سمعتها ، فبعض أقاربنا قالوا إنها حامل من الضابط ، وإنها انتحرت سترًا للفضيحة لاسيما بعد أن رفض أهلها هذا الزواج.. ومع ذلك نُقلت حينها إلى المستشفى.. ونتيجة للإهمال في مستشفيات العراق أصيبت بتسمم الدم.. ولأنها كانت ترتدي حمالة صدر من النايلون فكانت قد التصقت بقلبها.. وغادرت هذا العالم الكئيب..

كنا نقول لأنفسنا ولأقاربنا وللناس بأن الأمر كان حادثًا.. ولأنها كانت ملاكا يمشي على الأرض ، لذا إني على ثقة بأن القدير لن يعاقبها بالجحيم الأبدي.. ولا بد لها من أن تكون في المطهر.. لذا أن جئت أبحث عنها أيضًا!..

كان التأثر والحزن باديًا على وجه آدم السيد ، بل وانتبهت لترقرق الدموع في عينيه. وكان يحاول ألا ينظر إليها كي لا ترى ضعفه الإنساني بالتعاطف مع هذه الإنسانة البريئة التي راحت ضحية للتطرف الطائفي والديني.. لكنه سألها:

- وماذا بعد..؟

كانت إيفا حزينة جدًا وهي تروي ما جرى ، وتهدج صوتها.. وكادت تبكي لكنها كتمت ما يجول في أعماقها وواصلت:

- -انتحار أختي الكبيرة كان الضربة القاضية التي حطّمت والدي.. كانت إعدامًا روحيًا حقيقيًا له.. وكان صدمتنا العائلية.. طبعًا بالنسبة للعائلة لم يكن موتها أول تجربة لنا في مواجهة الموت..! فقد سبقتها أختان في الشهر نفسه وفي أيام مقاربة من

يومها.. أنت تعرف أن الملاحم البشرية تحدثت عن الموت كثيرًا. فكلكامش لم يكن مهووسًا بالخلود وطيب الذكر بعد الموت كما ذهب معظم المفسرين ، وأنما كان مهووسًا بالحياة..! كان يخاف الموت ، والفناء ، والتحلل ، والجيفة.. لا أكثر..! ومن حبه لصديقه لم يدفنه مباشرة فتحللت الجثة وانتشرت الجيفة.. حينها أدرك مصيره..!

الإنسان جيفة تمشي على الأرض وتنبض بالحياة..! ومع ذلك.. الفاجعة الأكبر كانت في الحياة.. بالنسبة لأختي فقد غادرت الحياة يئسًا من هذه العائلة الحقودة..!.

لقد كانت ملاكًا بين أبالسة ، فكما تنبت زهرة اللوتس ، المقدسة لدى المصريين القدماء ، في المستنقعات ، كذلك كانت هي زهرة لوتس المقدسة في مستنقع العائلة. وكما أخبرتك.. المأساة كانت مع أبي.. فنحن لا نعرف من عالم الموت سوى السكون والصمت المطلق واللاعودة.. فهو بالنسبة للموتى ليس بمأساة ، المأساة تبقى في الحياة..

نحن ننظر للموت ونحكم عليه من خلال عين الحياة..! لكن كما أن النور والظلام توأمان ، ولا معنى للنور من دون الظلام ، ولا مهابة للظلام من دون النور ، لذا لا نعرف هول الموت إلا من خلال الحياة...المهم.. في يوم الانتحار جاء أحد ضباط السجن وأيقظ والدي من غفوته ، وأخبره بوفاة ابنته..!! وأي منهن؟ الأحب إلى قلبه..!!

أخذوا والدي ليرى الجثمان.. وسمحوا له بإلقاء النظرة الأخيرة عليها.. من كان هناك من أهلي روى كل منهم المشهد بطريقته ، لكنهم اتفقوا على أن أبي ألقى بنفسه على التابوت وأخذ يصرخ ويعيط وينتحب باكيًا بشكل أبكى فيه حتى ضباط وشرطة وإدارة السجن. ومن حسن الحظ أن حبيب أختي لم يكن في ذلك

اليوم موجودًا.....

قيل إن أبي ألقى بنفسه على التابوت متشبّثا به حتى بعد انتهاء المدة المقررة ، وجرّوه بالقوة من على التابوت..! الله يعلم كيف كانت أيامه ولياليه في السجن.. لكني أعرف كيف حاله بعد خروجه من السجن بطريقة ما نتيجة هروب جماعي حدث وبلبلة في السجن ، دافعها الرشاوي التي منحت لإدارة السجن لإجراء مثل هذه البلبلة وإخراج بعضهم وأعتقد أنهم رتبوا الأمر أمام المسؤولين الأعلى..

أتعرف كيف يمكنك أن ترى قلعة من الرمل وهي تنهار أمامك.. أو حتى قلعة حجرية.. حيث ينهار كل شيء بشكل مدوي هكذا أنهار أبي.. ولجأ إلى الخمر ليداري حزنه ويخمد وعيه بالفقدان...أذكر كيف كان يجلس حول المائدة وفجأة يمد ذراعه القوية ويمسح المائدة بكل ما عليها ليلقي بها إلى الأرض..

ومع ذلك كان يحاول أن يحفظ ما تبقى ومن تبقى من عائلته.. وبعد تشتت حل علينا.. حيث رفضت أمي البقاء مع أبي حين اصبح سكيرا بل ومدمنًا.. حاولتْ الطلاق وألقت بي في الميتم.. وأخواتي البنات الأكبر أودعتهن في الدير ، وأخذت معها إخويّ الذكور.. ولا أخفيك سرًا ربما كانت هذه الخطوة البائسة من قبل أمنا هي التي دفعتنا لنفتح عيوننا وآذاننا على حقيقة الدين..!

وصار لدينا حساسية سلبية تجاه الدين وكل المؤسسة الدينية..!. ورفعتْ أمي دعوة طلاق من أبي.. وبعد ستة أشهر أو أكثر بقليل وفي يوم جلسة المحكمة الأخيرة.. اقنع والدي أمي ، وكانا عند باب المحكمة ، بالعودة.. ولم يحدث الطلاق وعدنا جميعًا.. لكن اثنتين من أخواتي رفضن الخروج من الدير وأردن أن يصبحن راهبات.. لكن بعدة عدة أشهر افتعلن مع الراهبات شجارا وخرجن من الدير بسبب قباحة تصرفات الراهبات معهن

وأسباب أخرى..

وبعد ذلك تزوجت أخواتي الثلاث وسافرن خارج البلاد.. وسافر أخي الأكبر أيضًا.. وبعدهم توجه بنا والدي إلى إحدى البلدان العربية.. لكنه لم يشأ أن يغادر العراق بسبب أعماله وحنينه لقبور أخواتي ، بل ، حتى حين يكون معنا خارج البلاد فأنه كان يعود إليه في ذكرى وفاة حبيباته وبناته الثلاث.. وأهمهما حبيبته التي انتحرت.. فكان يحمل في اليوم الموعود باقات الزهور ليغطي تلك القبور في البلاد التي صارت بعيدة علينا..

بعد انتحار أختي صبّ كل حنانه عليّ لاسيما وأنا كنت الأصغر في العائلة وكنت أشبهها لحد كبير في التصرفات والشكل. ووعدني بتحقيق جميع أحلامي. بالمناسبة.. علاقة أبي وأمي لم تكن منسجمة كما يفترض.. فقد تصدعت خلال السنوات الكثيرة بينهما ، وفي النهاية وصلا لسلام وهدوء.. وبعد ذلك الهدوء الرائع.. وفي شهر ديسمبر أو دعني أقول في شهر شجرة السدر..

أراد أبي العودة إلى البلاد ليقدم أضحية عن روح أخواتي في العيد وليزور القبور.. وبعدها يعود إلينا ليحتفل معنا في عيد رأس السنة.. وسافر ، لكنه أوصى أخي الأكبر مني أن يعتني بي جدًا وألا يضايقني.. فقد كان يعلم بأن شقيقي الأكبر مني يضايقني.. ودومًا ما كان يتشاجر معه لهذا السبب.. وعاد إلى البلاد.. كنّا على تواصل يومي بالكاميرا.. وبعد يومين من سفره.. اتصل بي وتحدثنا طويلًا. ولا أزال اذكر حوارنا بكل تفاصيله.. قال لي بأني كبرت بهذين اليومين.. وأخذ يمدح جمالي ويتغزل بي ويخطط لمستقبلي الدراسي وبأنه لا يريد مني أن أتزوج واتركه.. وبعدها بساعات جاءنا اتصال من أعمامي بأن أبي في المستشفى.. أخذت أصلي واطلب من المخلّص والعذراء أن يحموه.. وبالأخص بأني منذورة من العذراء كما تقول أمي لان حملها بي كان صعبًا وكان

معي توأم صبي..

المهم كانت هنالك راهبة من أقاربنا قد عادت من زيارة العذراء لورد ومعها أيقونة لمريم العذراء حين ظهرت لفتاة في ربيعها الرابع عشر.. وأعطتها لأمي.. وأمي نذرت حينها إذ ولدِتُ سليمة وعشت فسوف تصوغها ذهبا وتجعلني أرتديها.. توفي الصبي وبقيت أنا..

المهم حين اتصلوا بنا وأخبرونا أن أبي في المستشفى طلبت من هذه الأيقونة أن تأخذ مني روحي وتعطيها لأبي.. لكن بعد ساعات فتحت الهاتف النقال ووجدت في إحدى الصفحات نعيًا له..!!!

توفي بسبب نزول ضغطه ولم تسعفه المستشفى بطريقة صحيحة ، بل كانت تعطيه اللبن والملح.. وتوفي.. حينها نزعت تلك الأيقونة بقوة من رقبتي ورميتها أرضًا..!

هل يمكنك أن تصدق ذلك.. صبية تودع والدها الحبيب ثم تقرا نعية على شاشة الهاتف النقال؟ لكني أعرف أن من يسقط في طريق الحياة سيغادر العالم وحيدًا ، بل حتى الذي يحتضر وسط عائلته فسيغادر وحيدًا أيضًا...!

أتعرف أحيانًا أشعر بالخجل من عبث بقائي على قيد الحياة بعد رحيل أختي وأبي.. ولكني أعرف إننا كبشر نحن من نصنع سعادتنا الشخصية.. لاسيما تلك السعادة التي تنبع من الأعماق.. لكن في الكثير من الأحيان تكمن الحياة في الظل حينما تكون الشمس حارقة جدًا.

وهكذا بعد رحيل أحبتي صرت وحيدة ، ولجأت إلى الظل.. أتعرف.. مع إنني صغيرة في العمر ، وربما قليلة الخبرة قياسًا لك ، لكني أعتقد بأن الإنسان وحده يعاني في هذه الحياة من سؤال وجوده ومعنى وجوده..! وحده من دون معين ، حتى لو كان وسط

عائلته ومع من يحب.. فهو لا يستطيع أن يقف في وجه الموت ، ولا بوجه الزمن ، ولا يملك السيطرة على تغيرات وتحولات الجسد ، وإيقاف سير العمر ، لا يمكنه أن يوقف عملية ترهل عضلاته ، وتهدل ملامحه تحت وطأة وثقل الزمن..!

وهكذا مرت مراهقتي في الظل..إلى أن صرت امرأة تعي ما يحدث لها ، وتعرف أن طبيعتها السلبية واستسلامها أمام الآخرين وموافقتها على متطلباتهم ، بينما هي في داخلها تقول: لا.. ، صامتة.. وربما قادتها موافقتها السلبية إلى الدمار من غير أن تدرك ذلك..!

لكنني من كل خبرتي المتواضعة في الحياة وصلت إلى قناعة راسخة بأنه صار لا يثير اهتمامي من يكون رائعًا في البداية ، وأنما صرت أهتم وسأهتم بمن يبقى معي رائعًا حتى النهاية.. وأُعلنها لك.. إنني وجدت فيك هذا الإنسان الذي أجده رائعًا وعلى يقين بأنه سيبقى رائعًا دائمًا..! أنا أرى روعتي وجمالي في عينيك!..

فوجئ آدم السيد بجملتها الأخيرة ، مع أنها أوضحت له وجهة نظرها:..

- ماذا تقصدين؟ كيف..

- أحيانا نعرف أنفسنا جيدًا ، ونعرف كل شيء عن شكلنا وشخصيتنا وطباعنا ، لكن نبقى بل ونحب أن نسمع كيف يرانا الآخرون ، وبالتحديد والتخصيص الحبيب. فمثلًا ، أنا أعرف أنني جميلة الشكل قياسًا لمفاهيم الجمال السائدة ، لكنني انتظر منك أن تقول لي بأنني جميلة ، أريد منك أن تراني جميلة ، وتؤكد لي على ذلك.

وسأقول لك شيئًا. أنا أحب وجودي معك.. أدركت أن بلادي بين ضلوعك.. وغربتي في فراقك.. اِنس عجرفتي وأفعالي السيئة التي رويتها لك.. اِنس إيفا ماجدولينا التي كنتها ، فقد ولدتُ من

جديد حين عرفتك.. تركت نفسي لك..

أصقلني كما تحب وتهوى.. لأكن عطرك الذي لا يفارقك.. أريد الانتماء لخارطة قلبك.. بل أريد أن أكون عاصمة قلبك.. فرجائي ياسيدي ، رجائي إليك ألا تفهمني بصورة خطأ.. أنا لست عديمة الشخصية ، أنا الواحدة والمتعددة ، أريد أن أكون لك كل شيء ، لأنك ولادتي الجديدة!..

شعر آدم السيد بتيارات الفرح تجتاحه ، ودّ لو احتضنها الآن مباشرة ، وأخذها على هذه الأريكية بين أحضانه ، لكن حكمة العمر ورزانة الموقف وتجربته المريرة في الخيانة والغدر جعلته يكتم فرحه ، لاسيما وأنه على الرغم من تحرره الفكري إلا إنه لم يستطع نسيان أنها كانت تسعى لإقامة علاقات مع عدد من الر جال. صحيح إن تجربتها معهم كانت تجربة عابرة كما أوضحت ، إلا أنها عاطفية ، وليس من المستبعد إنها قالت مثل هذا الكلام ، لمن أعجبها منهم ، لذا قال لنفسه: تريث يا آدم السيد حتى تتأكد مما تقول.. تريث حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الأسود ، لذا قال لها:

- سأكون واضحًا معك..

- وأنا أحب وضوحك ، فهو كالشمس الساطعة التي توخز العين أحيانًا ، لكنها تملأ أعماق بالنور..

- شكرًا لكِ..(صمت للحظة ثم واصل)..منذ أن رأيتك للوهلة الأولى وأنت تدخلين الفندق أحسستُ بأني أعرفك.. ورأيتك في مكان ما ، وفي زمن ما ، بل في أماكن وعصور مختلفة.. وكلما ما كنا نقترب من بعضنا كانت تجري أحداث ووقائع مأساوية.

لكن نسختك الأخيرة في هذا العصر صدمتني.. فأنت شابة جميلة وبهية ومثيرة ، بينما أنا كما كنت في المعبد السومري أكبر منك بأربعين عامًا ونصف العام. لكننا الآن في العقد الأول من

القرن والحادي والعشرين وفق الزمن خارج الفندق.

فمنذ آلاف السنين وأنا أحبك.. وفي كل نسخة من العود الأبدي أحبك.. لكن في هذه المرة ثمة إشكالات في طبيعة علاقتنا. فهذا العصر الذي نحن فيه ، على الرغم من تطوره العلمي إلا إنه العالم الذي يثير الأسئلة. ومع ذلك أحس نحوك بارتباط روحي أكبر بكثير مما يمكن أن يحدث بين اثنين يلتقيان مصادفة...

ابتسمت له وفي عينيها حنان عظيم وفرح المحبة ، وقالت بمزاح:

– قلت الكثير ولم تقل شيئًا.. قل ما لديك.. كن واضحًا كما عهدتك في كل مرة عبر العصور..

ارتبك هو ثم قال:

– الرائد آدم عبد السميع لا يميل إليك ، بل إنه غيور.. يغار منك ، لذا سعى إلى تسميم أفكاري كل مرة كي يحطم علاقتنا.. أنت نفسك تحدثت عن فترة قريبة من حياتك حيث نزلت إلى وادي اللذة المريب.. واستهلكت الكثير من روحك.. لكن الذي يثير إعجابي إنك لم تنكري أي شيء مما عشتهِ ، بل تحدثت عن ذلك بشجاعة. !..

فقالت له مشجعة:

– هل بإمكانك أن تكون أكثر وضوحًا ، وتخبرني ما يدور في ذهنك من دون محاولتك أن تزين ألفاظك كي لا تجرحني..؟

صمت آدم السيد للحظات ، نظر إليها متأملًا ، ثم انطلق قائلًا:

– طيب.. ما دمت مصرة على الحديث المفتوح.. سأكون واضحًا. .ومباشرًا ، فلقد أخبرتك بأن الرائد حاول أن يسمم فكري من خلال الإساءة إليك..! لقد حاصرني بالشكوك.. قال لي..:» إنها امر أة لعوب..ربما هي تعيش أزمة مع أحدهم وتعوض

عن ذلك من خلال علاقتها بك.. فأنا متأكد هي كانت مع كل رجل ، قريبة ، ولطيفة ، كما هي الآن معك.. وربما كانت تؤكد لكل منهم بأنها له.. له وحده.. وتقسم له بأن أي رجل لن يدخل حياتها.. ولأنها دائما تعودت أن يكون لديها رجل ، لذلك فهي بعد أزمتها لجأت إليك..على الأقل لتعوضها عن أزمتها النفسية .»

استمعت بانتباه لما قال وبحيادية ، وقالت له بعد لحظات:

- وماذا قال أيضًا؟

أحس هو بالحرج ، لكنها شجعته وقالت:

- قل.. ماذا قال أيضًا.. لا تخجل..

فقال آدم السيد بهدوء وهو ينظر إلى وجهها ليعرف وقع الكلمات عليه:

- يعترف إنك امرأة جميلة.. لكنه حذرني من الغدر.. فالخيانة والغدر عقدتي.. نبهني بأنني لا أعرفك جيدًا.. وربما لم تكشفي لي كل أسرارك.. بل ربما رويت لي بعض أسرارك لكن ليس كلها.. وأخفيتي ما لا يمكنني سماعه لما فيه من فضائح.. بالمجمل حذرني منك!..

يبدو أن الكلام أزعجها برغم محاولاتها إبداء الحياد.. لكن وجهها كان يموج بانفعالاتٍ مختلفة ، لذا سألته:

- وأنت ماذا قلت؟

أحس آدم السيد بالارتباك لكنه قال بوضوح:

- قلت له : «لا أعتقد ذلك..فكلامك ليس صحيحا..هي ليست امرأة لعوب تتسلى من خلال إقامة العلاقات مع الرجال..! هي ليست غانية تعطي شعورًا لكل رجل تتحدث معه بأنها تخصه. لو كانت كذلك لما قالت إنها تائهة وجاءت تبحث عن نفسها..!؟

لقد حدثتني كثيرًا وبصراحة عن نفسها ، وكشفت لي عن صحوتها لنفسها حينما اقتربت من مستنقع العلاقات الخاطئة..

ومعاناتها مع ذلك.. هي تعرف إنها مرت بفترة عاشتها بتهور ، كما نرى نحن ، فر بما هي لا ترى ذلك.. لكنها مع ذلك أخبرتني به بكل جرأة.. وكأنها تتطهر من كل تلك التجربة التي ألقت بها في عالم الكآبة..»

استرخت ملامحها ، ثم قالت:

– شكرا لك.. وسأرد على كلام صديقك الرائد آدم عبدالسميع ، والذي ربما أنت تؤيده في لا وعيك.. وأقول لك....: ياأدم السيد.. يا رجلٍا عرفته منذ قرون.. يا رجلًا أحببته في كلِّ الأزمان.. في كلِّ العصور والأماكن.. وحتى هنا.. في فندق باب السماء.. حيث جميع من يقيمون فيه وهم في الواقع موتى.. أحببتك أيضًا.. فهنا في هذا المكان كلنا خاطئون.. كلنا مدنسون بأخطاء الماضي.. بأخطاء فعلناها برغبة ومن دونِ رغبة.. بأخطاءٍ فكّرنا في عواقبها قبل أن نقترفها..

كلنا نعرف ما هي الخطيئة.. ومع ذلك كلنا نركض لاهثين خلفها بحماسة وكأنها الخلاص ..! أجل أنا أقول أنَّ الخطيئة هيَ الخلاص.. محاولتي اقتراف الخطيئة كانت هي خلاصي وخطيئتي أيضًا ، بل هي خلصتني فعلًا من رغبات خوض التجربة التي كانت تسكن بداخلي.. الرغبات التي كانت تبحث عن تعدّد العلاقات من حولها.. الرغبات التي سعتْ إلى أن تروي عطشها بكل السبل.. وأنا كنت ألهث وراء السراب يا أدم السيد..!

وحين تعبت توقفت عن الجري وانطفأت رغبتي.. خلاصي كان في التوقف عن التوجه نحو السراب.. خطيئتي قادتني للخلاص من اندفاع الرغبات وتقليد رفيقاتي في خوض العلاقات.. لكن من جانب آخر فمن دون تلك التجربة ودخولي كهف الرجال والعلاقات لما استطع التوقف عن الجري نحو السراب وإطفاء اندفاعة الرغبات.. لما كنت قد تخلصت منها وطردتها..

صحيح إنني تهورت وأردت التجربة بكل حماسة حتى أروي عطش تلك الرغبات ، لكني اصطدمت حين وجدتها تافهة وسخيفة..! لذلك طردتها.. تخلصتُ منها.. تخلصتُ من كل متعلقاتها.. تخلصتُ من كل ما يربطني بها..

رحلتْ تلك الرغبات بعيدًا عني..وكأني أرتويت منها لكني في الحقيقة ارتويت من خيبتي فيها..! رحلت الرغبات وودعتني ، بينما بقيت أنا الضالة ، بقيت بمزاجيتي ولامبالاتي.. وتعدّد شخصياتي وازدواجيتي.. وميلي بألّا أتقيد بفعل الحُبّ وغيره!..ولا أدعي بأن كل ذلك التحول حصل فجأة وأنما استغرق وقتًا.

أنا اعترف إنني تعرفت على عدد كبير من الرجال وذلك بدافع البحث المجهول والإحساس بالتجربة..لكني لم أخض اية تجربة فعلية حقًا حتى وإن كانت افتر اضية..!

أنا الآن قد ولدتُ من جديد أنا الآن مثل طفل حديث الولادة لا يعرف نفسه ، وعلى الرغم من ضياعي لكني متأكدة بأني لا أرغب بتكرار ما عشته وما مررت به..

أنا أعرف قيمة نفسي..أجل فبرغم كلّ أفعالي المتهورة لكني أرى أنَّ قيمتي ثمينة وغالية جدًا.. أنا ياآدم السيد..لا أدعي الشرف ووالفضيلة ولا أمثل بأني بلا خطيئة مثل معظم من هم خارج فندق باب السماء.. لقد مررت بتجربة أوجعتني..ندمت على أنني حاورت من لا يستحقون أن أتبادل معهم كلمة واحدة..محاولتي أن أجرب هي جوهر تجربتي..فلأنا لم أجرب شيئًا فعلا..!.

ومع أني لم أتلوث بتلك العلاقات لكنني أعتبرت نفسي قد عشت تلك التجارب المحبطة والمخيبة للروح.. إرادتي كانت قوية..فحين اقتربت من المستنقع انسحبت قبل أن أتلوث به.. وحتى خطواتي في ذلك الطريق تطهرت منها ، فأنا أنظر لكل ما جرى كغيوم أمطرت أو رحات وتلاشت..

أنا إنسانة حقيقية.. بلحم ودم.. لستُ ملاكًا ولا شيطانًا.. أنا الجلاء والقتمة.. أنا الليل والنهار.. الضوء والعتمة.. الوضوح والغموض.. ومع كل أفعالي تلك ، إلّا إني حرقت تلك الدفاتر التي ضمت كل تلك العلاقات السطحية لكن الموجعة.. وسعيت وما زلت أسعى إلى أن أتطهر.. أسعى لكي أكون أنا.. كي أكون إيفا ماجدولينا.. لا غير..

الآن لا تتحكم بي رغبات جائعة للتجربة.. ولا تغويني ملذات الحياة التي خارج الفندق.. أنا أريدك ياآدم السيد ، وما حديثي عن الماضي الذي عشته لا يعني بأني سأعيشه مرارًا وتكرارًا.. ذلك الماضي مضى.. ولن يرجع.. لن يكون مستقبلًا.. وسيبقى ماضيًا.. أنا معك الآن..

أنا إيفا ماجدولينا التي كان معك في معابد سومر والهند وقصور الأمراء.. ورافقتك في الغابات والكهوف.. أنا أولد من جديد.. وأعيدها مرة أخرى.. لستُ لعوبًا ولا مدعية للفضيلة كما قلت أنت ردًا على اتهامات الرائد لي.. أنا هي أنا.. هذا هو ردي لكلام الرائد ، وربما لك أيضا ياآدم السيد.

أحس آدم السيد بمشاعر متضاربة ، أحزنته ، بل أثارت غيرته بعض جملها التي نطقت بها ، لكنه قدّر عاليًا صراحتها ووضوحها مع نفسها ، بغض النظر كيف يفهم هو تلك الأشياء. كان واثقًا من أمر واحد هو أنها على مرّ تداخلات العصور كانت امرأة صادقة وعاشقة عظيمة ، وأن ظهور إيفا ماجدولينا في هذا العصر ، كما ظهر هو ، خاضع لأخلاقيات هذا الزمان وليست أفعالها مدعاةً لتوجيه التهم الأخلاقية.

كانت هي تنتظر منه أن يقول شيئًا تعقيبًا على ردها ، لكن كان يفكر مع حاله في كل ما سمعه منها ثم قال:

– أنا أحيي فيك شجاعتك ووضوحك ، وأود أن أقولَ لكِ: قد أختلف معك في فهمي لبعض الأمور ، لكني أتقبل ما قلتهِ بكل تفهم إنساني ، فأنا أيضا كائن مليء بالأخطاء والخطايا. أنا أحبك كما أنتِ ، وأحببتك في كل الأزمان ، وكنتِ حبيبتي وزوجتي في بعض العصور ، وفي عصور أخرى عشنا قصة حب مأساوية ، وها نحن نلتقي مرة أخرى في هذا العصر المظلم..!

لا أخفيك.. كانت لديّ مخاوفي منك ، بل من وضعنا المرتبك ، لاسيما سؤال العمر.. وسؤال العودة إلى علاقاتك القديمة..! لكن شجاعتك في البوح منحتني الثقة بأن امرأة مثلك لا يجوز الخوف منها..! لاسيما حين تعلن حبها وتمسكها برجل ما..! وسأقول لك ترتيلا ما كنت قد أنشدته لك في سومر:..

حين رأيتكِ.. انكسرتُ..
قلبي هوى..
مثل كوكب تاهَ عن مداره..
نظرتك برقٌ أنارَ برجي المظلم..
جنودي تفرقوا هلعا..
وتماثيلُ الحديقةِ لاذت بالمخابىء..
أباري فاضت..
وشجاعتي فرّتْ إلى الوديان كماعز جبلي..
الأمطار هطلت بغزارة..
والطحالب غطتْ مصائدَ الغزلان..
وحدهُ قلبي واجه برقكِ أعزل..
ووحيدا..
أنا المريد.. الشريد..
جئتك من (أريدو)..

حيثُ هبطتْ سفن السماء!
عطركِ..
اِقتحَم عليّ عزلتي في المعبد..
آه..
كم قرن مضى؟...
لقد غفتْ اللغة..
وصدأتْ الكلمات..
نعم يا إيفا ماجدولينا.. أحبك.. أحبك بميلون قلب..
وأغني لك بمليون فم..
أنت بابي إلى الرحمة الأبدية.. أتعرفين..
قبلكِ لم أكن إلا حجرًا سماويًا
تائها في ليل الأبدية..
كنت حجرًا يائسًا هوى عند قدميك ذاتَ مساء..
أتذكرين ذلك..؟
نظرتُكِ جذبتني لمداركِ؛
فجأةً،
صرتُ شمعةً تتقدُ في أعماق بئر مهجورة،
بئر في ليلِ الصحراء،
بئر ترقدُ فيها أفعى وضفادع عمياء،
أنا المفتوحُ على لغز الأبدية،
أنا سليلُ المجراتِ البعيدة،
أنا حفيدُ الأنوناكي!..
ومن دون أن أدري..
وجدتُ نفسي أذوب حبًا..
آه من الينابيع..
إنها لم تتعلم أغنية الليلِ..

آه من الصبر
إنهُ يترك كلابه تهرولُ أمام العربةِ..
حتى الغراب الأسود طارَ باحثا عن روحهِ في غابة الثلج..
والسنجابُ لاذ إلى نفق في الشجرة..؛
حالما بربيعٍ طويلٍ.. طويل.
بينما نفشَ الثعلبُ وبره وزين بالكحل عينيهِ..
لم أكن أعرف أن الريحَ الغادرة تترصدني..؛
لم أكن أعرف أنني ضوءُ أعمى..
لم أكن أعرف أنني شاهد لقبري..
لم أكن أعرف أن حياتي صارت جرة مكسورة..
حديقة مهجورة..؛
بوابة شاهقة تغطيها الأعشاب والطحالب البرية..؛
وأن حياتي صارت انتظارات صدأت من الانتظار!!..
ومثل درويش وحيد، يوقد مبخرته في كوكب بعيد
منتظراً فجر الأبديةِ..؛
انتظرُتكِ..
أنا آدم طريد الفردوس،
أنا آدم السيد،
لقد كتبتُ إليكِ تعويذتي,,
لتحمكِ روحُ سومر...
لتحمكِ روحُ النسر التائه..
لتحمكِ روحُ الفيل الوحيد..
لتحمكِ صرخةُ الدب الأبيض..
وليخفق طويلاً قلبكِ الرحيم..
يانورَ الكواكب..
وياعينَ القلب.“..

كانت إيفا ماجدولينا تنظر إليه وتشرب كلماته وبوجه الغامض مثل طلاسم سحرية.. وكانت عيناها مترعتان بالحب وقلبها يفيض بالحنان... وبكلمات هادئة لكنها واثقة ومليئة بالحب والحنان قالت له:

- أتتزوجني يا آدم السيد ؟

صعق حين سمع كلماتها. انتبهت إلى صدمته الواضحة وصمته الذي امتد لثوان ، لكنها كررت سؤالها:

- أتتزوجني يا آدم السيد؟

فقال والذهول مرتسم على وجهه:

- نعم.. نعم.. لا أصدق أذني..!

ومن حيث لا يعرفان كيف حدث كل هذا احتضنا بعضهما بقوة وأخذ يقبلان بعضهما من الوجه والخد والعينين والجباه ومن ثم اشتعلا في قبلة من الشفتين. ومع أنه يحس بجسدها الجميل البض بين يديه وأن شفتيها بين شفاهه وهو يلتهمها التهامًا ، لكنه لم يصدق بأنَّ إيفا ماجدولينا ، وكل هذا الجمال بين أحضانه ، برغم أمواج ظلام العصور المضطربة.

فجأة سلّت نفسها من بين يديه وقالت له وهي في حالة هيجان عاطفي:

- انتظرني.. سآتيك بعد قليل.. لقد حضّرت لنا كل شيء ، لكني لم أكن واثقة من موافقتك بهذه السرعة.

وقبل أن يقول شيئًا توجهت إلى غرفتها ، بينما ظل هو في حالة انجذاب وكأنه يعيش حالة سحرية.

لم تمض سوى دقائق كثيرة حتى جاءت وهي تحمل ورقتين وقلمًا. حين وصلت عنده جلستْ قربه بحيث احتك فخذها بفخذه ، ووضعت الورقتين جنبا إلى جنب على الطاولة التي أمامهما مباشرة ، وقالت له بحنان وثقة:

– هذا هو عقد الزواج الروحي بيننا. كنت قد جهزته ، لكني كنت انتظر جوابك كي نوقعه معًا.. وبالمناسبة.. أنا وقعته بتاريخ الزمن خارج الفندق ، فهنا لا معنى للزمان ، فلربما سنغادر كلانا الفندق.. لا أحد يعرف.. ربما ، وهذا متوقع جدا ، سنواصل حياتنا خارج الفندق معًا.

فسواء كانت حياتنا خارج الفندق والمكتوب عليها بالانقضاء ، وتناسخ أرواحنا عبر العصور ، في عود أبدي ، أو هنا في عالم الأرواح الأبدي ، فأننا سنكون معًا. ولكل منّا ماض قد يكون مظلمًا ومليئًا بالخطايا.. ولكي نكشف عنه لكن من غير أن نتخذ منه ذريعة للإساءة إلى الآخر ، ولا ذريعة للمروق والإساءة للعقد الروحي الذي سيكون بيننا.. ولا يحاسب أي منا الآخر على ماضيه ، سواء البعيد أو حتى القريب. حتى ليلة دخولنا إلى الفندق.

كانت علامات التعجب والدهشة والفرح الغامر ترتسم على وجه آدم السيد ، وعلى الرغم من أنه الأكبر سنًا ، وخبرة ، وثقافة ، إلا إنها كانت المسيطرة في توضيح الأشياء كلها ، فقالت:

– أجل.. فأنا منذ العصر الأخير لظهوري وفقداني لك ، قررت أن نتزوج زواجًا روحيًا ، وقد فكرت في كل بنود العقد ، قد كتبته أنا ، ولكي تكون على علم بالأمر سيكون كالتالي:

كانت عينا آدم السيد تتجولان في العقد المدّون على الورق. وقرأ:

عقد زواج روحي

• هذا العقد سيوثق بحضور القدير كونه الرقيب والشاهد الوحيد والأهم على هذا الكون ، ونظرًا لأن عقد الزواج هذا يُعد رابطًا روحيًا بينهما ، فلا شاهد أفضل من القدير.

• ولأن عقد الزواج هذا روحي ومبنى على أساس حبهما الأبدي النقي لبعضهما بعضا ، فلا شروط فيه وإنما اتفاقات ودية نابعة

عن وعي وقناعة كاملة بينهما. وقد اتفق كل من آدم السيد وإيفا ماجدولينا على النقاط المذكورة في أدناه..

- **الاتفاقات:**

1) أن يكون الحب الكامل المعنى والصافي هو الأساس الذي يربط روحيهما.

2) أن يُقبّل العاشق والزوج الروحي «آدم السيد» زوجته الروحية وحبيبته الأبدية «إيفا ماجدولينا» كل يوم. وعليه فعل هذا الأمر حتى إذ حلَّ بين جسديهما وفكريهما ومزاجيهما خلاف، فرابطهما روحي ولا علاقة له بالخلافات، لذا يجب عليه أن يُقبل حبيبته كل يوم وتحت أي ظرف أو خلاف.

3) ولأن إيفا ماجدولينا عاشقة غريبة الأطوار بعض الشيء، فعلى حبيبها الروحي وزوجها الأبدي آدم السيد أن يتحمل نكدها بين الحينِ والآخر، على ألا تستغل هي هذا البند لكي تنكد على زوجها بصورة دائمة، ولا أن تتخذه حجة للزوغان وإقامة علاقات جانبية مع رجال آخرين.

4) على إيفا ماجدولينا أن تقف بجانب حبيبها الروحي وزوجها الأبدي في كل حين، وأن تكون الكتف التي يستند عليها، والأم التي تدلل ابنها وتستمع لهمومه وتسعى لمواساته، وتكون الحبيبة التي تسليه وتبعد عنه الهموم والتعب. وعليها أن تكون الأخت والصديقة والعشيقة المشاكسة التي تغريه وترضي كل رغباته، والزوجة الحكيمة التي تتفهم كل أمور حياته. وعليها أن تكون طفلته الشقية وسيدته الواعية، وعليه هو أيضًا أن يكون لها كل شيء.

5) تتفهم إيفا مجادولينا كل علاقات آدم السيد مع الحواءات، ولا مانع لديها بخصوص أي علاقة إذا كانت تحت إطار الحوار الأدبي والصداقة، أو تحت إطار الجنس والإعجاب والرغبة،

وتتفهم أيضًا علاقاته العاطفية والجنسية الفرعية ، وتنص في هذا البند على أنه مباح لآدم السيد أن يفعل ما يحلو له مع كل الحواءات من دون أي استثناء ، وفي المقابل على آدم السيد ألّا يحاول إخفاء أي فعل أو علاقة منها (علمًا أن هذا لا يعني بأنه ملزم بإخبارها بالصادرة والواردة وخصوصيات الحواءات ، كل ما في الأمر يمنع عليه إخفاء علاقاته مع الحواءات وجعلها سرية ومريبة بالنسبة لها) ، وإذا حدث ما يريب فيمكن لإيفا ماجدولينا فسخ عقد الزواج الروحي ، بتهمة الخداع الروحي للحب النقي. لكن لا يحق لإيفا ماجدولينا فسخ العقد استنادًا إلى أوهام وتخيلات وحجج غير مؤكدة واتهام زوجها بأنه أخفى عنها أمرًا ما ، انسياقًا وراء تخميناتها الخطأ أو تحججا للزوغان إقامة علاقات مع رجال آخرين.

6) يمنع منعًا قاطعًا على إيفا ماجدولينا ، وهذا البند برضاها وقناعتها الكاملة ، بأن تُقيم علاقات عاطفية وجنسية في حال غياب زوجها الروحي آدم السيد ، حتى إذا أهملها جنسيًا لانشغاله وسفره أحيانًا ، أو إذا لم يكن لديه الوقت لتلبية رغباتها لأسباب أدبية أو تواجد الضيوف.

7) يسمح آدم السيد لزوجته وحبيبته وعشيقته الروحية إيفا ماجدولينا بعمل صداقات عامة مع الجنس الأوادم والحواءات ، ويسمح لها بالرد على متابعيها الذين من جنس آدم أيضًا ، من دون الدخول في علاقة خاصة ، ولا مانع لديه في هذا ، على أن يكون ذلك بعلمه ومعرفته ، وهذا البند تم الاتفاق عليه برضاها وقناعتها.

8) على آدم السيد أن يدلل حبيبته إيفا ماجدولين بالرغم من انشغاله وعلاقاته الأخرى ، أي عليه أن يكون بلسمًا لها في كل حين ، فلا يجب أن تكون انشغالاته أو علاقاته مع الحواءات

حجة ليهمل حبيبته الروحية لفترة طويلة ، وعلى الرغم من ذلك على إيفا ماجدولينا أيضًا تفهم انشغال حبيبها الروحي. وسيسمح لها بالاحتجاج إذ طال أمر الإهمال وإبلاغه عن عدم رضاها وحقها فيه ، لا أن تتخذ من ذلك حجة للزوغان وإقامة علاقات سرية جانبية مع رجال آخرين.

9) بخصوص العلاقة الجسدية الحميمة ، فلا خجل بينهما. وإذ كان هناك طرف مرهق وغير مستعد لتلبية رغبة شريكه الجنسية فلا مشكلة في ذلك ، لاسيما وأن إيفا أنثى ولأسباب بايولوجية تمر بدورة شهرية تمنعها من الممارسة الجنسية ، وعلى كل طرف تفهم وضع المقابل وتؤجل العلاقة الجنسية بينهما إلى الوقت المناسب.

10) على آدم السيد أن يطوق حبيبته بكل ما لديه من حب وحنان ، وأن يُسمعها ما يُطيّب خاطرها ، ويدللّها بكلام الحب والغزل ويكون لها مرفأ للأمان والحنان والاستقرار النفسي والروحي والفكري.

11) على آدم السيد إرسال الصور لتحفته الفنية المخفية (سيفهم هو ما المقصود من تحفته الفنية) على الأقل مرتين في الأسبوع ، وعلى إيفا ماجدولينا إرسال الصور والفيديوهات لحبيبها كلما سمحت لها ظروفها بالتقاط الصور وتصوير الفيديوهات. وهي تقر وتوافق بل ومتفهمة ومقتنعة بكامل مشاعرها وتفكيرها بهذه العقد وهذا الزواج الروحي ، لذا تجد من التزاماتها الشخصية إسعاد زوجها الروحي وتلبية كل رغباته قدر المستطاع ، وأنها تمنحه الحق الكامل بأن يطلب منها ما يشاء و في أي وقت يشاء ، وتتقبل هذا البند بحذافيره بحيث لا ترفض طلباته إلا في حال لم تسمح لها ظروف طارئة وحالتها النفسية

أو انشغالاتها.

12) على آدم السيد أن يكون متفهمًا بخصوص حالات اختفاء زوجته الروحية إيفا ماجدولينا ، وهي كذلك ، لكن يجب على كل منهما أن يزوِّد كل منهما الآخر بالسبب وراء احتمال الاختفاء وعدم التواجد اليومي لأسباب خارج عن إرادتهما.

13) يُمنع منعًا باتًا أن تنام إيفا ماجدولينا وهي منزعجة بسبب زوجها وحبيبها الروحي آدم السيد ، إذ عليه أن يُطيب خاطرها ، وإذا أهمل ذلك فستعاقبه بعدم الرد لفترة هي من تقررها.

14) علاقة آدم السيد وإيفا ماجدولينا روحية قبل كل شيء ، أساسها التناغم ، الحب ، الحنان ، والوضوح ، والثقة ، والوفاء المشترك للعلاقة.

15) تقّر إيفا ماجدولينا بأنها مغرمة بكل تفاصيل زوجها. مغرمة بنبرة صوته ، طريقة كلامه ، ببنيته القوية ، أفكاره الفلسفية والأدبية ، وبهذا يمكننا القول إن آدم السيد ليس زوجها وحبيبها الروحي فقط ، وأنما معلمها ومرجعها وحتى محور حياتها ومرشدها.

16) يجب التأكيد على أن هذا العقد لا يُعتبر عقد زواج تقليديا يتحكم بهما ، وإنما رابط روحي يقوي علاقتهما الأبدية الاستثنائية. هذا العقد ليس مثل سلسلة أغلال تُقيّدهما ، بل إنه فكرة حرة ، غير تقليدية ، تشكلت في رحم العشق والوله بينهما ، فكرة ستربطهما حتى الممات وما بعد الممات أيضًا في عالم الأرواح ، فهو عقد ليس زائلًا وينتهي مثل عقود الزواج الرسمية ، بل إنه عقد زواج روحي ، سرمدي ، لا نهاية له ، لا في هذا العالم ، ولا حتى

في عالم الأرواح الآخر.

17) ولأن حبهما وزواجهما روحي وأبدي ، لكن إيفا ماجدولينا تمنح زوجها آدم السيد الحرية في ما إذا شعر بعدم المقدرة على الاستمرار مع إيفا ماجدولينا فالأمر ينتهي بودية ، وبسلام ، ومحبة ، وبلا أفكاره مجنونة تتعلق بالاختفاء التام عن حياتها ، وسد كل منافذ التواصل بينهما ، مع أن حدوث هذا الأمر هذا مُستعبد ، لكن هي تقرّه من باب الاحتمال بعيد الحدوث ، وإذا ما حدث ذلك ، فكل ما يبقى بينهما هو الاحترام والمودة ، بلا قصص الاختفاء الكُلي عن حياة الآخر ، ومن دون تشهير وكشف أسرار بعضهما وابتزازه اجتماعيا وعائليا وأدبيا.

18) على آدم السيد وإيفا ماجدولينا ألا يترددا عن كشف ماضيهما بكل تفاصيله كل منهما أمام الآخر على أن لا يكون ذلك تبريرا للانتقاص الشخصي أو الاتهام أو النقد ، فما كان سابقا لا يحاسبان عليه.

كان هو يستمع إليها وملامحه تشير إلى انبهاره بما يسمعه منها وكأن كل شيء جاهز في ذهنها. فجأة انتبه على سؤالها:

- أموافق أنت على هذه الشروط؟

كان عاجزًا عن الإجابة فهز راسه كالأبله ، فقالت له:

- أنا إيفا ماجدولينا ، أقسم بأني سأبقى حبيبة آدم السيد ، وسأكون زوجته الروحية والأبدية في السراء والضراء وسأبقى مخلصة له ، وسوف أمنحه كل الحب والحنان الذي يحتاج ، سوف انسجم داخل روحه ، لنحيا معا.. في هذه الحياة وما بعدها أيضًا.

ووجد نفسه يتمتم كالمسحور بنبرة فيها خشوع وكأنه يقول شيئًا مقدسًا:

- أنا آدم السيد ، أقسم بأني سوف أملأ حياة زوجتي وحبيبتي

الروحية إيفا ماجدولينا بالحب والحنان والأمان والسعادة وسوف أنسجم واتماهى في روحها لأحيا معها في هذه الحياة وما بعدها أيضًا.

إيفا ماجدولينا	آدم السيد
14-2-2021	14-2-2021

انتبه آدم السيد إلى التاريخ ، فهو لا يعرف لماذا اختارت هذا اليوم بالذات لتوقيع العقد وزواجهما فسألها:

- لماذا تاريخ هذا اليوم بالذات؟

ابتسمت له وقالت:

- لأنه اليوم الذي يحتفل البشر خارج الفندق به باعتباره عيدًا للعشاق. لذا سيكون تاريخا لحبنا.

- أحبك يا إيفا.. أنت هدية القدير.. أحس بأنه نظر لكل تجلياتي عبر العصور وما واجهته من اغتيالات وقتل وحرمان.. وهجران ، وتعبد وعزلة صوفية وروحانية.. وحتى بعد مروري بجحيم الغدر والخيانة في هذا الزمن المظلم.. لقد تعبت روحي.. أشكر القدير الذي أعادني إليك.. وأنقذني من التيه والضياع في علاقات بائسة دمرت روحي وامتصت الكثير من رحيقها..

فمسكت كفه وقالت:

- سنجتاز معا هذه الأزمنة المضطربة.. وسأمنحكَ السعادة التي تليق بك وبحبنا.

ثم التفتتْ إلى الطاولة ووقّعت على عقد الزواج في نسختيه ، وبعد ذلك مدّت القلم إليه ، فأخذه ووقع على المكان الذي مدّون فيه اسمه في الورقتين . بعد ذلك قامت إيفا ماجدولينا وأخذت نسختها من العقد وقالت له:

- سأضع العقد في الخزانة الخاصة بحفظ الأشياء الغالية.. وأعود إليك.

حين قامت متجهة إلى غرفتها تأمل قامتها البهية وهي في ثوبها الأسود الأنيق. وفكر بكل هذا الجمال الذي لم يرَ مثله لا خلال عقود عمره خارج الفندق ولا على مر العصور.

مرَّ وقت ليس بالقليل وهي لم تخرج من غرفتها. كان هو يقرأ العقد الذي أمامه في نسخته الخاصة ، بل قرأه مرات عديدة. لكنه اِستبطأ ظهور إيفا فقام من مكانه وتوجه إلى غرفتها. طرق الباب فلم يفتحه أحد.

فكر بأن عليه أن يذهب لغرفته ليتحمم ، ولكي يحفظ نسخة العقد أيضا في خزانة المدخرات الغالية والثمينة الموجودة في غرفته أيضًا.

توجه لغرفته. وحين دخلها ، توجه إلى حيث الخزانة الحديدية التي كانت مفتوحة ، فوضع نسخة عقد الزواج الروحاني فيها وأغلقها وفق الإرشادات المصاحبة. وحين صار قرب السرير انحنى ورفع العلبتين اللتين سقطتا على الأرض لعدم كفاية المساحة المتاحة حينما وضع الدفاتر ، ووضعهما على الدفاتر ، ثم أخذ ينزع عن جسده ملابسه ، حتى صار عاريًا تمامًا.

توجه إلى غرفة الحمام القريبة من السرير. حين صار تحت الدش فتح صنبور الماء وأخذ يتحمم بالماء الدافئ. كان يفكر بذلك اللقاء الغامض مع أحدب نوتردام ، وأيضا بشجاعة إيفا ماجدولينا التي أخذت المبادرة في مسألة ارتباطهما ، وأيقن إنها امرأة صادقة ، ومن الصادق لا يمكن الخوف ، لكنها لم تعرف الكثير من تفاصيل حياته في ظهوره الأخير ، إذ عليه أن يحدثها عن نفسه أيضًا.

ملأ جسده بالشامبو وأخذ يستمتع بالماء الدافئ وهو ينعش

جسده..! وخلال تلك الدقائق سمع ضجيجًا يأتي من جهة الصالة. أوقف الدش فسمع حركة باب الثلاجة يُغلق ، ثم سمع ثمة خطوات تتجه نحو غرفته.

انتبه إلى أن هناك من دخل إلى الغرفة. أوقف صنبور الماء ، وخرج من كابينة الحمام. ارتدى برنسه الصوفي وغادر غرفة الحمام ، لكنه استغرب حين لم يجد أحدًا في الغرفة.

كان متأكدًا بأنه سمع باب الثلاجة يُفتح ويُغلق ، وسمع حركة جاءت من غرفته فخمن أنها إيفا ماجدولينا بالتأكيد. عاد إلى غرفته ، وتوجه إلى الحمام ثانية.. وحين صار تحت الدش ثانية فتح الماء الساخن أول الأمر ، ثم خفف حرارته إلى أن صار دافئًا. ملأ جسده بالشامبو ثانية. وخلال تلك الدقائق سمع ضجيجًا يأتي من جهة الصالة. أوقف الدش فسمع حركة باب الثلاجة يُغلق ، ثم سمع ثمة خطوات تتجه نحو غرفته.

انتبه إلى أن هناك من دخل إلى الغرفة.

هذه المرة كانت إيفا ماجدولينا. رأت الثياب المبعثرة على الأرض. عرفتْ إن آدم السيد في الحمام لكن لا صوت لدش الماء.. فأرادت التأكد ، ففتحت باب الحمام ..ووجدته عاريًا في كابينة الدش المفتوحة.

كانت هي في ثوب نومها الشفاف وجسدها كله واضح.. ظلا ينظران لبعضهما. فوجئت هي لأنها لم تره عاريًا وبالكامل ، ولا شعوريا نظرت إلى تحفته اللحمية شبه المنتصبة بين فخذيه ، فأعجبها شكله ، ارتبك هو لبرهة ، ووجدت نفسها تسألته:

- ظننتُكِ قد غادرتِ الجناح..؟

ارتبك هو ، لكنه تأمل جسدها الجميل شبه العاري تحت ثوب النوم الشفاف ، ونزلت عيناه إلى ما بين فخذيها ، فأخذت تحفته اللحمية بالانتعاظ والانتصاب شيئًا فشيئًا.. وقال لها:

- لا لم أغادر..

فقالت له:

- لقد خرجت إليك في الصالة فلم أجدك.. ظننتك غادرت.. لكني جئت أتأكد من وجودك في غرفتك إذا قلت لنفسي ربما هو نائم..

في هذه الأثناء اقتربت منه ، فمد يده إليها وأدخلها تحت الدش ، فاستجابت.. أدخلها تحت دش الماء بثوبها وفتح الماء الدافئ. ابتل جسدها الرشيق. وبهدوء نزع عنها ثوبها من جهة الكتف ، فتكوم الثوب على أرضية الحمام. ومسك وجهها بين كفيه. كان الماء يتدفق منصبًا على رأسيهما ومنسابًا على جسديهما ، وبهدوء انحنى على شفتيها وأخذ يقبّلها. في البداية قبّلها برقة ثم تصاعد إلى السخونة ، بل وأخذ يمص شفتيها ويلتهمهما ، ثم أخذ يقبّل وجها ، خديّها ، وعينيها ، وجبينها ، ورقبتها ، بينما وابل الماء ينساب عليهما من الدش.

ظلت هي لفترة رافعة رأسها بينما هو غارق بتقبيل عنقها الأملس الذي يشبه عنق الغزالة ، وانتبه لوجود خال على رقبتها من جهة اليمين فأخذ يقبّله ويلحسه ، ونزل يقبل كتفيها. وحين صار أمام نهديها أخذ يعصرهما بقوة ويمص ويرضع حلمتيها ، وبلسانه يدوره حول حلمتيها.

كانت هي مثارة بشكل كبير وأخذت تتأوه. كان دفء الماء قد أرخت جسديهما.. أوقف آدم السيد هطول الماء بإدارة الصنبور.

أخذ منشفة كبيرة ، ولفّها حوله ، واحتضنها ولفّ بقية المنشفة حولها ، وخرجا من الحمام.. توجها بهذا الشكل إلى السرير ، وبهدوء ألقاها على السرير..

صار نصف جسدها على السرير ونصف على خارجه.. وبهدوء جلس أمام السرير وفتح ساقيها على عرضهما وقربها من حافة

السرير.. وأخذ يتأمل كنزها ويقبله.

جرى كل شيء بهدوء ورومانسية لكن القوة في الالتحام الجسدي بدأ يتصاعد. فصعد يقبل بطنها ووصل إلى صدرها فأخذ يعصره بقوة شديدة. كانت هي تتأوه.. وسمعها تهمس له بين الآهات: أريدك..

تأوّها شبقًا. ودخل فيها بعنف وقوة ، رفع ساقيها وطواهما على بطنها ، ثم ألقى بنفسه عليها فأحتضنها واحتضنته.. أحاطت جسده بساقيها وذراعيها ، وهي تقول له:

- أحبك يا آدم.. أريد أن أبقى معك طول العمر.. فربما هذه عودتنا الأخيرة.

اجتاحتهما تيارات اللذة..وتدفق كلاهما بماء الروح كثيرًا ، وارتعشا كثيرا..إلى أن ألقى بنفسه إلى جانبها. فنظرت إليه بحب ، واحتضنها واحتضنته. اقتربت منه ووضعت رأسها على صدره وأخذت تداعب شعر صدره وسألته:

- أين كنتَ كل هذا الوقت!..

فقال لها وهو يقربها منه بقوة:

- كانت عودة غريبة وغامضة في هذا العصر والزمن المظلم..

ثم احتضنها مواصلًا:

- لا أملّ وأشبع من روعة وجمال جسدك.. لا أشبع منك...

- وأنا أيضا.. فأنت زوجي وحبيبي وابني.. معك ولدتُ من جديد.

ظلت مستسلمة ورأسها على صدره. كانا متشابكين بمحبة واسترخاء.

بقيا لدقائق طويلة وهما تحت تأثير النشوة الروحية ، إلى أن استعدل وهو في السرير.. ومد يده إلى أحد الدفاتر من مجموعة « دفاتر الجحيم» ، فقالت له:

- حبيبي آدم أريد أن أعرف عنك في تجليك هنا في هذا الزمن العاصف ، بعد ذلك نقرأ سوية الدفاتر التي حملتها معك من الرائد آدم عبدالسميع.

ضمها إليه بقوة ، وقال:

- أحبك منذ عصور سحيقة ، لكني صرت أحبك أكثر في هذا العصر..

ابتسمت وقالت:

- وأنا أيضًا.. أعلن إنني أحببتك منذ عصور سحيقة وأزمان مختلفة.. إنك الآن صرت زوجي روحيًا ، أنت الرجل الذي أرتاح وأشعر بالأمان الروحي والجسدي معه. أنت سري ولغزي العظيم.. أتعرف أنك تمنحني السعادة والقوة.. وجودك في حياتي مبعث فرح وسعادة.. أحس من خلال وجودك صرت أهدأ.. كنت أحس بالقلق وعدم الراحة في أعماقي.. كنت أخاف العالم لكن منذ لحظة دخولك في حياتي صرت أكثر صفاء روحيًا ، معك أحس بالنضج.. أحب أن أبقى معك ، فأنت لغزي الغامض.

واحتضنها واحتضنته. اقتربت منه ووضعت رأسها على صدره مجددًا ، وأخذتْ تداعب شعر صدره وسألته:

- أين كنت كل هذا الوقت!..

فقال لها وهو يقربها منه بقوة:

- سأحدثك عن كلِ شيء.

ثم راودته رغبة في أن يسألها:

- هل أنتِ سعيدة معي..؟

- نعم أنا لا أصدق سعادتي بوجودك معي..

- هل كنت سعيدة حينما كنت في هذا الزمان قبل أن نلتقي....

- لا.. كنت أشعر بالخيبة والخذلان وعدم الراحة.. لقد حدثتك عن ذلك!....

– والآن..

– الآن أنا بملئ إرادتي أريدك.. أشعر بنضج أنوثتي معك.. لأنك تحترم رغبتي ، تحترم كياني.. معك أشعر بالأمان والراحة والحرية.. كنت أحلم أن أكون مع رجل.. وليس أي رجل.. وأنما أنت. .أنت وحدك من أشعر بحريتي معه.. نحن روح واحدة.. أنت توأم روحي..

فاحتضنها بحب عميق.. واحتضنته. وشعرت بالأمان والراحة والسعادة.

وبينما هو يفتح الدفتر ، قرأ: «دفاتر الجحيم..الدفتر الأول..» ، لكنه قبل أن يبدأ القراءة تذكر حواره مع الأحدب وسأل نفسه: «أأنا فاوست حقا؟ أأنا الأحدب أيضًا؟ أحبيبتي إيفا ماجدولينا هي مارغريتا حلم فاوست ، وهي أسميرالدا الغجرية حبيبة أحدب نوتردام..!» . لكنه تجاوز هذه الأسئلة فها هي حبيبته تضع رأسها على صدره ، وهما عاريان في السرير ، وها هو يمسك بدفتر من « دفاتر الجحيم» التي وجدت في غرفة الرائد آدم عبد السميع!....

فجأة سحبتْ رأسها من على صدره ، واستقر ت مستلقية إلى جانبه وهي تنظر إلى السقف. وقبل أن يواصل القراءة ، قالت له:

– لماذا توجع رأسك بكل هذه الأشياء العميقة وتتوغل مثل غواص يبحث عن درر الأفكار والمعاني.. ما فائدة كل هذا.. ففي النهاية كلنا نموت.. والحياة تمضي ولا تعبأ بأحد!..

وضع « دفاتر الجحيم» جانبًا على السرير ، استدار بجسده نحوها. تأمل وجهها الطفولي وقال:

– أنت كمن يرى أمامه مشهدًا مخيفًا ، أو غابة مظلمة لكنه يعتقد بأنه يشعر بالأمان حين يغمض عينيه.. وهو لا يدري بأن العتمة باقية سواء نظر إليها أم أغمض عينيه ، وأنه في الغابة المظلمة شاء أم أبى!..

رفعت رأسها قليلًا إليه وقالت:

- أنا أخاف العمق..! لا أريد أن أفكر بشيء.. أريد أن أعيش اللحظة فقط. أن أفرح فقط!..

تأمل كلماتها مع نفسه ، ونظر إليها وكأنه يرى اضطراب أعماقها ، وقال:

- أن نفرح.. شيء رائع..

ظنت هي بأنها قد أقنعته بكلامها فقالت متحمسة لفكرتها:

- بصراحة. لا أريد أن أكون عميقة.. العمق متعب.. أحسه يكبّلني. أفضّلُ أن أكون سطحية.. وبسيطة.. على أن أكون عميقة.. حاولتُ معك أن أكون عميقة.. لكني أخاف العمق.. هو يربكني..

- تخافين العمق؟ هذا أمر غير محمود أبدًا.. يفترض بالإنسان أن يكون عميقًا.. كوني عميقة وليكن سطحك ساكنًا وصافيًا كالمرآة.. كسطح البحر فجرًا..

نظرت إليه بقلق وقالت:

- إذا تعمقت أحس بالقلق..

- على العكس.. كلما كنتِ أعمق ، سيكون بإمكانك تحمل أكثر الأشياء ثقلًا.. مثل البحر الذي يحمل أثقل السفن التي تعجز الأنهار أن تتحملها عمق البحر هو الذي يمنحه قوة التحمل!..

- لكن البحر مالح والنهر عذب!..

- مصير الأنهار أن تصب في البحر.. والغيم .. بل والمطر هو ابن البحار والمحيطات.. ثم إنكِ جئت فندق باب السماء من أجل أن تجدي نفسك.. أن تجدي إيفا ماجدولينا ، أي إنك تتوغلين عميقًا في ذاتك.. تريدين أن تعرفي من أنت ، إلى جانب إنك قلت جئت تبحثين عن أختك!....

صمتت للحظات واكتسى وجهها حزن شفيف وقالت:

- مع أن رغبتي هي معرفة نفسي لكني أخافها.. يتعبني التفكير

العميق..؛ أريد أن أكون سطحية لكن صافية وواضحة كالمرآة؛..

- لكن عمق المرآة في سوادها الخلفي.. كلما ازدادت كثافة المادة السوداء خلف زجاج المرآة.. كلما كانت أشد صفاء ووضوحًا.. سواد خلفية المرآة هو عمقها اللامرئي؛..

صمتت للحظات تتأمل كلماته ، ثم قالت:

- سأكون صريحة معك.. العمق يكبلني.. يدفعني إلى أن أحاسب نفسي على تصرفاتي العفوية التي تعودت عليها.. العمق يجعلني أقبض على نفسي وتصرفاتي متلبسة.. وانتقدها.. ويدفعني للتوتر.. والكآبة.. أريد أن أكون سطحية وهادئة؛..

نظر إليها متأملًا وسألها بحيادية:

- إذن لماذا أنت هنا معي..؟ عودي لعالمك السطحي واحتفي به كما تشائين..

ارتسمت ملامح المفاجأة على وجهها وكأنها صُدمت ، ثم قالت:

- لا ..لا ..لا تأخذ كلامي مأخذ الجد.. أكون سخيفة أحيانا وأقول أشياء من دون تبصر.. أريد أن أكون معك..

- لكنك قلت غير ذلك..

- لا أدري.. أنا لا أعرف نفسي؛..

فجأة جلس على السرير ، ثم غادره.. ارتدى برنسه.. وتوجه إلى الصالة. بقت إيفا ماجدولينا وحدها في الغرفة.. وشعرتْ بأنها في موقف الاختيار؛..

★★★

حين صار آدم السيد في الصالة توجه إلى الثلاجة. حين فتحها وجدها فارغة. أغلق باب الثلاجة فرن الهاتف.. شعر بالحيرة.. لم يأخذ سماعة الهاتف.. بل سارع بمغادرة الصالة والتوجه إلى غرفته. حين صار عند الباب توقف رنين الهاتف.

دخل الغرفة مرتبكًا ، لكنها لم تنتبه كثيرًا لارتباكه ، بيد إنها سألته:

- وكأني سمعت رنين الهاتف؟ هل رن فعلًا؟

- لا.لا. لم يرن.. لقد خُيل إليكِ ذلك..

استلقى إلى جانبها. وضعتْ رأسها على صدره. مد يده وأخذ الدفتر الذي كان قد وضعه جانبًا ليقرأ.. فأوقفته قائلة:

- حبيبي آدم... أريد أن أعرف عنك في تجليك ، وعَودك خلال هذا الزمن العاصف ، بعد ذلك تقرأ لي الدفاتر التي حملتها معك من الرائد آدم عبدالسميع.

نظر إليها بحب وحنان ، وقال:

- سأروي لك كل شيء!..

- وأنا استمع إليك..

★★★

- قبل أن أحدثك عن حكايتي في هذا الزمان ، وعن تفاصيل هذا الجسد الذي تسكن فيه روحي الآن في هذا العصر ، سأقول لك شيئًا ربما أنت قلته بشكل عفوي قبل قليل. لكني تأكدت منه ، لاسيما منذ لحظة أن رأيتُك وأنتِ تدخلين الفندق.

كانت قد استدارت نحوه واتكأتْ على قبضة يدها وهي تنظر إليه. وأخذها الفضول حين ذكرّها بجملة قالتها قبل قليل بأن تعرف ما قالته وأثاره بهذا الشكل. فسألت:

- ماذا قلتُ..؟

ابتسم لها بمحبة كبيرة وقال:

- قلتِ: «نحن روح واحدة.. أنت توأم روحي.“

فنظرت إليه بعينين تفيضان بالحنان الأمومي وقالت بنبرة فيها خجل:

- نعم.. هذا إحساسي العميق..

- وهذا ما أشعر به أيضا.. شخصيًا ، تعمقتُ في الفكر الفلسفي والعقائد الدينية للبشر على هذه الأرض منذ فجر التاريخ.. هل سمعت يوما بتوأم الشعلة؟

- سمعت عنه..

جلس على السرير متكئا بظهرة على عارضة السرير بينما ظلت هي مستلقية وتنظر إليه ، فواصل:

- الروح هي نفحة من نفحات القدير.. العدم العظيم.. إنها لهب الإله.. ونفحته الأزلية.. هي شعلة العدم ، ولغز الوجود.. وهي الروح عند الهندوس والبوذيين والصينيين متشكلة من نصف ذكوري يسمى «اليانغ» ونصف أنثوي يسمى «اليينغ» ، وكثيرًا ما تتوزع هذه الأنصاف على عدد البشر.. حيث تفتقد الروح نصفها الآخر.. توأم الشعلة..! اللاتينييون قبل عصور أطلقوا على هذا التوأم اسما آخر.. (أنيموس) و(أنيما).

ثم جاء مفكرون عباقرة في تحليل النفس البشرية مستخدمين هذين المصطلحين ، وهما الاسمان اللاتينييان للذكر والأنثى ، وعادة ما يمثل صورة الروح على هيئة الجنس المخالف لجنس الفرد. صورة الروح لدى المرأة هي مذكر (الانيموس) ، صورة الروح لدى الرجل هي مؤنث (الأنيما)..

أتعرفين.. حين رأيتك رأيت كل تجلياتي السابقة عبر العصور.. ورأيت توأمي فيك.. نصفي الآخر.. وانسجمت معك بسرعة مذهلة ومن دون مقدمات طويلة.. انجذبت إليك مثلما تنجذب الكواكب لشمسها وتدور حولها.. في وجهك رأيت ذاكرتي وتجلياتي.. ووجدت نفسي تكتمل وتنسجم مع الكون كله سواء خارج الفندق أو داخله.. حين حدّقت في عينيك رأيت نفسي.. وراودني خاطر بأني أعرفك.. ورأيتكِ.. مع أننا في هذا الزمان وهذا العصر نلتقي للمرة الأولى.. ومن أول حديث لنا انسجمنا وتداخلنا.. أتعرفين..

لا يمكن لأي منا أن يجد تؤأما آخر له في هذه الحياة.. و

سر هذا أن العدم العظيم شكل هذه الروح بلغزه العظيم وقسمها إلى نصفين ولا يمكن لأي نصف في هذه الحياة أن ينسجم ويتماهي ويمتزج مع نصف غير توأم شعلته.. لذا نحن كنا معا منذ آلاف السنين.. وفي كل عَود لنا نتقابل أنا وأنت.. وحتى لو مررنا في العصور المختلفة بتجارب مع آخرين فهؤلاء ليسوا توأم شعلتنا ، وإنما هو جزء من بحثنا عن نصفنا الآخر الحقيقي ، توأم شعلتنا.. وحين يلتقي التوأمان فلا ثالث لهما.. ويستحيل أن يفترقا. وإذا ما حدث تحت ظروف قاهرة أن يفترقا فكل منهما سيبقى تائهًا في طرقات الحياة.. وسيكون عليلًا ومريضًا نفسيًا طول العمر.

كانت إيفا تستمع إليه بانتباه شديد وكأنه يزيح الستارة عما يجري خلف نافذة أعماقها.. صارت الأشياء أكثر وضوحًا.. فكل ما تحدث به عن تؤام الشعلة عاشته منذ أول لحظة رأته فيها.. لكنها أرادت أن تستزيد منه ، قبل أن يتحدث عن نفسه ، فسألته:

- وكيف لي أن أتأكد من إن مَن أراه هو توأم شعلتي؟

نظر إليها بحنان ، ومد كفه ليداعب شعرها الجميل ، وقال:

- أول علامة تؤكد لك إن المقابل هو توأم شعلتك.. هو انجذابك الرهيب نحوه ، بحيث تشعرين بأنك تعرفينه جيدًا.. جيدًا.. علمًا إنك ستسألين نفسك عن سر هذا الانجذاب ، إذ لا يوجد سبب مقنع وراء هذا الانجذاب ، لاسيما وهذا يجري بسرعة شديدة بحيث يدفعك للشكوك لسرعة العلاقة والانجذاب..! بل لا يقتصر هذا الانجذاب على شعور عابر ، وإنما يتفتح عن مشاعر حب عميق ، بل ستحسين بأن توأم الشعلة هذا يوقظ فيك كل قواك الإبداعية.. ويدفع بك إلى شواطئ بحار المعرفة.. فتحسين بأنك تتعرفين على نفسك أفضل.. وتثقين بها أكثر..

وحين التقيتك.. عرفت إنك توأم شعلتي.. فقد أدركت إنني قد التقيتك وعرفتك منذ عصور سحيقة.. لذا حين رأيتك أدركت إنك لست غريبة عني.. فأنت وطني وملجأي ونصفي الآخر.. وهذا ما أدركته منذ أن رأيتك..! فحين تتمعنين في حياتك في أي عصر من تلك العصور التي تتجلى الروح فيها تجدين حياتك تبدأ بشكل حقيقي من لحظات اللقاء بتوأم شعلتك..!

مع تؤام شعلتك ستجربين أحاسيس جديدة.. وتقومين بأشياء لم يطرأ في ذهنك بأن تفعليها يومًا ، لكنك معه ستتجاوزين كل المنظومات الأخلاقية لتتصالحي من روحك من أجل تحقق الانسجام مع نصفك الآخر...بل وفي كل عصر تعيشينه.. ما أن تقابلي توأم شعلتك حتى تجدين نفسك عاشقة عظيمة.. وتلقين بنفسك في نهر الحب الخالد من دون حذر لسرعة التيار أو مخافة الغرق.. بل إن حبك يتعمق يومًا بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، وبقوة وبشكل كبير جدًا!

نظرت إليه بعيون مترعة بالحب والحنان وقالت بما يشبه الهمس:

- أنتَ تتحدث عن نفسك ، لكن وكأنك تتحدث عني.. هذا ما حدث معي حين التقيتك!..

انحنى عليها وقبل جبينها وعينيها وقبلة خفيفة على شفتيها ، ثم رفع راسه وواصل:

- لقد انقشعت غيوم الوهم تحت شمس الحقيقة بعد اكتشاف توأم الشعلة.. كان عليّ أن أتجاهل كل الشرور.. ولا أقتدي إلا بنور الجمال بحثا عنكِ.. بيد إن نور الجمال الذي تتبعته قادني إلى كهوف الشك بكِ.. ولأن نور الجمال هو الذي قاد روحي التائهة ، لذا خرجت من عتمة الكهف متجهًا نحو توأم الشعلة ، حيث وجدتكِ.. كل تفاصيل حياتي السابقة تافهة.

لا أريد الجنس بديلًا عن الحُبّ ، ولا أريد الحُبّ حينما يكون مزيفًا ومزاجًا عاطفيًا مريضًا...نحن هنا في عالم الأروح.. لكننا نحتفظ أيضا بروحنا الحيوانية إلى حد ما لأننا في المطهر ، لأننا ربما أنا وأنت في الحد الفاصل أو الجسر بين عالم الروح وعالم الجسد.. أتعرفين...؟

- ماذا..؟ قالت بانتباه شديد.

- روح الإنسان هي قبس ونفحة وشعلة من الروح المطلق.. وهذا القبس أو الشعلة يمر بتجليات من البداية المطلقة للروح حينما نفحها القدير من ذاته.. لكنها منذ لحظة التكوين توجد مع توأمها.. هذه النفحة لا علاقة لها بالزمان والمكان ، هي موجودة كجوهر حر لأن الروح المطلقة جوهر حر بذاتها ، خارج التوصيف والسؤال عن ماهيته.. لكنها منذ لحظة إرادة الجوهر المطلقة والروح المطلقة بتجلي هذه النفحة في الكون والوجود فأنها تنقسم إلى قسمين.. أنثوي وذكري.. أنا قسمك الذكري وأنت قسميّ الأنثوي.. أنت أنا.. أنا ناقص وأكتمل بك..

نظرت إليه بحنان وتساؤل وقالت:

- واصل!..

انحنى وقبلها على جبينها وواصل:

- حينما تجلت إرادة الروح المطلق أن تنفح روحًا فهذه النفحة تندمج بالكون من خلال الجسد الطفل ، وتتعرف على الزمان والمكان وتندمج في بيئتها ، لذا تتخذ سمات المرحلة والعصر والبيئة. بل حتى من ناحية الأبعاد الفيزيائية تتحول هذه النفحة عبر الطفولة والشباب والنضج.. والشيخوخة.. لكنها تبقى ناقصة.. وتظل تبحث عن كمالها في الآخر.. وتظل ما بين اليقظة والنوم.. ففي النوم تفقد هذه النفحة.. هذه الشعلة مضمونها الوجودي لتعود إلى جوهر الروح المطلق ، وفي اليقظة تظل تبحث

عن توأمها...

نظرت إليه نظرة فيها فضول ورجاء وقالت:

- حدثني عن نفسك ياآدم.. حدثني عن تجليك في هذا العصر.. أنت متجسد في هذا الزمان أيضًا.. فحدثني عنك!..

مرر كفه في شعرها وتسريحتها التي يحبها جدًا، وظل يداعب بكفه شعرها ويرتبه بأصابعه، ثم واصل قائلًا:

- كنت قبل عودتي هذه معك أتذكرين؟

رفعت رأسها متلفتة إليه قليلًا وسألت:

- معي؟ بالكاد أتذكر ذلك.. أخبرني.. ذكّرني..

- أتذكرين حين كنتِ مرجعًا أعلى لإحدى الديانات في روما خلال عصر من العصور.. لكن لم يكن أحد يعرف بأنك امرأة.. مُنحتِ أعلى درجة دينية.. كنتِ مذهلة في علمك وخلقك.. وكنتُ حبيبك وزوجك السري. لكنك قُتلت وحرقت حين تم اكتشاف أمرك.

- كيف؟ كيف تم اكتشاف أمري.. ولماذا قمتُ بهذه المغامرة؟

- أنت إنسانة طيبة.. وذكية.. وكانت السلطات الدينية تهيمن على حياة البشر وتحرق النساء الذكيات والمتمردات والرافضات لهيمنة السلطة الدينية، بحجة إنهن ساحرات أو مسكونات بالشياطين.. وكنتِ تريدين انقاذ النساء.. وكانت لديك فكرة عبقرية بأن تتخفي في هيئة رجل.. وتدرسين اللاهوت، من أجل الوصول إلى موقع السلطة والقرار الديني لتنقذي الناس عامة والنساء خاصة من ظلم وهستيريا السلطات الدينية. لكننا كنا نعشق بعضنا.. وتزوجنا زواجًا روحيًا.. وعشنا سوية..

كنت أتسلل إليك في آخر الليل، أو كلما تتاح لك الفرصة.. كنتِ تتحينين الفرص، فتذهبين إلى بيت مخصص لك لكي تستريحي.. فكنت أصل إليك بأية حجة.. مرة كأستاذ، ومرة كسكرتير ومرة

كبستاني.. ونعيش سوية كأي زوج وزوجة.. وكنتِ ممثلة مختلفة جدا للسلطة الدينية.. كنت قريبة من الناس.. من الشعب.. من الرعاع!...

– من الرعاع..؟ سألته مستغربة..

– نعم ..رعاع.. لأنهم كانوا يتبركون بك ويمسّون الحصان الذي كنت تمتطيه.. هؤلاء الذين كان يقتربون منك ويحيطون بك ويسدون الدرب أمامك ورعا وتبركا ، هؤلاء من زحمتهم أرعبوا جوادك.. فقام فجأة على قوائمه ، وسقطتي أنت على الأرض. ولكن من سوء حظك كنت في ذلك اليوم تمرين بدورتك الشهرية.. وانّكشف ما بين فخذيك واكتشف الناس كونك امرأة..!! ورفعوا قلنسوة الرأس عنك فرأوا شعرك الجميل الذي أنسدل ليكشف عن أنوثتك..فانقلب هذا الحشد الذي كان يقدسّك ويطلب منك البركة قبل لحظات إلى وحش كاسر.. فسحقوك بالأقدام وجروّك إلى ساحة المدينة.. وحين أردت الدفاع عنك ألقي القبض عليّ ودفعوا بي إلى زنزانات مرعبة في قاع المدينة التي تبدو فوق سطحها بأنها مدينة للتسامح والسلام.

– لا أذكر ذلك.. يبدو كل شيء ضبابيًا..! قالت ذلك وفي عينيها تيه وكأنها تحاول أن تستعيد تلك التي كانتها..! ثم سألته:

– وماذا بعد؟ أنت لم تحدثني عن نفسك!..

– حياتي غريبة إلى حد ما.. لكنها ممتعة.. انجبتني امرأة طيبة جدًا.. تعلمت دروس الطيبة منها.. وأبي كان رجلًا يعشق الحياة والنساء.. ولدي أخوان اثنان يكبرانني وأخوات ثلاث.. قيل لي نحن كنا اثني عشر أخًا وأختا. وأنا كنت آخر العنقود ، لذا كنت مدللًا. لكنه دلال العائلة الفقيرة.. لا يمكنني الخوض في التفاصيل كلها.. لذا سأقف عند المنعطفات الرئيسة من هذه السيرة للروح والشعلة في عصرنا هذا... اتعرفين.. منذ طفولتي مررت بتجربة جنسية

غريبة.. كان عمري ما بين الخامسة والسادسة.

- ماذا..؟ سألت بتعجب..

ابتسم ابتسامة حزينة وقال:

- الجنس ياإيفا ، كما تعرفين ، هو اندفاع غريزي قوي ، طاغ ، وغامض ، وأكثر بكثير مما يظنه المفكرون والمُفسرون وعلماء الاجتماع والتحليل النفسي. هو مثل مارد المصباح السحري الذي ظل حبيس القمقم.. ، لكنه أيضا حبيس المحرم والأديان والشرائع. في الجنس تعود الروح الواعية إلى طفولتها الأولى حيث تندمج وتتماهى مع الطبيعة ، لكن على مستوى الجسد البايولجي ، فعند لحظة الرغبة والشبق الجنسي تنهار كل الأحاديث عن الفضيلة والأخلاق وكل الكلام الرومانسي إلى مستوى حيوانية الشهوة المتأججة ، فيتحول الذكر إلى ثور هائج والأنثى إلى قطة شبقة أو كلبة تتوسل الاختراق.

بيد إن الروح في تجليها تبحث عن الاكتمال ، تبحث عن توأم الشعلة ، لكن من خلال الجسد أيضًا.. فالرغبة الجنسية هي أوضح تجسيد عن النقصان والبحث عن التكامل.. فالإنسان لن يكون مكتفيًا بذاته ، أنما يحتاج توأمه لتكتمل لحظة التماهي..

الجسد البشري في الجنس هو التجسيد للروح الحيوانية.. الروح الواعية في تجليها وبحثها عن توأم الشعلة هي تريد تجاوز الخوف من الوجود.. وهذا الخوف والتوق إلى الكمال هو الذي يجعلنا نلوذ إلى بعضنا. بحثنا عن توأم روحنا هو تجسيد لتيهنا وضلالنا في دروب الحياة ومتاهة الوجود. لذا نحن في عوَد أبدي.. وكل ما نقوم به يكتسب قيمته في الجوهر لأنه يجسد توقنا إلى الكمال من خلال الاندماج مع توأم الشعلة ، أي كل أفعالنا وتجسيدات شعلتنا هي تكرار من أجل الاكتمال..

حين رأيتك أدركت كل تجلياتي السابقة عبر العصور.. ورأيت

توأمي فيك.. نصفي الآخر.. وانسجمت معك بسرعة مذهلة ، ومن دون مقدمات طويلة.. انجذبتُ إليك مثلما تنجذب الكواكب لشمسها وتدور حولها.. في وجهك رأيت ذاكرتي وتجلياتي.. ووجدت نفسي أكتمل وانسجم مع الكون كله سواء خارج الفندق أو داخله.. حين حدّقت في عينيك رأيت نفسي.. وراودني خاطر بأني أعرفك.. فأنت أنا. .مع أننا في هذا الزمان والعصر نلتقي للمرة الأولى.

رفعت رأسها عن الوسادة قليلا وقالت له:

– يسعدني جدًا سماع ذلك.. أحسّك تتحدث عني أيضًا.. لكني أراك تتهرب من الحديث عن تجليك المعاصر.. وما جرى لك في طفولتك..!

نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة مرتبكة وقال:

– طيب.. حدث ذلك حينما استأجرت عائلة مكونة من زوج وزوجة غرفة في بيتنا المؤلف من أربع غرف.. كنت حينها ما بين الخامسة والسادسة ، وعلى الأكثر في الخامسة ، وحدث ذات ظهيرة في الصيف.. حين كانت العائلة نائمة.. أخي الكبير كان خارج البلاد هاربًا من الحكم الفاشي ، والأخ الآخر كان مع أصدقائه يقضون منتصف النهار إلى العصر يسبحون في النهر الذي يحيط المدينة.. وأخواتي الكبريات يعشن في مدن قريبة ، واحدة مع زوجها وأخرى أرملة تعيش مع بناتها عند أهل زوجها الراحل ، ولم يبق غير والديّ وأختي ، وكلهم ينامون عند الظهيرة في الغرفة المبردة..

المهم.. أذكر أنا الوحيد الذي لا يأتيني النوم... في أحد تلك الأيام الصيفية.. كنت في باحة البيت فجاءت جارتنا ، وكانت سمينة ، بل ومترهلة بشكل مفرط ، وأخذتني من يدي إلى غرفتها ، قائلة بأنها ترد أن تعطيني شيئًا. فذهبت معها إلى غرفتها طائعًا ، وهناك أعطتني قطعة نقدية صغيرة ، لكنها بالنسبة لي كانت

ثروة. وأخذت كفي وطلبت مني أن أمدها بحيث يكون إبهامي قائما إلى الأعلى. وأدخلت كفي إلى ما بين فخذيها الذي كان أملسًا.. ثم انتبهت إلى أنها أخذت ترتجف.

لم أكن أفهم شيئًا ، لم يستمر الأمر طويلًا.. ولم أفهم ما جرى بالضبط. بعد ذلك أخرجت يدي وطلبت مني ألّا أخبر أحدًا عما جرى ، وأنها ستعطيني قطعة نقدية أخرى إذا ما سكتُ. وسكت.

وبعد أسبوع أو فترة قصيرة لا أتذكرها الآن بالدقة ، وفي يوم كانت أمي وأختي فيه مسافرتين إلى مدينة قريبة تعيش فيها إحدى أخواتي لحضور عرس لأحد أقربائنا ، حينها وفي الظهيرة أيضًا ، أخذتني من يدي إلى غرفتها ، لكن هذه المرة لم تكتف بكفي وإبهامي ، وأنما أجلستني على الأرض ورفعت ثوبي وداعبتني حتى انتعظت.. وجلست مفتوحة الساقين قبالتي ، وأخذت ذلك الطفل الصغير الذي كنته كعصفور صغير وأدخلته هناك.. صحيح أنني كنت صغيرًا في ذلك العمر لكن معرفة ما جرى لم يكن بعيدًا عن فهمي.

المهم. حدثت الكارثة حينما زارتنا أختي الأرملة ، وذات مساء كانت أمي وأخواتي يتحدثن في سهرتهن ، وطرق سمعي حديثهن عن جاراتنا السمينة والمترهلة وزوجها الذي أشبه صورة له هو عود الثقاب. ومن باب المزاح الذي يكشف عن كبت جنسي تحدثت أختي عن حياة جارتنا وعلاقتها بزوجها وكيف يكون مشهدهما ، فتهورت وصرخت متحدثًا بما جرى معها...

أذكر أن أمي أنبتني على كلامي البذيء واعتبرت ذلك قلة أدب مني ، فكنت أؤكد لهم بأن هذا جرى فعلًا ، وكلما أكّدتُ على ما جرى كلما إزداد تأنبيها وتعنيفها اللفظي لي ، فأخذت أبكي لأنه لا أحد منهم صدقني..وصرتُ أصرّ على كلامي..فرمتني أمي بالنعال ، فهربت وصعدت إلى سطح الدار وارتميت على فراشي ،

إذ نحن كنا ننام على السطح ، لكن بعد قليل من ذلك صعدت أختي الأرملة واقتربت مني وبلطف أخذت تحدثني إن كان صحيحًا ، ورويت لها الأشياء بالتفصيل.

في اليوم الثاني تأخرتُ في النوم. لكني حين صحوت كان الزوج والزوجة يحملان ما تبقى من أثاثهما بصمت ، وفيما بعد عرفت بأن أختي أخبرت أمي بأن ما رويته كان صحيحا وأنها استغلتني ، وأن أمي طلبت منهما مغادرة الدار وإيجاد أي سكن آخر.

ابتسمتْ إيفا ماجدولينا وقالت بمزاح وبنبرة فيها مكر نسوي محبب:

-لكن يعجبني أن أعرف تجربتك مع المرأة!..

ابتسم لها بمودة وقال:

-أنا بطبيعتي أحب المرأة وأحترمها.. فهي تجسيد مباشر أو غير مباشر لأمي.. لأمي الطبيعة قبل أن تكون تجليًا لأمي البايولوجية.. والطبيعة أنثى ، والطبيعة أمنّا الرؤوف ، فهي امتداد لتجليات القدير وإرادته.. لكننا كثيرًا من نجوب في وادي الظلمات بحثا عن شعلة النور.. نصف الشعلة في أعماقنا ، لكننا نبحث عن توأم الشعلة. ويحدث أن يلتقي الرجل بالمرأة وتلتقي المرأة بالرجل.. وكل يبحث عن توأمه.. وكثيرًا ما نخطئ في تشخيص ذلك.. فقد نقابل شخصًا ونعتقد أنه نصفنا الآخر.. لكن يتضح زيف اعتقادنا.. فيصير ذلك الآخر كابوسًا.. وهذا ما صار معي في بحثي عنك!..

قالت له بنبرة تشي بفضول واضح:

-كيف؟

صمت للحظات ثم واصل وكأنه يسترجع كابوسًا:

-بالمناسبة.. ليس كل الرجال أو النساء يبحثون عن توأم روحهم ، فبعضهم لا يعي معنى ذلك.. البيئة وظروف الحياة

والعقائد الدينية تقمع أي نبض للروح ، وتسحق أحيانا بطريقة قاسية وأحيانا ناعمة أية خطوة نحو وعي الذات.. فيظن بعض الأزواج ، أو حتى العشاق ، بأن من تزوجوا أو أحبوا هو شريكهم الروحي وقدرهم.. لكن الأمر ليس كذلك في الغالب الأعظم من علاقات الناس..! وهذا أحد جوانب محنة الوجود!..

فقالت له بنبرة فيها عتاب وتأنيب:

-حدثني عنك.. لماذا تتهرب عن الحديث..! أحب أن أعرف تجربتك!..

فقال وهو يبتسم:

-لا أتهرب.. وأنما أتحدث عن خلاصات التجربة ، من حيث أن ما أرويه هي أحداث مؤسفة كشفت لي عن طبائع وسلوك بعض البشر.. حتى أيقنت إن الغدر والخيانة سمة في البشر..! الذئب في داخلهم ، مهما بدوا في مظهر الحمل أو الخروف ، ومهما تحدثوا كلاما شاعريًا عن الوفاء والفضيلة والحب الأبدي ، وهذا ليس بغريب.. فالكثير من الفلاسفة نظروا إلى الإنسان كذئب غادر يقتنص الفرصة كي ينقض عليك..!

بعضهم نظر إليه كقطيع من الخرفان الطائعة ، بل إن أحد مفكري هذا العصر قال بأن معظم الناس يبدون كالسائر في النوم أو كأطفال مستيقظين ، لا يترددون في تسليم أمرهم لمن يتكلم بصوت عذب ، أو حتى لمن يهددهم بما يكفي للسيطرة عليهم ، ومن يتمرد على القطيع يُطرد أو يُنبذ ، ويكون موضع سخرية معاصريه أو موضع شكهم وتشويههم لسمعته ، بينما يمكن أن يقدس ويمجده الناس بعد قرون..!..

نظرت إليه باستغراب وسألت:

- أيقنت إن الغدر والخيانة سمة البشر؟

- نعم..الغدر الخيانة..!..

- وكيف جرى ذلك..؟

صمت للحظات، ثم واصل قائلا وهو ينظر إلى أفق وراء المكان:

- ارتبطتْ عائلتي سياسيًا باليسار.. أخي الأكبر كان من مؤيدي الحزب الشيوعي، وحين حدث انقلاب عسكري فاشي على الحكومة آنذاك، فاعتقل أخي فيمن تم اعتقالهم، وسجن، ولأنه لم يكن مهما، فقد أخرج من السجن على أن يكون تحت الرقابة والإقامة الجبرية، لكنه استغل الوضع وهرب خارج البلاد...وعلى إثر ذلك عانت العائلة من مضايقات ما سمي حينها بالحرس القومي، فقد كانوا يداهمون بيتنا فجرا مفتشين عن أخي الأكبر.. وكانوا يهددون أبي.. فكان يضطر إلى رشوتهم. وكثيرا ما كان يستدين المال لرشوتهم وشراء صمتهم وعدم مضايقتهم لنا. كانت سمعة العائلة في المنطقة قد شاعت بأنها عائلة شيوعية..! وهكذا ترعرعت بميل لا واع لليسار والشيوعية.

حين كنت في الثانوية بدأت أول خطواتي في المجال السياسي.. وحين دخلت معهد الفنون الجميلة بدأت بشكل أكثر وضوحا وتنظيما بالعمل في التنظيمات الطلابية لليسار العراقي والتي لم تكن رسمية وعلنية.. وحدث أن أقيم احتفال بمناسبة سياسية في بيت أحد الزملاء..

وحدث إن جلست إلى جانبي امرأة في بدايات الثلاثين، واتضح أنها أخت المضيف للحفل.. وهي طالبة دكتوراه تدرس في أحد البلدان، التي كانت تسمى اشتراكية آنذاك، وقد جاءت لإنجاز الجانب التطبيقي لأطروحتها في الإدارة. وكان لا بد في ذلك الجو الاحتفائي أن نبدأ بالحديث، ولأني لا أحب الصخب، ولأنها أرادت أن تدخن خارج المكان فخرجنا إلى حديقة الدار وبدأنا حديثنا عن الأدب والشعر.

وحدث استلطاف وانجذاب بيننا ، واتفقنا أن نتواصل ونتبادل الكتب.. إلى أن قالت لي ، ذات يوم ، بأنها تحتاج رأيي في أمر مهم وخطير بالنسبة لها..! والتقينا في حديقة الزوراء.. فأخبرتني بأن هناك زميلا ممن يدرسون معها في البلد الذي تدرس فيه يريد التقدم إلى أهلها لخطبتها ، وقد حدثها عن نيته في الأمر.. استغربت أن تعتبر ذلك أمرًا خطيرا ، بل باركت لها أول الأمر.. لكنها ردتني قائلة إنها في ورطة.. وحين ألححت عليها بالحديث ما دامت تريد رأيي ، فأخبرتني بأنها ليست عذراء ، وأن لديها عشيق من دولة عربية ، ولا أحد من زملائها العراقيين يعرف بذلك.. وإذا ما حدث وإن تزوجتْ منه فستكون فضيحة لا أول لها ولا آخر ، على الرغم من أن زميلها يدرس الدكتوراه أيضا..وأهلها رحبوا بالأمر! طبعا..

كنت بريئًا في الثامنة عشرة وهي في الرابعة والثلاثين.. كنت رومانسيا ثوريًا ، لا أعبء بالمجتمع ولا بكل منظومته السياسية والأخلاقية ، لذا وكمن يقف على الشاطئ ويرى شخصا يرمي بنفسه في الماء يريد الانتحار ، فيلقي هو بنفسه أيضا لإنقاذه.. فيغرق هو..

نظرت إليه نظرة مترعة بالتعاطف والحنان وقالت:

- كان عليك أن تصمت وكأنك لم تسمع ما قالتْ ، أو تتجاهل الأمر وكأنك لم تفهم.. لكن القلوبَ النبيلةِ لا تقدر على ذلك!..

أحس بدفء كلماتها وحرارة مشاعرها ، وغمرته مشاعر حب فياض نحوها ، وواصل قائلا:

- هكذا كنتُ أنا ، إذ اقترحت عليها ببساطة أن أعقد عليها رسميا في المحكمة ، وأتزوجها صوريا ، وحين تغادر راجعة إلى البلد الذي تدرس فيه ننفصل ، وتكون هي حرة من ورطة غشاء البكارة..! فيما بعد فكرت إنه كان الأمر بسيطا جدًا هي أن تعتذر

لزميلها عن قبول الخطبة..! لكن كما يبدو أغواها شبابي ، فتشبثت هي بمقترحي المتهور..!!. وقامت الدنيا ولم تقعد.. دخلت في صراع مع أهلها ، وغادرت منزلهم إلى بيت أختها المتزوجة من رجل ريفي ثري لا تطيقه العائلة التي كانت تنظر إلى نفسها كعائلة أرستقراطية..يسارية.!!..

في تلك الفترة ساقتني الحكومة إلى الخدمة العسكرية ، وتنقلتُ بين أكثر من عشرة معسكرات بسبب ميولي اليسارية السابقة. المهم.. كنت حين أحصل على إجازتي الدورية ألتقيها في بيت أختها ، وحدث ذات مرة أن طلبت مني المبيت ، ولأنها كانت أجرأ مني ، لذا بادرت بتقديم أفراح الجسد ومائدة المتعة..!

لكن الغريب في الأمر أنها كتبت إلى جامعتها لتمدد من أمد فترة التطبيق لعام دراسي ، وأظن أنها أرادت أن تمتص رحيقي..! وأخذت تعمل في دائرة حكومية على شهادتها في الماجستير..

المهم.. حدث بعد تسريحي من الجيش إن بحثتُ عن عمل ، وكانت البلاد تعيش توترًا سياسيا عنيفًا ، فقامت هي بسؤال أحد أصدقائها ، الذي أبدى استعدادا كاملا لمساعدتي ، واتفقت معه على اللقاء في مقهى يقع في بداية واحد من أهم شوارع بغداد..! لكن ما إن خرجت من المقهى حتى أُعتقلت. كانوا ينتظروني ويترصدوني!..

في دائرة المخابرات ، وبعد سيل من التهم ، أخذوا يسألونني عن أشخاص لا أعرفهم حقا ، لكنهم يعتقدون بأنني صامد وعنيد ولا أريد التعاون معهم.. وعُذبت بطريقة وحشية!..

كانت علامات التأثر بادية على وجه إيفا ماجدولينا. ظلت تنظر إليه متأملة كم العذاب الذي عاناه ، وقالت:

- ياللوحوش!..

نظر إليها بحنان وواصل:

- أُلقيت بعد فترة عند باب البيت.. ومنذ تلك اللحظة اختفيت في بيت أخت لي.. وبعد أن شُفيت أخذت أتنقل بين المدن إلى أن قُدر لي أن أعبر الحدود إلى بلد مجاور ومن هناك وصلت إلى بلد ثالث.. ومن هذا البلد الثالث ، وبدعم من القوى العراقية المعارضة ، حصلت على منحة دراسية إلى أحد بلدان أوربا الشرقية.

- وماذا عنها؟ سألت بفضول.

- هي رحلت إلى شمال أفريقيا مع أختها وزوجها الذي كان مقاولا وتعاقد مع إحدى شركات المقاولات في ذلك البلد ، وهكذا..! وحدث أن التقينا في صيف ذلك العام في عاصمة أحد بلدان أوربا الشرقية. كنتُ قد تواصلت معها قبل أشهر حول موعد اللقاء فحددت تاريخا معينًا.. لذلك تمسكتُ بذلك ووصلت قبلها بأيام..وحين وصلت اتصلت بها لأعرف موعد موصولها ، لكنها اعتذرت بأنها لا يمكن أن تصل في الموعد المقرر لأسباب تخص الفيزا ومواعيد الحجز..وحدّدت موعد وصولها في يوم هو الرابع قبل انتهاء اجازتي..!

لكن حدث إن اِلتقيت مصادفة بصديق عزيز علي كان معي في فترة الخدمة العسكرية ، وكان يساريا مثلي ، وعشنا لأكثر من عشرة أشهر سوية في ربيئة أشبه بالقبر مع جنود آخرين ، وواجهنا القمع والاضطهاد السياسي معًا. وكنا حينها نتحدث في الأدب والثقافة ليل نهار.. ومن المصادفات ، إنه بعد سنة من تسرحه من الخدمة الإلزامية ، إن سافر بعقد عمل إلى ذلك البلد في شمال أفريقيا نفسه.

وفي اليوم الموعود لوصولها قرر أن يأتي معي إلى المطار لاستقبالها كنا ننتظر في مقهى المطار ، وأثناء الحديث سألني عن اسم زوجتي فأخبرته.. فأحسست الارتباك الذي بدا عليه.. فسألته

عمّا به؟ ولماذا ارتبك حين ذكرت اسمها؟ فتجنب الإجابة لكني انتبهت بأن ثمة شيئًا ما وراء هذا الارتباك.. فحدثته بكل راحة عن طبيعة علاقتنا .. فقال لي سأقول لك ما أعرفه وسمعته.. وحدثني بأنه يعمل في الشركة نفسها حيث هي تعمل مسؤولة لمكتب المدير العام.. وأنها ، كما هو معروف في الشركة كلها وخارجها ، عشيقة المدير العام ، وعلاقتهما مفضوحة.. ولم أصدق إنها زوجتك حين أخبرتني!..

ارتبكتُ. كنت أغلي غضبا وخجلا. كنتُ مصدومًا. أهكذا أجازى على معروفي لها. أنا شخصيا أردت إنقاذها من ورطتها. صحيح صار بيننا جنس حام ، لكنها كانت تمتص رحيق شبابي. ثم أنا كنت واضحا معها وحرًا ، لذا قلت لصديقي:

- هل يُعقل أن تكون هي كذلك؟ كيف سمحت لنفسها بأن تهينني بهذه الطريقة الداعرة؟

شعرت بإحراجه وارتباكه الشديد لكنه قال لي وهو ينظر في وجهي بتعاطف:

- أنا لم أخدعك في أية كلمة قلتها ، بل هناك تفاصيل أخرى يتداولها الموظفون في الشركة.. أعفني عن ذكرها..! ولأني قد أخبرتك ما أعرفه وما يشاع ويتداوله الآخرون عنها ، لذا أعفني عن استقبالها معك..

قال ذلك ونهض مغادرا من دون أن يلتفتَ إليّ ، فقد كان مستوعبًا لثقل الموقف والحرج الذي هو فيه. وبقيت وحدي وأمواج الغضب تتلاطم في أعماقي.

من عادتي أن أغلي غضبا مع نفسي في مواقف محددة ، لكني ، أحيانا ، حين أواجه الموقف الواقعي أشعر ببرود أقرب إلى اللامبالاة ، أسيطر على نفسي وغضبي. وهذا ما جرى. فقد كنت انتظر وأترقب وصولها وخروجها من بوابة القادمين ، وكنت

أحدث نفسي كيف سيكون اللقاء ، هل ستحضنني وتقبلني كما في الأفلام ، أم لا.. وخرجت وبقي حديث صديقي في ذهني..

حين وصلت كان اللقاء مخيبًا لكل توقعاتي.. فقد تصرفتُ وفق اللياقة الاجتماعية ، فما أن شاهدتها حتى أخذتها حاضنا ، لكنها لم تمد يدها لتحضنني بل بقيت مسبلة ذراعيها. حينها تراجعت فورا ولم يستمر احتضاني لها أقل من دقيقة.

طوال الطريق إلى الفندق لم نتبادل سوى كلمات قليلة عن كيفية الرحلة ، وإجراءات السفر ، والتفتيش إن كان بلا متاعب وأسئلة .!.. وكان الوقت هو أول المساء. حين وصلنا الفندق ، قالت إنها متعبة وتريد أن تنام.

كنت قد قررت أن أفاتحها بما سمعته ، لكني كنت انتظر الوقت المناسب. المهم.. خرجت الى مقهى قريب والتقيت صديقي الذي اعتذر مني مرة أخرى شدشد الاعتذار لأنه تهور وأخبرني بشيء قاس عائليًا ، وأخلاقيا ، فهدأته ورويت له طبيعة علاقتي بها وكيفية زواجنا.

في حينها صدقتُ أنها لم تحصل على بطاقات السفر ، لكن حين تحدثنا أخبرني صديقي بأن الأمر ليس كذلك ، فالبلد الذي تعمل فيه معظم مواطنية لا يستطيعون السفر بسهولة إلا للعلاج ، وهم حينها يتوجهون لبلدان أوربا الغربية.. أما الأجانب فيذهلون لبقية البلدان العربية الرخيصة أو يلتقون عوائلهم في دمشق ، و أنه شخصيا اشترى تذاكر سفره قبل يوم من مجيئه.

أذكر قبل خروجي من العراق قد أخبرتها بأنني يمكن أن انفصل عنها رسميا ، فأنا لا أعرف مصيري ، لكنها رفضت وقالت إن الوضع غير ملائم الآن ، وأنها تود أن تبقى معي لأطول فترة ممكنة..لكنها في أول فرصة تصرفت بطريقة غادرة. ويبدو لي أنها كانت تنظر إلى أفق علاقتها الجديدة كصفقة ، فإذا نجحت

ربما ستخبرني وإذا لا فهي مع زوج يصغرها بستة عشر عامًا..

حين أخبرت صديقي بما فسرته من تصرفها وعدم إخباري بالأمر ، فقال لي: هذه خيانة.. أن يعاهدك أحدهم على البقاء معك والصدق في علاقته معك ، لكنه لا يرحل ، ولا يكون صادقًا معك ، وإنما تتغير أحواله وسلوكه بحيث يجبرك على الرحيل. وكنت أريد حسم الأمر معها ومواجهتها. فنصحني صديقي بأن انتظر ليوم آخر فلربما ستخبرني!..

حين رجعت للفندق كانت نائمة ، لكني انتبهت إلى أنها قد فاقت من نومها وطلبت طعاما ، وأكلت ، ثم عادت للنوم. تركتها نائمة على السرير العريض ، ونمتُ أنا على الأريكة المقابلة.

في اليوم الثاني حين صحوت لم أجدها في السرير. دخلت سريعا إلى الحمام وتحممت ، وحين نزلت إلى المطعم لم أجدها. فطرت سريعا في البوفيه المفتوح. فتشت في صالة الاستقبال فلم أجدها. خرجت إلى مركز المدينة أبحث عنها ، وذهبت إلى المقهى حيث يتلقي معظم العراقيين ، لكن من دون جدوى. وحتى حين عدتُ إلى المطعم في فترة الظهيرة لم أجدها لا في المطعم ولا في صالة الاستقبال ولا في الغرفة. لم تكن أجهزة الهاتف النقالة منتشرة كما اليوم.

بقيت في الفندق والغيظ يدفعني إلى مختلف الأفكار الغريبة. وقبل المساء دخلت الفندق مستبشرة لكنها ما أن رأتني حتى رسمت ملامح المرأة المتعبة والمنهكة. ولم يعد يهمني وجودها من عدمه ، وإنما ما كان يهمني حقا ألا أكون مثل مهرج يرقص في لعبة المقنعين. وكنت قد قررت مواجهتها.

حين رأتني تقدمت نحوي ، وحين سألتها أين كانت؟ أجابتني بأنها خرجت لشراء الهدايا لأختها وزوج أختها وابنهما. ساعدتها في حمل مشترياتها وصعدنا إلى الغرفة.

كان الغيظ يدفعني دفعا إلى المواجهة. وما إن دخلنا الغرفة حتى قلت لها بأن علينا أن نتحدث. فقالت هي متعبة ولا طاقة لها بالحوار. وحين أخذت تخرج ما اشترته من الأكياس انتبهت إلى وجود ملابس أطفال كثيرة بأحجام لا تتناسب مع عمر ابن أختها الذي كان في الخامسة من العمر ، وكذلك قمصان كثيرة وأحذية و.و.و. المهم. قلت لها لنزل إلى المطعم فالوقت هو وقت العشاء ، قالت إنها تعشت في المدينة ، وأنها ستتحمم وتنام.

كانت الأمور واضحة ، لكنها كانت تحتاج توضيحا للأمر. وما أغاضني إنها تتصرف بهذه الطريقة بتلقائية ولا مبالاة.

لم يكن بيننا تلك العلاقة الحميمة ، فلقد رويت لك كيف تشكلت هذه العلاقة التي انتهت بعقد زواج ، لكن أغاظتني طريقتها التي وجدت فيها غدرا وخسة ، كان عليها أن تفاتحني بعلاقتها منذ أن تأكدت من مشاعرها نحو مديرها.. لاسيما بعد أن صارت تعاشره كعشيقة وزوجة ، فهو كما فهمت من صديقي منفصل عن زوجته. ووجدت نفسي مندفعا لحسم الأمر وإنهاء هذه العلاقة.

- وهل واجهتها؟ سألت إيفا ماجدولينا بنبرة حزينة.

- نعم.. لم يبق سوى يومين على رجوعي ، بما فيهما يوم مغادرتنا كلانا ، كل منّا إلى البلد الذي جاء منه. فقبل يوم رجوعنا قلت لها لا بد أن نتكلم. ويبدو أنها أدركت بأنني عرفت شيئًا عنها. فبعد الفطور وقبل أن نخرج سواء معا أو كل على انفراد ، قلت لها لنذهب إلى غرفتنا. وهناك فعلا فاتحتها. قلت لها بأني عرفت عن علاقتها وما يجري هناك. ارتبكت. أنكرت أن يكون هناك شيء خاص سوى الصداقة.. ولمّا أخبرتها بما سمعته من دون أن أذكر اسم صديقي ، انهارت.. واعترفت.

وروت أشياء كانت تظن أنني أعرفها لكني سمعتها منها لأول مرة ، وحين سألتها أين يلتقون ويمارسون الجنس وهم في

ذلك البلد المحافظ ، فقالت بجرأة بأن كل شيء كان يجري في المكتب..! فهي مديرة مكتبه وهي الوحيدة التي تدخل مكتب المدير العام للشركة ، وكثيرًا ما كانا يدّعيان بوجود ملفات عالقة وعمل بعد الدوام. كان كلامها مهينا ، فقد كانت تتحدث من دون ذرة من الارتباك ، بل بوضوح أقرب إلى الوقاحة. كانت تتمعن في إهانتي من خلال ذكر التفاصيل..

والغريب أنها من خلال روايتها لتفاصيل العلاقة كانت تستحضر ، كما يبدو لي ، مشاهد العلاقة لأن أخذ صوتها يتهدج.. ثم عرجت قائلة بأنها تحبني ، لكني أصغر منها ، وإن وسامتي ستعذبها إذا ما بقت معي لاسيما وأن نساء هذه البلدان متحررات.. وأنها تريد أن تكون معي.. ويبدو استعادتها للمشاهد الحميمة التي عاشتها أيقظ الرغبة في جسدها فحاولت إغرائي.. لكني كنت أحس بالإحباط ..! أتعرفين كيف يفقد الإنسان إيمانه..!؟

نظرت إليه وأحست بعمق الخيبة والإحباط الذي واجهه ، فأجابت:

- لا.. لا أعرف.. كيف يفقد الإنسان إيمانه؟

- الخيانة والغدر والإحباط تحطم الإيمان بكل شيء. وتجعل المرء ، على الأقل الصادق مع نفسه ويريد الخروج من حالته ، بأن ينتظر معجزة لتعيد له إيمانه بالبشر ، والقيم ، والأفكار ، والعقائد.

قد يتحطم الإيمان عند الإنسان الطفل الذي تربى على قيم الخير والحب والعدل والقدرة اللامتناهية للقدير أو للإنبياء.. لكنه حين يرى الأكاذيب والدجل من قبل رجال الدين ، والزيف والغدر وعدم الاستجابة لمتطلبات إيمانه من قبل من يثق بهم ، فأنه يحبط ويفقد إيمانه!..

نظرت إليه نظرة وكأنها تستذكر شيئًا ، وقالت:

– حكيت لك.. في حياتي هذه بهذا العصر حين كان أبي راقدًا في المستشفى إثر انخفاض كبير في الضغط ، وطلبت من أيقونتي بأن تشفع لأبي الذي يحتضر ، لكن أبي مات.. قرأت نعيه على شاشات الحاسوب. فأخذت الأيقونة ورميتها ، ولم أعد أؤمن بأي قديس وأي صليب.. لكن دعنا عن ذلك الآن.. أكمل حكايتك!..

أراد آدم السيد أن يسألها عن وفاة والدها ، لكنه استجاب لها فواصل حديثه:

– حين واجهتها بما سمعته ، لم يكن أمامها سوى الاعتراف بأنها لم تصمد أمام اندفاعات شهوتها ، وأمام الاهتمام الذي أبداه ذلك الرجل ، لاسيما وهو مدير الشركة ، ومنذ المقابلة الأولى عندما قدمت على العمل انتبهت لرغبته فيها ، وبمرور الوقت وجدت نفسها تثار وتتهيج ، ولم تعد تسيطر على انفلات الرغبة في جسدها ، وفي يوم ما ، وعلى غير توقع منها ، انهارت كليا وصارت هي من تريد إشعال جسدها وإطفاء نارها.. حينها سألتها عن السبب في إخفاء الأمر عني..!! فقالت بأنها كانت تظن بأن الأمر نزوة عابرة ، حدثت مرة ولن تتكرر ، لكنها كنت واهمة.. بل على العكس ، تكرر الأمر مرات ومرات ، بل صار شبه يوميٍ.. وصار هو كل عالمها .. وقالت لي: « لكني أدركت منذ الممارسة الأولى بأني خسرتك»..!.

كنت استمع لها وكأنني شخص آخر.. أو هي شخص آخر.. فثمة فراغ بيننا.. لكنني انتبهت لنفسي بأني طرف في هذه الحكاية السمجة والمتكررة والممجوجة ، فقلت لها: «تفاصيل هذا الأمر ليست مهمة.. كنتُ أتقبل منك أن تخبريني مهما كان الأمر غير مريح لي ، لكن أن تتحولي إلى عشيقة المدير العام في شركة معظم العاملين فيها من العراقيين وبعضهم من أصدقائي ورفاقي ، ففي هذا إهانة لي. أنت تعرفين لا شيء بيننا ، وما جرى

هو لإنقاذك من ورطة كنت فيها..

فقالت بحزن ::

- لكني أحببتك..

فقلت بنبرة فيها غضب مكتوم:

- من يحب لايخون.. أنت تحبين الرجل الذي أمامك ومعك..ا لذي يطفي لهيب شهوتك ويدغدغ مشاعرك.. فلا تتحدثي عن الحب..

فنظرت إليّ نظرة متسائلة وقالت:

- أتكرهني إلى هذا الحد؟

صمّتُّ للحظات وقلت لها:

- أنا لا أكرهك وإنما أكره الغدر والخيانة.. لقد قال لي بعضهم بأن الخيانة هي أن يعدك أحدهم بالصدق معك والصراحة والاستمرارية ، بينما هو يكذب ويغدر ويقيم العلاقات الجانبية ، ويمارس أشياء تجبرك على إنهاء كل شيء ، وبالتالي يظن نفسه بأنه هو الضحية لأنك قررت الابتعاد عنه.

أحسّتْ بارتباك ، وتمتمت:

- وماذا ينتظرني منك.. الآن.

وجدتني فجأة مفرغًا من المشاعر وكأنها امرأة لا أعرفها قط ، فقلت ببرود:

- لا شيء سوى إنك طالق وفق الشرع والقانون بالثلاث ، وأنني سأرسل لك قسيمة الطلاق ، والآن لا وقت لدي لأني سأسافر غدا.. وسأرسل لك برقية يمكنك الاعتماد عليها بالمحاكم هناك تؤكد إنك مطلقة.. بالتوفيق.

حينها رأيت وجهها يتحول إلى وجه ضبع حقود يتأهب للانقضاض ، بل تحولتْ جسديا إلى ضبع وامتلأت الغرفة بالنتانة التي تنبعث من الضباع. وقبل أن تنقض عليّ غادرتُ

الغرفة. والحمد لله كانت حقيبتي جاهزة وحقيبتي ذات الحزام الذي أعلقها على كتفي موجود ، والتي فيها جواز سفري وتذكرة العودة ونقودي.. فجأة ، وجدت نفسي أطير.. حلقت عاليا.. عاليا. ووجدت نفسي في غرفتي في البيت الطلابي ، في المدينة والبلاد التي أدرس فيها.

– وماذا جرى بعد ذلك؟ سألتْ إيفا ماجدولينا بفضول من دون أن تسأله عن سبب تحول تلك المرأة الغادرة إلى ضبع ، ولا عن كيفية طيرانه ، وكأنه الأمر مفهوم لديها. فقال:

– لقد تحطم إيماني بوجود إنسان لا يغدر. الضبع في الإنسان وليس الذئب.. الذئب حيوان مفترس لكنه نبيل ، وشجاع ويواجه ، بينما الضبع غادر وفوق هذا كله حيوان نتن وقذر ومبتذل. ولا يوجد غدر نبيل. لقد تعلمت بأنك لا تحتاج لمن يبيعك برخص ويغدر بك في أول منعطف تمر به ، وأن يبتعد الإنسان ، وهو محتفظ بكرامته ، خير من أن يبقى ذليلا في حب علاقة تسحق إنسانيته. الغدّارون نتنون ، والغادر تتصاعد نتانته حتى لو رش على نفسه كل عطور الدنيا ولبس أغلى وأجمل الثياب.

– وما جرى لك بعد ذلك..؟ سألتْ بفضول ليكمل بوحه.

صمت طويلا وكأنه لم ينتبه لسؤالها ، ثم واصل:

– أتعرفين يا إيفا الزمن والذاكرة هما ما يشكلان هوية الإنسان..! ومع ذلك لا ينتبه الإنسان لسؤال الزمن والذاكرة الذي هو في الجوهر سؤال الوجود والمعرفة.. الإنسان يا إيفا جسد مليء بالرغبات في مواجهة الموت والفناء. والإنسان روح لديها توق للسمو، لكن الجسد ، وجاذبية الغريزة تسحبه إلى القاع المظلم ، قاع البئر المظلمة ، حيث الكوابيس تلتف كعقدة الأفاعي. وحيث الإنسان يجترح الخطايا والآثام متشبثا بالعقائد الدينية ، والأساطير المثيولوجية ، والأنبياء ، مفسرًا النصوص والحكايات

المدونة وفق ما تأمر به غريزته العمياء.

الغريزة ثعبان أعمى، يفتح عينيه عند الانقضاض على الفريسة. والإنسان تائه ما بين السمو حيث مجرات النور والنزول إلى البئر المظلمة. الإنسان فريسة الثعبان الذي في داخله.

- لماذا تحاول التأويل يا آدم، ولا تروي الأحداث نفسها؟ أخبرني بما جرى لك بعد ما حصل لك وعدتَ لمدينتك؟

أحس بالارتباك قليلا، ثم واصل:

- ليس كل ما يمر به الإنسان من أحداث هي مهمة في تحديد هويته ووجوده. فالأحداث مثل النصوص لديها متن وهامش. وكثيرا ما تكون الهوامش أهم من المتن في توضيح المعنى.. بعض الأحداث تكون عابرة في حياة الإنسان، جزء من ابتذال الوجود، وبعضها منعطف ونتوءات حادة ومحطات مزدحمة أو فارغة في حياة الإنسان. ومع ذلك سأروي لك عن الأشياء العابرة والمنعطفات أيضا.

- وأنا استمع لك..! قالت بمحبة.

- بعد ذلك الغدر..وبعدما عدت إلى البلاد التي أدرس فيها صارت علاقتي بالمرأة علاقة جسدية فقط. لا أؤمن بالحب مهما أظهرت المرأة التي معي ليّ من مشاعر ظاهرة. كنت أرى في كل حديث كذباً صريحا أو رياءً فاقعًا. ربما كان هناك من تودّدن لي عن مشاعر لطيفة و ربما صادقة، وسعينَ إلى إقامة علاقة معي، لكني كنتُ أنأى بنفسي عن كل ارتباط.

عشت تجارب وعلاقات كثيرة. وزاد من تعميق نظرتي بغدر البشر وخيانتهم بعضهم بعضا، سواء في موضوع الجسد أو السياسة أو المال والمنصب أو حتى من أجل تأمين الأمان الجسدي خوفا من الاعتقال أو التعذيب، ما عشته بنفسي مع الآخرين أو مع أقرب الأصدقاء لي.

- يعني أنت جرّبت الخيانة بأشكالها المختلفة..؟ علّقت إيفا ماجدولين.

- نعم.. الخيانة ليست مقصورة على النساء ولا العلاقات بين الرجل والمرأة. فقد كان لديّ صديق مقرّب جدًا ، صديق فنان ، وما زلتُ اسميه صديقا ، وكنت أسرّه بكل صغيرة وكبيرة ، سواء ما يخص حياتي الشخصية وما جرى لي ، أو البوح بآرائي السياسية أو الفكرية أو حتى عن علاقاتي مع النساء الأخريات. كان يعرف كل شيء عني.

وذات يوم تم استدعائي من جهة حزبية في المعهد الذي كنتُ أدرس فيه ، وحين دخلت الغرفة التي فيها اللجنة رأيت المسؤولين الحزبيين في المعهد ، وكما تعرفين تلك البلدان كان يحكمها حزب واحد. المهم.. سألوني إن كنتُ أعرف سبب استدعائي إليهم ، فأجبت بلا ، حينها أخبروني بأنهم يحترموني لأني من أفضل الطلبة في المعهد ، لكن لديهم معلومات بأنني انتقد نظامهم وإنني أشير إلى مظاهر سلبية في الحياة العامة. فنفيت ذلك ، فقالوا لي لا داع للنكران لأن هناك من سجّل لك حديثك ، بل وإنك تحدثت في ذلك اليوم عن السينما وأبديت إعجابك بأحد السينمائيين ممن يُعد معاد للنظام. أُسقط في يدي ، فقد أدركت بأنني تحدثت عن هذا المخرج مع أقرب صديق لي فقط ، وأن هذا الحديث جرى في غرفتي. كيف يكون الغدر ، وكيف تكون الخسة والدناءة؟

أتعرفين ياإيفا ، إن الخيانة هي فكرة. والغدر هو فكرة مسبقة قبل التجسيد أيضا. الخيانة تبدأ من ولادة «فكرة» أن تخون وقبول تلك الفكرة. تبدأ من لحظة محتملة للخيانة. فعل الخيانة هو تجسيد لفكرة الخيانة الكامنة في النفس ، والغدر فكرة تسبق الغدر ، التي ربما كانت مبيتة منذ زمن ليس بالقريب من فعل الخيانة والغدر. عند البعض الخيانة والغدر هو سلوك وطبع.

– وماذا لديك في جعبتك من حكايات الغدر والخيانة..؟ سألته بحيادية.

صمت آدم السيد وأسبل جفنيه ، ونظر بحزن إلى اللامكان وقال:

– واصلت دراستي وحصلت على درجات أكاديمية عالية ، لكن طوال هذه السنوات لم تخفف من مرارة الغدر سوى علاقتين ، ظننتهما حبا لكني اكتشفت أنهما ليستا كذلك ، إلى أن جاءت طعنة غدر أخرى انتكست فيها وسقطت صريع الخيانة والغدر.

– كيف ظننتهما حبًا وهما ليستا كذلك؟

– ربما من كثرة تنقلي بين النساء وعدم استقراري على أية علاقة وجدت نفسي في هاتين العلاقتين استقرارا نسبيا قياسا لسرعة تنقلي بين النساء ، فعلاقة منهما كانت مع امرأة مطلقة ، كنت ازورها كل عشرة أيام أو أسبوعين حيث كانت تعد مائدة كبيرة لي ، فيها ما لذ وطاب ، فكنت أقضي الأمسية عندها ، وقد استمرت العلاقة على هذا الإيقاع لمدة ستة أشهر ، وحين أحسستُ بأنها تسعى إلى الارتباط ، قطعت تلك العلاقة من دون تردد ومن دون أن تخلف لي ألما عاطفيا ، لكنني ظننت أن تلك العلاقة حبا لأني كنت أشتاق لتلك الموائد الشهية أولا ، ولأني كنت أذهب إليها كل عشرة أيام أو أسبوعين على مدى ستة أشهر ثانيا ، وهذا ما لم يحدث معي.

أما العلاقة الثانية فكانت مع امرأة متزوجة وكانت امرأة جميلة جدًا ، وكانت تزورني الى غرفتي في القسم الداخلي للطلبة كلما سنحت لها الفرصة ، وقد استمرت علاقتي بها في حدود أحد عشر شهرًا. لكني قطعت تلك العلاقة حين رأيتها ، ذات مساء ، من دون أن تنتبه لي ، مع شخص ليس هو زوجها الذي كانت قد أرتني صورته وأعرف شكله ، رأيته وهو يحضنها كعشيق وليس

كصديق عابر.

لكني حينها ظننت أن علاقتي بها كانت حبا ، لأنه كان هنالك أحيانا بعض الأشياء المشتركة معها ، حيث كانت مثلا تأتيني بالكتب النادرة كهدايا ، لكني كنت قطعت علاقتي بها حين رأيتها مع الرجل الآخر. ليس بسبب الغيرة فحسب وأنما لأسباب صحية ، فأن أخاف الأمراض الجنسية ، ولا أقيم علاقة مع النساء متعددات العلاقات.

- وكيف كانت الطعنة الغادرة التي تحدثتَ عنها. سألتُ بفضول واضح.

- حين أنهيت دراستي في ذلك البلد كانت الحرب بين العراق والبلد المجاور قد اشتعلت والتهمت كل شيء. ولأني من معارضي النظام لذا لم أرجع إلى البلاد وأنما توجهت إلى لندن ، وبقيت هناك سنوات ، واصلت دراستي فيها بتخصص جديد هو علم الجرافولوجي ، وهو علم دراسة الخطوط والتواقيع ، والتأكد إن كانت مزورة لاسيما في وصايا الميراث والصكوك البنكية والوكالات العامة والشخصية أو لا ، كما أخذت أعمل أستاذا زائرا في عدد من الجامعات الأوربية والعربية.

بعد حصولي على الدكتوراه في علم الجرافولوجي انتقلت للتدريس في إحدى الجامعات النمساوية وبقيت هناك سنوات طويل حتى إني تجنست بالجنسية النمساوية ، ثم عدت إلى العراق بعد الزلزال الكبير.. وعُينت في منصب مدير لدائرة متخصصة ترتبط بالمحاكم الجنائية...

- وماذا جرى؟ سألته.

- كل شيء مزيف. الضوء الذي يأتي من المرآة مزيف.. الكلمات مزيفة.. العشق مزيف.. الكل يتحدث عن الإخلاص والوفاء لكن الخيانة مثل ظل يرافقهم.. أتعرفين.. نحن نخلق كائنا

في ذهننا ، نخلق كائنا في أعماقنا ، نضفي عليه ما ليس فيه في الكثير من الأحيان.. ونضعه في إطار يرضى نوازعنا ونطمئن له أو نتحسس منه وفق هذه الرؤية!..

– أتعرف يا آدم.. إحس إنك مهموم بمملكة المفاهيم.. وليس بمملكة الحواس المرتبطة بالواقع!..

صمت آدم للحظات ، ثم قال بنيرة فيها استفزاز مكتوم:

– ماذا تقصدين؟.. أتقصدين إنني أعمى لا أرى الأشياء التي تحدث أمامي ، وإنني أخلق كائنا نظريا ، جماليا ، غير واقعي؟ لا.. أنا انتقل بالأشياء من مملكة الحواس إلى مملكة المفاهيم.. أرى كل شيء ، وانتبه لكل شاردة وواردة ، ولكل جملة تقال.. وأرسل كل ما هذا عبر منشور مملكة المفاهيم.. فحين أتغاضى عن سلوك عابر أو حين لا أعلن عن شكوكي لا يعني هذا أنني لا أرى ما يجري خلفي.. لكنني أترك الآخر سادر في أكاذيبه وأقنعته ، وكل ما يفعله من ورائي.. ولا يعنيني ذلك.. لأني في لحظة ما أضع كل شيء أمامه وأكشف له أقنعته ، لكن في اللحظة التي أرسله فيها إلى مملكة النسيان!..

– لكن ربما أنت بالمقابل تكون تحت رقابة الآخر.. ورؤيته لك؟ قالت إيفا ماجدولينا.

– ممكن جدًا.. قد أكون إنسانا خائنا في نظر الآخر لمجرد إنني اعترفت له بعلاقاتي السابقة أو هو تلمسها في بداية علاقتي به.. هذا جائز.. لكن عليه أن ينتبه إن ما كان قد كان ومضى ، وإن الحب يغير البشر وسلوكهم. الحب مثل النار التي تطهر المعادن ، فإن كان المعدن أصيلا فأنه سيتخلص من الشوائب اللاصقة فيه ، لكن لو كان المعدن رخيصا وخسيسًا وغير أصيل فأن سيذوب متحولا إلى كتلة من الخبث والشوائب ولا يبقى منه شيئا. البشر معادن يا إيفا.. هناك من معدنه أصيل وهناك من معدنه خسيس.

الحب والتجارب تكشف معادن الناس. لذا لا أثق بالكلمات ولا بادعاءات الناس بالوفاء والإخلاص ، وادعاء النساء بالزهد في الرجال أو الرجال في الزهد بالنساء ما لم يكن ذلك أصيلا في النفس ومرتبطا بعمق الحب وينابيعه الدفاقة في الأعماق.

البعض يتهم الآخر بالخيانة ليجد لنفسه تبريرا للخيانة ، لأنه يعرف بأنه سيخون ، لذا يشن الهجوم على الآخر متهما إياه بالخيانة متسترًا على فكرة الخيانة التي تطل برأسها في أعماقه ، فهو لم يعش حبًا أصيلا وصادقا في حياته ، كل حياته مجرد علاقات عابرة ، لكن هناك من يتطهر حينما يلتقي بالحب الأصيل ويتحول ويتغير ، وهناك من يلتقي بالحب ويظن أنه عاشق ، لكنه يحن لعلاقاته السابقة لذا يبحث عن أية فرصة لينهي الاستقرار والثبات الذي وصل إليه في علاقاته النفسية ومشاعره ، فهو يحب الاهتمام الدائم من الآخرين ، بينما في العلاقة المستقرة ليست هناك مغامرات وأنما انسياب يجري في الروح ، وهؤلاء لا يريدون ذلك ، ..يحبون التجديد الدائم ، ولا يستطيعون العيش من دون علاقات متشعبة!..

نظرت إليه بحزن وقالت:

– أراك معقدًا من فكرة الخيانة والغدر!..

– نعم اعترف بأن ثمة عقدة ملتفة في أعماقي كعقدة الأفاعي ، عقدة اسمها الخيانة والغدر!

– لكن ألا تعتقد إنك بتنقلك بين النساء كنت تخون أيضا!..

– لا.. الخيانة والغدر هما تجريح الثقة الصافية والآمنة في النفس والروح.. الخيانة تكون في خيانة المشاعر والنفس البريئة من الشكوك..! وأريد أن أوضح لك شيئا.. لستُ مع الحب الحر.. وأنما مع الحب الحقيقي ..الحب الجنسي الكامل.. فمَن يسمح لشريكه بحرية إقامة العلاقات مع كل من هب ودب ، ومع من

يشتهي بحجة منحه الحرية كي لا يملّ شريكه منه أو لا يخونه سرًا ، فمعنى ذلك هو لا يحب شريكه حبًا حقيقا وإنما يجد لنفسه التبرير للخيانة ، أو في أفضل الأحوال ربما تعود عليه وألفه ولا يريد هجره كي لا يكون وحيدًا؟!.

الحب الحقيقي يعتمد على مربعه: الحميمية ، والوله ، والانجذاب المداري ، والالتزام.. فإذا لم يكن هناك وله وانحذاب مداري نحوه بحيث لا يمكنك الافلات عنه ، وإذا لم يكن هناك التزام روحي وأخلاقي وجسدي بين الاثنين ، فكل دعوى بإطلاق الحرية للآخر بأن يفعل ما يشاء ، بما في ذلك ممارسة الجنس وإقامة العلاقات العاطفية السائبة ليست حبًا. وإذا ما تقبل أي شريك من الاثنين ذلك ، بحجة إن هذا تعبير عن الحب الكبير للآخر ، وأنه يمنحه حريته ولا يريد خنقه ، فهو خنزير إذا ما كان رجلًا وكلبة شبقة إن كانت امرأة. قد أبدو كلاسيكيا في نظرك.. لكني أفهم الحب بأنه التزام وحميمية ولهفة وانجذاب كوني.

نظرتْ إليه متأملة وقالت له بهدوء وكأنها تذكّره:

– لكن في عقدنا الروحي ثمة بند ، أعتقد الخامس ، أمنحك فيه الحرية الكاملة في إقامة العلاقات مع الأخريات ، وبرضاي الكامل.

نظر إليها بارتباك وقال:

– لكن ثمة بند آخر في عقد الزواج الروحي يمنعك منعا قاطعا من إقامة أية علاقة مع الرجال!..

– أنا موافقة على هذا الأمر.. فلا رغبة لدي في أي رجل.. أنت ملأت عليّ عالمي ، ومكتفية بك.

صمت قليلا ثم قال:

– أنا أرفض البند الخامس من عقد زواجنا الروحي. ربما أنا وافقت عليه في لاوعيي لأني كنت في مرحلة الشك بك وبماضيك.

لذا فأن موافقتي على هذا البند كانت أنانية مني.. كنتُ أصارعُ نفسي، وأحاول أن أقنعها بأن كل علاقاتك كانت ماضيًا منتهيًا، وكل شيء كان قبل اللقاء بيننا، وهو ماضي لا عودة له. كنت على مسافة قريبة من تصفية حسابي مع شكوكي، وأخمن إنك انتبهت لحالة الشك التي كنتُ أعيشها، فأثرت علي لاسيما وتأثر كلام الرائد سمم أفكاري حينها..بأن مَن كنت معهم سيدورون حولك ويتواصلون بطرقهم المختلفة..! حينها استيقظت كل المومياءات وزومبي الشكوك في أجداثها بداخلي.

كلام الرائد كما أوضحت لك سممني فصرتُ أفكر بأن كل كلام الحب الذي تقولينه لي قد سبق لك وقلته لكل من الرجال الذين كنتِ معهم.. بل حتى في الجنس، فأنت أتخيلك تعيدين الأشياء والأوضاع والكلمات الشبقية نفسها التي كنت تقولينها للآخرين..!

أنا لا أحب أن أكرع كالكلب من البركة التي كرع ولعق منها الآخرون..! وربما من باب تأنيب الضمير وليس الحب إنك اقترحت ذاك البند ووضعتيه في عقد الزواج الروحي.. شخصيا لا أريد الالتزام بذاك البند، وعلينا أن نحذف ذلك البند من العقد.. لا أريد أية علاقات جانبية حتى وإن كانت برضاك التام..!!

إنني من خلال استلهامي لتوأم الشعلة وتوأم الروح، فأنا أعرفك منذ عصور وعصور.. وهنا في هذا العصر اقتربت منك أكثر.. ومنذ حديثنا عن توأم الشعلة.. صرت في غنى عن أية امرأة في العالم سواك..! نعم.. أرفض ذاك البند.. أرفض أن أكون حرًا من أي قيد أو فرض أو جبر في إقامة علاقات مع من هب ودب. أرفض الحب الحر الخالي من الالتزام والشغف والانجذاب المداري الكوني والحميمية.. أرفض نظرية كأس الماء.. أي أن يكون الجنس كشرب الماء.. أنا مكتف بك واشتهيك أنتِ ولا رغبة

لدي بأية واحدة أخرى.. تصدقين ذلك أو لا فهذا أمر يخصك!..

نظرت إليه بعينين يترقرق فيهما الدمع.. تأملته بمحبة وقالت:

- أنا فخورة بك.. لكني سأبوح لك شيئا.. أنت كانت لديك شكوكك.. وأنا أيضا كانت لدي شكوكي الأقرب لليقين.. فأنت رجل لديك تجارب أضعاف ما لديّ بحكم العمر والخبرة.. لكني ياآدم أبحث عن رجلٍ واقِعيٍ ، بلا أقنعة ، يحبني بصدق ، ولا يلتفت للحواءات الآخريات ، يكتفي بي وحدي ، يقدسني حتى استطيع أن أكون له معبده الذي يتلو فيه صلوات الحب.. أبحث عن رجل لا يتمايل كالمخمور بين النساء بسبب شهواته اللامحدودة ، لا أريد رجلًا يركض وراء تنانير النساء ويغريه أحمر الشفاه.. لذا أنا فخورة برفضك للبند الخامس الذي وضعته من باب إثبات عمق حبي لك من جهة ، ومن باب فهمي إنك تعوّدت العيش في علاقات سائبة وحرة من دون التزام.. وربما التزامك معي سيقيدك ويشعرك بالاختناق ، وبالتالي أما ستخونني سرًا أو تكرهني.. وأنا لا أريد هذا ولا ذاك..!. إذا كنت ترفض البند الخامس فأنا فخورة برفضك.. وسنلغيه من العقد..! سيكون بيننا الالتزام بل الثقة ضمانا للالتزام ، ولن أعد عقدًا جديدا بل سأشطب عليه بالقلم لأبين إننا تعمقنا في علاقتنا بحيث صرنا واحدا.. لكن دعنا من كل هذا.. حدثني عن الطعنة الغادرة التي تعرضت لها!..

كان يستمع إليها! بعينين مليئتين الحنين والانجذاب المسحور ، وقال:

- أتعرفين.. إنك صادقة معي وتحبينني من كل قلبك وبإخلاص ، وتغارين علي مع أنك تقولين بأن الغيرة انطفأت في نفسك وتطايرت كالدخان.. وأعتقد أن الغيرة لديك ليست بسبب إنني كنت مع أخريات وأنما لأنك تريديني لك وحدك وبس ، بل لأنك تريدن أن تكوني الوحيدة في حياتي. وكما قلتِ قبل قليل: أريد

رجلا بلا أقنعة ، يحبني بصدق ، ولا يلتفت للحواءات الآخريات ، يكتفي بي وحدي ، يقدسني حتى استطيع أن أكون له معبده الذي يتلو فيه صلوات الحب.. أبحث عن رجل لا يتمايل كالمخمور بين النساء بسبب شهواته اللامحدودة. لا أريد رجلًا يركض وراء تنانير النساء ويغريه أحمر الشفاه.

- صحيح جدا.. لكن واصل حديثك عن الطعنات..! لكن قبل ذلك أعطني قُبلة حب..! القُبل هي جزء من تواصلنا اليومي.. فاصلة بين كلام وكلام!..

ومن دون أن يمنحها فرصة مواصلة الكلام انحنى عليها وقبل شفتيها قُبلة حميمية.. وأخذ يقبل جبينها وخديها وعينيها ورقبتها.. كانت مستسلمة ومسترخية ومثارة بشكل حالم.. لكنها مع ذلك تمتمت:

- واصل حكايتك حبيبي!..

فابتعد عنها قليلا ليواصل حديثه:

- أخبرتك إنني صرتُ مديرَ مركزٍ بحثي يرتبط بالمحاكم الجنائية. لكني حين كنت في النمسا ، وكنا في وضع المعارضة ضد النظام السابق على هذا ، كنا نلتقي ونتحاور في وسائل التواصل الاجتماعي ، ولاسيما في غرف «البالتاك» الافتراضية. وكانت هناك عراقية تساندني في حواراتي وطروحاتي ضمن غرف «البالتاك» ، وهي غرف صوتية وكتابية خاصة لمجموعة ما يودون إجراء حوار خاص.

المهم ، حين قررت العودة إلى بغداد دخلت علي على الخاص وقالت لي بأن أختيها وزوجيهما وابن أختها يعيشون في بغداد ، ويمكن أن أتوجه لهم في أي مشكلة أو إشكال. وأذكر أنني توجهت إلى بغداد عن طريق دبي ، وبالباخرة التي اتجهت إلى البصرة ، كان ذلك قبل أن تندلع الحرب الأهلية الطائفية ارتباطا بتفجير

مرقدين مقدسين في إحدى المدن. وفي الباخرة تعرفت على شخص يتجه إلى بغداد أيضا ، ومعه استأجرنا سيارة كان فيها مسافرون غيرنا. طوال الطريق لم نتحدث سوى كلمات بسيطة وتافهة. كل منا كان يخاف الآخر ، ويجهل سره.

الخوف من الماضي وأشباحه كان يهيمن علينا. والحقيقة إن الرجل الذي تعرّفت عليه في الباخرة حذرني من الفنادق ونزلائها ، خاصة إذا كان النزيل قادما من أوروبا. لذا فكّرت بالعائلتين اللتين أخبرتني بهما تلك الصديقة في النمسا. وفعلا اتصلت من خلال الهاتف النقال للرجل الذي كان معي ، لأني لم أكن أمتلك شريحة هاتف عراقية ، فكان زوج إحدى الأختين وعرفته بنفسي ، فأخبرني بأنه يعلم باحتمال وصولي ، ثم ناول الهاتف لابنه الذي أرشدني للمكان الذي عليَّ أن أطلب من السائق أن ينزلني فيه. وهذا ما حدث.....

كانت عائلة عراقية طيبة جدًا. أحسستُ بالروح تعود لنفسي ، وأحسست بأنني وسط جو عائلي طبيعي افتقدته لعقود. في ذلك المساء جاءت الأخت الأخرى وزوجها. واحتفوا بوصولي.

وفي ذلك المساء نفسه أخذني ابن الأخت آدم العجمي ، الذي كان في العشرين في جولة للتعرف على بغداد التي غادرتها منذ ثلاثين عاما ونصف. العجمي ليس لأنه أعجمي وأنما لأنه منور الوجه لا يشبه العراقيين من ذوي السحنات الشاحبة والسمر ، وأنما يشبه الأجانب ولاسيما الإيرانيين الذين يفدون على العراق والمسيح الذين يتسمون بالجمال وألوان البشرة المختلفة.

رأيت بلادًا مخربة. رأيت التاريخ مسحوقا ومنهكا ومهدما ، ورأيت السكارى وما هم بسكارى ، وجوه أشبه بالمعتوهين ، ونظرات تائهة في الوجوه ، وأسنان متآكلة. ما الذي جرى للعراق والعراقيين؟ وحاولت إقناع نفسي بأن الأمر هو إنني كنت أجري في

ذهني مقارنات بين الناس هنا والناس في البلاد التي جئت منها حيث مجتمع الرفاهية.

كانت الأيام الأولى بالنسبة لي أياما غريبة ، مليئة بالخوف والترقب والأسى لما آلت إليه البلاد. وكان ابن الأخت يرافقني بسيارته المتهالكة. حتى مراجعاتي للجهات الرسمية التي استلم منها وظيفتي كنت أمضي إليها بمعيته ، فكان مثل حارسي الشخصي ، وهو شاب جيد وأمين.

وحين بدأت عملي في وظيفتي الجديدة ، عينته في المركز الذي أديره. وكانت العائلة تحتفي بي. وكانوا يرسلون لي الطعام في فتر ة الغداء. وحتى حين منحت سكنا مؤقتا في بيت اصطناعي جاهز (كرفان) داخل مجمع سكني اسكنته معي ، لكن الأحداث توالت ، فهذه المرأة تواصلت معي ، وطلبت أن أجد لها وظيفة في المركز الذي أديره لأنها تود العودة إلى العراق ، ولم أجد في الأمر شيئًا مريبًا ، بل أردت أن أرد الجميل لهذه العناية من قبل أهلها وأخواتها وأزواجهن.

وفعلا وصلت إلى بغداد ، ولأني كنت المدير العام ولي حق التصرف والتعيين للاستكمال المركز الذي أديره ، لذا لم أجد صعوبة في تعيينها ، مديرة لمكتبي الخاص ، وذلك لثقتي بها وبالعائلة. وبعد عودتها إلى بغداد صارت العلاقة مع العائلة أكثر وثوقا لأنهم استقبلوني بناءً على اتصالها بهم.

كانت الأوضاع سيئة جدًا ، وصار الخروج والحركة محفوفة بالمخاطر ، وصار استهداف القادمين من خارج بلاد لغرض الابتزاز المالي أمرًا مألوفا ، لذا طلبت مني بأن انتبه لحالي ولسكني ومن الأفضل أن أعين حُرّاسا أثق بهم لحمايتي وحماية المنزل.

كان المركز يضم عددًا من الباحثين في دوائر غير رسمية

تابعة للمحاكم ، وبعد تنصيبي مديرًا عامًا له تم نقل تلك الممتلكات إلى المركز ، وكان معظم الباحثين والعاملين يستغربون من تعيين هؤلاء الطارئين على مركز البحوث هذا وقربهم مني ، لكن الوضع الأمني في البلاد كان يبرر كل شيء ، كل شيء..! إذ على المسؤول ألا يثق بأحد ، بل وعليه أن يحيط نفسه بمن يثق بهم فقط.. وبالنسبة لي هؤلاء صاروا من أقرب الناس بالنسبة لي. وخلال عام من العمل تعمقت أخاديد الثقة بيننا.

وذات يوم طلبت مني برجاء أن أجد وظيفة لأخيها الكبير ، ولم أتردد ، لكن هذه المرة بدأت تظهر بعض الكتابات في المواقع الإلكترونية تنتقد المركز الذي أديره بان ثمة عائلة مهيمنة على المركز وتسيطر على المدير الذي يخضع لطلباتها.

شخصيًا اعتبرت الأمر جزءًا من النفاق والصراع على المنصب وأيضا ضمن الصراع العام في البلاد. خلال هذه الفترة تعاونت مع صديقي الرائد آدم عبد السميع الذي كان محققا جنائيا.. المهم..

ذات يوم دخلت علي مديرة مكتبي قبل موعد إدخال البريد الوارد للتهميش عليه أو التوقيع على الكتب الصادرة..! وقدمت لي ورقة مطبوعة ومسحوبة من موقع إلكتروني ، تتضمن مقالا عنها وعني والتشهير بوجود علاقة بيننا..!. لم آبه للأمر لأنه مجرد نكتة سمجة..! فلا شكلها يثيرني ولا شخصيتها قريبة لنفسي. وتكرر الأمر ، وصارت المقالات تنشر سرا وعلنًا مشهرة بي وبها ، ثم وصلتني تهديدات من جهات سياسية وأحزاب إسلامية بأن عليّ مغادرة البلاد وإلا سيتم اغتيالي. لم آبه للأمر ، لاسيما وكنت قد ألفت كتابا فكريًا عن وهم الآلهة!..

وفعلا تعرضت لمحاولة اغتيال حينما تم رشقي بسيل من الإطلاقات أثناء خروجي من الدائرة من قبل مسلحين مجهولين

أطالقوا الرصاص وهم في سيارتهم المسرعة ، التي اختفت ، وربما لهذا السبب لم أصب بأية إطلاقة نارية بل تعرض موظفان لجروح طفيفة.

أنا شخص عبثي ولا مبال. فمع سيل المقالات التشهيرية والتهديدات المتكررة ، قررت مواجهة الأمر ، فلم أغادر البلاد ، وواصلت كتابة ونشر مقالات فكرية في الصحف. وكانت مقالاتي مثيرة للجدل ، لأنها تواجه الفكر العنصري والطائفي ، وتدعو إلى تحرير الإنسان من وهم المقدس.

وتكررت محاولة الاغتيال مرة أخرى بتفجير سيارة قرب سيارتي ، لكن من حسن الحظ لم أكن موجودا. لكن طوال هذه الفترات كانت المقالات والرسائل في البريد الإلكتروني ، وفي المرة الأخيرة نبهني صديقي الرائد المحقق الجنائي آدم عبد السميع بوجود معلومات مؤكدة حول محاولة اغتيال وضعت قيد التنفيذ خلال أسبوع ، لكنهم لا يعرفون تفاصيل التنفيذ لذا لا يمكنهم إيقاف المحاولة ، لذا طلب مني الاختفاء لفترة غير محددة. حينها قررت السفر والرجوع إلى فينّا.

وضمن الاستعدادات للسفر عملت وكالة عامة لمديرة مكتبي. لكن بعد ذلك تكثفت المقالات التشهيرية ، بل صارت أكثر من مقالتين يوميا تتحدث بشكل تشهيري عن علاقتي بها ، وبكم من الكلام البذيء. وقبل سفري بأيام معدودة ، جاءت وهي تبكي ، وتقول لي:

- ستغادر لكنك ستتركني لعاري ، فهذا الكم من المقالات عن علاقتنا سيضعني في موقف محرج أمام أخوتي ، لاسيما لدي أخ في الخارج قد قرأ بعض تلك المقالات وجاء ليتأكد من الأمر.

فقلت لها بأنها تعرف أنه لا شيء بيننا ، فأجابتني هي تعرف ذلك لكن أخوتها وأخواتها والأقرباء لا يعرفون ذلك ويعتقدون أن

ما يقال صحيح ، ولا دخان بلا نار..!!

وحينما سألتها عن المطلوب قالت :

- لا شيء.. ، سوى ورقة زواج عرفي غير رسمي ، لا استخدمها إلا حينما أواجه تهديد الموت من قبل أخوتي..!

ولم يكن لديّ أي مبرر للشك في أنها ستكون عند كلمتها. وبما أني كنت على وشك السفر لذا وافقت ، فالأمر لا يستحق ما دام الزواج عرفيًا..!!. هل كان الأمر حماقة مني أم سذاجة أم غباء أم عبث ولا مبالاة..!. ربما كلها مجتمعة..

نظرت إليه مستغربة وسألت بتوتر:

- وماذا فعلت؟

ارتبك وقال بحزن ممزوج بالخيبة:

- أردتُ أن أدعم موقفها فوافقت أن أكتب لها عقدا بالزواج العرفي ، وكان ذلك قبل يومين من سفري ، ثم سافرت ، كما علمت لها وكالة عامة كي تستطيع أن تحافظ على منزلي وكل متعلقاتي في بغداد.

فوجئت إيفا ماجدولينا وقالت بتوتر واضح:

- أأنت مجنون؟ ألم تتعلم من تجربتك الأولى؟ هل أنت سوبرمان أو المخلص الذي عليه أن يحمل الصليب لينقذ البشر من خطاياهم؟ هل هذه مثالية أم طيبة مفرطة تقترب من السذاجة..!؟

- قولي ما تشائين ، فكل ما تقولينه وستقولينه أتقبله برحابة صدر ، لأن ما جرى بعد ذلك يجعلني أستحق كل ما يمكن أن يقال!..

- وماذا جرى..؟ سألت بخوف وفضول.

- أثناء سفري قامت ببيع دار لي إلى أختها بمبلغ من العيب أن يذكر مقابل القيمة الحقيقية للدار ، كما تلاعبت بما لدي من

مبالغ في حسابي بالبنك..! وذهبت لتصدق العقد العرفي في المحاكم المدنية.!!..

– ماذا تقول؟ قالت بدهشة وعصبية.

– هذا ما جرى..! في حينها اتصل بي صديقي الرائد آدم عبد السميع وأخبرني بالتفاصيل ، لكنه أيضا لم يشجعني على العودة..! ومن هنا موقفه منك ، فهو لا يثق بأحد .!..خاصة النساء..

– وماذا جرى..؟ وكيف عدت؟ وكيف انتهت الأمور..!؟

– وكلّت محاميا ليتابع الأمور..! لكن المحاكم فاسدة والقضاء فاسد ، القضاة فاسدون ، والمحامون مرتشون..! بلاد حتى المُخ الذي في العظام فيها فاسد ومريض..! فكنت كلما أصل إلى كسب القضية يتم تميزها ويلغى القرار من قبل لجان قضائية فاسدة ، فأرد على التمييز بتمييز ، وهكذا ، استمر الحال أربع سنوات..! حتى تمكنت التخلص منها والانفصال عنها.

– وأموالك..؟ سألتْ بفضول.

– أخذت قرار ا باستعادة بعض منها وليس كلها ، لأنها بدعم من بعض المحامين والقضاة الفاسدين اعترفوا بتحويلات مزورة تم عملها بطريقة الفوتوشوب. وطبعا هذا اختصاصي في كشف التواقيع والسندات والتحويلات المزورة ، لكن لا فائدة إذا كان القاضي ولجنة الخبراء مرتشين..! المهم عدت بعد سنوات ، لكن ليس لوظيفتي وأنما لأعود كخبير مستقل أتعاون مع المحققين وبالتحديد في القضايا التي يحقق فيها الرائد آدم عبد السميع..!.

وحدث أن أحد أصدقائنا القدامى ممن كانت لديه مشكلات نفسية ، وكان قد قتل زوجته ، خرج من السجن ، ولشكوكه بأننا من قام بالإبلاغ عنه قام بمحاولة اغتيالنا..! لكنه حين ذهب لتنفيذ عملية الاغتيال ، وحينما خرج تعثر بزجاجة كان فيها ثعبان ، وهي هواية الرائد في جمع الأفاعي والعقارب ، فلدغته. وهو الآن في

الفندق وأنا والرائد نبحث عنه..! وهنا التقيتك أيضا.. ياتوأم شعلتي واكتمال دائرة الروح.!..

في تلك اللحظة رن الهاتف في الصالة. نظر كل منها نحو الآخر ، كلاهما أراد الذهاب لمعرفة المتصل ، لكن كلاهما يعرف بأن رفع السماعة للإجابة يعني الغياب والانتقال إلى خارج الفندق ، لذا نظرا إلى بعضهما وكأنما يبحثان عن الإجابة لدى بعضهما بعضا ، وأخيرا قالت:

- دعنا من ذلك. نحن معا الآن ، وهذا أهم شيء في تاريخنا الشخصي. لنكفّ عن الذكريات المؤلمة والقاسية ولنبتعد عن الماضي الأسود ولنقرأ «دفاتر الجحيم..“

- نعم لنقرأ « دفاتر الجحيم..“

ومد يده ثانية إلى دفتر قربه ، وبدأ يتصفحه ثم بدأ القراءة بصوت مسوع:

دفاتر الجحيم

الدفتر الأول
جوقة الفتيات المشاغبات

حواء الفاطمي

أنا حواء الفاطمي، أدرس في تخصص بعيد عن رغبتي الشخصية الحقيقية في جامعة ما ببغداد، علمًا إن أخي يدرس الدكتوراه في الآداب وأبي أستاذ جامعي في كلية الآداب، وبيتنا مليء بالكتب. لكني لا أقرأ، أو لأقل إنني توقفت عن القراءة بعد أن كنت مهووسة بالكتب، أطارد كل كتاب في كل فن مستطرف ومعقد.

أنا فتاة عاطفية جدًا، تؤذيني كلمة أو حتى ضحكة إذا جاءت في غير محلها. لا أمر بالأشياء مرورًا عابرًا، إذ أفكر بكل جملة أو تعليق يُقال، وأبقى لأيام أحلله وأفككه وأبحث عن احتمالات مقاصده ودوافعه. أبدو رزينة جدًا، لكنها رزانة قد تبدو حقيقية للآخرين لكني مع نفسي هشة جدًا، وحين أكون وحدي بغرفتي ابتعد آلاف السنوات الضوئية عن شيء اسمه الرزانة. أبدو للآخرين قوية وعاقلة، لكني مع نفسي مجنونة ومتهورة ومغامرة. حساسيتي مرضية، إذ تؤثر بأشياء بسيطة جدًا، أشياء تبدو للآخرين أنها عادية وعابرة، بل ولا ينتبهون إليها.

ومع إنني معروفة بين صديقاتي بأنني العاقلة والحكيمة ومستودع أسرارهن الأمين، لكن ذلك هو قناعي لأنني عاطفية

جدًا. أحيانا صديقاتي يمازحنني بنكتة أو تعليق حول رجاحة عقلي ، وثقافتي ، ورزانتي ، وخفة دمي التي تجعلني محبوبة بينهن ، وطاقتي في الحركة ، وأفكاري العملية ، ويبدين استغرابهن من أنني لا صديق أو حبيب لديّ!!؟

ومشكلة الفتيات في كليتي أنهن لا يفرقن بين الصداقة والحب ، فالصداقة القوية يعتبرنها حبًا وعشقًا ، فما أن يتقرب منهن شاب حتى يعتقدن أنهن وجدن حبيب العمر ، وتخطر أطياف الارتباط الأبدي في نفوسهن ، لكن لا شيء يتحقق من هذا ، فالآخر يتمتع بهن جسديا وعاطفيا باسم الحب ، بل ويملّ منهن فيذهب إلى أخريات ، أحيانا بعلمهن ، وأحيانا يجري ذلك سرًا ، وبعضهن يحببن تقمص دور الضحية والعاشقة الوفيه التي تتحمل كل خيانات الحبيب ، فيدفعن بشريكهن إلى الأخريات ليثبتن له عظمة حبهن..!

ومنهن من يقبل ذلك بالاتفاق أو يفعل ذلك من غير اتفاق ، وحين يرجع إليهن بعد أن لا يجد أية واحدة تتجاوب معه ، تحس العاشقة المسكينة أنها ملكت العالم ، لأنه عاد إليها وفضلها على الآخريات ، بينما هي لا تدري بأنها المهملة والتي في الظل ، وأنها الفاكهة الذابلة ، مثلما يفتح أحدنا ثلاجته الفارغة فلا يجد سوى تفاحة ذابلة ، وليس أمامه خيار سوى قضمها.؟! بينما هو يقول للعاشقة المسكينة أنه فتش بين كل النساء فلم يجد مثلها ، وانها ، وأنها ، وأنها. فتفرح العاشقة المسكينة وكأن الأرض لا تتحمل فرحتها فتحلق إلى أعنان السماء ، وتقرر مع نفسها بأنها له وحده وستكون له وحده!..

المهم ، كثيرًا ما تنتهي الصداقات بمأساة عاطفية ، لأن في أي منعطف ، تتكشف حقيقة تلك المشاعر ، لاسيما حين يتكشف بأن الطرف الآخر لم يفكر بالارتباط ، بحجة أنه يخاف الارتباط ،

وحينها تبدو المشاعر عارية من أي مئزر يغطيها ، فلا التبريرات ولا الاتهامات تشفع لها ، وتنطلق مفردات الخيانة وغدر الحبيب ، لكن الحقيقة هي أن العلاقة أصلا لم تكن حبًا حقيقيًا.

أحيانا أبكي بلا سبب ، أبكي وينزل دمعي حين أسمع عزفا موسيقيا شجيًا ، لاسيما موسيقا الكمان. وأحيانا ، يحدث حين تروي لي صديقاتي مشاكلهن العاطفية وهن يطلبن رأيي في ذلك ، أقول لهن شيئا حكيمًا ، وكأنني عاشقة مجربة وحكيمة في العشق ، لكنني حين أخلو إلى نفسي أتخيل نفسي هي العاشقة في الحكاية بدلًا من صديقتي ، وأعيش أحلامي ومشاعري بكل حرارتها وارتعاشاتها العاطفية.

هل أنا مريضة..؟ يمكن ، لكني أقولها بصراحة ، فحين أكون مع صديقاتي ، أبدو لهن الصديقة الرزينة ، الثقيلة في سلوكها ، الحكيمة في إبداء النصائح ، بيد إني حينها لا أمثل ذلك ، وأنما أكون حقيقية في كل كلمة أقولها فعلًا ، ومشاعري تكون صادقة ، بينما حين أكون وحدي في غرفتي ، وأنزع عن وجهي ونفسي قناع الرزانة والحكمة ، أتحول إلى فتاة خفيفة السلوك ، نزقة ، مغامرة بشكل يكاد يكون مبتذلا قياسا لما أبديه عندما أكون معهن ، بل ومتهورة.

تراودني أحيانا خواطر بأن أنطلق معهن وأخفف من رزانتي ، لكني لا أستطيع ذلك لأني تلبست دور الرزينة أمامهن ، وهن لا يستطعن أن يتقبلنني بغير هذا الدور ، إذ ستكون صدمة لهن لو تصرفت مثلهن بتلقائية وتقرّبت من الشباب ، ودخلت في علاقة مع أحدهم.

أنا سجينة قناع الرزانة والعفة. هذه لعنة دور الحكيمة الرزينة. نعم هكذا أنا ، مزاجية ، باردة الأعصاب ، أغار كثيرًا من صديقاتي لأنهن يعشن علاقات مع الشباب ، بينما أنا لا أستطيع ذلك ، لذا

أكبت غيرتي إلى الدرجة التي أبدو فيها لامبالية وباردة.

أحيانا تنتابني حالات حزن مفاجئ، أبدو لصديقاتي بأنني مرحة ولا أحزان لديّ، لكني حزينة في داخلي، أحاول أن أبدو متواضعة وبسيطة وتلقائية، لكني في الحقيقة لستُ كذلك، أنا أتصنع التواضع لأنه فضيلة محمودة، وأتصنع البساطة لأنها وسيلتي كي استطيع الدخول إلى دائرة الآخرين الخاصة، وأتصنع التلقائية كي استطيع أن أقول ما أقول، فإذا ما أخطأتُ فلدي فضيلة التلقائية التي تشفع لي بأني لم أقصد سوءًا بذلك.

أنا أعرف أسرارهن لكن لا واحدة منهن تعرف شيئًا عن أسراري. ما يعرفنه عني سطحي، وخارجي، يعرفن إن أبي أستاذ جامعي في كلية الآداب، وأخي يدرس للحصول على الدكتوراه، وأنا من عائلة ميسورة، وأمي ميتة. لكنهن لا يعرفن أكثر من ذلك عن وضعي العائلي، وشخصيًا وضعت حدودًا للحياة الخاصة، فلم أدعوهن إلى بيتي مهما كانت المناسبة، وقليلًا ما يحصل أن نذهب إلى مقهى في أحد الأسواق التجارية التي انتشرت في بغداد.

هن لا يعرفن مأساتي. فهن لا يعرفن أنني متزوجة وكنت أرملة..! ومتزوجة ثانية، ولدي تاريخ ومغامرات، ومأساة!.

نعم. أنا لست تلك الرزينة التي يعرفنها، بل كنت أكثر رومانسية منهن، وربما أكثر شقاوة..! فقد كنتُ مراهقةً حين بدأت علاقتي مع ابن جيراننا الطالب الجامعي، آدم فتح الله، الذي كان بيت أهله مجاورا وملاصقا لبيتنا. وكانت أمه وأخته تزوران أمي، وصارت بيني وبين ابنتهم صداقة قوية، وكانت تكبرني بأربع سنوات. كنتُ حينها في السادسة عشرة وعلى مشارف السابعة عشرة من العمر حين أخذت ابنة جيراننا تحدثني عن أخيها الجامعي، وكيف هو معجب بي، ويريد الزواج مني ما أن ينتهي من جامعته، وأنه يود أن يقابلني ويتعرف عليّ. تلك الأيام هي

أجمل حياتي ، عشت مشاعر العشق والهيام والولع بكل ما تعنيه هذه الكلمات وما وصفت في الشعر والأدب.

كنت أحيانا أرقص في غرفتي حين أفكر بأنني أحب ، وهناك من يحبني ، وأن كل قصائد الحب في التراث العربي كُتبتْ من أجلي. بل كنت مغرمة بالقصص والأفلام البكائية الرومانسية ، ككتب جبران والمنفلوطي ، والأفلام الهندية.

كانت الأجواء مهيئة ، فلا شكوك تحوم حولي ، ولا قيل وقال أو أية اعتراضات إذا ما ذهبت إلى بيت جيراننا. كنت مجنونة ، لم أصدق بأنني أعيش قصة حب..! استمرت بيننا المراسلات لستة أشهر تقريبًا ، ووسائلنا كانت المسنجر ، والتليغرام ، والواتساب والانستا والسناب والهاتف الجوال وغيرها. كنا نسهر حتى الصباح ونحن نكتب لبعضنا ، أو نتحدث مع بعضنا.

صارحني بأنه يحبني ويريد أن يتزوجني ، وطبعا اعترفتُ له أنا بالحب أيضًا ، وكان يقول لي بأنه يريد أن نقترب أكثر. ومن خلال الحوار عن حياتي الحميمية عرف بأني لا أعرف شيئًا عن أمور الجنس ، فقال لي بأنه سيأخذ على عاتقه هذا الأمر ، لأنه سيتزوجني ويريد أن نكون سعداء في هذا الأمر ، وبدأت تواصلنا الجنسي عبر السناب فأراني ما لديه ففزعت وتقززت ، لكن شيئًا فشيئًا بدأت أعتاد ، وأخذ يطلب مني أن أتعرى ، وهكذا صرت مكشوفة له بالكامل..! لكني كنت أقنع نفسي بأنني له وحده وأنني سأتزوجه فلا ضير أن أفعل ما يطلبه مني.

واعترف إنني انفجّرت كالبركان ، لم أكن أعرف إنني شبقة إلى هذا الحد ، لذا صرت أنا أطلب منه بكل وقاحة أن يكشف لي عن جسده أيضا..! وبدأنا نخطط لتذوق ذلك عمليًا.!..

كنت أختلق الحجج لأمي كي أذهب إلى بيت الجيران ، وقد ساعدتنا أخته في تدبير اللقاءات ، حينها عرفت طعم القبل

والملامسات. تفجر جسدي بشكل شيطاني..! كنت رومانسية وباردة جسديًا ، كتلة من الأحلام الرومانسية والطهرانية ، لكن فجأة تفجرت الشهوة في جسدي ، وكأنما ثمة مارد شيطاني استيقظ من غفوته..! ومع ذلك لم أتردد أو استهجن هذه الاندفاعات الجنسية..!. بيد إن أخته تزوجت وذهبت بعيدًا إلى محافظة في أقصى جنوبي البلاد.

أمي وأمه كانتا شبه متفقتين على أن نكون لبعضنا من غير إعلان رسمي. أبي كان لا مباليًا. فقد كان ، على الرغم من شهادته الجامعية ، وسفراته العديدة للدول الأوربية ، متزمتًا وكأنه يعيش في كهف مظلم ، بل كان حادًا في موقفه من المرأة ، فهي متهمة من دون ذنب..! ولا أعرف كيف كان يثق بأمي..! ربما لأنها كانت تتعامل معه مثل أمه وليست زوجته..! وكان غير منصف في تعامله بيني وبين أخي!..

كنتُ أفضل من أخي في السعي الدراسي ، وكنت دائما الأولى على صفي ، وعلى جميع الصفوف في المدرسة ، وأخي دائما يرسب في مادة أو مادتين ، لكن من خلال تدخلاته الشخصية كانت إدارة المدرسة تدفع به إلى الصف اللاحق ، ومع ذلك حين يأتي أخي بنتيجته أخر العام وهو لم ينجح بمادة دراسية أو مادتين كان يواسيه ويهوّن عليه ، ويرفع من معنوياته ويعده بالتدخل لدى إدارة المدرسة والمدرسين المعنيين ، ويخصص له أستاذًا لتدريسه المادة المعنية فترة الصيف..! بينما كان ينظر بلامبالاة واستخفاف إلى الورقة التي تحمل درجاتي العالية ، وملاحظة إدارة المدرسة حول تميزي وتفوقي على بقية التلاميذ. كان يعطيني الورقة من دون أي تعليق ، بل أحيانا كنت على شبه يقين بأنه كان يتمنى رسوبي..!.

واستمر هذا الأمر في ما بعد حتى في المرحلة الجامعية..!

كان هذا الأمر يملأ قلب أمي وروحها بالأسى..! لذلك هي انتبهت بغريزتها إلى فرحي بعلاقتي مع ابن جيراننا ، وإن لم نتحدث بذلك صراحة ، لكنها خمّنت بأن جلساتي الطويلة التي كانت مع ابنتهم لها علاقة بالأمر ، كما أن مديح أمه الكثير لي أوحى لها بوجود شيء بيننا.

بعد ستة أشهر من بدء الأحاديث بيننا ، بدأت ملامساتنا الجسدية..! ويا ليتها لم تبدأ..! وكان ذلك قبل زواج أخته.

لكن ذهبت النشوة وجاءت الصحوة ، إذ في أحد لقاءاتنا ، والتي هيئتها لنا أخته ذات يوم ، إذ كانت العائلة في زيارة طقوسية إلى المدن المقدسة ، كنا وحدنا ، وأقنعني بأنه فاتح أمه برغبته في الزواج بي ، وأنه لا يريد زوجة جاهلة في أمور الجنس ، لذا هو يعتبرني زوجته ، ومن هنا يريد أن يكون معي ، ويهيئني ، ويثقفني جنسيًا ، والنتيجة أنه اخترقني. وصحوت على هول فضيحتي..!.

لكنه ، والحق يقال ، كان شهمًا وليس نذلًا كما كنت أسمع من قصص عن هؤلاء الشبان الذين يغرون الفتيات بالحب والزواج وحينما يصلون إلى أجسادهن ينبذوهن بحجة إنهن رخيصات وسيئات ومبتذلات وغير جديرات بالثقة ، لأنهن منحن أجسادهن لهم.!..

المهم ، حبيبي لم يكن كذلك ، فقد كلّم أهله بضرورة الزواج ، على الرغم من اعتراضاتهم ليس ضدي وأنما ضد ظروفه غير الملائمة لأنه لم يتخرج بعد ، وأنا في سنتي الثانوية الأخيرة.

حينها أصرّ على خطبتي وعقد القرآن حتى ينهي جامعته ، ولأنه الابن السليم لهم لأن لديهم ابن آخر معاق ، أخرس ، لذا نزلوا عند رغبته ، وفعلًا جاءوا إلى أبي وطلبوا يدي ، ولم يصدق أبي المتزمت دينيا والذي يخاف شهوة النساء ، كما قال لي لاحقا ، فوافق مباشرة.

كنت أكثر من سعيدة ، لكن هذه السعادة لم تدم ، إذ انقطعت دورتي الشهرية ، وحين أخبرته ، وقف إلى جانبي وقال سأتزوجك ونعلن زفافنا ، وطلب من أهله ذلك ، لكنهم هذه المرة اعترضوا بشدة ولم يوافقوا. كانوا يسألون عن سبب إصراره على الزواج ، لكنه لم يبح لهم عن السبب الحقيقي ، خوفا على سمعتي..! وما بين اعتراضهم وإصراره حدثت المأساة!.

كان يومًا ربيعًا مشرقا من أيام نيسان حينما خرج فيه صباحًا إلى الجامعة كعادته ، لكن وأثناء عبوره الشارع ، صدمته سيارة مسرعة ، يقودها شاب مراهق أرعن ، أخذ مفاتيحها خلسة من والده المسؤول الكبير في أحد الأحزاب الإسلامية الحاكمة ، وكان الفتى المراهق قد تناول حبوبا مخدرة ، لذا سار في شارع وسط منطقة أهلية معروفة في بغداد بسرعة هائلة ، فقتلت حبيبي وخطيبي فورا ، بل وقطعته شذرا.

لا أنسى ذلك المنظر.. فقد هرعنا جميعًا إلى موقع الحادث الذي كان قريبا جدًا من الفرع الذي نسكنه والذي ينفتح على الشارع العام. وياليتني لم أذهب..!

لم نجده وأنما وجدنا أشلاء. مخه كقطع مخاط يلوث إسفلت الشارع ، وذراعه مهشمة ومقطوعة ، وبقايا قدمه ، وجزء من فكه وأسنانه ، وأحشائه مع جزء من بطنه ملوثة بالتراب..! بل وبقايا من أمعائه تكشف عن الغائط.

أهذا هو الإنسان..؟ أين المشاعر ، والفكر ، والجمال والحب؟ لم يبق سوى هذه الأشلاء الكريهة..!! أهذا حبيبي؟ أهذا الذي كنت أتمنى أن أعيش عمري معه إلى آخر شهقة تنفس فيه!!؟.

لا أدري ما الذي جرى. فقد كانت بداية ذلك اليوم مشرقة ، لكن ما أن رأينا أشلائه حتى بدأت غيوم غامضة تغطي السماء ،

وحين وصلت الإسعاف وسيارات الشرطة بدأت السماء تسكب دموعها المدرارة ، وهطل مطر غريب.

كنت خلال تلك اللحظات في حالة تيه وشرود من أثر الصدمة ، بينما الأم كانت تنوح وتلطم على رأسها وتخرمش وجهها بأظافرها حتى أدمته. كانت السماء تغسلني وتزيح ألوان الفرح عن نفسي وعالمي. كان المشهد مخيفا ، بل غسلت الدماء ولم يبق من حبيبي شيئًا وكأنه لم يكن موجودًا!!

حينها ، ونحن في موقف الحادث بشارع فلسطين ، والمطر المدرار يهطل بشدة وغضب ، أغمي عليّ..! تلقفني أخوه الأخرس بذراعيه ، وحملني إلى بيتهم ، وليس بيتنا ، ولم أعرف سرّ ذلك؟ واتضح لي في ما بعد بأنه كان يعرف من أخيه ما جرى بيننا.

ومرّت الأيام ، والفجيعة تكلكل على بيتينا.!..

تلك الحادثة قلبت حياتي وألقت بي في جب أسود ، فلم يعد ليلي ليلا ولا نهاري نهارا..! وحياتي صارت روتينًا تافهًا ، لكنني صرت وكأنني لستُ أنا..! نعم أنا هي حواء الفاطمي ، لكني في الوقت نفسه لستُ هي!..

لم أكن أعرف إن المصائب والفواجع تعجّل من نهاية الإنسان ، فقد انكسرت تلك العائلة ، صار الأب أشبه بالتائه أو المتوحد ، لا يكلم أحدًا ، شارد اللب ، هرم لأكثر من عشر سنوات خلال عشرة أيام ، أما الأم فقد كانت مصيبتها وحزنها يجعل الدمع يترقرق في العيون.

أما عني ، فلا اعتقد إن قاموس « لسان العرب» ، بكل مجلداته الموجودة في مكتبة أبي ، يمكنه أن يعبر عن مصيبتي ، وحزني ، وفقداني ، وتيهي. كنتُ أعرف إن حياتي انتهت بهذه الكارثة..! بل سيرافق هذا المصاب فضيحة مدوية هي حملي.

كانت إغماءاتي بالنسبة لأمي ولأمه مثار شك..! في أثناء

فترة العزاء كانت تنتابني علامات الوحم والتقيؤ. بعض المعزّيات فسرّنها بأنها من هول ما شهدته من بشاعة المشهد. لكن أمي وأمه ، بغريزتهما الأنثوية وخبرتهما ، خمّنتا حملي..! ولم تنته أيام العزاء ، حتى استدعتني أمي بحضور أمه. أغلقتا الباب ، واستجوبتاني بحرص وبهدوء..! حينها بكيت ، واعترفتُ!

أمي أخذت تندب وتضرب على صدرها ووجهها ، وتخرمش وجهها بأظافرها وهي تقول لي بأن أبي وأخي سيذبحاني. وإنني دمرت العائلة ، لأن أيًا كان من سيذبحني منهما فأنه سيدخل السجن وتتدمر حياته. حتى في هذا الوضع كانت تفكر فيهما وليس في ذبحي.

لكن أمه كانت شجاعة جدًا ، على الرغم من الكارثة التي حلّت بها ، إذ قالت لأمي بأنها فقدت ابنها ، لكن روح ابنها تنبض من خلال الجنين الذي في رحمي ، وأنها تريده.!..

فجأة ، توقفت أمي عن اللطم والندب ونظرت إليها مستفسرة ، فأجابت أمه بأنها إكراما لروح ابنها ومحبة بالجنين ، ستزوجني من ابنها الأخرس للملمة الفضيحة. ورأيت أمي تقبّل يدها ، بل نزلت لتقبل قدميها لكن المرأة الجارة كانت إنسانة نبيلة فوقفت مبتعدة ومستنكرة ما تفعله أمي.

وهكذا. تم نقل البضاعة بالنسبة لأمي. المهم أنها تجنّبت خراب بيتها من خلال اقتراف أبي أو أخي جريمة قتلي. أما أنا فلست مهمة ، ولا أعني لها أيّ شيء!!..

ومع انتهاء فترة الأربعين ، تقدم جيراننا لطلب يدي لابنهم الأخرس ، ولم يعترض أبي ، فهو يريد التخلص مني بأي شكل ، بل ولم يعترض أو يستفسر لماذا يريدون تزويجي لابنهم المعاق ، الأخرس؟ ولِمَ هذه العجلة وطقوس الأربعين انتهت للتو..!؟.

ومن دون فرح ولا زفاف وبملابس سود انتقلت للعيش في بيت

جيراننا. وكان زواجًا شكليًا ، إذ لم يقترب الأخ مني ، إذ هو يعرف إنني حبيبة أخيه..! وبعد أشهر ولدتُ ابنتي..! حينها أشاعت أمه بأنني ولدت ابنتي في الشهر السابع ، مع أن ابنتي أكملتْ الشهر التاسع في رحمي ، وذلك درءً للفضيحة.

لكن المآسي في حياتي لم تتراجع ، كانت حياتي كفيلم هندي مأساوي حيث تتراكم الأحداث الحزينة والمصادفات الغريبة. فقد كانت ابنتي في الشهر الرابع لها حين ماتت أمي بشكل مفاجئ. نعم بشكل مفاجئ ، ولم يقبل أبي تشريح جثمانها حتى لا يعرف الأطباء سبب موتها طبيًا. هل ماتت مسمومةً..!؟ أم نتيجة سكتة قلبية؟ أو مرض خبيث مزمن لم تنتبه له؟ لا أحد يعرف..

شخصيًا ، وربما نتيجة لموقفي من أبي ، راودتني شكوك ، فربما كان أبي وضع السم لها في شراب أو طعام ، ليتزوج عرفيًا من إحدى طالباته ، أو لأنه كان متزوجًا من إحدى طالباته أصلا ، وحين عرفت أمي بذلك سمّمها..!.

وأخذتُ استرجع تفاصيل الأسبوع الأخير قبل موتها. كانت لا تتكلم ، وحتى حين تزورني كانت تنظر لوجه طفلتي وتبكي صامتة ، وحين أسألها وأحدّثها لا تجيبني. لذلك تحول موتها المفاجئ بالنسبة لي إلى لغزٍ يجب حله ، لاسيما إصرار أبي على عدم السماح بتشريحها ، بل وعدم السماح بالكشف عن وجهها ، وأنما أخذها للدفن مباشرة ، حتى أنا لم يستدعوني حين ماتت وأنما بعد أن أحضر التابوت ووضعوها فيه ، وحملت على السيارة عندها استدعاني ليخبرني..!

لا أحد يعرف سبب موتها المفاجئ ، لكن الحقيقة التي أعرفها أنها ماتت مقهورة ، حزينة ، منطوية على نفسها بشكل مقفل وقوي. وسأقولها بوضوح وبلا خوف من نقمة أخلاقية: إنني أكره أبي. أنا غاضبة منه ، ومن القدر الذي حطّمني. والغضب إذا لم

يتم نفثه وطرده من خلال زفير النفس والروح ، بل يتم كتمانه في الأعماق ، سيتعفن ويأسن كالماء الراكد ، ويتحول إلى سم وشر وعنف مخيف ، وربما سينفجر كالبركان بشكل مدّمر..!..

بعد موت أمي انتقلت للعيش في بيتنا ، أو بدقة أكبر ، كنت أتواجد في بيت أبي قبل الفطور وحتى مجيئه مساءً. وافق أهل زوجي على ذلك ، كنت أقضي معظم وقتي في بيتنا ، أعد الفطور لأبي وأخي ، وأنظف البيت ، وأعدّ وجبة الغداء أو العشاء ، حسب تواجدهما معًا أو تواجد أحد منهما ، وأغسل ملابسهما وأقوم بكل شؤون البيت الأخرى ، وفي المساء أعود لغرفة زوجي..!

كنتُ آخذ طفلتي معي ، لكني وبطلب من حماتي صرت أتركها عندهم ، وكانت تهتم بها وكأن روح ابنها الفقيد تنط من خلال هذه الطفلة الصغيرة.. ، وكنت سعيدة بذلك.. لكني أهملت دراستي وانقطعت لسنتين عن اتمام ثانويتي..!. بيد إني ، ولا إراديًا ، وجدت نفسي أدخل في صراع قوي مع أبي. تمرّدتُ على كل ما يتمسك به هو ، وأول ذلك واجهت مفاهيمه ورؤيته المخزية والظالمة للنساء والمرأة..!..

ذات يوم ، كنت في المكتبة ، أنظفها من الأتربة ، وكان على طاولة مكتبه كتاب بعنوان «صحيح سنن الترمذي» وهو الخامس بين كتب الأحاديث الصحاح الستة ، والتي تضم أحاديث النبي محمد والمتفق عليها بين كل علماء الحديث والفقهاء المسلمين ، وكانت ثمة بطاقة موجودة طي الكتاب ، وحين فتحت الكتاب على تلك الصفحة قرأت حديثًا كان أبي قد لونه بقلم ملون ، والحديث يقول: (الحديث (1173) وصححه عن ابن مسعود عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : (الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ).). إذن ، من هنا يبدأ كل شيء..!..

ساقني الفضول لأعرف أكثر ، فقرأت صفحة عن حياة الإمام

الترمذي فعرفت أنه ولد بعد تاريخ الهجرة النبي محمد بأكثر من مئتي عامٍ. كيف يمكن التثبت من حديث قيل قبل أكثر من مئتي عام..!!؟.

طلبتُ من حماتي أن أواصل دراستي ، وكانت امرأة عاقلة ، إذ وافقتْ على الفور وبحماس وهي تقول لي بأن عليّ أن أدرس وأحصل على شهادة لأضمن مستقبلي ومستقبل ابنتي ، فهي لن تعيش لنا ، أنا وابنتي ، إلى الأبد. وهكذا أنهيت الثانوية مع اعتراضات أبي بأنني متزوجة وعليّ الالتفات لابنتي وليس للدراسة!..

وهكذا ، أنهيت ثانويتي بمعدل جيد. أبي أرادني أن أدرس في الجامعة التي يدّرس فيها كي أكون تحت رقابته ، لكني وعلى الضد من رغبته ورغبتي في دراسة الآداب قدمت أوراقي لجامعة أخرى ، وفي كلية بعيدة عن طموحي الأدبي ، وهذا ما زاد التوتر الخفي بيني وبين أبي. لكن فضولي لم يهدأ فأردت التعرف على محظية أبي وزوجة متعته..! فكنت أزور كليتهم.. وتعرفت على بعض الفتيات من الكلية التي يدّرس فيها أبي ، وصادقتهن. طبعا بصورة مزيفة واسم مستعار..!..

وبطريقتي الماكرة سألت عن والدي ، فعرفتُ أنه يستغل كل المسموحات والمسوغات الشرعية الطائفية ، فيتزوج بعض الطالبات ، أما مطلقات أو حتى متزوجات ، وأحيانا عذراوات ، زواجا مؤقتًا قصير الأمد ، وبعضهن يقبلن أما نتيجة للظروف المادية لأنه يكرمهن ماليًا أو ليساعدهن دراسًيا..! وأخبرتني إحداهن ، حين حاججتها بأنها تبالغ في الاتهام ، فأخبرتني بأنها كانت متزوجة منه لأسبوع ، وقالت لي بأنه متزوج من واحدة أنبتت القرون فوق جبينه ، فهي تعاشر الطلبة ، بل لديها عشيق ، تنفق عليه مما يعطيها والدي من مال..!. وهذه قصة أخرى سأعود إليها.

حياتي لم تكن بالحياة. فلا أنا متزوجة ولا أنا أرملة. رسميا

وشرعا أن زوجة الأخرس ، لكننا لا ننام معًا كزوج وزوجة. بيد إننا كنا نتصرف أمام الأم كزوج وزوجة. هل كانت تعرف أننا كأخ وأخت؟ لا أعرف. لكنها سألتني بطريقة مريبة ذات يوم: «أليس هناك حفيد آخر في الطريق؟ » ، فقلت لها وأنا أتمتم بارتباك «إن كل شيء بيد الله!..“

هذا الجملة أقلقتني كثيرًا. كنت أسعى لرضا حماتي ، فهي طيبة وتحبني وتحب طفلتي بصدق من دون تملق أو تظاهر مزيف. الرغبة في انجاب طفل آخر أيقظ لا شعوريًا الرغبة في جسدي.!..

سأعترف بشيء خاص ، هو أن زوجي الأخرس وسيم ، بل أكثر وسامة من المرحوم حبيبي ووالد طفلتي ، كما أنه رقيق ووديع ، ومنطو على نفسه بسبب الإعاقة التي يعاني منها..!. هو الأخ الأكبر ، وكان أكثر خبرة في الحياة ، فقد روت لي أمه أنه كان يسافر سنويا إلى خارج البلاد ويتجول بين البلدان ، كما أنه سجن بشبهة سياسية ، مع العلم أن لا علاقة له بالسياسة!..

كانت علاقتي به شبه منقطعة وشكلية ، وكنت أحيانا أكتب له إذا ما وددت سؤاله شيئًا ، وكنت أحيانا استعين بأمه التي تعلمت لغة الإشارة معه. وبالمناسبة ، هو قارئ للكتب أكثر مني ولديه غرفة مليئة بالكتب والروايات ينام فيها أحيانًا ، لاسيما في ظهيرة أيام الصيف ، وهي مهيئة للمعيشة أيضا ففيها سرير متوسط الحجم وثلاجة صغيرة ، ومكيف تبريد وتدفئة ، وطاولة عليها عدة للقهوة والشاي. على الرغم من أن دورق الشاي جاهز طوال اليوم في المطبخ ، فالشاي من طقوس العائلة الدائمة.

منذ جملة الأم وسؤالها عن احتمال مجيء حفيد ، استيقظت غريزة الأمومة مجددا في نفسي مثلما استيقظ جسدي الذي كان في سبات من فجيعتي ومصابي بموت حبيبي. ومع كل الحرج الذي رافق هذه اليقظة ، فأنا كنت أبرر لنفسي بأني لا أفعل شيئًا خاطئًا ،

فهو زوجي شرعًا ، مع أني أعرف شرعا بأنه زواج لم يكتمل لأني لم يمسني جنسيًا.

أحيانا لا ننتبه لقيمة البشر الموجودين حولنا ، وبين هؤلاء من يحبنا بصدق ويهتم بنا بإخلاص ، لكن شخصًا ما في ذاكرتنا ، بل ظلال شخص كان حاضرًا في تجربة لنا ، كطيف وذكرى مؤلمة ، وربما كتجربة مهينة تروي شعور الضحية في أعماقنا ، يعمينا عمّا حولنا ، لا تدعنا نتمتع بأفراح الوجود بشكل حقيقي وواقعي ، نحن العميان في متاهة الوجود ، الخسران قدرنا إذا لم ننتبه لصدق المشاعر.

ذات يوم ، وبعد أن نظّفت بيت أبي ورتبته وطبخت لهما ، توجهت لبيت عائلة زوجي ، وبعد أن أنهيت أعمال البيت كلها ، قرّرت تنظيف المكتبة. أنهيت تنظيفي البيتي هناك ، وكان هو خارج البيت ، ففي كل جمعة يذهب إلى شارع المتنبي ليشتري الكتب أو يتنزه.

مسحت الغبار عن زجاج خزائن الكتب المرصوفة جنبًا إلى جنب. لكن فضولي استيقظت حينما وجدت في إحدى الخزانات دفترًا سميكًا. أخذته وجلست على السرير الذي ينام عليه أحيانا. وبلهفة فتحت الدفتر ، فقرأت على الصفحة الأولى: « اعترافات آدم.. الأخرس بإرادته».

وتوغلتُ في القراءة...

اعترافات آدم..
الأخرس بإرادته

ولدتُ خلال سنوات الحرب في مدينة جنوبية. لا علم لي بوقت ولادتي إن كانت ليلا أو نهارًا ، لكني أعلم أني ولدت في المستشفى حسبما قالت لي جدتي رحمها الله. حين كنت طفلًا مات أبي في الحرب. لذا أنا وحيد أمي. لا أتذكر أبي أبدًا ، لم أره ، إذ حين سقط في الحرب المجنونة كان عمري 4 أشهر فقط.

طفولتي كانت قاسية ، صارمة ، فقد ربتني أمي بقسوة لا مبرر لها ، فقد كانت امرأة صعبة المراس وعصبية المزاج ، إذ كانت تثور بسرعة ، ولأتفه الأسباب. أحيانا كنت أتلقى الضرب المبرح ، خصوصًا فيما يتعلق بأمور النظافة والدراسة. لا أتذكر من طفولتي سوى القسوة ، على الرغم مما تكنه لي أمي من حب وحنان.

كنت متعلقا بها جدًا. ومع أن تعلقي كان شديدًا بها ، لكن ذلك لم يمنع قسوتها وصرامتها معي ، فحتى أمام الناس كانت تحاول أن تنتقص من شخصيتي ، وكانت تسعى جاهدة أن تبدو أمام الناس بأنها الأم المضحية التي ضحت بشبابها من أجل تربيتي وطبعا هذا أمر طبيعي ، فهي لم تتزوج ، وربتني إلى أن أصبحت رجلًا.

من طفولتي لا أتذكر شيئًا محددًا سوى قسوة أمي المفرطة ، ولم يبق من مشاهد طفولتي سوى صورة طفل يرتدي بيجامة في مواقف غير واضحة.

بدأت شخصيتي تتكون عندما بلغتُ العاشرة من عمري. بدأت أعي وأفهم الأشياء من حولي وأدرك علاقات الناس معي ومع بعضهم بعضا ، لكن الشيء الأساس الذي ساعد على تكوين

واكتشاف شخصيتي أو بالأحرى كان عاملًا مساعدًا وحاسمًا في ذلك هي القراءة.

تجربتي كانت مريرة وصعبة للغاية ومحزنة في الوقت نفسه ، لاسيما أنني كنت لا أتكلم ، مما كان يثير لدي مخاوف من المشاركة في الدروس وأمام الطلبة خوفًا من السخرية والتهكم ، وهذا ما خلق في داخلي جنوحا نحو العزلة التامة والإصرار على عدم التكلم.

وجدتُ حالي أفضل في العزلة والابتعاد عن الناس قدر الإمكان ، ولُقبت بالأخرس ، وارتضيت ذلك ، فهذا يجنبني الوقوف أمام التلاميذ في الصف لقراءة شيء ما. جميع من يعرفونني يصفونني بالمعقّد ، مع أني لست معقدًا ، إلا إنني وجدت نفسي هكذا في عزلة ووحدة ، حتى بعد أن بلغت سن الر شد.

أمي عرضتني على أطباء عديدين ، لكني كنت أصر على عدم النطق ، مما وضع الأطباء في حيرة ، فأنا لا أعاني من عوق فلسجي ، ومع ذلك لا أتكلم. وبعد أن كانت أمي تضربني لأنها تعتقد أنني كنت أعاندها ، في النهاية استسلمت إلى حقيقة أنني أخرس. مع نفسي كنت فرِحًا.

فقداني للأب ويتمي فتح عليّ أبواب الجحيم. ليس لافتقاد الأب كأب وراعٍ وموجه لي ، فبعيدًا عن قضية حب الوالدين كما تدعو لذلك الأديان ، فأني لم أكن أية مشاعر نحو أبي ، لأنني ببساطة لا أعرفه ، ولم أره ، ولا أتذكر ملامحه أبدًا ، إلا من خلال صورة له مع والدتي قبل أن أولد.

كنت بالنسبة لأمي عالمها ، لكن في الوقت نفسه لم أكن شيئًا يمكنها أن تفاخر به ، لاسيما بعد ثبوت خرسي ، لذا لم تكن تنتظر مني الكثير أو تهتم لتهيئتي أو لغدي ومستقبلي.

كنا ننام في غرفة واحدة ببيت كان أبي قد اشتراه قبل ذهابه

إلى جبهات القتال. غرفة وصالة صغيرة في الطابق الأرضي مع مطبخ وتواليت. وغرفة في الطابق الأول مع حمام.

لا أعرف الكثير عن عالم النساء وتفكيرهن ، لكني أتذكر مشاهد واضحة جدا من طفولتي. كانت أمي على الرغم من تدينها الشكلاني ، إذ كانت تؤدي الفرائض التي تعودتْ عليها ، لكنها مثلا كانت تأخذني إلى غرفة الحمام معها وتحممني هناك معها ، وكنت أرى عريها كاملًا. ولم تكن تأبه لي أبدًا ، بل إلى الآن وأنا في الأربعين أتذكر حلاقتها لما بين فخذيها أمامي. بل هذا المشهد دمّر حياتي إلى الآن مع أني تزوجتُ وعندي ابنة..

ذات يوم ، حين كنت صبيا على أعتاب المراهقة ، كنت في الحمام ، ولا شعوريًا رحتُ أداعب نفسي. لا أعلم ما الذي أصابني وقتها ، فسرعان ما شعرتُ بتيارٍ مريح يسري في جسدي ، وهكذا تعلمت بشكل تلقائي العادة السرية التي كانت مخرجي الوحيد من أزمة رغباتي في غالب الأحيان.

في تلك الفترة أحببت فتاة كانت معي في المدرسة ، كانت تكبرني سنًا ، فهي في الصف السادس وأنا في الصف الرابع ، وتبادلنا الرسائل الغرامية البدائية الساذجة. لقد أحببتها بشدة.

كانت تمثل لي خلاصًا من قسوة أمي ، لكنها تلاشت من حياتي كما تتلاشى اللحظات الجميلة بسرعة لتضيع في بئر الذاكرة العميقة.

كان تفتحي مبكراً جدًا. بعد ذلك أحببت ابنة خالة أمي وكانت تكبرني بكثير ، كنت أعشقها وأحاول جاهدًا التقرب منها ، مع علمي المسبق أن حبي لا جدوى منه ، ومع ذلك كنت أحبها بجنون ، وكثيرًا ما صورها عقلي الباطن وهي تقف أمامي عارية بصدرها النافر وجسدها الممشوق القوام ونعومة ما بين فخذيها.

لم أكن وحدي الذي يختلي حين يمارس عادته السرية ، فقد

رأيت أمي المسكينة ، خلسة ولأكثر من مرة ، وهي تمارسه العادة السرية بشبق. فقدت كانت شابة وأرملة تضج بالشباب ، لكنها لكثرة الأرامل والمطلقات والعازبات لم تستطع أن تتزوج ثانية بسهولة ، وفي الوقت نفسه كانت متزمتة ولا تقبل أن يقال عنها إنها تركت تربية ابنها وهرعت للزواج ثانية. كلام الناس كان يهمها جدًا جدًا.

أدمنتُ مشاهدة الصور والفيديوهات الإباحية. وكانت تثير رغبتي وتزيد من وطأتها على نفسي. كان ذلك في وقت مبكر من عمري وفي بدايات مراهقتي. وما شغلني إلى جانب ذلك هي القراءة. وأعجبتني روايات المغامرات والملوك والفرسان الثلاثة. روايات عن الدسائس التي تحاك في البلاط الفرنسي وصراعات الملك مع الكنيسة وتسلط الطبقة الدينية.

وبدأت أولى محاولاتي بكتابة القصص والروايات ، بل بدقة أكبر كانت محاولات تقليد واستنساخ مما أقرأه ، فقد كتبت مجموعة قصص أو روايات أو هكذا ظننت حينها ، وكانت في الغالب بوليسية ، ربما لتأثري بكتب آجاثا كرستي ، ولكن هناك قصة كتبتها وأتذكر أني عنونتها بـ (مأساة الأمير ماكسمليان) وهي تحكي قصة أمير سُلب حقه واغتصب ملكه ، ونضاله لاسترجاع ما يملك ، ربما كتبتها لتأثري الشديد بروايات المغامرة والبطولة.

في البيت كنت هادئًا ومنعزلًا. أما في المدرسة فقد مرت مراحل كنت فيها مشاكسًا ، وكنت مصدر شكوى الإدارة المدرسية ، ومع ذلك صرت أخرسًا حقيقيا.

علاقتي مع الدين متذبذبة. عندما أشعر بالوحدة والخوف يزداد تمسكي بالدين لدرجة لا أشعر بالراحة إلا حين أقيم الفروض الواجبة. وأحيانا لا أقترب من الدين. لكن في العشرين بدأت شكوكي الحقيقة حول الدين ومقدساته وتشريعاته ، وحلاله

وحرامه، والسؤال الأهم عن الموت وما بعد الموت، وعن الله، من هو؟ وكيف هو؟ ومن أين جاء؟ ورافقتني هذه الشكوك إلى الآن، ولم أجد جوابا، لذا آثرت استغفال نفسي في عدم متابعة هذه الأسئلة.

في فترة مراهقتي كنت أشعر بالإهمال من قبل أهلي وأقربائي من جهة أمي. كان الجميع بمن فيهم أمي يعتقدون أنني أخرس حقيقة. تجاربي الحياتية الحقيقية بدأت مع القراءة. عرفت العالم من خلال الكتب والروايات.

مرت فترة انتبهت فيها إلى أن أمي كانت تتفرس بي وتراقبني. لم أفهم السبب، لكنها ذات يوم قالت لي: أنت كبرت وصرت رجلا ولا بد من أن تتزوج..! ومن دون أن تسألني خطبت لي ابنة أخيها، السمينة، والغريب أنني لم اعترض ولا بكلمة بل وتقبلت الأمر كتحصيل حاصل.

خطيبتي كانت جريئة جدا، لذا بدأت تجاربي الحميمة معها. مع أني كنت أنفر من هيئتها السمينة. مشكلتي كنت وأنا معها أتخيل مشاهد معينة من جسد أمي حين كنت صغيرًا معها وهي تحممني.

كانت زوجتي تعتبر حالها متفضلة عليّ لأنها تزوجتني وأنا أخرس. ولم يكن خرسي وعدم نطقي يزعجها، وأنما الكتب! كانت الكتب عدوة لها..! تكره الكتب لأنها كانت شبقة وتريد أية فرصة كي أكون معها..! وكانت تقولها علانية قبلنا بك أخرسًا فصرت أكثر صمتًا وعزلة من خلال القراءة. ومع ذلك كنت شخصًا ملولًا، أحيانا أعطيها الحق في أنها ترى نفسها قد تفضلت علي بزواجها مني!!..

اعترف إنني شخص صموت، وملول، وكئيب..!.. لكني مع ذلك كنت أحلم بأن أعيش قصة حب حقيقية مع امرأة أحبها وتحبني.

أحب أن أجد المرأة التي أحبها بصدق وإخلاص وأن أشعر أن حياتي من دونها لا تسير بانتظام واتزان ، ومع أن مثل هذه المرأة موجودة ، لكنها أمي ، وليس حبيبتي أو عشيقتي.!.

ملابسي تذكرني دائما برواية ستندال ، فهي لا تتعدى الأحمر والأسود ، وأحيانا النيلي.

أحيانا انتبه لنفسي وأرصد رغباتها الغريبة ، أنا أحب أن اكتشف نفسي ، نفسي بالنسبة إلى نفسي هي كائن غامض أحب أن اكتشف خفاياه ورغباته الغامضة. فمثلا أحيانا أشعر بشيء من الإثارة عندما ألتقي بشاب لديه ميول أنثوية. لا أعرف كيف أصف مشاعري نحوه ، لاسيما هؤلاء الشباب الذي يسعون إلى تحويل أنفسهم الى فتيات ، نحوهم أشعر بميل خفيف ، لكني لا ولم أقدم على التجربة.

أنا شخصية متناقضة ، طيب لأني لا أريد الشر والضرر لأي مخلوق ، لكني أيضًا عصبي المزاج وأرغب بفرض سيطرتي على الآخرين ، متسامح ، صريح ، لكن صراحتي تكون حسب ما تفرضه مصلحتي.

أنافق أحيانًا ، وصولي ، أبذل كل ما لدي للوصول إلى هدفي ، وبالتأكيد أهدافي جنسية في أغلب الأحيان ، لا يهمني هدف الوصول للنجاح عبر المهنة أو المال بقدر ما يهمني الوصول إلى ما بين فخذي المرأة ، ومع كل هذه الخصال غير الحميدة لا أشعر بالذنب ، لكن الأمر ليس بيدي ، فأنا مشوش ، ومعقد ، ولا أملك السيطرة الكافية على نفسي ، لذا حاولت كثيرًا أن أتصوف ، وأن أكون زاهداً لكني فشلت فشلاً ذريعاً.

الغريب أنا محظوظ مع النساء. سأكشف سرًّا إذا ما قلت إنني حين أكون بعيدًا عن محيطي البيتي أتكلم بشكل طبيعي. صحيح كنت لا أتكلم بطلاقة لكني أتكلم ، وحين أصل منطقتنا ينتابني

الخرس بشكل تلقائي.

كارثة حياتي حينما ماتت أمي بسبب مرض خبيث لم يترك لها مجالًا للعلاج. أنا أحتاج أمي كثيرًا ، حتى بعد كل هذه السنوات الطويلة على رحيلها. أشعر بأن هناك رابطة تربطني بها ، حتى وهي قد رحلت عن عالمنا هذا. رابطة لا أعلم ما هي ، هي بالتأكيد ليست رابطة الولد بأمه ، رابطة من نوع آخر وشيء آخر ، لا أعرف كيف أفسره.

أمي دمرت حياتي الجنسية ، فحين أكون مع امرأة ما وحين أصل معها إلى لحظة الإيلاج والالتحام استحضر عري أمي وبالتحديد ما بين فخذيها!..

أحيانا ينتابني شعور بأن الجميع ضدي ، الجميع يحيك مؤامرات في الخفاء ضدي ، وأجدني أصب جام غضبي على أمي وهي في العالم الآخر ، أشعر بأن جميع آلامي وانهياراتي وخساراتي في الحياة كانت بسبب أمي ، وأحيانًا أشعر بالندم لهذا الشعور ، فتجرفني عاطفة مشوبة بالندم نحوها. فأصلي لروحها ثوابًا.

نعم. عندما تواجهني مصاعب الحياة أقوم بإلقاء اللوم عليها وألعن اليوم والقدر الذي جعلها أمًّا لي. ومع ذلك أشعر ، بفيض من الأحاسيس والمشاعر المتناقضة نحوها ، هل أنا شخص متناقض في أعماقي ، هل أعيش بشخصيتين مختلفتين ، فمع شعوري بأنها السبب في كل ما يحصل لي وحصل لي ، ومع هذا ينتابني الحنين إليها عندما أشعر بأن الجميع يقف بالضد مني.

لست سعيدا في حياتي الزوجية. ولا أتمتع مع زوجتي على الرغم من شبقي ، بل وهوسي الجنسي. لستُ بهيمة ، فأنا أحس بنفسي متذوقا لجماليات الجسد الأنثوي. وحين لا ترغب نفسي في شيء فهي لن تميل إليه ، بل وتنطفئ الرغبة نحوه. لذا لا يمكنني أن أقوم بواجباتي الزوجية إلا في الظلام. زوجتي جثة في السرير.

ومع ذلك ، يحدث أحيانا أن أستيقظ ليلًا من نومي والشهوة تكاد تحرقني ، فأجدني أمارس معها وهي نائمة أو شبة صاحية ، أمسك بها بقوة في عمق الظلام ، وأحيانا أستيقظ وأدرك أنها إلى جانبي فأشعر بنفور نحوها لدرجة أغادر سريري لأنام في غرفة أخرى. أنا وحش بشري.

لستُ سعيدًا معها. لكني جبان ، ولا أستطيع اتخاذ خطوة الانفصال عنها ، وهذا ما دفعني للبحث عن منقذ يحررني من ضغوطات تلك الحياة التي أعيشها معها. وعلى الرغم من تأنيب ضميري المستمر إلّا إن الأمر خارج عن إرادتي.

ثمة شيء محير في علاقتي بأمي ، فعلى الرغم من أن أمي ماتت وهي في بداية الخمسينات ، لكنها تحضر في مخيلتي وهي شابة في نهاية العشرينات ، بل ثمة لقطات معينة حاضرة بقوة في ذهني ، لاسيما مشهد الحمام ، ومشهد استيقاظي على تأوهاتها وهي في سريرها.

ومع أن هذه المشاهد كانت تحاصرني في سنوات مراهقتي ، وعرفت في ما بعد بأنها تحضر بضغط من الرغبة المكبوتة ، لكنني وإلى الآن أشعر أنني تحت هيمنة هذه المشاهد التي تلاحقني بعناد حتى بعد زواجي وتعدد علاقاتي النسوية ، على الرغم من محاولاتي المستميتة لوضع صورة أمي في إطارها المقدس المتعارف عليه دينيا واجتماعيًا ، لكنني ويااللرعب ، أفشل في ذلك!

أنا مهوس بالنساء ، لكني بارد مع زوجتي ، بل هي أكثر برودة في علاقتها معي ، فأنا لا أجد لديها تلك العاطفة الحارة والفورة الجنسية الموجودة لدى غيرها ، إذ إنني أجد الأخريات كأنهن يرغبن بأكلي تمزيقي ، أما هي فكما قلت جثة هامدة في السرير ، مع أنني ، اعترف بأنها مطيعة ولم ترفضني قط ، لكنها جثة باردة وكأنها تقول لي بصمت وازدراء ، خلص وخلصني من هذا التقزز!

لديّ إحساس أقرب إلى اليقين بأنها تزوجتني مرغمة ، على الرغم من تأكيداتها لي بأن زواجنا تم برغبتها ، لكني أشعر بأن دوافع أجهلها كانت وراء هذه الموافقة ، وأنها ربما لظروف نفسية واجتماعية قد أرغمت نفسها على الموافقة ، وهذا الجانب يظهر جليا عندما تحدث مشاجرة أو مشكلة ما بينها ، إذ وفي لحظة الغضب تكشف عن وجهها الحقيقي ، وتضع قناعها جانبًا ، ذلك القناع الذي لطالما كان غامضا للجميع لكنه مكشوف لي. وربما لمستواها الثقافي البسيط ، فأنها أكثر شيء تردده لتكشف عن نفسها ، هي أنها تقارن بيني وبين رجال أو أزواج آخرين ، طبعا ليس في الأمور الحميمية ، وأنما في الشؤون الاجتماعية والتواصل لأني بطبيعتي منعزل بعض الشيء ، وتتمنى أن أكون مثل زوج أختها التي علاقتها هي به أقوى من علاقته مع زوجته ، التي هي أختها ، بل وعلاقتها بزوج أختها أقوى من علاقتها بي ، هذا الشيء ترك في داخلي غصة وجرحًا عميقًا ، مع أني لا أشك في هذه العلاقة ، ولا أفكر قط في عفتها الأخلاقية.

أحيانا اسأل نفسي إلى متى أبقى مع هذا الهوس الجنسي والابتذال الرخيص. أشعر في أعماقي المظلمة ثمة بئر سوداء عميقة ، بئر مملوءة بماء أسود اسمه الجنس ، يرافقه تأنيب دائم للضمير ، وهذا ما يدفعني كي أعود لنفسي ، لأعاتبها بمرارة ، وأقسو عليها ، وأقطع الوعود بالزهد والعفة ، والالتزام الأخلاقي ، لكن في لحظة ما أثار غريزيًا وينهار كل شيء. كل شيء.

وهذا ما يدفعني للشعور بالحسد لبعض الناس كيف يعيشون براحة وحرية بعيدًا عن شيء اسمه عذاب الضمير ، فهم يفعلون كل شيء يمكن تصوره لكنهم ينامون ، يضحكون ، يلعبون ، وكأن شيئا لم يحدث لهم. فهؤلاء يأخذون الأشياء ببساطة..(تيك إت إيزي) كما يقولون لي ، كم أتمنى أن أكون مثلهم ، وأن أعيش من

دون شيء اسمه الضمير..! أن أعيش بعيدًا عن شعور الخوف والتردد... ولكن هيهات!..

خرجت من رحم أمي ليقذف بي الزمن كشيء تافه على قارعة الطريق ، كانت لدي أحلام وتطلعات سرعان ما رأيتها تتحطم على صخور الواقع الصلدة.

أمي كانت محور حياتي ، هي من أيقظت شهوتي ، هي أول امرأة أيقظت ذلك الوحش الذي يسكن داخلي ويعذبني بصمت. أعلم أن هذا مخجل ، واعتراف بذيء ، ولا أخلاقي. وهو شعور يدلّ على تفاهتي ، وابتذالي ، ولكن مالي وكل هذا ما دمت أرى وجودي هكذا.

نعم أحب أمي برغم تحطم تلك الهالة القدسية المنسوجة حولها ، لكنها تبقى المرأة المشتهاة بشكل حقيقي في داخلي. ومع ذلك اعترف بأني إنسان ماكر ، مخادع ، لئيم ، فقد ماتت أمي ولم تسمعني يوما وأنا أتحدث معها ، ظنّتني أخرس فعلًا..! لم أحاورها ، بل كنت أحيانا أغضب منها وأود لو أنفث غضبي من خلال الكلمات ، لكني أبقى صامتا ، أخرس.

كان تواصلي معها يتم بهز الرأس وبحركة العيون ، فقد كنت أسمعها وأهز رأسي إيجابا أو رفضا أو إشارة على الفهم والموافقة. حتى زوجتي لم أكلمها ، لكن الأمر مع زوجتي كان نعمة ، فقد كان ذلك يوفر لي الكثير من القيل والقال ووجع الرأس. ومع ذلك أنا متأسف جدًا لأني لم أتحدث مع أمي ولم تسمع صوتي ، لأن خرسي كان يحزنها.

علاقتي بالشخصيات الروائية علاقة حقيقية. أحب بعضهم وأعجب ببعضهم الآخر.. أود هنا أن أقول شيئا ، أنا أعشق دوستويفسكي ، لكني لم أجد من كل شخصياته من استطيع محبته بتلقائية ، سوى الكلب الهرم الذي كان يملكه الجد العجوز في رواية

« مذلون مهانون».

عجيب إنني أحببت هذا الكلب بدلا من الشخصيات الروائية الرقيقة. فشخصياته متطرفة في عصابيتها وتسامحها المرضي كالأمير ميشكين. لا.لا. أحببت ناستاسيا فيليبوفنا من رواية « الأبله» أيضا.

لكني انتبهت إلى إننا كأشخاص في هذه البلدان الشرقية المغضوب عليها ، لا نشبه شخصيات الروايات الأوربية. لماذا؟ هل هم بشر آخرون؟.

ومع أن لديّ علاقات حميمة مع نساء عديدات ، لكني دائما ما أتوق إلى مغامرة سرية طويلة الأمد مع إحداهن ، وأن أعيش حياة سرية لا علاقات عابرة تنتهي بمجرد القذف. أريد امرأة أجد روحي فيها ، امرأة تنسيني النساء كلهن ، تنسيني أمي وتكون هي أمي. أجدها حولي متى ما ضاقت نفسي ، لكني أجد نفسي غير محظوظ ، فجميع علاقاتي بدأت بتعارف عن طريق الإنترنت وانتهت بممارسة الجنس. إنها دائرة شيطانية لا أنفك منها..

تمر بي أوقات أشعر خلالها بسعادة مطلقة حتى من دون سبب ، وأوقات أخرى أشعر فيها بيأس مطلق قاتل لا سبيل للخلاص منه إلا بالموت ومن دون سبب أيضًا ، وأحيانا أجد نفسي غريبًا عمّن حولي ، وأحيانًا أخرى أجدني قريبًا حتى من الناس الذين لا أعرفهم.

أتذكّر ذلك الحادث الذي مر بي عندما كنت في الصف السادس الابتدائي ، وكنّا قد انتهينا من تناول الغداء عندما بدأت الصور تختلط أمام عينيّ وفي رأسي ، وأصابني الدوار ، فقد شعرت وكأني أطير ، أرتفع وأهبط في نقطة اللاعودة ، بعدها لم أشعر إلّا وأنا في المستشفى. فحوصات كثيرة تم إجراؤها لي ، فلم يكتشفوا شيئًا ، وبقيت هكذا حتى تم تصوير رأسي بالأشعة

الصورية ليكتشف الطبيب إصابتي بمرض الصرع النفسي ولتبدأ رحلة معاناتي مع هذا المرض والعلاج.

في رواية «الأبله» كنت أركّز على نوبات الصرع التي كانت تصيب الأمير ميشكين ، وكنت أسأل نفسي كثيرًا حول تصوير دستويفسكي لنوبات الصرع ، فكنت أشعر وكأنه يصفني ، لأني عشت وما أزال أعيش تفاصيل حالة الصرع المرعبة ، ما عدا فرق بسيط أن النوبة كانت تأتيني أثناء النوم فقط.

أثناء نوباتي القديمة كانت أمي إلى جانبي ، وهي من كانت تشعر بي وتعمل على إيقاظي من النوبة ، وما زلت أذكر النوبة المرعبة التي انتابتني وكنت أظن أن أمي إلى جانبي ، لكنها كانت قد توفيت. لا أستطيع أن أصف ذلك الشعور عندما أيقنت أنها ميتة ، ولا أحد إلى جانبي ينتشلني من عذاب النوبات الصرعية. شعور قاس لا أتمناه لأحد.

المحبط في الأمر إني سابقًا كنت أصحو من نوبتي لأجد أمي وهي ترعاني وتهون عليّ ، والآن أصحو من نوبتي فأجد زوجتي وهي تأخذني بالكلام الغاضب والعتاب ، وكأن ما جرى لي كان خطأ مني لسهري المتكرر وقراءتي للكتب في أوقات متأخرة. ومع كل طبيعة علاقتي المتناقضة مع أمي فهي أحن عليّ من زوجتي.

ينتابني حنين للماضي ، حنين متأصل. أفكر بأناس رحلوا منذ زمن بعيد. أحنّ إلى لقائهم والجلوس معهم ، كأصدقاء المدرسة والطفولة وأحيانا أحنّ لصديقات أمي. وربما عليّ الاعتراف بأنه كانت لدى أمي صديقات أقل ما يقال عنهن إنهن مثيرات.

أذكر إنني في مراهقتي كنت أتخيلهن في أحلامي ، لكنهن بكل إثارتهن لم يكن يظاهين أمي. ولأني أعرف أمي جيدًا ، فقد كانت في الظاهر متزنة وفي الخفاء كانت شبقة جدًا ، وربما وهذا ما جعلني أتخيلها أحيانا في مشاهد الماضي.

هذا الحنين لا يفارقني ، لذا أحيانا انقطع عن العالم وأخلوا بنفسي ولنفسي ، استمع لمقطوعات موسيقية على البيانو لشوبان ولفرانز ليست ، فأحلّق عاليًا إلى حيث اللاعودة ، هربًا من واقعي وحاضري وحقيقة أيامي السود. بل كثيرا ما أتمنى السفر إلى جزيرة بعيدة وحدي ، أخلوا فيها إلى نفسي بعيدا عن عيون الآخرين. فالجحيم هم الآخرون كما قالها سارتر.

مرة قرأت في كتاب لأنثربولوجي فرنسي يؤكد بأننا لا نرغب في شيء إلا بقدر ما نحاكي في ذلك رغبات الآخرين ، أي رغباتنا هي دوما محاكاة لرغبات أخرى رغب فيها آخرون قبلنا ، فالرغبة في رأيه ليست بالشأن الخصوصي ، بل هي شأن جمعي في جوهره ، ومن هنا يؤول هو ولادة مشاعر العنف فينا ، أي التنافس والكراهية والنفاق والحقد..!

ومع أني أحترم رأي هذا المفكر في كتبه الأخرى ، لكني لا أتفق معه هنا ، فأنا أعيش عزلتي ، ورغباتي وهوسي شخصية جدًا ، ولا منافسين لديّ ، ولا أقلد أحدًا ، بل اكتشف أن الآخرين يشبهونني ، بينما كل منا عاش حياته بطريقته وبأزمان بعيدة وبلدان مختلفة!! بل أتذكر العبقري سيغموند فرويد وكشوفاته الباهرة مثل عقدة أوديب كثيرًا ، والتي أعتقد أنني أعاني منها..! وقبل ذلك لم أعتقد قبل توغلي في عالم القراءة بأن هناك من عاني ويعاني مثل حالتي ورغباتي اللاأخلاقية!..

★★★

الكتب والقراءات قادتني إلى اضطرابات روحية كبرى ، وتأكدت من أمر ما هو إن الإلحاد ليس بهذه السهولة كما يعتقد بعضهم ، فقد توصلتُ إليه ، لكني كنت خائفا ، وكنت أسأل نفسي ، ماذا لو اتضح إن الأمر ليس كذلك ، وإن هناك حسابا وعقابا..!!؟.

لكني من ناحية أخرى وجدت أن الأديان من جانبها الوجودي

والروحاني ، تضرب في أعمق أعماق الإنسان ، بيد إنها من جانب آخر ظواهر تاريخية ومؤسسات تنظيمية وإدارية وتشريعية ، بل إن العقائد كلها ، بما فيها العقائد الدينية الإيمانية ، بل وحتى العقائد الملحدة ، تحتاج إلى قائد ملهم ، وإلى أتباع ، ونصوص ترتفع إلى مقام القداسة.

كما أنني وجدت بأن الإيمان لا يحتاج إلى أن ينبع من الدين بالضرورة ، إذ يمكن الإيمان بالخالق القدير من دون الاعتقاد بالأديان وملحقاتها من أنبياء وكتب تسمى مقدسة.!.

شعور الذنب نحو أمي دفعني بتطرف إلى الدين وإلى الكتب المقدسة ، أكثر مما كانت أسئلتي الوجودية عن الكون والخلق والخالق تدفعني ، فهذه الأسئلة كنت أجد بعض توضيحاتها في الكتب العلمية ، حول أصل الأنواع ، وعلوم الفضاء ، وتتبعي لأخبار الإدارة الوطنية للملاحة الجوية والفضاء « ناسا.“

لكن فترة إلحادي كانت قصيرة جدًا ، إذ إنني هربت منه ، ليس عن عدم قناعة به وإنما خوفًا ، وكنت على الضد من قول أحد الفلاسفة الذي قال: « كن فاضلا ، فأن كان هناك عقاب وثواب فستدخل الفردوس لفضيلتك ، وإذا دخلت الجحيم فأنت أيضًا على حق لأن هكذا رب لا يستحق العبادة».

بينما أنا أقول لنفسي: ياآدم أقم الصلاة وأد الفرائض ، فأن كان هناك ثواب وعقاب ، فستدخل الجنة ، وإن لم يكن هناك شيء ، فأنت لم تخسر شيئًا.

أنا مؤمن بالله الخالق الكلي جدًا ، إيماني حقيقي لا زيف ولا تملق فيه ، بل بحب حقيقي ، واستسلام حقيقي لقدرته ، لكن هذا لا علاقة له بالدين وتديني الشخصي ، فقد كنت أتظاهر بالتدين التقليدي. وحتى ممارستي للطقوس الدينية وفروضها كنت أقوم بها إذا ما كنت وحدي بطريقتي ، وإذا أُلزمت من أجل الوجاهة

الاجتماعية واتقاء شر الناس فأكون مثلهم مع عدم اقتناعي بالتعاليم الدينية.

كنت أفكر في كل تفاصيل الدين من خلال منطق العقل، حتى كنت أفكر في الشهادة، فلماذا أشهد أنه لا إله إلا اللّه؟ أترى هناك آلهة أخرى كي أشهد بأنه لا إله إلا هو؟ هذا الأمر كان ملزّما للمشركين في بداية الدعوة عند إشهارهم للإسلام، وكان المجتمع حينها يؤمن بتعدد الآلهة، والأصنام، فجاء النبي بدعوته، وفرض عبادة اللّه الواحد القدير، وكانت الشهادة دليلا وإقرارا بالتوحيد، بينما أن ولدت في عائلة مسلمة لا تشرك باللّه، ولم أفكر يوما بأن هناك آلهة أخرى، فلماذا أشهد إلا إله إلا اللّه؟؟.

ثم من خلال قرآتي في الأديان والعقائد، فأن من يعبدون الأصنام أو تجسيداتها كآلهة، هم مؤمنون بالقدير كلي القدرة ويتوسلونه من خلال وسائط ما، ولا يعبدون الصنم لذاته؟ مثل الهندوس اليوم..! فهم يؤمنون باللّه كلي القدرة لكن عبر وسائط وآلهة تخضع له وتوصل إليه. فهم يرون إرادة القدير وروحه تغمر الكون كله، وهي في كل الأشياء، لذا يعبدون كل شيء لأنه فيه إرادة القدير وروحه!..

ثم لماذا يعتقد المؤمنون بأنهم أقرب إلى الخالق القدير من الخطاة والآثمين؟. كلنا، المؤمنون والخطاة والآثمون، بحاجة لرحمة القدير، بل إن الخطاة الآثمين يحتاجونه أكثر من المؤمنين الواثقين من دخول الفردوس!! فالدروب إلى القدير متعددة بعدد الخطاة والآثمين واليائسين من الرحمة على هذه الأرض. القدير أقرب لمعاناتهم وليأسهم ولرجائهم الصادق.

أنا المؤمن الشكاك..! لكن الشك يفترض وجود الوعي. أحد المفكرين قال إن الشك هو الوعي في حالة انفعال. لكنني أشك

ببرودة ومن دونما أي انفعال. أنا مؤمن ، لكني لا أدري كنه وجوهر من أؤمن به ، فأعماقي مكتظة بالشكوك.

لكن تحدث في الحياة أحيانا مصادفات لا تخطر على بال ، ولا يصدقها حتى الشخص ذاته الذي جرت معه! فهي أحداث خارج منطق العقل ، وخارج قوانين الزمان والمكان. أحداث وكأنها سيناريو لا معقول كُتب بيد غامضة..!

فقد حدث إن مات الأب الأكبر لعائلة تثير الاحترام والخوف في منطقتنا. فقد كان الأب والأبناء مسؤولين مهمين في النظام المنحل. لكنه في نظام اللانظام الذي قضى الأميركان عليه ، وكذلك في نظام اللانظام الجديد ربى هو والأبناء لحاهم ، وصاروا مسؤولين وقادة في النظام الجديد ، وانفتحت الدنيا عليهم ، فالإخوة الثلاثة كل منهم يركب سيارة مصفحة ، ومنهم من تتبعه حماياته ، لكنهم بقوا في منطقتنا ولم ينتقلوا منها ، بل والحق يقال كان الأب وأبناؤه مسالمين وكرماء مع الناس خلال النظامين ، فلم يؤذوا أحدًا قط.

لا أعرف لغز المصادفات. فقد حدث إن جلست في سرادق العزاء ، وصادف أن الابن الأصغر للفقيد أخلى مكانه لشخصية مهمة جاءت للتعزية ، فلم يجد الابن مكانا سوى أن يجلس إلى جانبي ، وبعد دقائق حياني لمجيئي لتقديم التعزية ، وسألني عن حالي وأحوالي ، وعن طبيعة عملي ، وأنا كنت في تلك الأيام قد تركت العمل في إحدى المطابع ، كما كنت أكتب أحيانا في الصحافة مقالاتٍ لم تحقق أي انتباه نحوي.

المهم ، أوضحتُ له حالي كما هو ، فقال لي بصريح العبارة:

- يعني أنت عاطل عن العمل..؟.

لم أجبّ..! ارتبكتُ وخجلتُ ، لكنه انتبه لذلك وقال لي:

- لا عليك.. اعتبر نفسك الآن موظفا عندي..!

ولم أصدّق ما سمعت. فأخذ بيدي وساقني خارج السرادق ، وهناك سألني ، بأنه سيعينني كمقاول في شركته ، وأنه سيجزل العطاء لي ، فقلت له أنا لا أعرف شيئا في المقاولات ، فأوضح لي بأن لديه مقاولات مع سجون عديدة ، وعليه إطعامهم ، ولأن هناك العديد من المسؤولين الكبار يشرفون على تلك السجون ، كلهم يريدون حصصهم المالية من المقاولات ، ولا يبقى له شيئًا مهما من الأرباح لذا هو سيرفع من سعر التكلفة لكن من قبل شركة وهمية للتغذية أكون أنا مديرًا لها ، شكليا واسميا فقط. ولأنه رجل نزيه ، ولا يريد أن يزوّر استمارات وفواتير الحسابات لذا سيوظفني ، وما عليّ سوى التوقيع رسميًا كشخصية معنوية ومديرًا لتلك الشركة الوهمية.

وبيّنَ لي مرة أخرى ، موضحا لكي يطمئن قلبي ، بأنه سيؤسس الشركة التي مهمتها إعداد وجبات التغذية للسجناء ، إلى جانب الاستيراد والتصدير ، والأمر كله وهمي ، فلا وجود للشركة ، سوى فواتيرها ، لكنها مسجلة ورسمية ، وسأكون أنا مديرها العام رسميًا ، ومهمتي توقيع الفواتير والقوائم فقط.

وبعبثية كبيرة وافقتُ. كان العبثُ والوهمُ مهيمنين على هذه الحكاية برمتها ، ففي مساء ذلك اليوم أخذ مني وثائقي الرسمية ، وبعد مرور أيام جائني بها ومعها أمر بتأسيس الشركة ، واسمي موجود كمدير عام وكرئيس لمجلس الإدارة مع مؤسسين آخرين لا أعرفهم ، وصرتُ أوقعُ على كتب وعقود واتفاقات وعقود استيراد ، لكن ، في كل مرة كان يعطيني ظرفا فيه رزمة من الأوراق النقدية كبيرة القيمة.

بل وذات مرة طرق الباب فخرجت وأنا في البيجاما ، ومن أن فتحت الباب حتى أعطاني مفتاح لسيارة ، وأشار إلى سيارة قرب باب البيت ، وقال لي:

- هذه السيارة جزء من ديكور الوظيفة ، باعتبارك مديرًا لشركة مهمة للتغذية والاستيراد والتصدير.

كنت أفكر أحيانا مع نفسي وأنا أتأمل حالي وحال صاحب شركتي الوهمية الفعلي ، وأسأل نفسي:

- كم من الشركات والمؤسسات التجارية والصناعية مسجلة رسميا لكنها وهمية ، موجودة على الورق فقط..! هل نحن دولة من ورق!

والأدهى من ذلك لو أنّ باحثا أكاديميا أو مسؤولا يريد البحث وكتابة أطروحة أو تأليف كتاب عن الصناعة في البلاد ، وأراد أن يأتي بالأرقام الرسمية من المصادر المعروفة وهي مؤسسات التسجيل ودائرة الضريبة ، فسيستلم قوائم بأعداد شركات ومؤسسات ومشاريع العملاقة ، وهمية كلها ، فهي على الورق فقط!! آه يابلاد الوهم والخديعة!.

الغريب في الأمر أنني تلبست دوري ، أو لأقل بدقة أكبر إن الدور قد تلبسني ، فصرت أفكر بشركتي وكأنني فعليا أملك تلك الشركة.!! لكن طبيعتي العبثية غلبتْ عليّ فتلبست دوري في هذه اللعبة القذرة ، بل انهمكت بالتبذير والأنفاق..!

بيد إنني لم أكشف شيئًا من الغنى والمال الذي أخذ يتدفق عليّ لزوجتي ، إلا بالنزر اليسير الذي يجنبني صداع الرأس المتأتي من الحديث معها ، لاسيما وأنا أخرس وهذا يعني ستصدع رأسي بالقيل والقال ، لذا اشتريت شقة بغرفتين وصالة وملحقاتها في بناية جيدة في منطقة الكرادة.

وبالمصادفة عينها تعرّفت على شاب جامعي ميال للمتعة ولمصادقة الفتيات والإيقاع بهن باسم الحب ، وكنت بالنسبة له كهدية هبطت عليه من السماء ، من حيث إنه كان يبحث عن مكان آمن يلتقي فيه بصديقاته العديدات.

فذات يوم كنت جالسًا في مقهى بالقرب من البناية التي شقتي فيها. أتذكر كيف بدأ الحوار بيننا ، فقد مرّت فتاة محجبة لكنها أنيقة وذات وجه ملائكي وجسد مثير ومتناسق من أمامنا. كنت وحدي حول طاولتي ، وهو مع أصدقائه الثلاثة حول طاولتهم بالقرب مني ، كنا خارج المقهى وعلى جانب من الرصيف أمامها.

كانت طاولتي مجاورة لطاولة الشبان الأربعة ، ويبدو أن الشاب الذي يقابلني في جلسته انتبه لإعجابي الشديد بالفتاة التي مرت وتتبعي لها على الرغم من أنها ابتعدت. فابتسم لي من بعيد ، وحين انتبهت له ارتبكتُ ، إذ شعرت وكأنه قبض عليّ متلبسًا.

أشار الشاب لي بعينيه وهز رأسه وكأنه يقول لي هل أعجبتك الفتاة؟ فارتبكتُ أكثر ولم أجبه لا بالصوت ولا بالإشارة ، فما كان منه إلا أن نهض عن كرسيه ليقترب من طاولتي وهو يسحب كرسيًا ويقول لي:

- اتسمح لي..!؟

وقبل أن أجيب كان قد جلس وحدّق في وجهي وقال لي:

- هل تريدها؟ يمكنني أن أجيء بها إليك..؟

لم أصدّق ما أسمع ، وسألت نفسي فورًا: « هل هذا الشاب قوّاد؟».. وحينها شعرت لا إراديًا بدبيب الرغبة في جسدي ، فأجبرت نفسي على الابتسام ، وقلت له:

- كيف تجيئني بها وهي فتاة عابرة مرت واختفت.. مثل حلم!..

ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة ، وقال:

- يبدو إنك رومانسي.. «مرت واختفت مثل حلم»..!! أتعرف.. لو كان لديك مكان لجئتك بها!..

وعلى غير توقع مني قلت له:

- لديّ مكان...

واستغربت من نفسي كيف قلت ذلك؟ نظر إليّ مندهشًا

وسألني:

- هل لديك مكان حقا؟

فأشرت بإصبعي إلى الأعلى وقلت له:

- هنا.. في الطابق الثاني..

وعلى غير توقع مني مدّ لي يده مصافحًا ومعرّفا بنفسه:

- آدم علي بابا!..

- أهلا وسهلا.. وأنا اسمي أيضا آدم ، لكن لستُ علي بابا!..

لم أنطق سوى باسمي لكنه التفت لأصحابه وقال لهم بطريقة مبشرة وكأنه اكتشف كنزًا:

- ياشباب. أخونا آدم.. لديه شقة هنا..

وأشار إلى المبنى الذي إلى جانب المقهى ويعلوها. فأصيب بقية الشباب بصدمة فرح ودهشة ، واستداروا كلهم نحوي.. وأتضح أننا كلنا أوادم.

لا أعرف أن أصف تلك اللحظات..! فقد غمرني فرح ونشاط جدد مزاجي الانطوائي الحزين. لكنهم عادوا لمكانهم ، وطلبت لهم شايًا وقهوة ونارجيلة ، أما آدم علي بابا فقط بقي معي حول طاولتي ، ثم همس لي:

- هل أعجبتك الفتاة حقا؟ هل تريدها؟ يمكننا أن نلتقي عندك في شقتك؟ هل أنت وحدك فيها؟

- نعم.. هي لي ..لراحتي.. فبيتي الزوجي بعيد من هنا.. لكن هل تعرفها؟

- نعم.. هي صاحبتي في الكلية ، تقدمت لها لكن أهلها رفضوا لضيق حالي.. لم يرفضوا بشكل مباشر ، لكنهم قالوا اللّه كريم ، حين تتحسن حالك فهي لك ، لكنهم ما أن رأوا أولَ غنيٍ يطرق بابهم حتى نسوني ، وتزوجته ، من دون أن تخبرني هي أو أهلها يخبروا أمي التي خطبتها لي ، وأعطوها كلمتهم.

عموما ، هي تريد أن تعود لي ، تريد أن تلهو معي وتزرع لزوجها قرنين على رأسه ، لا يغرنك وجهها الملائكي ولا حجابها ، فهي أفعى شبقة. شخصيًا أنا أريدها أن ترجع لكن أريد أن انتقم منها..! انتقم مقابل تلك الليالي الكئيبة والمحبطة والتعاسة التي عشتها ، انتقم لكرامة أمي التي داسوها بلا مبالاة.

أريد أن انتقم من أهلها وزوجها بأن أحولها إلى عاهرتي بل وعاهرة للجميع. وسأبدأ بك ، ستكون أول من أمنحك إياها ، لكن عليها أن تعتاد على المجيء إلى الشقة ، عليها أن تستسلم لي أولًا بحيث لن ترفض لي طلبًا مهما كان صعبًا! اتفقنا..

كنت مستغربًا أن يحدثني ويوجز لي مأساته وهو لا يعرفني حقا ، بل كشف عن كل نواياه الدنيئة وخططه الوقحة والسافلة بعد دقائق من تعارفنا؟.

وفكّرت مع نفسي كم هو متهور هذا الشاب؟ وكيف أن روح الانتقام والتشهير والتسقيط الأخلاقي المبتذل مهيمنة عليه؟ أي وحش هذا الإنسان...؟ لكني كنت أشم تلك الرائحة السحرية ، رائحة الأنثى ، التي تتنفسها روحي قبل أن يتشبع بها جسدي!..

★★★

- كم هو حقير هذا الشاب..؟ وكأني أعرفه؟ قالت إيفا ماجدولينا معلقة.

- كيف؟

سألها آدم السيد وهو يتوقف عن القراءة. وضع الدفتر جانبا وانتبه لها وعلى وجهه فضول هادئ. نظرت إليه برقة وقالت :

- كنت في علاقة مع أحدهم. أعجبني بعض الشيء..

- طيب.. ما الذي جرى؟. قال آدم السيد..

سحبت نفسها قليلا عن جسده ، إذ كانت تضع رأسها على صدره وجسدها العاري يسترخي على جسده . وأخذت تروي له

وكأنها تستذكر شيئًا بعيدًا:

- الذي جرى إن بعد شهور ومن خلال وسائل التواصل الاجتماعي دخلت عليّ فتاة وأخذت تحاورني ، لكن بعد جمل قليلة قالت لي أنا لستُ فتاة وأنما شاب وأريد أن أتواصل معك وأكون معك لإنك تعجبينني. وأنا أحبكِ! فقلت له بأنني لم أتبادل معه أي كلام فكيف يحبني..؟ وتركته..! لكن بعد دقائق من ذلك دخل علي صديقي السابق الأخير ، وأخذ يحدثني ، ففهمت إن الأمر ليس مصادفة ، وأن الأول أما كان هو أو أنه صديقه وأراد أن يقوده إلي ليقيم معي علاقة. وربما هما يجلسان معا ويشاهدان شاشة الجهاز ، فربما أنجر للأول أو حتى للثاني وأحاورهما ، لكني رفضت الاثنين.

هذا الأخير الذي كنت أتواصل معه يشبه آدم علي بابا. فحقده عليّ لأنني تركته وواجهته وصعقته ، فقد كان يظنني صديقته السابقة التي كانت تنتظره كلما غاب وعاد.! لذا قرر الانتقام مني بطريقته ، مثل هذا الشاب الذي يريد أن ينتقم من حبيبته بهذا الشكل البشع..! حتى وأنت تقرأ الدفتر ظننته إنه هو نفسه..! أتعرف..؟

- ماذا..؟

- حتى هذه التي تروي.. والتي اسمها حواء الفاطمي ، أشعر بشكل غامض بأنني أعرفها..! إذ يحدث أحيانا أن أشخاصا قريبون منّا ، أو نظن أنهم قريبون ، ونعتقد بأننا نعرفهم جيدًا لكن يتضح بأننا لا نعرف شيئًا قط! وإن ما نعرفه عنهم ليس سوى القشور والمعلومات المبتسرة. الأقنعة. آه من الأقنعة.

كانت هي تتحدث لكن آدم السيد كان ينظر إلى جسدها العاري الجميل الذي أمامه ، ينظر إلى نهديها المثمرين وإلى بطنها ونزل بعينيه إلى ما بين فخذيها ، وركز نظره هناك ، ثم نزل بنظراته

حتى قدميها ، وأحس نحوها برغبة قوية.

توقفت هي عن الكلام لأنها انتبهت إلى نظراته. أعجبتها نظراته إلى جسدها ، ورغبته في أن يلجها ، وتتمنى أن يبقى راغبا بها وبجسدها ولا يمل منها. إنه الرجل الذي تشعر معه بلذة حقيقية ، ومع ذلك فهي خجولة بطبعها ، حتى وأن سرت في جسدها الرغبة. فجأة ارتسمت ابتسامة على شفتيها. انتبه لها ، وسأل بخفوت:

– ماذا؟.. أراك تبتسمين..

صمتت للحظات وقالت:

– أتعرف. أكثر شيء كان أثارني في ممارستنا الحب هو الصوت والأنفاس الشبقة التي سمعتها منك.. واعترف إنك غيّرت حياتي كلها.. وجعلتني أري ذاتي وجسدي ورغبتي وأفكاري ومشاعري ، وأيقظت رغباتي لأنك لم تجبرني على شيء.. وحتى حينما تريدني جسديا وتشتهيني فأنك تريدني باحترام وتنتبه لقبولي ورغبتي..

– لكنك لم تجيبي علي سؤالي.. لماذا ابتسمت..!؟

– لأني صرت أعجب بنظراتك الشبقة البليغة ، ولغتك وبوحك عن حبك لي. من خلال رغبتك الصريحة التي أشمها عبر الحروف وما وراء الحروف. أفكر بك وأشعر بمركزية وجودك في حياتي بشكل حقيقي وليس عاطفيا. أنت موجود في حياتي بشكل رصين وأساس ، واحتاجك ، احتاج حبك. هذا يحسنني بأنوثتي.

وبالمناسبة ، صحيح أنا كنت أخجل من الكلام الجريء المكشوف الذي حدثتني به قبل ان نقرأ الدفتر لكنه أثارني وأعجبني. لكن دعنا الآن نعرف ما جرى بين هذا الأخرس بإرادته وآدم علي بابا... ياله من اسم!..

–نعم.. لنرى..

وعلى الرغم من رغبته فيها إلّا إنه واصل القراءة في بوح آدم

الأخرس بإرادته بدفتر الجحيم الأول.

★★★

وحدث ما حدث. وتأكدتُ من أن كل معارفنا عن البشر وعالمهم النفسي ناقصة وفقيرة. الإنسان مثل الشجرة ، نراها أمام أعيننا لكننا لا نرى جذورها التي تمتص الماء وهي في ظلمة التربة لتصعد بها إلى الجذع والأغصان والأوراق ، بل ولا نرى كيف تتشكل الثمرة الظاهرة أمامنا.

ما نراه هو الظاهر ، بل الظاهر السطحي. الثمار على الأغصان ، لكن الجذور تعيش في الظلمة. أيهما الشجرة ، جذورها المطموسة في ظلمة التراب أم ثمارها المتدلية الشهية.!؟ أيهما الإنسان ، ما نراه منه ظاهرًا أم حقيقته المظلمة؟ هكذا كان هذا الشاب آدم علي بابا.

بعد حديثي معه وتعارفي على أصدقائه همس لي بأن أذهب معه قليلا ليعرفني على الفتاة. لم أصدّق ما قاله ، لكن كما قلت فأن عطر الأنثى يسوقني من أنفي كما تساق الدببة لأتبعه. فقلت لنفسي: «لا ضير.. لأذهب معه وأرى مصداقية ما يدّعي.“!..

دفعتُ لصاحب المقهى ما علي وما على الشباب الأربعة ، ومضيت معه. كان يفتش بعينية كالصقر بين المارّة ، ولا أدري كيف رآها ، فقال لي :

- تعال ، إنها في هذا السوق لملابس النساء ومواد المكياج.

وتوقف عند محل كبير أشبه بسوق مصغر فيه تباع مواد وألبسة نسائية ورجالية . كانت وحدها.لا. لا. اتضح أنها لم تكن وحدها وأنما معها صديقتها. كل واحدة منهما كانت منهمكة بأشيائها ، ثم أخذت كل منهما تعرض أمام الأخرى ما اختارته.

دخل هو قبلي وقال لي بأن اتبعه بلا تردد. اقتربَ منها. صديقتها لمحته ، لذا ابتعدت قليلا ، ربما لتسمح لهما بالكلام..!

صرتُ على بعد مترين منه. لم اسمع ما قاله لها. تفاجأت هي لكنها كانت فرحة وكأنها لم تصدق رؤيته ، لكنه قطع بهجتها بأن قال لها وهو يشير إليّ بأنه يود أن يعرّفها على صديقه المقرب.

حينَ نظرتُ إليها أحسستُ بالارتباك وبارتجافة في قلبي. لقد أعجبتني جدًا ، بل وبهرتني ، وكأني وقعتُ في حبها من النظرة الأولى ، فاشتهيتها فورا. وبالنسبة لي فأن الانبهار والانجذاب لدي له علاقة بالتلاحم الجنسي ، لذا أردت أن أكون معها وأن تكون قريبة مني ، أردتها أن تكون لي ، أن تكون قحبتي أنا.

كانت كملاك يقف على قدمين ، ولم أصدق أن هذا الملاك هو ملاك الجحيم ، فهي متزوجة ، لكنها تريد أن تتذوق الفاكهة المحرمة وتمشي بأقدامها نحو هاويتها!..

كانت هي فرحة إلى الحد الذي لم تكن تسيطر فيه على انضباطها في المكان ، نسيتْ أنها في مكان عام ومحل للملابس يرتاده آخرون ، وأنها ليست وحدها وأنما صاحبتها موجودة أيضا ، صاحبتها التي كانت تقيس وتتأمل مسند الألمنيوم الذي عُلقت علية قمصان وملابس نسائية.

كانت هي تنظر إلى حبيبها آدم علي بابا نظرات مليئة بالرغبة ، عرّفني هو عليها ، فرحبتْ بي بمرح وحيوية ، لكنها حيوية لا تتناسب مع هيجانها العاطفي وهي تنظر لحبيبها. وفي تلك اللحظة أطلّت صديقتها من وراء مسند الثياب ، وصارت إلى جانبها ، فحيّاها صديقي لأنه يعرفها أيضا ، وقدمها لي بأنها صديقتهما حواء الفاطمي.

الغريب في كل هذا إن كل شيء بدا لي مألوفا ومكررا واعتياديا وليس فيه أي شيء من الغرابة ، وكأنه مشهد معاد ومكر ر ، لكن الشيء الغريب الوحيد في الأمر هو أنني أردتهما معا ، أردت امتلاك كلتا المرأتين.

★★★

شعرت حواء الفاطمي وهي تقرأ ذلك المقطع من دفتر زوجها آدم الأخرس بارتجافة سرت في جسدها. فهذا آدم الأخرس بإرادته يتحدث عنها وعن صديقتها حواء الملاك، التي تزوجت لكنها واصلت علاقتها بحبيبها بعد الزواج، وهي تتذكر هذا المشهد أيضا..!

لكن فجأة انتابتها مشاعر الرعب. وفكرت مع نفسها: «من أين لآدم الأخرس بإرادته هذه الذاكرة؟ ثم أن هذا هو نص كتبه كما هو واضح زوجها الأخرس أيضا!! أيعني أنه يعرفها ويعرف أسرارها؟ أيعني هو يعرف علاقاتها خارج البيت؟» لكنها أصرت على مواصلة القراءة وأرادت أن تنهي المخطوطة في الدفتر قبل مجيء زوجها.

★★★

- ما الذي يجري ياآدم؟ أنا كما يبدو لي أعرف هؤلاء ..! بل وحتى هذا آدم علي بابا وحبيبته حواء الملاك أعرفهما..! فكيف كتب هذا الآدم الأخرس بإرادته كل هذ التفاصيل؟ وإذا كان آدم الأخرس زوج حواء الفاطمي الحقيقية هو من كتب هذه الاعترافات، فمن هو؟ قالت إيفا ماجدولينا وهي تسأل آدم السيد.

- اهدأي يا إيفا..! علينا أن نعرف من كتب «دفتر الجحيم» هذا أولا؟ فهو يعرف الأسرار كلها، لكن الأسرار بخواتيمها! دعينا نكمل القراءة لنرى ماذا سيكشف عنه؟ وواصل قراءة بوح آدم الأخرس بإرادته.

★★★

كان صاحبي آدم علي بابا مصرّا ومصمما على خطته الانتقامية. ففي حراجة الموقف في محل الملابس، لاسيما وأن صاحب المحل ومساعده أخذا يرمقاننا بنظرات فيها استياء،

وكذا بعض النساء والفتايات الأخريات أخذن يرمقننا بنظرات فضولية ، لذا دعاهما إلى مقهى قريب لتبادل الحديث.

حواء الملاك وافقت مباشرة ، حتى إنها أرجعت ما كانت تنوي قياسه وابتياعه إلى المسند الذي يحمل الملابس ، بينما كانت صديقتها متفاجئة لكنها أيضا غير معترضة على هذا الاقتراح!..

كان صاحبي يخطط بسرعة مذهلة وبذكاء خبيث وجرأة ، فقد اختار مقهى حديث الافتتاح في منعطف شارع فرعي قرب المبنى حيث شقتي. وقد فسّرت الأمر بأنهما يتجهان بوعي نحو الفخ والهاوية!..

أخذوا يتحدثون في بعض الشؤون الدراسية والأساتذة وانقطاع الدوام بسبب انتفاضة الشباب في ساحة التحرير. ويبدو أن صديقي لم يشأ أن يضيّع الوقت فأخذ يدير الحديث عني قائلًا بأني شخصية مهمة ، وأعيش على مقربة من المكان ، وإن لديّ شقة فارهة ، ثم أخذ يمزح وهو ينثر جملة مفخخة قائلًا بأنني أعيش وحدي كالملك ، لا مسؤوليات عائلية لدي ولا التزامات.

بيد إني انتبهت إلى أنه كلما توغل في الحديث عني كلما خف المرح والبهجة ، وصارت كل منهن تفكر في ما يقوله آدم علي بابا. لكن المفاجأة الكبرى كانت حين اقترح عليهن أن نذهب جميعا إلى الشقة ونأخذ معنا وجبة كبيرة من الكباب والمخللات والخضروات ، ونأكل على راحتنا من دون أن نتوجس من عيون الرقباء أو مخاطر كشفنا من قبل الأهل أو المعارف مصادفة!..

ويبدو أن الجملة الأخيرة كانت هي الأقوى غواية في قبولهن وبتردد على هذا المقترح. ولطمئنتهما ، قال لهما نحن سنمشي أمامكما ، وأنتما خلفنا ، وما أن ندخل المبنى حتى تدخلان خلفنا. لكن ما أثار استغرابي هو عودة المرح الحذر إليهما.!..

وبعد تردد خجول وافقت حواء الملاك ، لكن صديقتها حواء

الفاطمي كانت مترددة ، ووعدت بأنهما ستوافقان على اللقاء في مرة لاحقة ، وليس الآن..! لكن ما أن قالت ذلك حتى بادر آدم علي بابا لتحديد موعد الغد لهذا اللقاء والعزومة على الكباب. حبيبته حواء الملاك كانت مستاءة بشكل غير مباشر من رفض صديقتها.!..

شخصيًا استغربت من جرأة صديقي وخططه الجهنمية في صيد هاتين الملاكين ، فأخذ يناقشهما عن الوقت وكيف يتلقي بهما ليجيء بهما إلى الشقة ، بل عرض عليهما بوقاحة أن يقوما الآن لزيارة الشقة وشرب الشاي ، وكانت حبيبته تريد ذلك لكنها كانت تراعي رفض صديقتها. وأخيرا اتفق معهما على كل تفاصيل اللقاء ومكانه!..

★★★

في يوم الغد الموعود اتصل بي وقال لي بأن صديقة حبيبته حواء الفاطمي ، التي كنت انتظرها ، لن تأتي ، وقد اعتذرت وقالت ستأتي في يوم آخر ، بينما هو اتفق مع حواء الملاك على أن يزوراني ، وحدد الساعة.!..

شعرتُ بالقلق والرهبة وكأنني أنا الذي انتظرها وليس أنها ستأتي مع عشيقها لينام معها في شقتي. أي ستكون شقتي بيتًا للمسرات والخيانات الزوجية ، وأنا من أنا؟ لكنه وعدني بأنه سيسلمني إياها بعد أن تصير خاتمًا في أصبعه وفق تعبيره!..

كنت انتظر بقلق ومشاعر مختلطة وبفرح لمجيء حواء الملاك مع خيبة أمل لعدم مجيء حواء الفاطمي. نظّفت الشقة ، الصالون ، الحمام ، المطبخ ، ونزلت إلى السوبرمارك الذي تحت البناية فاشتريت المكسرات ورقائق البطاطا وقناني المشروبات الغازية ، وقنينة نبيذ أحمر ، للطوارئ!..

وحين رن جرس الباب هببتُ إليه وكأني أنا من ينتظر حبيبته..!

غريب هو الإنسان ، أو لأقل أنا نفسي كنت مستغربًا من نفسي..!..

ارتبكتْ هي وقليلا. كانت واقفة وراء صديقي الذي احتضنني وكأننا قد افترقنا منذ زمان. مرقتْ خلفه ولم تصافحني. استغربتُ من تصرفها ، فهي متزوجة وجاءت مع صديقي بشكل علني ليزني بها في شقتي ، بينما هي تطبق الشرع في عدم مصافحة الغريب..!

أحسستُ حينها بغضب خفي من هذا الزيف الأخلاقي ، وقررت مع نفسي أن أكون دنيئا معها وأنام معها على الرغم من ممانعتها ، مع أن صديقي كان وعدني بذلك ، لكني لم اكشف شيئا عما كان يجول في نفسي.

قمتُ بكل ما يستلزم من واجبات الضيافة. كانت هي معجبة بالشقة ، قالت لي بأنها أوسع من البيت الذي تعيش فيه. تجولت فيها. أطلّت برأسها على غرفة نومي ، ورأت غرفتي الأنيقة والمرتبة. ومرت على غرفة الضيوف حيت سيستقر بها المقام.

وحين عادت إلى الصالون قلت لهما بأني سأتركهما وأغادر الشقة لكني سأعود بعد ساعة ، وقلتها بطريقة خبيثة تشي بأني أعلم ماذا سيفعلان. فقال صديقي بطريقة مبتذلة بأن ساعة ستكون كافية لثلاث جولات..! إذن سقطت الأقنعة ، ولم يعد الظهور بالمظهر الطهراني والأخلاقي لازما. ارتبكتْ هي. ابتسمتُ أنا بخجل. وغادرتُ.

★★★

حين غادرتُ الشقة كنت مستاءً. لا أدري لماذا حاولت أن أبدو طيبًا وكريم النفس ، وأعزبا ، كما قال عني آدم علي بابا ، وهو يعلم أنني متزوج. ولا أدري أيضا لماذا تلبّستُ دور الأعزب ، لكن ما أن صرت في الشارع ، وغمرني ضوء النهار ، وضجيج الحياة حتى تذكرت نفسي.

لكن ما لخبط عليّ تفكيري وقطع سيل خواطري ذلك المشهد

الرهيب ، الذي لم أر مثله في السينما ، مشهد التظاهرات الشبابية التي بدت لي من بعد ما يقارب المئة متر وهي تزحف باتجاه ساحة التحرير.

كانت الجموع تحمل العلم العراقي ، وترفع شعار « نريد وطن» إلى جانب شعارات أخرى بسقوط سلطة الفساد والقتلة وجواسيس دولة جارة خضنا معها حربًا مهلكة ومدمرة. ولتفاهة المثقف المذعور في داخلي علّقت لحظتها بأن عليهم أن يكتبوا « نريد وطنًا» وليس « نريد وطن»..!.. ياالحماقة المثقفين!..

ومع ذلك ، تجمّدتُ في مكاني ، فالمشهد كان مهيبًا وجليلًا وساميًا. شباب من الجنسين ، كلهم يلوحون بقباضاتهم الباسلة وكأنهم يريدون أن يمسكوا بالسماء ليسحبوها بغضب إلى الأرض!.

لحظتها تفهمت مبالغات الشعر حين يستعير البراكين المتفجرة غضبًا. هكذا كان هؤلاء الشباب والشابات وهم يزحفون نحو ساحة التحرير ليعلنوا ولادة جيل جديد رفضَ الذل وأسقطَ أقنعة تجار الدين.

حينها فكرت بصديقي آدم علي بابا الفقير الذي ينتقم لفقره بطريقة مبتذلة ممن غدرتْ به من أجل المال ، من خلال إغواءها وجرّها إلى سرير الزنا والسقوط ، بل وتحويها إلى مومس من خلال مشاركة صديقه بها. فشتان ما بينه وبين هؤلاء الفتية الذين شقوا الشرنقة وحلقوا عاليا ، شتان ما بينه وبين هاتيك الفتيات الجميلات اللاتي مزقن بيت العنكبوت وخرجن إلى الشارع متحديات كل أشباح الظلام.!..

وحينها أشفقت على نفسي أيضًا. عرفت كما أنا جبان ومذعور كفأر مبتل..! وعرفت معنى الشجاعة والبطولة ، لاسيما حين مرت الجموع من أمامي بينما أنا أقف جانبا محدّقًا بذهول في هذا النهر البشري الزاحف نحو الموت والحرية. لكني أعرف إن تلك

الوحوش البشرية التي تمسك بالسلطة لن تسمح بهز عروشها وتخريب مملكتها لذا سيغرقون البلاد بالدم.

★★★

صحيح أنا قلت لهما ، حين غادرت الشقة ، بأنني سأرجع بعد ساعة ، لكني وبعد أربعين دقيقة وجدت نفسي في وضع انفعالي وغضب مكتوم مما يجري ، ربما بفعل تأثير التظاهرة الشبابية التي أيقظت مشاعر الاحتقار في نفسي لنفسي ، وضد هذه المرأة المتزوجة التي تريد أن تمسك الثمار العديدة بكف واحدة ، فهي مدللة زوجها كما هو واضح من ملابسها الأنيقة ، وهي الحبيبة التي تلتقي بعشيقها سرا في شقة صديق عابر له ، و ضد هذا الشاب المريض الذي تهيمن على روحه فكرة الانتقام الدنيء ، فهو قد أقسم لي بأن يحولها إلى عاهرة ويهدم حياتها الزوجية ويزج بأهلها في فضيحة..! بينما رأيت حشود الشباب والشابات يتظاهرون من أجل الكرامة.!..

احتقرتُ نفسي بمرارة. توجهت إلى المقهى ، طلبت شايا ، فأتى النادل به فشربت الشاي على عجل في رشفتين ، وطلبت شايًا آخر ، فجائني بآخر ، فشربته على ثلاث رشفات. كنت على عجل ولا أدري لماذا؟ فليس أمامي أية مهمة أو عمل لانجازه بل على العكس من ذلك كان عليّ الانتظار حتى انقضاء الساعة لأصعد إلى شقتي التي شغلها صديقي مع عشيقته!..

أخذت أفكر في نفسي وأتأمل حياتي بعبثية ولا مبالاة وكأنها ليست حياتي..! ابتسمتُ بمرارة لأني شعرت بالوحش يرفع رأسه المخيف في بحيرة أعماقي المظلمة. من أنا يا أنا ، من أنتَ يا آدم الأخرس بإرادته؟

لم يبق على انتهاء الساعة سوى ربعها حتى قمت عن كرسيي ، ودفعت ثمن الشاي ، وصعدت إلى شقتي في الطابق الثاني.

وضغطت على الجرس. كنت حانقا بلا سبب واضح بالنسبة لي.

هل هي مشاعر الغيرة من صديقي لأنه يضاجع عشيقته؟ هل هي رغبتي فيها؟ هل بسبب تظاهرة الشبيبة التي أسقطت قناع الزيف والوساخة واللامباة الراكدة في أعماقي ..؟ هل هي اكتشافي لتفاهة حياتي؟ أو اكتشافي لكمّ الدناءة والفسق فيها؟ لا أعرف بالتحديد..لربما كل هذه الأسباب مجتمعة.!..

حين فتح آدم علي بابا الباب كان مبتهجًا على الرغم من أفكاري الحزينة. دخلتُ الشقة وذهبت مباشرة إلى الصالون ، ومنه إلى المطبخ ، لكني كنت متشوقًا لرؤيتها ، بل لرؤية وجهها ونظراتها بعد أن يكون قناع العفة قد زال عن وجهها ، فقد كان وجودهما لوحدهما في شقتي ومغاردتي لها لمنحهما ساعة من الوقت ، وتعليق صديقي الواضح بأنه سيحقق ثلاث جولات معها كان أكثر من توضيح فضائحي وكشف لوضعها ولسبب وجودها في شقتي.

كنت في الصالة منتظرًا خروجهما ، إذ أن صديقي دخل إلى الغرفة ، ثم بعد لحظات خرج مرحًا وتبعته هي.وقفتً للحظة عند باب الغرفة ، رمقتني بنظرة مرتبكة لثوان ، ثم لبست قناع البراءة على وجهها ، وكأن شيئا لم يكن.

لم أشأ أن أحرجهما. لكن صديقي كان وحشًا آدميًا ماضٍ في تنفيذ خطته ، إذ قال لي ، بأن حواء الملاك ستأتي بصديقتها حواء الفاطمي في المرة المقبلة ، وإذا لم تأت هذه الصديقة فستأتي بصديقة أخرى. وهذا ما أكدته هي أيضًا ، وعلّقت هي بأننا سنقضي أوقاتًا ممتعة ، بحيث يمكننا أن نأتي بالطعام ، بل حتى يمكننا أن نطبخ هنا ، فالشقة مريحة وأنيقة.

لحظتها نسيت حنقي ، وأفكاري السوداوية عن نفسي. وتدفقَ المرحُ والكرمُ العاطفي في نفسي فقلت لهما ، أنا موجود بشكل

شبه دائم ، صباح كل يوم وحتى المساء ، ويمكنهما أن يأتيا كلما كانا في المنطقة أو كلما أرادا ذلك.كلماتي أشعلت الحماس في نفس صديقي ، وأخذ يتدفق بالكلام عن صداقتنا وعن إمكانية تواجدهما بشكل شبه يومي ، وكان هو يمضي في تنفيذ خطة انتقامه.

انتبهت إلى أنها كانت ترمقني بنظرات غامضة ، نظرات قصيرة جدًا.

ومشت الأمور وفق خطة صديقي. زاراني ثلاث مرات خلال ذلك الشهر ، ويبدو أنها لم توفّق بإقناع صديقتها حواء الفاطمي ولا باصطحاب إحدى صديقاتها ، فأحيانا كانا يأتيان سريعا ولا يمكثان أكثر من نصف ساعة.

كنت أسالهما مازحا عن صديقاتها ، فأخبرتني بأنها ستأتي بواحدة تعيش وضعا نفسيا صعبا لأن حبيبها غدر بها وتركها فجأة بعد وعد الزواج.

وحين سألتهما لماذا هذه الزيارت القصيرة إذ يمكنها أن يبقيا لوقت أطول ، فاتضح أنها تأتي أما مع أمها أو زوجها ، وتزوغ عنهما بطريقة ما بعد أن تتفق مع صديقي ، إذ تقول لمرافقها ، سواء زوجها أو أمها ، إنها ستتجول بين المخازن والمحال ، لكنها تأتي مباشرة إلى الشقة لتتذوق ما حلمت به من لذة مع حبيبها ولو بشكل سريع. كان صديقي يقول لي عند الدخول إنه لن يستغرق طويلا ، فكنت حينها لا أغادر الشقة وأنما أتجه لغرفتي إلى أن ينتهيا من ممارستهما.

وذات لقاء قال لي بأنه يريد أن يأتي بكاميرا سرية ليصورها حين يكون معها. لحظتها أشفقت عليها ، فعلى الرغم من صفة الزانية تنطبق عليها لكني وجدتها عاشقة مسكينة ، بائسة ، لا تستطيع أن تغامر برفاهيتها ، لكنها تريد أن تستمتع مع الشاب

الذي أحبته. لكن حدث في المرة اللاحقة أمر ألغى خطة الانتقام التي لا تعرف هي بها!..

كنت أخرج من منزلي العائلي وآتي إلى شقتي وكأني ذاهب إلى العمل ، فزوجتي لا تعرف شيئًا عن شركتي الوهمية ، فهي تظن أنني صاحب شركة حقيقية وأنني أخرج يوميًا إلى عملي.!..

وحدث إنني كنت في الشقة ، وبالتحديد في المطبخ أعد لنفسي شايًا ، حينما رنّ جرس الباب. كانت المفاجأة حين فتحت الباب ، وإذا بوجه حواء الملاك يواجهني. مرقتْ داخلة حتى من دون أن أقول لها بأن تتفضل.

كانت مرتبكة. وما أن جلست على الأريكة حتى سألتني عنه ، فقلت لها لا أعرف متى يأتي ، وهو لا يأتيني من دون أن يتصل ، فاسترختْ قليلا. سألتها عن سبب ارتباكها ، فقالت لي:

- إن زوجي صار منذ فترة يستلم بعض الرسائل المجهولة ، مرسلة على صفحة المسنجر الخاصة به ، وكلها تسيء لي وتشككه في سلوكي. وأظن بأن حبيبي آدم علي بابا وراء ذلك ، فقد طلب مني أن أريه صورة زوجي ، وذات مرة تساهلت معه كثيرا فأطلعته على صفحة زوجي الفيسبوكية ، ويبدو أنه بحث عنه ووصل إلى صفحته ، فهذه الرسائل بدأت تصله بعد أيام قليلة جدًا من كشفي عن صفحة زوجي الفيسبوكيةله.

من ناحيتي كنتُ على يقين بأنه هو ، فأنا أعرف خطته للانتقام.

كانت هي تجلس على الأريكة التي أجلس عليها. ولا أدري ما الذي دفعني إلى أن أشفق عليها واكشف لها خطة عشيقها. رأيت ارتباكها وملامح ندمها المكتوم وهشاشتها العاطفية. كنت أدرك أن المرأة في تلك الحالة تكون ضعيفة ودفاعاتها رخوة ، ويمكن اختراق دفاعاتها الأخلاقية بسهولة ، لذا كتأكيد لولائي

لها ومكانتها عندي وتعاطفي معها ، حدثتها عن غضب صديقي مما قامت به عائلتها بتزويجها بعد أن قرأوا الفاتحة معه ومع أمه ، وأنه قرر الانتقام منها ، لكني لم أتحدث عن تحويلها إلى عاهرة ، ولا في ما يخص الكاميرا الخفية ، وأنما تحدثت بشكل عام ، فانهارت ، وأخذت تبكي بحرقة ، وقالت :

- إنه يريد أن يدمرني ويضيعني.

كانت ضعيفة وقابلة للانهيار التام مثل سفينة يتلاطمها الموج فتبحث عن أي خليج أو ملجأ آمن حتى وإن كان خطرًا وتتخلله الصخور المسننة!.

كانت قد انحنت بجذعها الأعلى نحو ساقيها ، فوجدت الجرأة في نفسي ، بأن اقترب منها ، بأن أمد ذراعي نحوها بحنان ، فاستجابت لا إراديًا بحثا عن المواساة والحنان والدعم النفسي ، وسحبت جسدها كي تستريح على كتفي وهي محاطة بذراعي.

ومن دون أن تنتبه باغتها ، رفعت وجهها نحوي ، وقبلتها من شفتيها وجهها ورقبتها ، وأزحت حجابها. فوجئت هي ، كانت مذهولة ومستسلمة ، لذا لم تعترض بالكامل. ومن ناحيتي لم أترك الفرصة تفوتني ، إذ أحنيت جسدها على الأريكة وجلست أمامها وأنا أقبلها وأعصر نهديها. كانت منهارة وبعد لحظات رأيت دبيب الإثارة والتهيج يهيمن على جسدها ، فرفعت ثوبها ومددت يدي بين فخذيها ، فانهارت كليا.

ولا أعرف ما الذي جرى ، ومن أين جاءتني تلك الجرأة وذلك العنف ، فقد رفعت ثوبها حتى رقبتها ، وفتحت ساقيها ، وأولجته فيها ، والغريب أنها استجابت لي بل وشاركتني بكل رغبتها ، بشبق وحرارة ، وأخذت تتأوه وتقول لي :» سأنتقم من هذا الحقير ، وسأكون لك وحدك ، سأكون عشيقتك ، وحبيبتك أنت. هل تريد أن أكون عشيقتك؟» ولم أجد وأنا هائج كالثور سوى أن أقول لها:

« نعم ، أريدك أن تكوني كذلك..»، وملأتها بمائي وتدفق ماؤها.

يبدو أن ما حدث بيننا كان لحظة ضعف مرتْ هي بها ، لأنها انقطعت بعد ذلك لأسبوعين ، لم تأت إليّ ولا مع صديقي..! ولم يظهرا معًا إلا في الأسبوع الثاني من الشهر الثاني ، وكانت مع صديقي. كانتْ محرجة ، فكما روى لي صديقي بأنها كانت تتحجج بعدم المجيء لكنه لمّح لها بالانتقام منها إذا لم تستجيب له وتأتي معه..!..

في علاقتي معهما كنتُ حذرًا ، ومشيت على خطى الحكمة الهندية التي مفادها بأن المجرم الذكي ليس الذي لا يترك خلفه أثرًا وأنما الذي يترك خلفه آثارا كثيرة مختلفة يتيه فيها المحققون. لذا لم أسأل صديقي عن وعده بأنه سيمنحها لي ، ولم أسأله عن انتقامه الذي صار يخبو يوماً بعد يوم لأنها عرفت كيف تدجنه بالمال. بل إنه بدأ يقلل من اتصالاته معي ، ويتصل لإبقاء خيط الود فلربما يحتاج شقتي يومًا. هل أخبرته بما أخبرتها به عن نيته الانتقام منها وتحويلها إلى عاهرة..؟ لا أعرف. ومع ذلك كانت تلك المرة الأولى التي جاءت فيها معه بعد ما جرى بيننا.

عالم النساء غامض وغريب ، ففي ذلك اللقاء ، وهما في الصالة ، ذهبتُ إلى المطبخ لأصب لهما العصير ، فجاءت مسرعة من الصالون وهي تقول له بصوت عال بأنها ستساعدني ، وحين صارت في المطبخ جائتني من الخلف ، حضنتني وقالت بأن عليّ ألا أزعل فستعوضني بأكثر مما تعطيه ، وستزورني في اليوم التالي فلانتظرها. وخرجت وهي تحمل صينية عليها ثلاثة كؤوس من عصير التفاح..!..

أنا لا أحب أحدًا ، هذا ما أنا متيقن منه ، بل أحيانا لا أحب نفسي ، لكني بعد ذلك اللقاء السحري مع حواء الملاك أحسستُ بأني شُفيت من عقدة أمي..! ففي حمى شبقي والتحامي بها كالثور

الهائج ، كنت أعيش تلك الرغبة المحرمة ، حواء الملاك أطفأت عطشي ورغبتي المحرمة. لكن لماذا هي بالذات؟ مع أني كنت في علاقات مع نساء أخريات غير زوجتي لكني لم أشفى ، هذا ما لم أدركه. وعلى الرغم من انطوائيتي ونرجسيتي صرتُ أفكر بحواء الملاك كعاشق. حتى رغبتي الجنسية نحوها صارت عابرة.

ذات يوم جمعة كنت أنوي الذهاب لشارع الكتب الشهير في بغداد. لكني صحوت على ما يشبه الوخز المفاجئ مصحوبا بألم كبير في أسناني. كان الألم كبيرًا ومكثفا ، فهرعت مباشرة إلى ابتلاع حبة مسكنة والمضمضة والغرغرة بالماء المالح ، لكن بلا فائدة.

كان يوم الجمعة ، والعيادات الطبية مغلقة. وحينها أعدت اكتشاف ضعف الكائن البشري وعجزه عن أن يسيّطر على جسده الذي هو ملكه..! لو كنت حرًا كما أدّعي فلم أنا عاجز أن آأمر أسناني بأن تكف عن الوجع..! هل أنا غير جسدي؟

يبدو أنني أهذي ، فليس مهمّا أن تعرف كيف تتحدث وأنما المهم أن تعرف ماذا تقول. ولا أعرف لماذا حضرت حواء الملاك وانبثقت من الغيب في ذهني..!؟ شعرتُ ، برغم الوجع الذي دفعني إلى القفز وتحريك جسدي كي أنشغل عنه ، بأنني محتاج لرؤيتها ، وأن لمسة منها ستنزع عني ألم الأسنان!..

الغريب ، إنني في ذلك اليوم الذي صحوت فيه على ألم أسناني ، كنت قد رأيت حلمًا غامضًا. رأيت غابة. المشهد كان غابة وهناك في المشهد رأيت قطيعا صغيرًا من تسع غزالات بعيون عمياء ، لا يظهر من عيونها سوى الصُلبة البيضاء. ومع ذلك كانت الغزلان مذعورة ، وكأنها ترى أشباحا غير مرئية ، ثم فجأة رأيت ما يشبه الغيم الأسود الذي وكأنه سقط ككتلة من الظلام على المشهد وبدأ يزحف على الغابة ، مثل اندفاعة الموج الهائل

للبحر على السواحل. وفززت مذعورا مع ألم هائل في أسناني.

لم أستطع تحمل ألم أسناني إلا بمحاولة الانشغال عنه ، لذا خرجت إلى وسط المدينة لأتناسى الألم من خلال شراء الكتب والمرور على أية صيدلية عسى أن يعطيني الصيدلاني بمعرفته مسكنًا للوجع. وهذا ما جرى ، فقبل أن أن أدخل السوق اندفعت من شدة ألم ضرسي إلى إحدى الصيدليات وحصلت على ما ابتغيت ، بل وأخذت حبة مسكنة قوية وأنا داخل الصيدلية. خرجت وأنا بحالة نفسية أفضل.

كان سوق الكتب شبه فارغ ، فمعظم رواده اتجهوا إلى ساعة التحرير تضامنا مع الشبيبة المنتفضة أو هكذا فهمت من بائع كتب نشر كتبه على أرضية الشارع. وكان بائعا غريب الأطوار ، فهو جالس على صفيحة متخذًا منها كرسيًا ، وبيده كتاب يقرأ فيه باهتمام ، من دون أن يعبئ كثيرًا بمشاهدي الكتب أو متصفحيها. يلقي نظرة عابرة بين الفينة والأخرى إليهم ثم يواصل القراءة في كتابه. راودني الفضول لمعرفة عنوان الكتاب ، لكنه كان يمسكه بطريقة لا تتيح لي قراءة العنوان.

في تلك اللحظات تذكرت صاحبي آدم علي بابا ، وتذكرت كيف أنه لا يقرأ الكتب بل يمقت المثقفين ويسخر حين يرى أحد رواد مقهانا يمسك كتابًا أو جاء وهو يحمل كتابًا..! ويشاكسهم ، فهو يسخر من أفكارهم عن العدمية ، ولا جدوى الحياة وعبث كل شيء ، لكنه في الوقت نفسه ، يعترف بأنه نفسه لا يعرف لماذ هو يعيش؟ ولماذا جاء إلى هذه الحياة ، وإلى أين يمضي..! المشاكسة والسخرية من الآخرين وأفكارهم هي جزء من شخصيته.

كان يسخر من النقاد ويسفه طروحاتهم النقدية ، ويقول بأنهم يكتبون بالأجرة وبدافع العلاقات الشخصية والإخوانيات ، وأحيانا بدافع المشاعر العاطفية والرغبات الجنسية مع الكاتبات ،

لكنه في الوقت نفسه يؤيد أراء هؤلاء النقاد إذا ما اعترض أحد الجالسين على آراء هذا الناقد أو ذاك ، بل إذا ما نقل أحدهم خبرًا عن وكالة ناسا واكتشافها للكواكب أو المجرات يسخر من ذلك بوقاحة ويأتيك بالآيات القرآنية ليقول لك إن القرآن دائرة معارف وفيه كل شيء.. وإن تحدث آخر عن المعجزات العلمية في القرآن لسخر بوقاحة وقال لو كان كل ذلك مذكورا في القرآن فلماذا كانت حياتهم بدائية ، بل كانوا يذهبون إلى البراري ليتغوطوا ومن ثم يمسحون مؤخرتها بالحجارة؟ ولماذا لم يكتشفوا الكهرباء والموبايل في زمان النبي وعاشوا في ظلام وبلا كهرباء ، بل وانتظروا الكفار ليكتشفوا كل هذه الاختراعات وهم يتنعمون بها بفضلهم؟. وكلما تم اختراع شيء أو اكتشاف مجرة أو تحقق انجاز علمي تسارعوا ليقولوا هذا موجود في القرآن. المهم كان طبعه أن يخالف الرأي الآخر ، وكان يستمتع بذلك. المخالفة هي شعاره.

ومع ذلك فتعليقاته الساخرة رشيقة وذكية ، وانطباعاته ساخرة ، وتكشف عن لا معنى أفكارنا عن عدميتنا ، وعن تأكيدنا للامعنى الحياة ، وفي الوقت نفسه تكشف عن معنى وجودنا في خضم هذا اللامعنى الذي يغرقنا بتفاهته.

مرة قرأ أحد الأصدقاء خاطرة ادعى أنها قصيدة ، وكان قد كتبها ، كما قدّم قبل القراءة ، في حبيبته متغزلا بجمالها وغارقا في توصيف جسدها البهي ، فما كان من آدم علي بابا إلا أن قاطع الصديق أمام الجميع قائلا له بسخرية ووقاحة بأنه كتب تلك القصيدة تحت ضغط الشبق الجنسي ، فلو كان قد مارس العادة السرية قبلها لما أتعب نفسه في كتابة هذا الخرط والتفاهة الأدبية.!..

كان يبحث عن الاهتمام بأي ثمن ، لكنه أدرك أن المعارضة من أجل الاختلاف هي التي تحقق حضوره الشخصي ، وأن

السخرية من الآخرين ومن الكتّاب والأدباء مهما علا شأنهم وحظوا بالاعتراف لأصالة نصوصهم ، بمن فيهم الأجانب الذين خلّدهم التاريخ الأدبي ، هي التي تخلق له اعتبارا وتجعله مهابا لتجنب سخريته الجارحة!..

صديقي آدم علي بابا تنطبق عليه صفة المثقف المهرج..مبدع النكات الأدبية والبهلوان..! الساخر من كل شيء ، ولكي يتمكن من السخرية من الآخرين يبدأ بالسخرية من نفسه ، فينزع الغضب و يطفئ ردود الأفعال ويوقف سوء الفهم من قبل الآخرين لآرائه الساخرة فيهم ، بل صار الآخرون ينتظرون حضوره ليسمعوا بعض سخرياته الوقحة في حق المثقفين والكتاب والسياسيين والمحتجين وفي حق نفسه!..

كان يسخر من المتظاهرين ، ويجد أنهم أطفال لا يفقهون شيئا ، فهؤلاء الأنجاس في هرم السلطة لن يسلموا رقابهم لهذه الجموع المنتفضة ، هذه الفئة الضالة والمشبوهة في رأيهم ، ولن يغادروا السلطة من دون أن يتحول العراق إلى مسلخ كبير ، وكان يرى في استشهاد الشباب موتًا مجانيا ، لكنه في الوقت نفسه يسخر ويشتم الجالسين في المقهى ، الذين يدخنون النرجيلة ويشربون الكابيتشينو والقهوة التركية والأكسبريسو والشاي ، ويتأملون النهر البشري الهادر من وراء زجاج المقهى المطل على الشارع ، ويتهمهم بالجبن والخنوع والنفعية والوصولية الانتهازية والمشاركة مع شلة الفاسدين في السلطة.

آدم علي بابا ، ربما هو كان مشروعًا لكاتب عاجز عن الكتابة. هو مريض ، أناني نرجسي ضئيل ، قواد ، يحتقر ذواته ويعبّر عن هذا الاحتقار من خلال السخرية من الآخرين.!..

★★★

توجهتُ إلى الكرادة حيث شقتي ، لكني حين وصلتُ لم أصعد

إلى شقتي وأنما دخلت المقهى القريب عسى أن أجد آدم علي بابا ، ولأتسقط الأخبار منه في معرفة سبب عدم تكرار زيارته مع حواء الملاك!!؟ فلربما هي واجهته بخطته الدنيئة ، ولحظتها يعرف أنني خنته وأفشيت سره!.

وجدته مع اثنين من أصدقائه. حين رآني داخلًا أشار لي فأقبلت عليه. قام مرحبا واحتضنني بحرارة ، فايقنت أنه لا يعرف شيئا مما جرى بيني وبين حواء الملاك.

سألته عن سر غيابه ، فقال لي بأنه يمر ببعض الظروف الخاصة ، كما أنه يشارك في التظاهرات ، لكنه اليوم وهو يوم يتوجه الجميع فيه إلى ساحة التحرير اتفق مع حواء الملاك وصديقتها حواء الفاطمي بأن نلتقي ، وقد اتصل بي اليوم لكني لم أجبه ، فنظرت حينها إلى هاتفي ، ووجدت فعلا أنه قد اتصل ثلاث مرات ، واستغربت أنني لم اسمعه ، وحين تأكدت من جهازي وجدت أنه على وضعية الصامت. استغربت ذلك ، فأنا لم أقم بذلك.

أخبرني أنه بات ليلته في إحدى خيام ساحة التحرير مع المنتفضين ، وكان متحمسًا ، بل وأخذ يتحدث بحماسة عن الوطن الجديد الخالي من طبقة اللصوص المؤمنين..! ولم يأت بكلمة عن حواء الملاك. ثم صمت فجأة. وأحنى رأسه قائلا لي وهو يهمس:

- أتعرف من رأيت عصر أمس في ساحة التحرير؟

- مَن؟

- حواء الملاك وصديقاتها التي عرفت من بينهن حواء الفاطمي. لم أكن وحدي ، وكان مزاجي رائعًا وسط الشباب ، فللمرة الأولى نشعر بكرامتنا وشجاعتنا ونحن نحتج على لصوص الله ، وعلى الأحزاب الإسلامية التي سرقت الله منّا نحن الفقراء.

- وهل حدّثتها..؟

- لا. قلت لك كان مزاجي مختلفا ، بل لحظتها قررت إلغاء خطتي للانتقام منها ، فهي مثلي ضحية هذه السلطة المنافقة ، ضحية هذه القيم الفاسدة والانحطاط الأخلاقي التي شكل المنظومة الأخلاقية الجديدة!..

لم أصدق أن صديقي آدم علي بابا يتحدث بجمل كنت أشك أنه يفهم معناها. وكنت أخمّن بأنه سمع مثل هذه الجمل من خطباء الانتفاضة والنشطاء في ندوات الخيام في ساحة التحرير..!

وشعرت بالراحة النفسية ، وبالانقباض في الوقت نفسه ، فلربما هي نزوة مؤقته تحت تأثير الانتفاضة الايجابي ، وسرعان ما سينسى كل شيء!..

وفي تلك اللحظات بالذات وصلتني رسالة هاتفية ، فارتبكت لأني قرأت اسمها على شاشة هاتفي النقال ، وقرأت الرسالة فورًا: « أنا عند باب الشقة.. هل أنت موجود..؟». لاحظ هو ارتباكي فسألني:

- هل حدث شيء..؟

ولا أعرف من أين جاءتني تلك الإجابة الذكية:

- لا. زوجتي عرفت بأمر الشقة وقد جاءتْ إلي ، علي الذهاب!..

وغادرت المقهى من دون أن أشرب شيئًا. وأنا أتجه للخروج كنت أفكر بجوابي الذكي الذي سدّ عليه أية رغبة للصعود معي إلى الشقة!..

أخذتُ أسرع الخطو ، وحين صرت قرب الباب رأيتها. راودتني رغبة في أن أضمها إلى صدري لكني ترددت ، فلربما يرانا أحد من الجيران فجأة ، على الرغم من إننا كنا وحدنا. فتحت باب الشقة عجلا ، ودخلنا.

★★★

لا أعرف ما الذي زلزل كياني وأعاد ترتيب عالمي الداخلي

ومسح على تناقضاتي وعصبيتي النفسية ومحاها. لا .لا . أعرف.. فمذ رؤيتي لحواء الملاك للمرة الأولى انجذبت لها ، لكن حين تعرفت عليها عن قرب وجاءت إلى شقتي مع عشيقها الذي هو صديقي تعلقت بها ، ومنذ أن ولجتها ودخلت فيها مستغلا لحظة ضعفها أحسست أنها تريدني. لكن كيف أثق بها؟

حين صرنا في الشقة لم يكن هاجس الجنس مهيمنا علينا ، بل الرفقة الطيبة..والارتياح لبعضنا ، وهذا ما قالته لي حين سألتها:

- ما الذي جاء بك إلى هنا من دون أن تتصلي بي؟ ألم تعرفي إن آدم علي بابا جالس في المقهى تحت؟

فوجئت حين قلت جملتي عنه ، لكنها قالت:

- لا. لم أعلم ، لكني كنت في ساحة التحرير ، ورجعت ، فراودتني رغبة في أن أراك وأكون معك لا أكثر. أمس عصرا كنت مع صديقاتي هناك ، واليوم ذهبت مع زوجي ، لكنه فضّل البقاء هناك ، وطلبت منه أن أغادر الساحة ، هو اعتقد إنني راجعة إلى البيت لكني جئتك. لم أكن واثقة من وجودك ، لكني أحببت أن أراك!..

- هل لي أن أعرف ما هو دافعك للتظاهر؟ ألا تخافين؟ وماذا تريدين؟

تألق وجهها وقالت بحماسة:

- نريد وطنا. فمنذ أن استلمت هذه الحكومات الإسلامية السلطة ونحن من سيء إلى أسوء. حين احتل الأميركان العراق كان لي من العمر خمس سنوات. أنا نشأت يتيمة ، تم اختطاف والدي لأسباب طائفية ، وعشت مع أمي وأخي الذي يكبرني. الكل تأمّل خيرًا بمجيء النظام الجديد ، لكن هؤلاء الجدد سرقوا أحلامنا ، سرقوا آمالنا بحياة كريمة ، سرقوا ما فوق الأرض وما تحت الأرض ،سرقوا حتى مقدساتنا. بل إنهم سرقوا الله منا ،

فباسمه يفعلون كل شيء. أباحوا كل شيء.من أي كهف جاء هؤلاء؟ بينما أنت تسألني لماذا أشارك في التظاهر..!؟ هؤلاء الشباب أعادوا لنا الأمل.

التظاهرات جاءت وكأنها صفعة جعلتنا نفيق ، لاسيما بعدما سالت الدماء وسقط الشهداء واختفى من اختفى..! صحيح أنا لست سياسية ، ولقد ذهبت وصديقاتي بدافع الفضول ، فقد كانت التظاهرات مثل كرنفال شعبي ، لكن حين وصلنا إلى ساحة التحرير شعرنا وكأننا نولد من جديد...

- ألا تخافين؟

- حينا فكرنا نحن الصديقات الأربع أن نزور ساحة التحرير لم نكن ننوي الذهاب والمشاركة وأنما رؤية ما يجري ، فلم نقل لأهالينا عن ذهابنا ، لم أخبر زوجي ، لكننا حين وصلنا ووجدنا الآلاف من البشر وهي تهتف باسم العراق شعرنا بالفخر ، واندمجنا في الجموع.

واليوم ذهبت مع زوجي..ومع أنه من المنتفعين من النظام الجديد ومن المنتسبين لأحد الأحزاب ، لكنه كان مع الشباب وقد قال لي بأنه يعرف الكثير عن المستنقع الذي نعيشه. هل تعرف ، وربما لن تصدقني. اليوم حين كنت هناك تمنيت لو أنت كنت موجودًا. لذا وجدت في نفسي الرغبة لرؤيتك فانسحبت من الساحة قائلة لزوجي بأني أريد العودة إلى البيت. أراد أن ينسحب ويرافقني لكني قلت له بأن يبقى وأنا سأعود وحدي!..

أسعدتني كلماتها. وأيقظت في داخلي ينابيع الحنان ، لكني لم أتعود على قول الكلام العاطفي الرقيق ، كان ثمة ما يكبح ذلك في داخلي ، لذا أجبت قائلا:

- حين التقيت آدم علي بابا قبل قليل في المقهى قال لي بأنه رآك عصر أمس مع صديقاتك..

- لم أره ولا أريد أن أراه. صرت أخافه ، وأخاف نواياه بشعه ، يريد تدمير حياتي الزوجية ، مع أني الآن صرت أمنحه المال الذي استقطعه سرًا من مصاريفي ، كل هذا اتقاءً لشره. إنها غلطتي حين سلمته نفسي ، لكن اللّه عوضني ، أنا مرتاحة لك جدًا.. أحسك رقيقا وحنونا ومهتما. أريد شخصا أشكو له ، وأريد شخصا يسمعني..يسمعني فقط!..

كانت كلماتها كمرهم يشفي جراحي النفسية ، وودت أن أتأكد مما أسمع فسألتها:

- لدي سؤال قد يبدو محرجًا. أنت متزوجة ، فلم ألقيت بنفسك في هذه الورطة معه؟ ألا يكفيك زوجك..!؟ ألست سعيدة معه!..

ارتبكتْ لثوان ، وطأطأت رأسها بخجل من صراحة السؤال ، وقالت:

- بلى أنا مرتاحة معه. وهو إنسان طيب ويحبني. لا أدعي بأنني أحبه كثيرًا لكني تعودت عليه ، ويهمني إنه يحبني ويوفر لي ما أطلبه ، أحببتُ حبه لي. هو أكثر وسامة من آدم علي بابا الذي شعرت بالذنب نحوه ، فقد كنت مخطوبة له وقرأنا الفاتحة لكن أمي امرأة طماعة ، جشعة ، تحب المال كثيرًا ، لذا وبحجة أنها تريد أن تضمن مستقبلي ألغت الخطوبة من دون أن تبلغ أمه ، بل حتى أنا لم أتصل به وأعلمه بما حدث ، وعرف بعد ذلك من صديقاتي. وحين واجهني في الجامعة ، أخبرته بأن الأمر لم يكن بيدي ، وكذبتُ عليه حين قلت بأنني طلبت من أمي أن تبلغ أمه بما جرى وأنأمي أكدت لي بأنها أخبرت أمه بأنه لا نصيب لهم عندنا ، لكني بعد أشهر شعرت بحاجتي العاطفية له ، وعدنا نتحدث ونتهاتف من دون لقاءات خاصة.

ومنذ أن تعرف عليك وتوفر المكان أردت تعويضه عمّا اقترفناه بحقه ، ناهيك إنني كنت أحبه. لكني أحب زوجي أيضا..! ربما

تستغرب ذلك. نعم أحب رجلين. والآن أحس إنني أرتاح لك وأود أن أكون معك أيضًا..! زوجي مشغول عني ، كما أنه شخصية لا مبالية ، فحتى لو رأني مع شخص آخر لا يحتج ، هو غيور وشكاك ، ومع ذلك لا يحاصرني. هوشخصية كتومة لا يبدي غيرته لكني أعرف كم هو غيور ، وهذا ما يخيفني أيضا.

فحتى حينما جاءت الرسائل المجهولة وجه اتهامه لي لكنه بعد ذلك قال إنها ربما من قبل بعض أصدقائه الذين يغارون من حياته الزوجية المستقرة ، ويحسدونه لزواجه من امرأة جميلة مثلي..! تصور. كل له أسبابه التي يرى العالم من خلالها ويفسر الأحداث وفقا لها!..

كنت استمع لها بانتباه شديد. وسألتها:

- هل لديك أطفال؟

- لا. لكني ذهبت إلى الطبيبة النسائية وأجرتْ لي فحوصات مختلفة أثبتت أنه لا عيب لدي وطلبت مني أن آتي بزوجي ليجري اختبارا ايضا. وقد لمّحت له ذات مرة ، من دون أن أخبره بأني تأكدت من قابليتي على الحمل ، فرد بعصبية ، وقال : اللّه يعطي ما يشاء..! لكني متزوجة من شهور طويلة ، ما يقارب السنة ، لكن لا حمل!..

ثم نظرت إليّ نظرات خاصة وكأنها تذكرت شيئًا. لكني عاجلت قائلًا بجرأة لم أتوقعها فيّ:

- ربما ستحملين من آدم علي باب!..

استفزها كلامي وقالت:

- لا..لقد تطهرت قبل تسعة أيام وبعدها لم يمسني أحد ، حتى زوجي!..

امتد بيننا صمت مشحون بالكلام للحظات ، ثم التفتت إليّ قائلة:

- أنا لست امرأة ساقطة يا آدم. أنا ضائعة وتائهة لا أكثر. أحتاج إلى الأمان والراحة لا أكثر.لا أكثر..! بقائي مع زوجي هو لتحقيق الأمان الاقتصادي والاجتماعي. أما الأمان النفسي فلم أجده بعد ، بل أحسه هنا في هذه الشقة التي شهدت سقوطي!..

فبادرت قائلًا بنبرة حماسية:

- أنتِ لستِ ساقطة. وعلاقتك بآدم علي بابا ما هي إلا بدافع عقدة الشعور بالذنب. لو استمر الحال ربما سيجرك إلى السقوط!..

فقاطعتني:

- أنا لا أحتاج الجنس حتى من زوجي. الجنس يأتي بالنسبة إلي بعد الاهتمام والارتياح. أستطيع أن أعيش لفترة طويلة بلا جنس ، لكن حتى لو توفر فلا استمتع به من دون اهتمام. بل الاهتمام يوقظ رغبتي. وبصراحة أنا سعيدة لتعرفي بك. صحيح إن الظروف كانت ليست مناسبة ، وأنت رأيتي بطريقة مبتذلة ، لكني كنت أحس باهتمامك بي. ومع أني كنت مع صديقك لكنك لم تنظر لي كساقطة. كنت تعاملني باحترام وحنان ، وكنت استشعر حنانك واهتمامك المكتوم كي لا تثير الريبة في نفس صديقك!..

في تلك اللحظات رنّ هاتفها النقال ، فنظرت إلى الشاشة وقالت:

- إنه زوجي. عليّ الذهاب ، سأتصل بك ليلًا ونتفق على اللقاء..

قالت ذلك وهي تلملم نفسها وتضبط حجابها على وجهها جيدًا. ونهضت متجهة نحو باب الشقة ، لكن ما أن وصلت باب الشقة ، وقبل أن تفح الباب وتغادر اختفت. لم أصدق ما رأيت..! نهضت مسرعا لأتبعها. كان الباب مقفلا. خرجت ومددتُ رأسي لأرى السلّم فلم أرَ أحدًا.

أسرعت نازلًا بل قافزا درجات السلم ، لكن لم يكن هناك أحد.. أأنا مجنون..!؟ أكلّ ما كان من حوار كان مجرد أحلام يقظة جميلة..! ولأتأكد من ذلك نظرت إلى هاتفي لأرى الرسالة التي أرسلتها لي ، فلم أجد أية رسالة منها..!!؟

خفت مما جرى ، فقلت لنفسي لأتأكد من ذلك ، لأذهب واسأل آدم علي باب من دون أن ينتبه ، فإذا ما سألني عن زوجتي فهذا يعني بأنني استلمت رسالة هاتفية حقا وغادرت المقهى على إثر ذلك.

وما أن صرت في الشارع حتى توجهت إلى المقهى ، وفوجئتُ بأن المقهى مغلق ، وعلى واجهته قطعة قماش فيها تعزية باستشهاد ابن صاحب المقهى في التظاهرات.

★★★

حين عدت إلى البيت ذلك المساء جلست أكتب حكاية حواء الملاك!..

★★★

حكاية حواء الملاك

اسمي حواء ، وقد حباني اللّه أو الطبيعة ، حسب ما تعتقدون ، بجمال ملائكي ، لذا لُقبتُ منذ صغري بالملاك ، لكن والحق يقال لم أكن ملاكا. فمنذ صغري كنت مكتظة بالطاقة والحركة والمشاكسة والفضول ، بيد إن هذا اللقب رافقني حتى في الجامعة ، فمن يراني ينتبه للبراءة في وجهي وملامحي ، وفي هدوئي وسكون حركاتي على عكس ما كنته حين كنت في فترة السابعة وحتى التاسعة. وأذكر هذه الأعوام بالذات لأن خلالهما حدث التغيير في شخصيتي.

كنت مدللة أبي. من يصدق أنني أتذكر أشياء حين كان عمري ثلاث سنوات. عموما ، أتذكر أن أبي كان يدللني أكثر من أخي الأكبر الذي كان معبود أمي. كنت في الخامسة من عمري حينما تم اختطاف أبي ذات صباح من أمام باب دارنا ، وبعد أيام تم طرق بابنا ، وحينما خرجتْ أمي وجدت جثة أبي ، ولا أحد غير الجثة.

فقدان أبي كان نتيجة صراعات طائفية وحزبية ، هز نفسيتي ونفسية أخي ، ولا أدري المسارات المخفية والسرية التي مر بها أخي ، لكنني أعرف أن هناك تاريخًا سريًا عشته ، لاسيما في هذه الأعوام ما بين السابعة والتاسعة.

لم يكن فقدان أبي مأساويًا على أمي لأنها سرعان من بدأت مع عمي حياة سرية ثم علنية بعد أشهر..! أتذكر أنني وأنا في السادسة من العمر دخلت غرفة الجلوس أو كما نسميها « المجلس» ، المفروشة بالسجاد الوثير والمعلق على جدارها جهاز التلفزيون ، والتي ينام فيها عمي حتى عندما كان أبي حيًا ، ولقد رأيتهما في

وضع مريب.

عمي هذا يختلف عن أبي الذي كان هادئًا ، لكنه كان أقرب لمزاج وسلوك أمي الحامية والمليئة بالحيوية والرغبات. ومنذ وفاة أبي صار عمي يعيش معنا في البيت بشكل دائم. وكالعادة نجلس جميعنا في غرفة الجلوس.

كان عمي يضعني في حضنه ، ويدردش مع أمي ، متحدثا عن قصص الأنبياء والأولياء وسيرهم وبطولاتهم. كانت هي تنظر إليه مشدوهة لعلمه الكبير بهذه السير العطرة والمثالية.

كان بيتنا يتألف من طابق أرضي وأخرى أعلى. يتألف الطابق الأرضي من المجلس الذي هو للضيوف ولتجمع العائلة ، والمطبخ وغرفة الحمام ، ينتهي بدرج إلى الطابق الأعلى الذي يتألف من غرفتين واحدة لوالديّ وأخرى لي وأخي ، لكن بعد وفاة أبي صرنا أنا وأخي ننام مع أمي في سريرها العريض.

ذات ليلة استيقظتُ من نومي ، أردت التبول ، فلم أجد أمي إلى جانبي. كان أخي نائما لكني رأيت الطابق الأرضي مضاء فاتجهت نحوه ، وأخذت أنزل السلّم ، وكلما اقتربت من الطابق الأرضي تناهى إلى سمعي صرخات وآهات. وحين صرتُ عند باب المجلس رأيت عمي رافعًا ساقي أمي وهو بينهما ويدفع بنفسه بقوة وأمي تلهث وتصرخ ، فخفتُ ، ظننت أن عمي يخنق أمي..هالتني تأوهات أمي وصرخاتها التي تحاول كتمها ، ومن دون أن أشعر أخذت أتبول على ثيابي.

لا أدري كيف رفع عمي رأسه ورآ ني أقف مرعوبة وبيجامتي مبتلة ، لكنه لم يتوقف من ضغط نفسه على جسد أمي ، إلى أن همد وانسحب عنها ، حينها التفتت أمي ورأتني ، فقفزتْ وهي تلملم ثوبها لتغطي عريها ، ولتضمني إليها.

ربما كان ذلك المشهد الذي لا أنساه ما دفع أمي لتتزوج عمي

رسميا. حدث ذلك بعد تلك الليلة بأيام ، وحينها حدثتنا أمي بأن عمي صار بمقام أبينا ، وخرجا بنا ، هي وزوجها ، إلى مطعم للهمبركر احتفالا بزواجهما ، ورجعنا ننام أنا وأخي في غرفتنا فقد احتل عمي مكاننا إلى جانبها.

بعد شهور أنجبت أمي أختا لنا. ومنذ ذلك الحين أحسستُ بأن أمي أولت انتباهها الكلي إلى أختنا الصغيرة ، ولم تعد تهتم بنا كالسابق. بينما كنا ، أنا وأخي ، نشاهد الرسوم المتحركة في القنوات التلفزيونية في وقت مبكر من المساء ، ثم نذهب إلى غرفتنا ليواصلا هما السهرة.

كان أخي متعلقا بأبي الراحل كثيرًا ، وما انفكّ يتذكره في كل صغيرة وكبيرة ، حتى إنه من كثرة ما يتذكره صار الأمر يزعج أمي فتنهره بأن أبي قد مات وأن عمي يقوم الآن بمقامه. فكان يجيبها ببراءة بأن زوجها هو عمنا وليس أبانا. وذات مرة شكى لي بأن عمنا لوى أذنه بقوة بحيث آلمه ذلك وقال له:

- أنا الآن زوج أمك..يعني بمقام والدك..وإذا سمعتك تضايق أمك بذكر والدك سأطردك من البيت وأرميك في الشارع.

لذا كان أحيانا يناجي نفسه أو يخبرني متأسفًا :

- لماذا تزوجت أمي عمي..!؟ لو كان أبي حيا لكان يأخذنا إلى محل العصائر ولكان اهتم بنا فهو يحبنا.

فكانت عيناي تترقران بالدمع. وكثيرًا ما كان الدمع ينزل من دون إرادتي. ولم تكن هذه الأسئلة تؤرقني مثلما كانت تؤرق أخي.

لكن الانسجام بين أمي وعمي لم يستمر طويلا. فسرعان ما بدأ التوتر بينهما ، ولم نكن نعرف سببه ، لكن أخي كان سعيدًا بذلك ، لاسيما وأننا شهدنا مشاجرة بينهما في المطبخ فصفعها فسقطت من شدة الضربة على الأرض ، فركضنا إليها ونحن نبكي خوفا عليها. احتضنتنا وهي في حالة انهيار.

بعدها ، فجأة ، اختفى عمي ولم يعد للبيت. أمي لم تفتش عليه ولم تعبء للأمر ، لكن بعد مرور ثلاثة أشهر أخذت تترقب عودته.
.

مررنا بظروف صعبة جدًا. لا سيما وأن أختنا من عمي ماتت نتيجة حمى وإسهال لا نعرف مصدره. وكان حزن أمي غريبًا ، فمن جهة تبكي طفلتها ، ومن جهة أخرى كانت تقول لنا بأن اللّه أحب تلك الطفلة فأخذها إلى السماء لتتحول إلى طير من طيور الجنة ولا تعيش هذه الحياة الكئيبة!

كانت أمي تعرف أنها امرأة جميلة ، وجمالها يفتح لها الأبواب ، لذا لم تدّخر سعيًا ، فأخذت أمي تعمل بما تستطيع لإعالتنا. فبعد أن تحولت إلى خبازة وطباخة بيتية تعد للجيران الخبز والفطائر وأنواع الكبة ، واستمرت في ذلك لأشهر ، إلى أن تعبتْ. ولا أعرف سبب توقفها عن هذا العمل ، ربما لأن الطلب عليها خف كثيرًا لسبب لم نعرفه.

بعد فترة صارتْ تخرج صباحا لتنظف البيوت في مناطق بعيدة عن أعين الجيران ، إلى أن استقر بها الحال كمنظفة في مكتب لأحد الأحزاب الإسلامية. وفي عملها الأخير هذا ، أتضح أنها خضعت للابتزاز ، إذ حملت بعد أشهر من العمل هناك.

تعرضت أمي لنكسة صحية كبرى بعد أن أجهضت جنينها عند إحدى القابلات سرًا. ويبدو أنها حصلت على مكافأة من الرجل الذي زرع الجنين في رحمها ، الذي كما أظنه كان مسؤولًا كبيرًا في ذلك الحزب ، لأنها بعد عملية الإجهاض بقيت في البيت لكن كان لديها مال وفير ، بل ولأشهر عديدة كان مرتبها يصلها شهريًا ، يأتي به رجل من مكتب الحزب الإسلامي لها. رجل يطرق الباب فتخرج هي لتعود إلينا وبيدها ظرف فيه مرتبها. وكثيرًا ما كنا نخرج معها لنرى الرجل الذي يأتي إليها بمرتبها.

مرة سمعت الرجل الذي يحمل المرتب لها شهريًا يقول لها: «الحاج آدم أبو تراب يسلّم عليك ويقول متى تشرفنا بطلعتها البهية؟» فتتمتم أمي بأن صحتها ليست على ما يرام. لكن بعد ستة أشهرعادت أمي للعمل في مكتب ذلك الحزب الإسلامي. وعادت النضارة إلى وجهها لكنها صارت تهملنا ، وتأتي متأخرة بحجة العمل الكثير هناك.

أخي صار بسبب غياب أمي من البيت يهمل واجباته البيتية ، وصار يخرج إلى الشارع ولا يعود إلا قبل موعد رجوع أمي بقليل. ومرة خرج ولم يعد.

صُدمتْ أمي بغيابه الغامض. مضت إلى مركز الشرطة ، وتوسلت بالحزب الإسلامي الذي تعمل منظفة وبالشخص الذي يبدو كان عشيقها ، لكن من دون جدوى. لكنها صبّتْ حمم غضبها عليّ متهمة إياي بأنني السبب في اختفائه لأنني لم أخبرها بأنه كان يخرج يوميًا ولا يرجع إلا قبل رجوعها بقليل.

أُصيبت أمي بكآبة بعد اختفاء أخي ، وصاحب هذا الفقدان تحولات في شخصيتها ، إذ صارت صموتة بشكل مريب. وصارت غير مستقرة نفسيًا ، فمن حالة الصمت والسوداوية إلى الاندفاعات العاطفية والهوس العاطفي ، حيث تتحول إلى مرحة فتحضنني وتقبلني وتدللني ، وتوصي مطاعم الأكلات السريعة بأن يرسلوا لنا ما لذ وطاب من البتزا والهمبركر وأنواع الدجاج المقرمش مع المشروبات الغازية الذي نأكل القليل منه ، ونرمي البقية في القمامة. لكن الذي كان يواسيها هو علمها بعد جهد جهيد بأن أخي حي يرزق ، لكنه مفقود ، فلا مراكز الشرطة لديها علم به ولا المستشفيات ولا أي جهة يمكن تواجده لديها أبدت علمها به ، واستبعدت الخطف لأنه لم يتصل بها أحد ليبتزها ويطلب منها دية مالية مقابل الإفراج عنه ، ومع ذلك كانت تشتاق إليه كثيرًا ، فقد

كانت منذ ولادته متعلقة به.

ومرت الأشهر الكئيبة المتقلبة. صارت أمي أكثر انشغالًا بل يبدو أنها ترّقت من منظفة في مكتب الحزب الإسلامي إلى مسؤولة ذات شأن! وأخذت تلبس الملابس الأنيقة والحجاب الأنيق، وصارت ترجع بسيارة توصلها إلى باب البيت. ويبدو أنها كانت تهرب من كآبتها، لفقدان أخي، إلى العمل، وصارت تتأخر بالمجيء إلى البيت. ولهذا السبب عَيّنت امرأة كي تقوم برعايتي وتوفير مستلزمات الحياة من أكل وتنظيف والانتباه لي أثناء غيابها. وأعطتها غرفتنا أنا وأخي، لأني كنت أنام معها في سريرها العريض.

ذات مساء، بعد ثلاث سنوات تقريبًا، طُرق بابنا، فخرجت أنا لأجد رجلًا ملتحيًا ويضع عمامة على رأسه، وما إن رآني حتى احتضنني وهو يناديني باسمي:

„- أيتها الملاك ياحواء. لقد كبرت وصرت صبية“،

حينها أدركت بأنه عمي، لكنه بدا وكأنه شخص آخر، فالعمامة واللحية وجبة رجال الدين جعلته وكأنه شخص آخر.

ما زلت أتذكر ملامح وجه أمي وموقفها حينما ركضتُ لأقول لها، ما إن دخلت المجلس، بأن عمي قد ظهر. ارتبكت أمي حين سمعت ما قلت وتمتمت:

„- لا وفقك الله على هذا الخبر.“

ولم تتم جملتها إذ دخل عمي المجلس. فانتبهت إلى وجهها الذي شحب ولشفتيها اللتين ارتعشتا ولنظرات الخوف والتوجس في عينيها، والإنكماش الذي قيد حركة جسدها، لكن ذلك كان في ثوان إذ استعادت قوتها وشراستها، فما إن رأته، قالت له من دون ترحيب:

- لماذا جئتَ؟ وأين كنتَ؟ وماذا تريد!..

فوجئ عمي. ربما لم يتوقع مثل هذا الاستقبال ، لا سيما وهو قد تركها ضعيفة وعاجزة ، تخافه بل جل ما كانت تحلم به أن ينام معها ويطفئ شبقها ، بينما ها هي الآن تقف في مواجهته قوية ، أنيقة ، شامخة ، متكبرة ، بل وشرسة.

أخذ يعاتبها على هذه الطريقة من الاستقبال التي لا تليق بزوجة تستقبل زوجها بعد غياب. لكنها كانت حاسمة ، قالت له بأنه إذا كان يعتبر نفسه ما زال زوجها فعليه الآن أن يرمي عليها يمين الطلاق بالثلاث ، وإذا لم يفعل ستجعله يندم طول عمره المتبقي..!

كانت حازمة في كلامها ، فأدرك أن أمي ليست تلك المرأة التي كانت تلهث وتتأوه تحته ، وإنما هي قوية ، وأن قوتها متأتية من حماية بعض الرجال الأقوياء من رجالات السلطة والحكم ، وإلّا فهي لا تتجرأ أن تحدّثه بهذه الطريقة.

وكانت واضحة في كلامها ، وقالت له إذا شئت أن تبقى هنا اكرامًا لزوجي الراحل فعليك أن تعيش بشروط ، وهي: ألّا علاقة لك بي ، ولا يحق لك السؤال متى أخرج ومتى أرجع وأين ومع مَن أعمل؟ وأن يكون وجودك كالظل وكأنك غير موجود أصلًا! كما تقوم بخدمات البيت ورعاية حواء الملاك.

بعد لحظات من الصمت ، نظر إليّ بغموض ثم صار بمواجهتها وقال بصوت مسموع:

„- إنك طالق بالثلاث» وكرر اللفظ ثلاث مرات أيضا! فاسترخت ملامحها. وهكذا بدأ فصل جديد.

الغريب أنها لم تسأله أين كان؟ وما سر هذه اللحية والعمامة والجبة؟ حتى إنه عاتبها ذات مرة قائلا:

„- ألا تودين أن تعرفي ماذا جرى معي؟ وأين كنت خلال هاتين السنتين؟"

فلم تعره اهتماما وقالت له بجملة مقتضبة:

"- لا. هذا شيء لم يعد يخصني."

بصراحة كنتُ معجبة بشخصية أمي وقوتها ، فقد كانت حازمة ، وذكية ، وأنيقة ، وتغيرت حياتنا كثيرًا ، لكن بصراحة لم أعرف بالضبط ما هو عمل أمي ، بيد إنها كانت مشغولة ومتوترة بشكل عصبي بأمور ترشيحها ضمن قائمة الحزب المعني للانتخابات النيابية.

ويبدو أن أمي وافقت على بقاء عمي لينتبه لوجودي ، كما أنها ، ولا أدري لماذا ، قد صرفت الخادمة. ربما ما كانت تحسب أنه سيتحرش بها ، لا سيما وأنا كنت صبية ذات وجه وقوام ملائكي.

ذات يوم ، صباحًا ، وكنت حينها في العاشرة من عمري ، وبعد خروج أمي إلى عملها ، كنت نائمة في سريري بغرفتي ، فأحسست بشيء ما يلمسني. كنت ما بين النوم واليقظة وشيئًا فشيئًا وبسرعة أدركت أن ثمة شيء ما يجري معي ، وبالتحديد ما بين فخذيّ.

رفعت رأسي فرأيت عمي مقرفصًا ويلحسني من وسط ما بين فخذيّ ، كالكلب أو كالقطة حين تلطع الماء أو الحليب أو حين تنظف نفسها. وحين انتبه هو إلى يقظتي صعد علي بكل قوته ومسكني من يدي بكف منه وقال لي بأن علي أن أسكت ولا أنطق بأية كلمة وإلا سيقتلني.

ذلك اليوم كان منعطفًا في حياتي. ولم يكن الأمر نزوة عابرة ، بل صار يتكرر كل يوم تقريبًا ، حتى صرت حين يتأخر عن موعده أسأل نفسي ماذا حدث بحيث تأخر! ليس قبولاً مني وإنما بحكم التكرار. ولم أستطع أن أخبر أمي ، فهي مشغولة بعالمها ، ولا أنكر أحيانا كان يعجبني الأمر.

وجرت الانتخابات ، لكن أمي لم تفز لأسباب مجهولة بالنسبة لي ولها. ومع ذلك فيبدو أن عشيقها الذي عرفت أنه تزوجها

مؤقتا بصيغة المتعة عوّضها عن ذلك ، فانتقلنا إلى بيت كبير أشبه بالقصر ، لكنها استمرت بالعمل في مكتب الحزب الإسلامي. ويبدو أن أمي نستني وتركت أمري لعمي.

ومع أني كنت أخجل مما يفعله عمي معي إلا إنه كان أقرب إليّ من أمي التي صارت تظهر على شاشات الفضائيات ، بل وصارت تسافر إلى إيران كثيرًا ، في وفود حزبية رسمية أو هكذا تدعي.

وخلال أيام سفرها تلك كان عمي يأخذني إلى سرير أمي العريض ويحضنني ، ويفعل بي ما يشاء ، وما يمكن لرجل عارٍ أن يفعله مع فتاة عارية ، حتى يطفئ نار شهوته.

لا أدري إن كانت أمي قد انتبهت لشيء أو ارتابت بعمي ، لأنها فجأة وظّفت خادمتين في البيت ، وأسكنتهما في بيتنا الكبير ، كما وظّفت حراسًا يحمون البيت ، ووفرت لهما بيتا حديديًا (كرافان) للمبيت المستمر عند باب البيت.

حاول عمي وباستمرار التقرب من أمي لكنها كانت تنظر إليه كظل لا أكثر. وشخصيًا انتبهت لأنانية أمي وجبروتها وحبها لنفسها ، فقد أعمتها الأموال والشهرة والسلطة ، واستغربت من تحولات الإنسان السريعة ، فهي تحولت من امرأة كانت تخبز للجيران وتصنع لهم الكبة ، وتنظف وتخدم في البيوت البعيدة ، ومنظفة في مكتب حزب إسلامي ، إلى مسؤولة مهمة لديها الأموال والسلطة الغامضة. لكنها أمي ، ولم تقصر معي قط ، لا سيما بعد مقتل عمي.

نعم. حدث هذا بشكل غريب وغامض.

كان عمي ، في أيامه الأخيرة ، يقضي وقتًا طويلًا وهو يتحدث مع أشخاص عبر الهاتف النقال. وحدث أن خرج ذات نهار ، ولم يعد.

بعد أسبوع من خروجه مرت سيارة مسرعة من أمام بابنا ،

وعلى الرغم من وجود الحارس ، الذي كما يبدو كان في غرفته الصفيحية ، فقد تم إلقاء كيس نايلون فيه رأس عمي المقطوع وقضيبه المنكمش. أكانت أمي تعلم بما كان عمي يفعله معي؟ لماذا تقطع قضيبه؟

المهم. الذي حدث بعد ذلك كان كارثة عليها. حطّمها وحطّم كل جبروتها. إذ اتضح أن أمي كانت وراء مقتل عمي ، حيث استأجرت أناسًا للقيام بهذه المهمة واتضح أن عمي كان ينتمي لجهة إسلامية تحمل السلاح ، ودخلوا في صراع من الحزب الإسلامي الذي تنتمي إليه أمي ، وتم خطف وقتل ابن عشيقها أو زوجها بالمتعة ، لذلك انتقم عشيقها منها ، فطردها من منصبها ومن البيت الذي أسكنها فيه ، وأرجعها فقيرة بائسة كما كانت ، كما أنه قتل أخي انتقامًا لموت ابنه ، إذ التمّ الجيران عند باب بيتنا ذات صباح لأنهم وجدوا جثة مرمية عند الباب ، وحينما خرجنا انهارت أمي حين رأت الجثة التي عرفتها مباشرة.

★★★

مهلا. مهلا. هذه ليست قصتي بالكامل. هذه قصة صعود وانهيار أمي. أما عن قصتي السرية فهي كما سأرويها.

★★★

لم تجد حواء الفاطمي أية حكاية قد كتبها آدم الأخرس بإرادته تحت عنوان (حكاية حواء الملاك السرية) كما جاء في النص الذي تقرأه ، وكما كان الوعد عن لسان حواء الملاك.

أخذتْ تقلّب الدفتر عن حكاية أخرى. استغربتْ أن زوجها كتب «اعترافات آدم الأخرس بإرادته» ، والتي يرد اسمها فيها من دون أن يمر على ذكر حكايتها مع أخيه ومعه. وسألت نفسها:

- من أين له ، وهو يكتب حكاية عن لسان آدم الأخرس بإرادته ، أن يروي تفاصيل من علاقتها مع صديقتها حواء

الملاك، وهي تفاصيل دقيقة؟ لا سيما تفاصيل علاقة حواء الملاك مع صديقها آدم علي بابا. لكن ما معنى الأخرس بإرادته؟ أيكون معناها بأن زوجها ليس أخرسًا وإنما هو يصطنع البُكم مثل الشخصية في الحكاية، أي بإرادته! لكن كيف وتفاصيل حياته لا تشبه تفاصيل حياة آدم الأخرس بإرادته؟

في تلك اللحظات سمعتْ حواء الفاطمي عمتها تناديها، فأعادت الدفتر إلى مكانه، وهمّت بمغادرة الغرفة، فانطبق الباب بقوة غير طبيعية. حاولت فتح الباب بكل قوتها لكن من غير جدوى. أخذت تصيح على عمتها التي جاءت محاولة فتح الباب من الجهة الأخرى لكن كل محاولاتيهما كانتا بلا جدوى أيضًا.

لم يكن في غرفة المكتبة أي أدوات حادة ومفكّات كي تستطيع استخدامها. ومن الجهة الخارجية، حاولت العمة أن تكسر الرتاج بأدوات مختلفة لكنها عجزت. وفي أثناء محاولات العمّة وصل الزوج الأخرس وهو يحمل كيسًا من النايلون فيه بعض الكتب التي اقتناها من شارع الكتب الشهير. وحين رأى أمه منهمكة بمحاولة كسر رتاج الباب سارع إليها مستفسرًا بالإشارة فقالت له بأن حواء محصورة داخل الغرفة والباب لا يُفتح. فحاول هو بكل ما يملك من قوة فلم يستطع، فأخذ يرفس الباب ليكسره، لكن الباب وكأنه تحول إلى جدار كونكريتي أو بوابة حديدية صلدة!

بعد ساعة من محاولات كسر الباب من الجهتين شعر الجميع بالتعب والعجز. وشعروا بأنهم أمام شيء غامض يحدث.

في الجانب الآخر، داخل الغرفة، أحسّت حواء الفاطمي بأن شيئًا غيبيًا، لا معقول ولا منطقي، يجري معها، كما في أفلام الرعب الأميركية التي اعتادت أن تراها في إحدى القنوات المختصة بالأفلام أو على أحد التطبيقات على الانترنيت.

أخذت الظلمة تهيمن على الغرفة فمدّتْ يدها إلى زر الكهرباء

لكنه لم يعمل، وظلت العتمة التي كانت تشتد شيئًا فشيئًا تهيمن على الغرفة.

لا تعرف حواء الفاطمي كم مرّ من الوقت عليها وهي في تلك الظلمة الكثيفة. أحسّتْ، فجأة، وكأنها كانت في غفوة وصحت. أخذت تضرب على الباب الذي تجلس عنده، وكانت تتكئ بظهرها عليه، لكنها وكأنها كانت تضرب على جدار حجري.

أحسّت حواء الفاطمي وكأنها في عالم آخر، وليس غرفة المكتبة التي دخلتها لترتيبها. وشعرّت كأنها تعيش كابوسًا ليس حقيقيًا. فما يجري ليس واقعًا وإنما أحلام يقظة أو أن كل ما جرى ليس سوى حلم، وأنها، ربما تنام في غرفتها!

فجأة تحرك شيء ما في تلك الغرفة المظلمة. وتناها إلى سمعها ما يشبه وقع الخطى. ثم شعرت بأنفاس شخص قريب. وخطر لها أن تمد ذراعيها لتلمس ما هو موجود حولها، لكن في أثناء ذلك جاءها صوت أنثوي بريء، لكن النبرة لم تكن غريبة عليها:

- أهلا حواء!

فوجئت حواء الفاطمي، صُدمت، لكن الصوت الهادئ البريء منحها لا شعوريا بعض السكينة، بأن من يتحدث معها ليس مخيفًا، فنست الوضع الذي هي فيه، وأجابت بما يشبه التمتمة:

- أهـــــلا. من أنت؟ هل تعرفيني؟

- نعم أعرفك، وكيف لا أعرفك وأنت تعرفينني جيدًا أيضًا. ألا تذكرينني!

فوجئت حواء الفاطمي، وقالت:

- صوتك ليس غريبًا على أذنيّ، لكنني لا أراك في هذه الظلمة. من أنت، عرّفيني بنفسك؟

- لستُ غريبة عنك كي أعرفّك بنفسي!

استغربت حواء الفاطمي أجوبة الصوت المنطلق من المرأة التي لا تُرى في تلك الظلمة الكثيفة ، وشعرت بشيء من القلق بدأ يدبّ في نفسها ، فسألت:

- كيف إنك لست غريبة عني؟ أأعرفك؟

- نعم تعرفينني. تعرفيني جيدًا جدًا!

شعرتْ حواء الفاطمي بتوتر من تأكيد المرأة اللامرئية على جملة «تعرفينني جيدًا جدًا» ، وسرت ارتعاشة باردة في جسدها. وسألت:

- أأعرفك؟ وجيدًا جدًا؟

- نعم أنا أنت! أنا حواء الفاطمي!

صُدمت حواء الفاطمي بهذا الجواب ، فردت بتوتر وعصبية متسائلة:

- كيف؟ هذا مستحيل وغير ممكن! إذا كنتِ أنت حواء الفاطمي فمن أنا؟

مرت لحظات صمت بينهما ، إلى أن جاء الجواب:

- أنتِ حواء الفاطمي أيضًا. قلت لك أنا أنت! لكنني حواء الفاطمي الحقيقية وأنت حواء الفاطمي الظل!

- ماذا تعنين؟ سألت حواء الفاطمي بعصبية.

فجاء الصوت الأنثوي الآخر قائلًا بصوت محايد وجاد:

- لقد استمعت إلى بوحك عن نفسك وروايتك عما جرى معك ، لكن كل ما قلته كان كذبًا ، لإنك تكذبين بثقة عالية تفوق ثقتي في قول الحقيقة. يالك من مزيفة!

شعرت حواء الفاطمي بالتخشب وما يشبه الشلل في جسدها والتشنج في فكها فلم تستطع أن تقول شيئًا ، فواصل الصوت الأنثوي قائلًا:

- لقد تحدثتِ عن علاقتك بوالدنا وعبّرت عن كرهك له ،

واتهمته بقتل أمنا ، لكن في الحقيقة أنت لغيظك الكبير من أمنا لضعفها أمام أمومتها من جهة واحترامها والدنا من جهة أخرى ، قمت بتسميمها! كما إنك حولت حياة أمنا إلى جحيم. لقد سرقت مجوهراتها وبعتها بثمن بخس لا يساوي قطعة صغيرة منها ، وكنت متمردة منذ مراهقتك ، فكانت معظم صديقاتك من المدمنات على الحشيش وشمّامات ، بل وكن عاهرات صغيرات. وأنت تعرفين ذلك ، وبما إنك أنت المتجسدة في الواقع مع أني هي الحقيقية ، كنت دائمًا تكذبين. تدعين أن لدى صديقاتك عيد ميلاد وتتأخرين في المجيء إلى البيت ، وإذا ما سأل الوالد عنك ، تدّعى أمنّا بأنك نائمة في غرفتك ، وتأتين في منتصف الليل سكرانة تفوح منك رائحة الكحول.

الكذب مرضك الحقيقي ، بل أنت تكذبين بثقة عالية جدًا ، بحيث لا يمكن أن يشك به أي سامع لك. ولك خيال واسع بحيث تؤلفين القصص ، الكذب يسري في دمك. لا تستطيعين ألآ تكذبي بل أنت تكذبين حتى في المنام.

كانت حواء الفاطمي ترتجف من الخوف والغضب والأسى فقد كانت تسمع حقيقتها من خلال هذا الصوت الأنثوي. وفجأة جمّعت ما لديها وصرخت:

- لا. لا. هذه ليست أنا.

- بلى هذه هي أنت. بل هي أنا Kلأني حواء الفاطمي الحقيقية وأنت الظل المزيف!

- أنت لا شيء. أنت وهمي.

فجأة ، في تلك اللحظات ، سمعت حواء الفاطمي صوت تكسر للمرايا ، وبعد ثوان أضيئت الغرفة. وحين مدّت يدها إلى آكرة الباب فُتح بسهولة شديدة. ولم يكن خلف الباب أو في باحة الدار من أحد. بل كان المطر يهطل مدرارًا. بل لم يكن مطرًا وإنما

حبات البرد تنهمر من السماء وكأن السماء تقول شيئًا.

استغربت حواء الفاطمي من تقلبات الطقس ، فالوقت هو الشهر الأول من الصيف ، فكيف بنزول البرد بحبات كبيرة!؟ وحين خرجت إلى الباحة انتبهت إلى أن الباحة هي باحة بيت والديها ، ولم تتذكر قط أنها متزوجة أو أن لديها طفلة.

ولا إراديًا وقفت وسط الباحة ، لكنها لم تكن تعرف بأن تلك كانت إشارة غامضة قد وصلت إليها. فما هي إلا لحظات حتى تعالى دوي الصواريخ المنطلقة من أماكن مختلفة وانفجارات من أماكن وقوعها. فقالت لنفسها: «إنها بغداد ، أخطر عاصمة في العالم». وفي غمرة انتباهها وهي وسط الباحة لصوت الصواريخ والانفجارات اختفى كل شيء حين سقط صاروخ عشوائي في باحة الدار حيث كانت هي واقفة.

★★★

وانقطع النص في الدفتر الأول.

★★★

كانت هناك صفحات بيض في الدفتر لم يكتب فيها شيء.

- هل فهمت شيئًا يا آدم؟ سألت إيفا ماجدولينا.

-فهمت ولم أفهم في الوقت نفسه. من هي حواء الفاطمي الحقيقية؟ هل التي قتلها الصاروخ العشوائي ، أم ذلك الصوت المنطلق من الكائن اللامرئي؟ علينا مواصلة القراءة فربما هناك تكملة أو ايضاح للأمر.

-أنا أيضًا تُهت!

- نحن لا نعرف الآخر مهما اعتقدنا بأننا نعرفه! وكيف لنا ذلك ونحن لا نعرف أنفسنا؟ نحن نعرف أنفسنا باعتبارنا (الأنا) لكننا نجهل ذواتنا الحقيقية!

- لا أفهم ما تقول بالضبط ، لكني أعتقد إن ما تقوله صحيح

جدًا!

- كيف تعتقدين إنه صحيح جدًا بينما أنت تقولين بأنك لا تفهمين ما أقول!

- ببساطة لأنني أثق بك!

- وهل الثقة وسيلة للمعرفة والتحقق من الحقيقة؟

- لا وإنما الحدس. أحدس بأنك على حق!

- الحدس؟

وصمت للحظات ، ثم أضاف:

- الحدس أحد سُبل المعرفة. نعم هذا صحيح أيضًا.

ومدّ آدم السيد يده إلى الطاولة القريبة التي عليها رزمة الدفاتر. أخذ دفترًا جديدًا ، لكن قبل أن يفتحه رنّ جرس الهاتف في الصالة ، فنهضت إيفا ماجدولينا وهي تقول:

- لا أعرف هل هو جرس الهاتف أم الباب الخارجي؟ على أية حال أريد أن أشرب الماء.

لم يقل هو شيئًا فقد كان مشغول الذهن بالدفتر الجديد.

حين صارت إيفا ماجدولينا في الصالة انتبهت إلى أن الهاتف هو الذي يرن وليس جرس الباب. وعلى الرغم من خوفها من الرد ، لكن فضولًا ما راودها ، لمعرفة سر الاختفاء ، فقد كان كل شيء في هذا الفندق يمكن أن يحدث ولا يحدث!

فتحتْ الثلاجة فاستغربتْ أن الثلاجة كانت فارغة لا شيء فيها. راودها هاجس مريب. انقطع رنين الهاتف لثوان. أحست بارتياح لانقطاعه وكأنه خلّصها من اندفاع لا تستطيع مقاومته. كانت عارية بالكامل. انتبهت إلى عريها في المرآة الكبيرة التي أمامها. أعجبها جسدها. فجأة انتبهت إلى تحولات وحركة غريبة تجري على سطح المرآة. وشيئًا فيشئًا أخذ سطح المرآة الزئبقي يظلم وصار سطح المرآة وكأنه طريق يفضي إلى مدخل سرداب

يهبط إلى فوهة مظلمة. خافت. وفي تلك اللحظة بالذات رّن الهاتف مرة أخرى.

نظرت إلى الهاتف بتوجس ، وفي لا وعيها ربطت بين تحولات المرآة ورنين الهاتف. وفي اللحظة التي مدّت ساعدها للالتقاط سماعة الهاتف سمعت صوت آدم السيد يقول لها:

- لا. لا تأخذي السماعة.

فزتْ ملتفتة إليه فاحتضنها من الخلف. كلاهما كان عاريًا. انتبهت إلى المرآة الصافية التي تعكس جسديهما العاريين وهو يحتضنها من الخلف.

أخذ يتشمم شعرها ورقبتها من الخلف. وبكفيه يحتضن رمانتي نهديها. استدارت إليه واحتضنته بمحبة وحميمية وهي تتمتم له:

- لقد خفت كثيرًا. لا أدر ي لماذا راودني إحساس بأني فُقدتك ، وإنك تركتني.

قبلها من رأسها وقال لها بحنان:

- أنت تعرفين إنني لن أتركك فمن أين جاءك هذا الهاجس؟ وحتى أنت مهما حاولت أن تتركيني فلن تستطيعي! تعالي إلى السرير كي نواصل قراءة الدفتر الثاني. يبدو أن هذه الدفاتر هي دفاتر الخطايا!

- بالتأكيد حبيبي. أليس هذا المكان هو مطهر الخطايا المقدسة؟

انتبه إلى أنها قالت له «حبيبي» ، فابتسم لها بطيبة وسألها:

- هل تحبيني يا إيفا ؟ هل أنت متأكدة مما تقولين؟

رفعت رأسها إليه بخجل وارتباك ونظرت إليه بحنان طفولي وقالت:

- نعم.

- هل أنت متأكدة من مشاعرك.

صمتت لثوانٍ ثم هزت رأسها بفرح في إشارة للجواب بنعم. فانحنى عليها وقبل شفتيها برومانسية ، ثم حملها بين ذراعية واتجه بها إلى غرفته ، بينما تشبثت هي برقبته.

حين دخل الغرفة ألقاها برقة على السرير واستلقى إلى جانبها. وضعت رأسها على كتفه واحتضنت بساقها ساقه الطويلة والتحم جسدها بجسده.

مد يده وأخذ الدفتر الثاني وهو يقول:

- تصفحت هذا الدفتر ، إنه غريب. لا أعرف إن كانت شخصياته تدور تائهة في هذا الفندق.

- ما قصتهم؟

- لا أعرف ، سنقرأ ونرى. لكن عنوانه غريب!

- اقرأ حبيبي. سنرى!

- نعم.

وافتتح آدم السيد الدفتر الثاني الذي كان عنوانه: «الجحيم هو الرغبة... آدم الشاحب... السيمرغ الحزين"

- عنوان غريب! ما معنى «السيمرغ»؟ سألت إيفا ماجدولينا.

- هو طائر أسطوري يرد ذكره في كتاب «منطق الطير» لفريد الدين العطار ، والكلمة فارسية تعني «الثلاثين طائر» وهو قائد الطيور في الرحلة الصوفية العجيبة.

- ولماذا هذا الآدم اسمه الشاحب وأيضًا بالسيمرغ الحزين!

- لا أعرف. دعيني أقرأ لك وحينها نعرف ذلك!

وفتح الدفتر وأخذ يقرأ لها بصوت مسموع: «الدفتر الثاني... آدم الشاحب..السيمرغ الحزين."

★★★

الدفتر الثاني
آدم الشاحب... السيمرغ الحزين

أنا آدم الشاحب، الموصوف من قبل المريدين والأتباع بالسيمرغ الحزين. أنا شهقة اليائسين والمذلين. أنا الضال الرحيم، والشيخ الرجيم. روحي تبحث عن خلاصها في أروقة المطهر الخانق، مطهر الخطايا المقدسة.

لا أعرف من أين جئت إلى الحياة، ولا أعرف لماذا جئت إليها! فقد فهمت فيما بعد بأني تشكلت ذات ليلة في لحظة شبق محموم! ومع هذا أشك في الأمر!

ذات يوم صحوت على صوت السهروردي المقتول، ومع أني أعيش بعد لحظة موته بقرون عديدة، لكني سمعته يناديني: يا آدم الشاحب، أيها السيمرغ الحزين.. الغوث.. الغوث، ففززتُ من يقظتي ودخلت نومي الطويل!

هل أنا نائم أم يقظ!؟ لا أدري.

لا أعرف كيف وصلت إلى هذا المطهر الخانق. هذا الجحيم السعيد!

أنا شيخ اللا إراديين، العارف والماسك بجمرة يقين بأنني لا أدري شيئًا!....

لا أعرف أهلًا لي، فلقد تفتحتْ عيناي وأنا في خان كبير مكتظٍ بالعوائل الفقيرة التي تستأجر كل منها غرفة أو غرفتين، وأحيانًا هناك عزّاب من الرجال المهمومين، ومن المعممين الذين يدرسون علوم الدين، فأنا وجدت نفسي في مدينة مقدسة ومعروفة عند الشعوب المسلمة وربما عند الشعوب غير المسلمة أيضًا.

استيقظت ذات فجر فوجدتني مثل جرو منبوذ ووحيد ، أربض في فتحة بين أكياس مصنوعة من القنّب المليئة بالتمر.

حين استيقظت رأيتُ رجلًا مقرفصًا أمامي ، ويبدو أنه كان ينظر إليّ ويتأملني قبل أن أفتح عينيّ. وما إن فتحت عينيّ حتى رأيته يبتسم بطيبة.

أتذكر الآن أنني حينها لم أعرف كيف ظهرت من الغيب وصرت في هذه الفسحة التي تشبه الكوة بين أكياس القنب المليئة بالتمر. كنتُ ، كما أتذكر الآن ، في الخامسة من العمر. فإلى الآن لا أعرف كيف وصلتُ إلى ذلك الخان؟ هل كنت طفلًا ضائعًا؟ هل كنت طفلًا مخطوفًا؟ هل خطفني هذا الرجل الذي ربّاني فيما بعد ودمّر حياتي!؟

بل إن وعيي للحظة ظهوري من العدم كان الحافز والتمرين الأول لأسئلتي اللاحقة عن أصل الكون. من أين جاء؟ وكيف؟ ومتى؟ ولماذا انبثق الوجود؟ وماذا كان قبل انبثاق الوجود؟ وأسئلة أخرى عن جوهر الحياة وسرها ، وعن الرغبة ودوافعها. كنتُ مكتظا بالأسئلة ، وما زلت مكتظًا بالأسئلة ، مع أني ترعرعتُ في مدرسة دينية وواصلت درسي فيما يشبه المعاهد الدينية.

كان الخان بيتًا قديمًا مهجورًا ، فيه عدد كبير من الغرف الفارغة التي تحولت إلى مخازن لحفظ التمور وأقفاص العنب ، والتمر الرطب ، وصفائح الدبس ، والتي تعود لاثنين أو ثلاثة من البقالين الذي ينصبون عرباتهم على مسافة أمتار أمام الخان. ولم يكن من أحدٍ يسكن في ذلك الخان سوى هذا الرجل الذي حين فتحت عينيّ كان يبتسم وهو مقرفص أمامي.

أقول الحق. لا أعرف لِمَ تحضر هذه التفاصيل أمام عين ذاكرتي بكل هذا الوضوح الآن ، بينما مرّ عليها أكثر من خمسة عقود ونيّف.

حين انتبهت لوجودي كنت في الخامسة ، وهذه أبعد مسافة في زمن الطفولة يمكن لذاكرتي أن تستحضر صورها بوضوح إلى حد ما. لا أرى سوى مشاهد سريعة من تلك السنوات.

أتذكر الغرفة العارية من الأثاث سوى من سرير عريض وأرضية مفروشة بالبسط والسجاد الرخيص ، وأنني كنت مع الرجل الذي لم أعرف من هو بالضبط ، فلا هو أبي ولا هو مالكي ، لكني وجدت نفسي أعيش معه ومرتبط له كتابع أبدي.

أذكر أنني كنت أنام في حجره على السرير العريض. وأحيانًا كنت أشعر بشي صلب لكنه مرن في حركته كالأفعى يلتف حولي بقوة ، وحين كنت أفز واتحرك أراه يبتعد وكأن كل شيء يجري طبيعيًا وخلال النوم.

ذات ليلة وفي سن الخامسة ربما ، أحسست بأني عارٍ ومتجرد من ثيابي ، وبأصبع تدهن فتحة مؤخرتي ، وبيدين قويتين تفتح فلقتي مؤخرتي ، ثم اختراقي بإبرة لحمية ساخنة. كدت اختنق ، لكن شعرت بتدفق شيء ساخن في داخلي ورخاوة ، وعرفت أنه فعلها بي. هل فعلها بي؟ لا أدري ، لكن يخيل لي ذلك.

لا أذكر أنني أبديتُ احتجاجًا ، أو أبديت استياءً ، وإنما كنت في حالة خوف وترقب بما سيحدث لي. كنت صبيًا صغيرًا قي الخامسة ، وتكرر هذا الأمر بشكل شبه يومي ، ولا شعوريًا تعودت عليه. بل إذا لم يفعلها كنت أتسائل حينها لماذا لم يفعلها الليلة؟ هل هو زعلان مني؟ هل اغضبته بشيء؟ ولكن هذا كان يحدث نادرًا. وإلى الآن لا أعرف هل حدث ما ظننته قد حصل أم لا!؟

لكني تيقّنت بأنه ليس أبي ، فلا أب يفعل بابنه ما ظننته قد فعله ، وأكرر إنني لست متأكدًا مما ظننته قد فعله ، فهي كالذكرى. ومع ذلك كان رجلًا ودودًا ، يهتم بي بصدق ، فقد اهتم بتعليمي . لكن من أغرب الأمور أنه ذهب بي إلى تكية لشيخ جليل كانت إلى

جانب المسجد الصغير في زقاقنا ، لأتعلم عنده القراءة والكتابة والدين وأصوله!

كان شكّاكًا وغيورًا ، إذ كان يحرص على أن يعرف إن كان الشيخ المعلم يفعل بي كما يفعل هو. كان يحقق معي بهوس كل يوم ، ويسألني عن كل تحركات الشيخ المعلم ونظراته. كان يطلب مني أن أعرف كل شاردة وورادة عن هذا الشيخ الجليل! بل ومن شدة خوفي لم أقل له بأن الشيخ المعلم ذات يوم أبقاني بعد خروج التلاميذ بحجة مساعدته في ترتيب بعض الأوراق والدفاتر في المكتب ، وأغلق الباب ، فأدركت رغبته المتأججة فيّ ، ولا أدري لماذا بكيت؟ ربما لعجزي الواضح من أن أفعل شيئًا ، فأخذني كما تؤخذ الشاة للمسلخ ، عرّى مؤخرتي واخترقني. فعلها بي وهو هائج كالثور ، لكني كنت خائفًا في أن أروي للرجل الغامض ما جرى معي.

واستمر الشيخ المعلم يفعلها بي! حتى اعتدّت هذا الأمر من قبل الاثنين. واستمر هذا لسنوات خمس إلى أن انتقلت إلى مرحلة أخرى في تعليمي الديني وصرت تلميذًا لمعلم آخر كان رجلًا مستقيمًا ، بل هو الذي قلب حياتي وفتح لي آفاق سماوات الفكر والقلق الوجودي.

بيد أن الرجل الذي رباني كان ساحرًا ، فهو ليس بشرًا ، وإنما كان ثعبانًا هائلًا!

أذكر جيدًا أنه كان لا يخرج من غرفته ، غرفتنا ، إلّا نادرًا جدًا ، وأحيانًا يحدث في منتصف الليالي بعد أن يهجع الجميع ويهيمن السكون على الخان ، تجري عملية التحول ويختفي! ينسل من الغرفة والخان بشكل غير مرئي.

وذات مرة استيقظت فجرًا فوجدت نفسي لستُ في سريري وإنما جالس على دكة حجرية ، لكن المكان كان أشبه بمعبد هندي.

ورأيته واقفًا في وسط دائرة ضوء غامضة.

فجأة ، أخذ يدور على نفسه بسرعة هائلة ، وخلال ذلك بدأ يتحول إلى أفعى الكوبرا ، لكن بحجم هائل. صار ثعبانًا واقفًا بالطريقة التي نراها في النقوش الأسطورية عند الهنود والفراعنة. حينها تبولت على نفسي من الخوف ، لكن الثعبان نظرَ إليّ ، وكانت نظرته نظرة الرجل الغامض نفسها ، لأني انتبهت إلى وجه الثعبان يكاد يشبه وجه الرجل الغامض. حينها ابتسم الثعبان لي ثم انسل بسرعة هائلة.

غياب الرجل الثعبان يطول عادة. أحيانًا لشهربن وأحيانًا لأسبوعين ، لكني أعرف علامات رجوعه حين يقترب من باب غرفتنا ، وأرى النور من تحت الباب ، فأعرف أنه وصل. وحين أدخل الغرفة أراه جالسًا على حافة السرير وهو في حالة إنهاك شديد. بشرته صفراء شاحبة تميل إلى الإخضرار. لكن بعد مرور فترة قصيرة ، يعود إلى طبيعته البشرية شيئًا فشيئًا ، ويختفي لونه الأخضر المصفر ، وأرى أمامي ذلك الإنسان الطيب الرقيق.

أحيانًا حين كنت أرجع من مكان دراستي ، وهو مكتب تابع للجهة الروحية المشرفة على شؤون الدراسات الدينية ، وهذا المكتب يقع في أزقة ملتوية ، متداخلة ، ضيقة جدًا ، وفارغة في معظم أوقات النهار والليل وكأن بيوتها مهجورة ، فكنت أرى ثعبانًا هائلًا يزحف في تلك الأزقة بسرعة فائقة ، فأعرف إن الثعبان هو الرجل الغامض. لكن ماذا كان يفعل في تلك الأزقة ، ولماذا يتجول فيها زاحفًا كثعبان وليس في هيئته الآدمية!؟

لكن مع مرور الوقت صار غياب الرجل الثعبان يطول لأشهر عديدة ، بل وفي السنوات الأخيرة صار يغيب لعام كامل.

وهكذا مضت السنوات وصرت بالغًا ، وتغير الخان وصار أشبه بالفندق يستأجره الزائرون لهذه المدينة المقدسة لا سيما أثناء

الطقوس السنوية. وكان منهم من يبقى طويلًا ومنهم لفترات لا تتجاوز الأسبوع.

وصار الخان يدرّ عليّ مبالغ طيبة. وكان الرجل الغامض حين يظهر يقضي الوقت في ترميم وصيانة الفندق وتجديده وتجديد تأسيساته الصحية ، وكان لا يسألني عن دخل الفندق من الأموال ، ولا أنا أعيرها اهتمامًا مبالغا فيه ، فقد كان الصبي الأفغاني يقوم بدور المحاسب وأمين الخزانة ، ولم أكن أعبأ بالمال الوفير ، فيكفيني أن يوفر لي الأفغاني زيت الزيتون وحباته والجبن والزعتر والتمر وأرغفة الخبز ، وإذا ما دلّلني فإنه يُعد لي الرز البسمتي مع مرق الفاصوليا البيضاء ، يعني بالنسبة لي تلك هي أغذيتي الأرضية التي أشعر بالسعادة وأنا أتذوقها.

هنا يمكنني القول بأنه على إثر اهتمام الرجل الغامض بالخان وصيانته له وتجديد طلاء الجدران والتأسيسات الصحية سنويًا ، صار مكانًا يعج بالنزلاء ، لا سيما وأن أجور المبيت فيه معقولة جدًا.

ثم فجأة توقف الرجل الغامض عن الإساءة إليّ ، بل وصار متدينًا ومواظبًا على الصلاة في صحن مرقد الإمام الحارس للمدينة.

وكبر جسدي ونما ، وبدت ملامح الرجولة على وجهي ونواحي جسدي ، لكن ثمة انكسارًا وشرخًا في مرايا روحي. فقد كنتُ خجولًا جدًا وأشعر بالعار في أعماقي مما كان قد فعله الرجل الغامض وشيخي الأول. كنتُ أعرف أنني أعيش دور الأنثى في حياة هذا الرجل الغامض.

كان هذا الأمر يربكني حتى في التكية مع زملائي التي كنت ألتقي فيها مع بعض الشكاكين من زملائي ، أو حتى وأنا أمشي في الشارع ، أو في الأزقة المسقوفة بالبردي والتي تحيط بمرقد

الإمام الجليل ومنها الزقاق الذي يقود إلى الخان.

وحدث إن نزلتْ إحدى غرف الخان فتاتان في منتصف العشرينات ومعهما رجل وثلاثة أطفال. إحداهما كانت قصيرة القامة وضئيلة الجسد تقريبًا والأخرى أطول منها بقليل، أما الرجل فقد كان وسيمًا وملتحيًا، لكنه يلبس زيًا عصريًا، بنطالًا من الجينز وفانيلة ملونة (تي شيرت)، يبدو لي أنه زوج إحدى الفتاتين، لا سيما وأن أحدهما، الفتاة الأطول قليلًا، كانت منشغلة دائمًا بأطفالها الثلاثة.

رسميًا أنا في الواجهة بصفتي صاحب الخان، لا سيما وأنا أتواجد مع الأفغاني بعد عودتي من دروسي الدينية. والأفغاني هو صبي في الرابعة عشرة، جاء مع والديه إلى هذه المدينة المقدسة، وبقيا هنا بشكل غير رسمي، إلى أن توفيا نتيجة الإصابة بمرض غامض، حيث ماتت الأم وبعدها التحق بها الأب، وبقي الصبي الذي كان حينها في التاسعة، فاستخدمه الرجل الغامض لتقديم الخدمات لرواد الخان، إلى أن صار عليمًا بكل تفاصيل الخان، وبعد أن أمّنني الرجل الغامض على الخان، ولأني منشغل بالدروس لذا أوكلت إدارة الخان وخدمة النزلاء بالكامل للفتى الأفغاني، فقد كان في البداية يساعدني في تقديم الخدمات لرواد الخان، يوزع الشاي ويلبي الطلبات ويوزع الشراشف النظيفة، ويحمل لهم الطعام من مطعم مجاور للخان. الآن يقوم بذلك وحده من دون مشاركتي، فقد صارت مهمتي الأساس مراجعة سجل النزلاء فقط.

سأتحدث عن نفسي وهيئتي. فعلى الرغم من جسدي الفتي لكن في ملامحي شيء من الأنوثة، أي وسامة الأنوثة في رجل شاب، وهذا ما كان يدفع بعض النزيلات من النساء أن يبحثن عن أية حجة ليتواصلن معي شخصيًا، وكنت أستشعر ذلك لكنني خجول ومرتبك الأعماق.

ذات ليلة ، في الهجيع الأخير من الليل ، وأنا مستلقٍ على سريري أقرأ في كتاب لشيخ الإشراق السهروردي المقتول ، سمعت طرقًا على الباب. ظننته الفتى الأفغاني الذي يسهر في مكتب الاستقبال متابعًا الأفلام الهندية وينام في مكتب الاستقبال ، فكرت مع نفسي بأنه ربما جاء لأمر ما ، لكني استغربت مجيئه في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ، فالوقت قريب من موعد صلاة الفجر بقليل ، لكني سرعان ما برّرت لنفسي لأنه يعرف أني يقظ لا سيما وموعد صلاة الفجر على وشك ، فقلت من مكاني:

- أدخل.

لكنه لم يدخل ، واستمر الطرق خفيفًا فأدركت بأنه ليس هو ، فرفعت صوتي قائلًا:

- أدخل.

لكن لم يدخل أحد أيضًا ، وقبل أن أقوم لأرى من الطارق رأيت رزمة من الأوراق تُدفع من تحت الباب ، قفزت بسرعة لأرى من مرّر هذه الأوراق.

فتحت الباب ، لكني لم أرَ أحدًا. مشيت في الرواق عسى أن أجد أثرًا لأحد لكن لا أحد هناك ولا نأمة تُسمع. نظرت من سياج الطابق الأعلى على الباحة عسى انتبه لحركة أحد ، لكن كان السكون هو المهمين على المكان.

أخذت الأوراق وعدت لأجلس على حافة السرير. لم أبدأ القراءة مباشرة. وضعت الأوراق على السرير إلى جانبي ، كنت في حيرة ، أردت أن أقوم لأرى مرة أخرى من يمكن أن يتجول في رواق الفندق في مثل هذه الساعة من الفجر ، لكني بقيت جالسًا في مكاني ، ولا إراديًا أخذت الأوراق ، ثم بدأت القراءة ، ومنذ أول سطر وجدت نفسي متورطًا بالقراءة ، مع أن أول جملة تحذرني من التورط:

قناع حواء المهندس

قبل أن تقرأ هذا المخطوط يا سيدي أرجو ألاّ تتورط بي ، فأنا أعرف سرًا عن نفسي وهو أنني أُعشق بسهولة ، فمن يتواصل معي يعشقني من أول محادثة ، وهذا الأمر كثيرًا ما يضايقني ، على العكس من بعض النساء اللاتي يشعرن بالفخر والزهو والغرور من ذلك. أتضايق لأني أعرف من يعشقني سأفقده لأني ابتعد عنه مع أني أحب التواصل معه من غير عشق!

أنا متزوجة ، لكني غير صالحة كزوجة. أقول غير صالحة ليس لأني أخون الثقة ولا أحترم العلاقة الزوجية ، فأنا باعتراف الجميع ، بمن فيهم زوجي ، زوجة مثالية بكل تفاصيل الحياة الزوجية ، لكني أعرف نفسي بأني غير صالحة كزوجة وإنما صالحة كأم مثالية. أنا صالحة للأمومة فقط! وما تمسكي بزواجي إلاّ لأسباب أخرى ، فحبي لزوجي ليس حبًا كزوج وإنما كرجل ، فعلى الرغم من الاستخفاف والإهانات التي أتلقاها منه ، فأنا أخاف من حمل لقب المطلقة مرة أخرى! نعم كنت مطلقة ، وتلك قصة أخرى.

ومرة أخرى أعترف بأني لا أصلح كزوجة ، لكني أسعى إلى أن أكون مثالية مع زوجي ، وهو يعرف أن نقطة ضعفي هي رعبي من لقب المطلقة مرة أخرى ، كما يعرف خوفي وضعفي أمام كلام الناس والمجتمع وأهلي الذين سيسمعون أكثر مني ما يشاع عني ، فالناس تنافق ولا أحد يقول شيئًا في وجهي. لا أريد أن أوصم بالملعونة ، وبأني لا أستطيع العيش كزوجة مع أي رجل كان!

أنا امرأة ضائعة في الضباب. ضباب كثيف حولي وكأنني في عالم الأشباح. أسمع صوت خبب حوافر الجياد ، وهمهمتها ، وأحيانًا صهيلها البعيد ، لكني مشوشة ، ومشتتة الفكر ولا أرى

شيئًا ، فأنا ضائعة في الضباب الكثيف.

ومع ذلك أنا لست ضعيفة أو مسكينة ، لكنني مكبّلة من الداخل ، وأشعر بحالي مشلولة ، ولا أدري إلى مَتى سأبقى هكذا؟ ربما ستأتي اللحظة التي أنزع جلدي فيها كما تنزع الأفعى جلدها.

لستُ سعيدة في حياتي الزوجية لكني أكابر متمسكة بصورة مثالية عن الحب الزوجي. ومع ذلك فأنا أتشبث بروتين حياتي الفاترة. أتغاضى عن الإهانات التي تجرح روحي ، ليس لعدم مبالاتي بها وإنما أخاف الآتي. فأنا لا أمتلك الشجاعة ولا القدرة على مغادرة هذه المتاهة.

أخاف الناس ، أخاف ما سيقولونه عني وما سيتهامسون به من ورائي. أخاف ماضيي ، أخاف الكتب الصفراء وفتاوى الشريعة بالحلال والحرام وفرماناتها بالمسموح وغير المسموح. أخاف من نفسي ومن تصوراتي المثالية عن نفسي ونظرتي إليها!

أنا التي وضعت صورة مثالية لنفسي وعلقتها في كل غرفة أعماقي المظلمة ، ولم أستطع أن أخرج من إطار الصورة على الرغم من حزني وكآبتي وعلى الرغم من الغرف مظلمة والصورة لا تُرى في الظلام.

لقد ابتسمتُ ابتسامة مزيفة لأقنع نفسي والآخرين بسعادتي وفرحي. فكل الابتسامات أمام الكاميرات وفي اللوحات كاذبة ومزيفة!

لا دروب أمامي تدعوني للتوغل فيها سوى طريق يفضي إلى نفق يتوهج النور في أعماقه ، لكنني أتردد من السير فيه فلربما يقودني إلى ما أخشاه. الحرية ، نعم أنا أخشى الحرية وأخافها وأهرب منها كالطاعون ، فمن عاش في الكهف المظلم والخانق يخشى النور وضوء الشمس والنسيم النقي.

ومع ذلك ثمّة أمل يستيقظ مثلما يستيقظ التمساح ويفتح عينيه

تحت طين المياه الوحلة.

أنا حواء. امرأة ضائعة في الضباب. أنا الغصن الذي قاوم ريح السنوات المسمومة ، أنا شهرزاد الخرساء ، شهرزاد الحكايات الميتة. أنا سجينة اللغة الصامتة. أنا الليل والنهار ودورة الأشياء الحزينة!

★★★

أنا على يقين بأنك ستفكر بغرابة وحيرة باحثًا عن التي كتبت هذه الوريقات: من هي؟ ولماذا كتبتُ لكَ أنتَ بالذات؟ وما هي قصتي التي أود أن أرويها لك؟ ولماذا أود أن أكشف عنها من دون أن أكشف عن نفسي؟

أنت تعرف بأن جميع نزلاء الخان هم عابرون ، عابرون في هذه المدينة المقدسة ، وعابرون في هذه الحياة ، وعابرون حتى في حكاياتهم العابرة!

أنا لستُ من بلدك ، وربما هذا سيجعلك أقرب لتشخيص هويتي ، فيمكنك أن تراجع قائمة النزلاء غير العراقيين في الخان لتخمن من أنا ، لكن حتى هذا لا يساعدك كثيرًا ، فمن بلادي المجاورة وحدها هناك في حدود تسع نساء ينتمين لأكثر من عائلة ، إلى جانب عوائل ونساء أخريات مع أزواجهن جئن من بلدان مجاورة لكم أيضًا.

في العام المنصرم رأيتك ، ظننتك أحد نزلاء الخان. كنتُ أراك تمرق وأنت بجبتك وعمامتك التي زادتك وسامة ، إذ أبرزت ملامحك الأنثوية. كنتُ ألمحك وأنت تمرق خارجًا مغادرًا الخان ، وأنت تتأبط بعض الكتب المجلدة السميكة ، أو راجعًا. وكثيرًا ما كنت تأتي وأنت تحمل أسفارًا أكثر مما خرجت بها. لكني حينها كنت منكوبة ، فقد جئنا ، أخوتي وأنا وأمي ، بجثمان أبي ليدفن هنا في هذه المدينة قرب الإمام الذي يتمنى أن يشفع له يوم

القيامة!

لا أريد أن أتحدث عن تلك المأساة التي حطمتني ، فقداني لأبي حطمني. لا أريد الآن استعادة ذلك الفقد لأنني إذا ما توغلت في تفاصيل تلك الزيارة قبل عام ، فلربما ، ستعرف من أنا!

المهم ، مرّ عام على ذلك لكني في زيارتي هذه المرة عرفت بأنك صاحب الخان ، وأنك شيخ ، وأنك وصلت في دراستك لعلوم الدين إلى مرحلة متقدمة أكبر مما تناسب عمرك. لا أعرف الكثير عنك لكن الفتى الأفغاني تحدث عنك بإكبار جليل على الرغم من لغته العربية المهشمة.

سأقول لك شيئًا. لا يهمني حتى لو عرفت من أنا ، بل تجذبني رغبة في أن تعرف من أنا ، مع أني محجبة بل منقبة وبالكاد تستطيع أن تميزني عن الأخريات ، فكلنا محجبات ومنقبات بصرامة.

لا أعرف لماذا كتبت لك!؟ صديقتي التي جاءت مع زوجها وأطفالها الثلاثة استغربت حين حدثتها عنك. فهي تعرف أنني متزمتة ومتحفظة جدًا مع الرجال ، ولا آبه لأي رجل مهما كان مهمًا أو وسيمًا أو ثريًا ، فقد تربيت على الابتعاد عن الرجال مهما كانوا قريبين أو بعيدين ، فأبي وأمي كانا يبعداني حتى عن أعمامي وأخوالي. لا يثقان بأي رجل مهما كان قريبًا. فالرجل يعني الشر والمكيدة والحيلة والرجس والخطيئة! هذه هي رمزية الرجل عندي ، ولربما ستسأل عن أنوثتي ورغبتي وشهوتي! طيب سأكون جريئة لأقول لك أنا تحرقني الشهوة ، وأداعب نفسي يوميًا ، لا أنام من دون ذلك.

صديقتي ، التي جئت بمعيتها وزوجها وأطفالها وبمعية أخي الأكبر ، هي بعمري لكنها أطول مني بخمسة سنتمتر ، هي كما ذكرت متزوجة ولديها ثلاثة أطفال ، وكانت قد تزوجت زواجًا

تقليديًا من ابن عمها ، لكنه إنسان لعوب ، أهله زوّجوه من أجل ألآ ينحرف ، لكنه مثل ذيل الكلب لا يعتدل ويستقيم حتى لو وضع في الجبس سنة كاملة.

كان يهملها ولا يقترب منها لا سيما بعد مجيء الأطفال. أو حتى إذا اقترب منها فليتخلص من حق شرعي باهت وبارد ، بلا طعم ولا لو ن ولا رائحة ، كما نقول في الكيمياء في وصف الماء. وحين تعارفنا صارت هي عالمي وموضع أسراري ، لكنها امرأة شبقة ، عقلها بين فخذيها ، وهنا محنتها ، وهي تحبني ، بل أحيانًا تندفع بحكم رغبتها إلى التعبير عن شهوتها بأن تمارس معي فأصدها ، لكنها أيضًا تستغل شبقي المحاصر بالشريعة والدين والتربية والنفور من الرجال ، فأجد في احتضاني البرئ لها ما يروي عالمي وشوقي للدفء والاحتضان ، لكن من غير ممارسة فعلية.

لكن حين رأيتك أحسستُ وكأني أرى نفسي. صحيح في السنة المنصرمة لم أتحدث معك بل لم أرك إلا بضع مرات وأنت تغادر الخان أو تدخله متأبطًا كتبك السميكة ، ومع ذلك كنتَ تخطر على بالي وأنا في مدينتي التي تقع قرب الخليج في بلد مجاور ، وكنت استغرب من نفسي وأسألها: لماذا يظهر هذا الشيخ الوسيم في ذاكرتي مع أني لم أحدثه قط؟ ولا أجد جوابًا.

أنا قارئة نهمة ، فأرة تقرض الكتب بشراهة ، على الرغم من إنني في بلادي منقبة ولست محجبة كما في بلادكم ، وكنت أذهب إلى مكتبة كبيرة تحمل اسم شاعر أموي ، فاشتري كتبًا كان المحاسب عند الدفع يتأملني خلسة وهو ينظر إلى أسعارها.

وكنت أقرأ روايات مختلفة مشاكسة وكتب في التحليل النفسي ، وانتبهت مؤخرًا بأنني أقنع رغبتي نحوك بغطاء الدين ، فأنا أرغب فيك وأهدئ نفسي بأنك شيخ وملتزم دينيا. نحن نقنّع رغباتنا وربما آثامنا وخطايانا بالنوايا الحسنة ونبررها بعدم القصد. نحن

محتالون وعباقرة في خداع أنفسنا ، وعدّاؤون أبطال في الهروب من مواجهتها.

صدقني لا أعرف لماذا أكتب لك؟ ربما لأغطي على رغباتي المكبوتة. فأنا تدفعني رغبة بأن أخلع جلبابي ونقابي النفسي وأكشف عن جسد روحي وأقفز كمن يقفز من على منصة مرتفعة ويلقي بنفسه في حوض السباحة من دون أن يعرف العوم. هذه أنا وسأفعلها!

ولدت بالأول من شهر فبراير سنة.... ، مساء في مشفى المدينة. كنت مغمورة بأنواع الاهتمام والحب من قبل والديّ وأقربائي حتى سن الخامسة أي قبل دخولي للمدرسة. ذكرياتي جميلة بين أحضان أمي ورعاية والدي. أتذكر بعض التفاصيل من طفولتي.

انتبهت لكوني أنثى عندما بلغت سن التاسعة ، وأتذكر ذلك الموقف إلى الآن ، فقد كنّا في زيارة لهذه المدينة المقدسة ، وفي أحد الأيام بعد عودتنا من زيارة ضريح الإمام توجهنا إلى الفندق ، وكان في اللوبي رجل طويل القامة ، عريض المنكبين ، يكاد يكون بوابة ضخمة ، يغطي وجهه شارب كث ، وما إن لمحه والدي حتى رحب به بحرارة.

نحن البنات ووالدتي توجهنا الى الغرفه مباشرة ، لكن والدي نادى باسمي وقال تعالي ألقي السلام على عمك ، وقال للرجل «هذه أفضل بناتي وأقربهن لقلبي» ، فمدّ الرجل يده ليصافحني ، وكنت مترددة فطمأنني والدي فصافحته. كانت يدي كخال صغير بين يديه ، قبّلني على يدي ومضيت. وعندما رجعنا الى الغرفة سمعت والدتي غاضبة وهي تقول لوالدي إنني صرت فتاة في التاسعة ولم أعد طفلة. فمشاعري بدأت بالبلوغ مع جسمي ولا يجوز مصافحتي للرجال. كانت أمي متحفظة وأصولية بشكل مخيف أكثر من أبي

المتحفظ أيضًا. انتبهت بعدها إلى أنني صرت مختلفة عما كنت عليه.

ذهبت للمدرسة بعمر ٦ سنوات. كنت متفوقة منذ بداية دخولي للمدرسة ، فوالدتي تهتم بالعلم كثيرًا فعلمتني القراءة والكتابة منذ نعومة أظفاري. حقيقة لا أعرف شعور الحب والتعلق الحقيقي كيف يكون ، لكن تجربتي الجنسية الأولى ربما كنت بعمر الحادية عشرة. لم أذكر قبلها إنني كنت أشعر بشيء.

جسدي تفتح مبكرًا قياسًا لأقراني. لكني انتبهت لشبقي ورغبتي الجنسية عند الحادية عشرة ، وتعرفت على اللذة من خلال ممارسة العادة السرية. كنت أقرأ روايات في بعضها مشاهد جنسية ، وكنت أتأثر بها جربت كتابة الخواطر واليوميات كثيرًا منذ تعلمي للكتابة. وبشكل عام كنت فتاة هادئة.

ربما ستفكر في سؤال عن علاقتي بالدين. علاقتي مع الدين كانت علاقة وثيقة وما زلت ، فقد تعلمت الصلاة منذ سن السابعة ، لكن الشك تسرب إلى روحي منذ سنتي الثالثة عشرة.

ومع أن من عاداتنا الزواج المبكر لكن والدي كان يدللني وكان يريدني أن أكمل دراستي ، لذا كان يحميني من التورط بالزواج ، لكنه مع ذلك أراد وأنا في السادسة عشر من عمري أن يزوجني لصديقه المسن الذي تجاوز الستين من العمر بسنوات ، ولم أكن أعترض على رغبة أبي ، لكني لم أجد ميلًا ولا انسجامًا كيماويًا معه!

الأبيض والذهبي هي الألوان المفضلة والطاغية بملابسي ، أما الداخلية فأفضل الأسود والأحمر. عطوري المفضلة هي الفرنسية والإيطالية.

أحب شرب القهوة والكولا ، ولم أفكر يومًا بمسألة شرب النبيذ. أنا شبقة ، وأغلب خيالي يكون بمبادرتي أنا. لست محافظة ،

تغمرني الشهوة والرغبة. فللجنس دور مهم في حياتي ، أحتاجه يوميًا ، ومع ذلك أعشق اللّه. مطيعة للأولياء وأحاول ألآ ارتكب الحرام أبدًا. لكن لديّ خيالات وفنتازيا في أعماقي. أووووف. أحلامي وتهوراتي الجنسية الخيالية كثيرة حد الغرق!

في مخيلتي أعيش كل أوضاع العنف الجنسي. لدي رغبة أخجل أحيانًا بمجرد التفكير فيها لكنها تراودني كثيرًا ، وهي أن أكون ولو ليوم واحد متحررة جدًا جدًا. أتمنى أن أكون عاهرة ، قحبة لأعرف مشاعرها.

أنا أعرف بأنني أبرر لنفسي بهذا بأني أريد أن أعرف مشاعرها ، لكن دافعي الحقيقي هو الجوع الجنسي الذي من شدته لا يكتفي برجل واحد ، فأنا ذئبة لا تشبع ، بل أحيانًا أتمنى أن أكون القوادة كي أختار شخصًا ليولجه فيّ بعمق ، فقد سمعت بأن القوادات لا يسمحن لأي طالب لذة أن يقترب منهن.

ومع ذلك الكل يشهد لي بالطيبة والهدوء والتسامح والصراحة والوضوح ، لكني أعرف أن هذا ليس صحيحا! ربما أنا صريحة نعم ، لكن ليس مع الجميع.

ومع كل هذا الشبق ، فأنا لا أريد من الدنيا سوى أن أخرج منها برضى ربي ، وأن أستطيع إشباع شهوتي بالحلال وترويض الذئبة بداخلي!

ربما ستستغرب إذا ما قلت لك بأنه لا يغويني الرجل الوسيم الذي يشبه عارضي الأزياء أو نجوم السينما ، وإنما أكثر شيء يثيرني جنسيًا بالرجل هو ثقافته ، فعندما أرى رجلًا مثقفًا ثقافة موسوعية ، ويكون واثقًا من نفسه وذا شخصية قويه أشعر بالرغبة فيه. أحلم به ينقض عليّ أو انقض عليه ، لا فرق عندي.

أحب الطبيعة لكن لا أستطيع المكوث فيها دائمًا. أسبوع واحد وسط الطبيعة يكفي ، لذلك لا أحب الجنة لأنها ستكون مملة جدً ،

وأتصور أنني لا أستطيع المكوث فيها لأكثر من أسبوع ، فهي مملة جدًا ، لا سيما وأنها تشبه الماخور بالنسبة للرجال. سُكرٌ وعربدة وحوريات ، تختلف عن جنة الأديان الأخرى التي هي أرواح نورانية تسبح بحمد الخالق وتعيش في نعيم السكون وموت الشهوات.

مرة وأنا أسوح في عالم النت والفيسبوك قرأت عن كاتب ما ، ومن خلال النت عثرت على روايتين له فقرأتهما بنهم ، وأحسست أنني عثرت على رجل كنز مكتظ بالأفكار الجريئة ، فتواصلت معه ، وفي الليلة الأولى بقيت أحاوره إلى الثامنة صباحًا ، وبعدها توجهت إلى عملي.

حدثت صديقتي عنه ، وهي المتزوجة التي ترافقني مع زوجها وأطفالها في زيارة مدينتكم المقدسة ، فاستغربت واندهشت لحد الصدمة ، فهي تعرفني بأنني لا أنظر إلي رجل في العالم ، بينما أخذت أروي لها عنه بفرح وحماسة ، فقالت لي هل أحببتيه ، فنكرت ، قلت: «أنا معجبة به لا أكثر».

وعرّفت صديقي عليه فحاورته هي بغيابي. والنتيجة أنها عشقته أيضًا ، لكنه كان رجلًا حقيقًا سواء معي أو معها فلم يستغل مشاعرنا نحوه بل على العكس كا يتجنبها بحزم ، وكم كنت أتمنى أن يضعف معي ويخترقني كما كان يقدم شخصياته الروائية ، لكنه لم يفعل بل إن صديقتي فاتحته برغبتها فيه فكان يكتب لها: «ههههه.. إذهبي وخذي حمامًا باردًا».

وكان أحيانًا يقسو عليها حين تلح فيقول لها: «أنا رجل متزوج ، لدي زوجتان. زوجتي أم أولادي وزوجتي الثانية هي: الكتابة ، كما أنا لا ألهث وراء تنورات النساء ولا وراء الشفاه الملونة بأحمر الشفاه ولا أشرب من بئر كرعت الآخرون قبلي منها»! كان هذا يؤلمني وكأنه يمسني. مع أني بِكر ولا أحد مسني ، وتمنيت لو أنه مسني واخترقني ، لكنه لم يفعل.

أنا كنت أغار على صديقتي ولا أريد لها أن تتورط معه، فحياتها الزوجية ظاهريًا مستقرة، وهذا المهم.. ظاهريًا! بينما هي مهملة من قبل زوجها، حتى علاقتهما الجنسية أصبحت وجبة باردة، فاترة لا لون لها ولا طعم ولا رائحة. لذا لم تصدق أن ترى رجلَ أحلامها في الرجل الذي أحببته أنا وأرفض الاعتراف بحبي له، فصارت مهووسة به، إلى أن حدثت الكارثة حيث رأى زوجها الشكّاك حوارًا لها معه عبر المسنجر، علمًا أنه خلال الحوار كله كان يصدّها ولا ينجر مع رغباتها.

أنا بنفسي قرأت حواراتهما ورأيت كيف كان يذكّرها بأنه ليس من الصحيح أن تطلب منه ما تطلب، وأن حواره معها لا يعني بأنه راغب أن يضاجعها! بل حتى هي قالت لي بأنه صدها وعاملها ببرود.

هل كنت أغار عليه منها، أغار عليها منه؟ لا أدري. لكنه ابتعد عن كلينا بعد أن عرف أن الجنس هو الفضاء النفسي في علاقتنا معه.

كنت أرسل إليه تحية الصباح ما إن أفيق من النوم، فهو أول رجل أحبه في حياتي، وكنت أضم صورته ليلًا وأنام. أنا مجنونة، حرقتني الغيرة من صديقتي. أنا معقدة، أريده لي وحدي، وأريد صديقتي لي أيضًا لكنه لا يريدنا لا أنا ولا صديقتي، بل إنه لم يرغب بنا قط.

مهلًا. مهلًا. فما كتبته ليس دقيقًا. أنا لست أنا، أنا لستُ حواء التي تحدثت عنها في أعلاه! أنا لست حواء المهندس، وطبعًا لن تجد هذا اللقب في سجلات الخان. ومع ذلك فهي أنا في زمن ما ووضع ما.

قناع حواء المشتت

أنا لستُ هي ولستُ أنا. أنا حواء، امرأة ضائعة في الضباب.

أنا الغصن الذي قاوم ريح السنوات المسمومة ، أنا شهرزاد الخرساء ، شهرزاد الحكايا الميتة ، أنا سجينة اللغة الصامتة! أرأيتَ شهرزاد خرساء.

أنا متأكد أنك الآن في حيرة ، إذ كيف لك أن تشخصني وتعرفني من بين نزيلات الخان! نعم ، أنا لست تلك التي حدثتك عنها ، فأنا هنا مع ابنتي وامرأتين أخرتين ، أمي وخالتي. نحن هنا لغرض الزيارة الأربعينية ، ومع أني أنتمي إلى طائفة أخرى لكني جئت إلى هذه المدينة المقدسة من يأسي وحيرتي.

أنا في فترة انفصال عن زوجي. قتلتني غيرته ، صارت حياتي كابوسًا من شدة غيرته التي أبعادها وتجلياتها مختلفة. صار لا هم له سوى مراقبة ومتابعة صفحتي الفيسبوكية وحسابي على الانستغرام ، يتابع التعليقات إذا ما نشرت شيئًا ، ويسألني عن أشخاص لا أعرفهم ، عن أصدقاء افتراضيين ، ويتدخل في قبول من يرسل لي دعوة للإضافة. غيرته عليّ مؤذية جدًا ، ربما هناك بعض النساء اللاتي يقبلن بمثل هذه الغيرة وبمثل هذا التدخل في خصوصياتهن ، ويفهمنه بأنه علامة الحب ، لكن بالنسبة لي هذا ليس له علاقة بالحب وإنما بالتملك.

سأعترف لك. أنا غير صالحة كزوجة ، أنا صالحة للأمومة فقط. ربما أنا زوجة سيئة الحظ ، لكنني أم مثالية ، على الرغم من اعتراف من حولي بأني زوجة مثالية أيضًا ، بل باعتراف زوجي نفسه.

أنا زوجة مثالية بالنسبة له ، ربما لأنني معتادة على الطاعة العمياء الخرساء ، وتقديم التنازلات على الرغم من الإهانات والخيبات والإحباطات.

وأنت يا صاحب الخان. أيها الشيخ الفتى الذي يتأبط مجلدات الكتب معتمرًا عمامته البيضاء أقول لك: أنا إنسانة سيئة ، لا

تتعاطف معي ، فأنا لا أستحق الاحترام والحنان ، لأنني أعرف سرًا عن نفسي وهو إن كل من يقترب مني يعشقني ، بينما أنا مثل تفاحة آدم غير مخصصة للأكل. إياك أن تحبني ، فأنا تفاحة مسمومة سأسبب لك الألم لا أكثر.

★★★

توقفتُ ، أنا آدم الشاحب السيمرغ الحزين ، عن القراءة وابتسمتُ مع نفسي وأنا أفكر بهذه المرأة التي على الرغم من معاناتها المتجلية بأقنعة مختلفة ، لا تتنازل عن غرورها الأنثوي بأن كل من يراها ويقترب منها سيعشقها. شخصيًا لا أميل إلى النساء المقنعات ، وهي ليست أكثر من امرأة مقنعة! ثم واصلتُ القراءةَ:

أنا لا أحب العلاقات المتشعبة ، وليس لديّ تواصل مع الآخرين ، شبه انطوائية ، عملي كان يتلخص يوميًا بالعمل في مدرسة للبنات ، ثم تأتي الأعمال المنزلية ، وإذا ما تسنى لي الوقت فأنني أنفقه على القراءة ، فعلاقتي مع العالم تتم عبر مواقع التواصل وليس في الواقع.

لفد ولدت لعائلة تهتم للشرف وكلام الناس. طفولتي قاسية. فقر شديد. لكني كنت غنية بالمشاعر ، فوالديّ كانا يحبان بعضهما بعضًا. عائلة هادئة لكنها فقيرة. كنت الكبرى بين أخوتي وأخواتي ، لذا كان عليّ التنازل عن الكثير من الأشياء لأنني الكبيرة. بل كان عليّ مساعدة أمي وتدريس أخوتي. لكني شخصيًا كنت أحب الدراسة جدًا. وحين وصلت السنة الأخيرة في الثانوية ، حيث كنت أحلم بدخول كلية الهندسة ، حيث كنت من المتفوقات ، أجبرني حينها أهلي على الزواج.

الأفلام المصرية والأفلام بالأسود والأبيض كانت تزدحم في مخيلتي ، وكنت أحلم بدخول الجامعة والتعرف على شخص أحبه

وأختاره ليكون شريك حياتي ، لكني صحوت ووجدت نفسي قد تم عقد قراني على رجل لم أحببه من النظرة الأولى إليه.

أتذكر جيدًا أنني حين عدت من امتحان مادة الكيمياء ودخلت البيت فرأيت ضجة ، وأجلسوني إلى جانب رجل لم أشعر نحوه بأية مشاعر ، لا حب ولا كراهية. لكني امتلكت الجرأة لأشترط عليهم إكمال الثانوية ، ولا أعرف كيف قبلوا.

خطيبي كان مهووسًا باللغة الروسية. فترة الخطوبة التي سبقت الاستعدادات للزواج كانت مكتظة بالأحاديث التافهة من قبل خطيبي عن اللغات وعشقه للغة الروسية التي لم يسع إلى تعلمها وإنما البوح بهوسه بها.

كان شخصية باهتة ، لا لون لا طعم لا رائحة. شخصية لا وجود لها أمام الوالد الذي كان يحتل مركزًا مرموقًا في شركة أهلية ، وأم تعمل معيدة في الجامعة. عائلة مثالية!

كان الرجل الذي صار زوجي موظفًا ، لكني استغربت ، فمع أنه ابن لعائلة مثقفة بالمعايير العامة لكنه لا يعرف شيئًا عن علاقة الرجل بالمرأة. لا سيما في العلاقات الجسدية الحميمية ، ولم أكن أنا بالعارفة شيئًا أيضًا ، ولم يرشدنا أو يفهمنا أحد كيف يجب أن تكون علاقتنا.

المشكلة فيّ أيضًا ، فقد سألتني خالتي عما إذا كنت أعرف ماذا يجب أن يكون بيننا في ليلة الزفاف فكابرت خجلًا وقلت أعرف! وكانت في ذهني حينها المعلومات التي درستها في مادة «الأحياء». والغريب ، ونحن في مجتمع شرقي ، لم يسأل أهله ولا أهلي عن دم البكارة. أكانوا يعرفون بوضعه؟ وهكذا بقينا سنة كاملة نسمع تعليقات وتساؤلات الأهل عن رغبتهم بمجيء حفيد!

ربما تجد أنه من التفاهة أن أتحدث عن هذه الأشياء ، فربما تنتظر مني الحديث عن أفكار عظيمة وتجارب فذة كتلك التي

نجدها في روايات وكتب المؤلفين العظام. لا. لا. أنا أتحدث عن الحياة الواقعية الحقيقة بكل تفاصيلها التافهة التي تبدو كأنها بلا قيمة ، لكنها كانت تفاصيل شغلتني لأيام وشهور وسنين فيما بعد.

ومع أن العائلة تبدو مثقفة إلا إنهم ، في الواقع ، جهلة ، ويعيشون في جزر منفصلة ، فهم لا يعرفون شيئًا عن وضع ابنهم العاجز جنسيًا ، بل المريض نفسيًا ، فخلال شهور بدأوا يلحون ويلقون الكلام عن عدم انجابي ، وأجبروني على الذهاب إلى عيادة الطبيبة النسائية ، وهناك ذهلت الطبيبة ، فقد وجدتني عذراء ، وشرحت لها حالتي ، ففضتني بإصبعها.

بعد عام من ذلك سألتني أمي ، فشرحت لها ما كان ، ولا أدري ما الذي دفعها للتعاطف معي ، ربما لشعورها مع أبي بالذنب ، لذا تولوا مسألة طلاقي وهذا ما أكد لي بأنهم لم يكونا يعرفان بأمر عجزه الجنسي.

عدتُ إلى بيت أهلي لكن مسألة إجراءات الطلاق طالت. دخلت الجامعة ، وفي المرحلة الثانية من الدراسة تم الطلاق. حينها كنت في التاسعة عشر من العمر ، مطلقة في مجتمع همجي ، ينظرون إلى المطلقة كخاطئة وآثمة ومشروع عشيقة ، لذا كان همي الأول والأخير أن أحافظ على سمعتي التي صارت موضع نظر وحساسية بعضهم. لذا عشت حياة جامعية صعبة جدا. كنت تفاحة مشتهاة ، سهلة ، حيث كان الآخرون الذكور يتوهمون سهولة قضمي ، لذا انطويت على نفسي بحيث رفضت الحديث مع أي ذكر كي لا أجلب القيل والقال والشائعات حولي ، وكنت أرى مع نفسي بأن لا أحد ممن تقرب لي يستحقني.

وهكذا أكملتُ جامعتي. صديقاتي وجدن عملًا في الشركات الأهلية لكن أهلي وقفوا بالضد من عملي. وحينها تقدم لخطبتي أحد من أقرباء العائلة ، كان قبيح المنظر ، دميمًا ، لكنه أخذ

يلعب دور العاشق المتيم ، وكان متخلفًا من الناحية الدراسية حتى إنه لم يتمم المتوسطة. ولم أُمنح أي خيار من أهلي بل غصبوني على الزواج منه. ومع ذلك وافقت أنا الساذجة لأني صدقت تمثيله لدور العاشق.

وهكذا تزوجت للمرة الثانية بعد أن يئست من أن أعيش قصة حب ، وبأن ألتقي رجلًا وأحبه وأختاره زوجًا لي.

ومن زوج تافه إلى زوج أتفه. وإذا ما كان الأول مولع باللغة الروسية التي لا يعرف منها سوى بضع كلمات ، إلى تافه آخر يحفظ اسماء موديلات السيارات.

لم أجد الطمأنينة معه أيضًا. والغريب هو جامعني مرة واحدة ، بعد أن حاول ثلاث مرات للوصول إليّ لكنه لم يفلح لسرعة تدفق ماؤه. وفي المرة الثالثة تمكن ، وفي هذه المرة الفريدة حملت منه وأنجبت ابنتي ، لكنه ظل عاجزًا من القيام بمهمته كزوج.

كنت كالخادمة ، مهمتي التنظيف وغسل الأواني والأرضية والطبخ ، وهذا أمر يبدأ من ساعات الصباح الأولى ولا ينتهي إلا بعد أن يهجع الآخرون. ولأن أمه مريضة فقد كان عليّ أن أقوم بدور الممرضة الخفيرة. ولم تكن خدمتي تقتصر على من يسمى زوجي وأمه المريضة بل عليّ أن أقوم بخدمة غرف أخوته.

ولأنه يعمل فكان ينفق على أهله ، ولأن الوالد بخيل فقد دخل في شجار قوي مع ابنه الذي هو زوجي ، فقرر زوجي أن نغادر بيت العائلة. فاستأجر بيتًا كان مصادفة يقع بالقرب من بيت أهلي.

كانت هذه الخطوة المفاجئة من قبل الرجل الذي هو زوجي مفاجأة كبرى بالنسبة لي فغفرت له كل ما كان بيننا من تجاوزات وقررت الوقوف إلى جانبه. وفعلًا أخذت أعطي الدروس الخصوصية في البيت. ساعدته كثيرًا حتى في النفقات ومصاريفه الشخصية ، من حيث إن أهلي كان يغمروننا بما يطبخونه ، فكان هذا عونًا لنا

في تقليل الإنفاق على الطعام. لكن هذا لا يعني إننا كنا نعيش في بحبوبة. أبدًا ، فقد كان يواصل دراسته المسائية في جامعة أهلية ، وما يكسبه ينفقه على أقساط الكلية وإيجار البيت ، وما أكسبه كنت أنفقه على ابنتي وعلى مستلزمات البيت ونواقصه من الأثاث.

لكن في شتاء ذلك العام كنت أشعر بالبرد وليس لدي ما يمكنني شراء الملابس الشتوية به.

ولأني لم أعرف حياة جسدية حميمة سليمة فلم أكن أعرف معنى المتعة الجنسية قط. ربما ستبتسم وتظن أنني امرأة مهووسة بالجنس بحيث لا أنسى الحديث عن هذا الجانب. ابدًا ، لم أكن أعرف نفسي ولا جسدي إلا لاحقًا. وما أقوله ليس إلا تبيان وتوصيف حال. وربما هو توصيف حال لآلاف النساء.

المهم بعد فترة من الزمن عُينت ، بشكل ثابت ، معلمة في إحدى المدارس ، فصار لديّ دخل ثابت ، لكن كما يبدو أن هذا الأمر أزعج من هو زوجي. علمًا بأن كل ما أتحصل عليه من مال أنفقه على ابنتي وعلى حياتنا المشتركة. أهي غيرة؟ لا أعرف.

كثيرًا ما أقرأ عن مشاعر الأبوة والأمومة ، بل أنا نفسي عشت بين أحضان عائلة فقيرة المال لكنها غنية المشاعر. لكن هذا الرجل الذي هو زوجي ووالد ابنتي كان بارد المشاعر بشكل لا يطاق. وهذه المرة أنا من سعى إلى الانفصال والطلاق.

ابنتي هي عالمي ، بل هي سبب وجودي في هذه الحياة. أنا إنسانة طبيعية ، لم أحلم سوى أن يكون لديّ بيت طبيعي. زوج وابنة أربيها بجو أسري سوي. هل هذا كثير عليّ؟ هل أبالغ في أحلامي ورغبتي؟

كان التهديد بأخذ البنت عني هو أكثر ما يرعبني. لكني كنت مؤمنة بأنه لن يأخذها فهو ميت المشاعر ، ومع ذلك تنازلت عن كل حقوقي الشرعية ، من نفقة ومؤجل وتركت له الأثاث ، مقابل

الآ يطالبني بحضانتها يومًا. ووافق من دون تردد. لكن لجهلي بالقانون لم ألزمه قانونيًا بالتنازل.

وهكذا أبقيت ابنتي معي. ومرت الشهور والسنون متحملة كل النمائم والأقاويل التي تصلني كشفرات ورموز ، لكنها تتضمن بكل ما يقال عني وضدي. فالمرأة المطلقة لمرة واحدة تعاني ما تعاني من قيل وقال فكيف بواحدة تطلقت مرتين!؟

ومع ذلك لا تخلو الحياة من فجوات هادئة وأناس طيبين. إذ كانت معي معلمة طيبة جدًا ومتعاطفة معي.

ذات يوم وبعد انتهاء الدوام ، خرجنا سوية ، فتوقفت عند باب المدرسة منتظرة ، وقالت لي ستنتظر أخيها. ولم تمض سوى لحظات حتى جاءت سيارة بيضاء توقفت بالقرب منا ، وخرج منها شاب وسيم في منتصف الثلاثينات. أقبل علينا ، فقدمته لي بأنه أخوها الذي تنتظره. وركبتْ هي معه ، وألحّا عليّ بأن يوصلاني إلى البيت أو على الأقل بالقرب من البيت. ولا أدري لم وجدت في نفسي الرغبة أن أكون معهما. وأخذت تحدثني عنه وهو يقود السيارة بأنه مثلي يحب قراءة الكتب لا سيما الروايات.

كانت تلك البداية ، لأن صديقتي فاتحتني في اليوم التالي بإعجاب أخيها بي ، وطرح فكرة أن نتزوج ، وأخبرتني بأنه كان متزوجًا لكنه طلّق زوجته لأسباب لا يبوح عنها ، ولديه ابن صغير. وبما أنني مطلقة ولدي بنت فيمكن أن ارتبط به. وفاتحت أمي التي زغردت في المطبخ حين أخبرتها بما طرحته صديقتي. ووافقتُ من دون أسئلة إضافية.

أقولها بصراحة ، كثيرًا ما نخفي دوافعنا الحقيقية في الأشياء ونجد لها تبريرات أخلاقية ونفسية منطقية كي لا نواجه غرائزنا العارية ، لأننا تربينا على الخجل منها ، باعتبارها إثمًا وعيبًا. فقد أعجبني شكله ، وشعرت بتدفق الدماء في جزئي الأسفل للمرة

الأولى بعد سنوات من الجفاف. لكني وجدت لنفسي تبريرات منطقية بأنني أريد الزواج لأنني أريد جوا أسريًا طبيعيًا لابنتي وليس لأنني أريد الجنس.

وهكذا ومن دون أحاديث اضافية وتفصيلية مع أخته وافقت، حتى بدا الأمر وكأنني أنا من يعرض الزواج عليه. بل إنني من رغبتي الملحة الخفية في الرجل، وجوعي الجسدي، ذهبت معه بعد العقد مباشرة إلى بيته، بعد أن تركت ابنتي لدى أمي. وهناك اكتشفت معنى الجوع الجسدي المرتبط بقيود العيب والخجل وعدم الخبرة، ففي ساعات قليلة عرفت كل أنواع الأوضاع والممارسات التي لم أفكر يومًا بحياتي أن تكون. لارتباطها بالنجاسة والطهر والإثم.

ولا أعرف كيف عرف طليقي، والد ابنتي، بزواجي مجددًا. فأخذ مني ابنتي. وجمّعت كل ما لدي من مال ادخرته ودفعته لمحامٍ أكد لي بأحقيتي حضانة ابنتي، لكن لا أعرف كيف حكمت المحكَمة له بالحضانة، وميّزتُ الحكم، لكن حكم العشيرة كان أقوى من القانون، إذا تحرك أخي وأبي إلى عشريتنا وهددوه، فتنازل عن الحضانة قانونيًا، وصارت حضانتها لزوجي الجديد. لكن الأمر لم ينته عند هذا إذ التجأ طليقي إلى عشيرته فهددوا زوجي الأخير. وكانت هناك جلسة في المحكمة تنهي أمر الحضانة إلا إن زوجي خذلني إذ لم يذهب إلى المحكمة، فقرر القاضي منح حق الحضانة لطليقي.

حياتي الجديدة فيها متع جنسية رائعة عوضتني عن سنوات الحرمان، لكنها من الناحية الجوهرية لم تختلف عن حيواتي الزوجية السابقة، على العكس، هنا عليّ العناية بطفلين، ابنتي وابنه، والانتباه لحساسية التعامل مع ابنه. بل ومع أن زوجي الثالث يعدّ نفسه مدنيًا وعلمانيًا لكنه فرض عليّ لبس العباءة. وفرض

علي مسح جميع الأسماء المشتركة بيننا في صفحات التواصل الاجتماعي ، بل ومنع علي التواصل مع أي رجل.

نعم ، غيرته غير طبيعية ، غيرة خانقة. ربما ستسأل عن مشكلتي معه؟ لا مشكلة لديّ معه.. لكنها مثل قطرات المطر التي تهطل بشكل مستمر قطرة قطرة على المرمر فتحفره وتثقبه وتترك ندبة عميقة على المرمر إذا لم تشقه نصفين أو تشرخه! هكذا تتراكم المشكلات الصغيرة اليومية التافهة إذا ما نظرنا إليها لحالها ، لكنها تتحول إلى معضلة وعقدة عصية على الحل.

يريدني أن أعبد طفله ، علمًا أنا مهتمة به جدًا واشتري له من مرتبي كل ما يحتاجه من ملابس أو لعب. لكن إذا ما عطس ولم انتبه لذلك ، عندها تحصل مشكلة ، ويتهمني مباشرة بأنني زوجة مهملة. أو إذا ما حصل بأنني أتحمم وأن ابنه أراد الدخول للحمام ، فهو يطرق الباب علي بأن أخرج حتى وإن لم أتمم حمامي ، كي يدخل ابنه الصغير ليتبول ، وطبعًا بعد أن يمطرني بتعليقاته الجارحة ، بل وينفلت لسانه بالشتائم والإساءة ، وكأنه تزوجني بعد أن كنت عاهرة متشردة في الدروب ، وأنه متفضل عليّ بهذا الزواج. ومع كل هذه الإساءات كنت أصبر ، فأنا لا أريد الطلاق ، ناهيك عن كون أهلي أناس بسطاء لا يريدون أن يتدخلوا ، لأنهم يدركون حينها بأنهم سيسببون لي مشكلات قد تنتهي بالطلاق مرة ثالثة.

وحدث ما حدث ، إذ أنه فقد حق الحضانه لطفله ، فحين تزوجته كانت لديه قضية مستمرة في المحاكم. لكن بعد سنة ونصف من زواجي قضت المحكمة بحق زوجته بالحضانة. ويا ليت ذلك لم يحصل ، إذ انقلبت الدنيا ، لا سيما وأن طليقي الثاني أعاد ابنتي لي لأنه أراد السفر ، فاضطررت إلى احتضان ابنتي ، لكنه صار ينظر لابنتي كعدو في البيت. ومرة أخرى التجأ لعشيرته. وهل

تعتقد بأن العشيرة وشيوخها يتدخلون لوجه الله من دون أن تنفق عليهم وعلى مآدبهم الدسمة؟

وانتبهت لتعاستي وحسرتي في كل شيء. فكل دينار أحصل عليه انفقه على العائلة لأن مرتبه ينفق على المحاكم والعشائر وأهل زوجته من أجل أن يدعونه يرى ابنه!

منذ الأيام الأولى لي عرفت حقيقة الورطة التي ورّطت نفسي فيها لكني كنت أغمض عينيّ. فأنا بدافع تلبيه غامضة لمتطلبات جسدي وإيهام نفسي بخلق جو أسري لابنتي ، سببت لابنتي وضعا نفسيًا صعبًا. الشيء الوحيد الذي اتخذته بحزم هو تناولي لحبوب منع الحمل ، فقد أيقنت أن زوجي هذا ليس الرجل الذي يمكنني أن أنجب منه. هو رجل للمتعة ، وتلبية لرغبة المثقفة الحالمة والشبقة التي في داخلي ، ناهيك إن زواجي منه قناع اجتماعي لا أكثر ، مع أني أحببته حقًا.

هل تصدق أنني كنت لا أبدي كل محبتي وشعوري وحناني لابنتي كي لا يتحسس منها ، لأنه وبصراحة شديدة كان يريد أن أفضل ابنه على ابنتي! بل كانت إذا حصل مناكفة بسيطة بين الأطفال يصرخ بابنتي ويشتمها ويشتم والدها وعشيرتها وأهلي.

مشكلتي هنا إن ابنتي كانت تصمت ، ولا تذرف الدمع كبقية الأطفال. تسكت وتصمت صمتًا شديدًا ، مع أنها تكون مرعوبة من صراخه عليها ، بل أخذتْ تتبول على نفسها حين تسمع صرخات هذا الزوج المثقف. وبصراحة شديدة علاقتنا واهية وهشة وشكلية ، لا يشدها سوى خوفي من المجتمع وكلام الناس عن طلاقي ، بينما هو يحتاج لخادمة وربة بيت تداري طفله حين يُسمح له بحضانته ، ناهيك أنني امرأة شهية ومثيرة ، إذ كان يستمتع بجسدي الذي صار ملكه ويفعل به ما يشاء.

كنت أقدّر وضعه النفسي بحكم صراعه مع طليقته ، لكن

الوضع ليس دائمًا هكذا. فحين تأخذ زوجته الطفل يكون الجو متوترًا عندنا في البيت ، ولا يكون لديه من شاغل سوى كيفية الانتقام من زوجته وكسر كبريائها وتركيعها لإرادته من خلال كسب حضانته لطفله ، وحين تأتي فترة حضانته لهما يكون الأمر كارثة على ابنتي ، بل وعليّ ، حتى وصل الأمر إلى الضرب والبصاق والتلفظ بكلمات جنسية مهينة ، بل كان يعيّرني بشهوتي ورغبتي فيه وتأوهاتي العالية وبعض الكلمات التي كانت تصدر مني في تلك اللحظات الشبقة.

الشيء الوحيد الذي كان لا يجرؤ عليه هو اتهامي بالخيانة. فقد كنت خاضعة لكل أشكال غيرته وطائعة ومستسلمة لذلك. وهو باعترافه قال لي بأنني أنظف امرأة قابلها ، وإنني بنظافتي مسحت وساخته السابقة. علمًا هو يخونني مع نساء أخريات وبعلمي وبرضاي الذي هو استسلام لا أكثر.

أتعرف أيها الشيخ الفتي الوسيم. إنني أرثي لنفسي لأنني كرّست أعوامًا من عمري له ولطفله ، ونسيت حتى ظلي وليس نفسي فحسب. فلقد ظننت حين تزوجته بأنني ارتحت والتقيت الرجل المثقف الذي سيمنحني الأمان ، لكني إزددتُ قلقًا. منحته وطفله الكثير الكثير من الوقت الذي كانت ابنتي أحق به.

محنتي الآن إنني لا أستطيع الطلاق ، فهذا الأمر لا يمسني وحدي وإنما يمس عائلتي التي ترفض ذلك بشكل حاسم. فهم يقولون لي لا تجلّلّيّنا بالعار الاجتماعي. أنتِ وافقت فتحمّلي نتيجة اختيارك.

أنا في حيرة كبيرة. لا أستطيع الطلاق ولا أستطيع البقاء معه. أفكر بابنتي التي صارت تصمت ولا تتكلم إلا نادرًا. صارت مرعوبة منه. تذهب إلى غرفة النوم حين تراه أو حتى تذهب للاختباء في خزانة الملابس.

حياتي الاجتماعية على المحك. نفسيًا أتمنى الموت وأتمنى لو كنت نسيًا منسيا. الشي الوحيد الذي يربطني بهذه الحياة هي ابنتي ، فلا أحد لها في الدنيا غيري.

أشعر بحياتي وكأنها كابوس مخيف ، لا سيما حينما أدرك بأن هناك أقارب لي ولعائلتي ينتظرون أية زلة مني كي يجعلوا منها حكاية تنتشر في مدينتي كلها.

كما لديّ زميلات ، في المدرسة التي أعمل فيها ، يبحثن عن قصص للنمائم والغيبة ، ولدي زملاء عمل ينهشونني بنظراتهم الشهوانية ، وأهل يخجلون من كل شيء. ولا أحد يريد أن يستمع لي. حتى أيقنت بأنني امرأة لا تصلح أن تكون زوجة وإنما هي أم مثالية لا أكثر.

أشعر بعبء الأمومة والشعور بالذنب أمام صغيرتي ، فأنا لم أحظ من هذا الزواج سوى القناع الاجتماعي بأنني متزوجة ، وزوجة مثالية لرجل غيور ومريض ومصاب بعقدة أوديب ، لأنه يريدني نسخة من أمه ، بل إذا ما أراد أن يعلمني شيئًا يقول إن أمي كانت هكذا وهكذا وأريدكِ مثلها في كل شيء. هو ابن أمه ولا يريدني زوجة وإنما أمًا أو ظلًا لأمه.

أحيانًا أحس أنني إنسانة سيئة ولا أستحق الاحترام ولا الحنان والتعاطف. هل استدررت عطفك أيها الشيخ الفتي الوسيم؟

مهلًا مهلًا. فكل ما رويته ليس صحيحًا ، وأنا في الحقيقة لستُ حواء المشتت ، فلا تذهب بذهنك وخيالك لتستحضر كل النساء في هذا الخان العجيب ، فأنا رجل ، نزلتُ هذا المكان حينما وجدت لافتة تعلو بوابة الخان مكتوب عليها: (فندق باب السماء). لكني حين دخلت الباحة حيث مكتب الاستقبال قرأت على لافتة صغيرة (مطهر الخطايا المقدسة)!

قناع الظل آدم

أنا أعرف أنني في الخان ، لكنني لستُ موجودًا في الخان. أنا الوسواس الخناس الذي يدب في صدور الناس ، ويجعل المرأة تشك في كل ما هب ودب ، ويوقظ النار في دمها ، وأنا الذي يؤجج الشك في عقل الرجل فيجعله لا يثق حتى بنفسه. أنا الكائن الظل.

نعم أنا ظل من دون جسد. يمكنك أن تراني ولا تراني! وحتى لو رأيتني فسترى ظلًا عاريًا. لا أرتدي ثيابًا. هل رأيت ظلًا بملابس! فالثوب كما تعرف أيها الشيخ الفتي هو تجسيد لرغبة في إخفاء عيوب الشخص. ليس بالضرورة تكون عيوبًا جسدية ، بل أحيانًا تكون عيوبًا نفسية وإعاقات فكرية! الثياب أقنعة اجتماعية! أقنعة تخفي سعيًا وبحثًا عن الاعتراف. لكني زاهد بكل هذا. أنا ظل فحسب ، لكني ظل أحمل اسمًا. أنا آدم الظل.

ربما ستفكر من أنا. أو ظل مَن ممن حولك أو ممن لا تعرفهم؟ فأنت ربما لا تستوعب بأن الظل يمكن ألا يكون ظلًا لشيء ، أو لجسد إنسان يتحرك معه وينطفي في الظلام! لا لست انعكاسًا للضوء وحجبه عن الجهة الأخرى!

أنا ظل كامل الهيأة. جسدي وهيأتي هي هيأة الظل وجسده..! أحيانًا يكون الإنسان ظلا لي! فحين يعجبني أن أتجلى وأتجسّد فإنني أتشكل على هيئة إنسان. يحدث ذلك نادرًا.

مرة تجسّدت في مجلس رجل تقي ، ورع ، ومؤمن ، تجسّدت في هيأتك. نعم تجسّدت له في شخصك ، وهو تشبّه بك فسألني إن كنتُ قد حضرت له درسًا ، وأنني ، الذي ظنه أنت ، شاكسته بسؤال عن عظمة الخالق الذي خلق مليارات المجرات بينما وضع جلاله وعظمته في صراع مع رجل أحمق اسمه (أبو لهب) ، فوجه له ولزوجه اللعنة؟ وأنني وسألته ، أقصد أنت سألت ، أنت الذي هو أنا: كيف لهذا الخالق أن يضع عقله مع رجل مسكين في كتاب يُعد مقدسًا ، بحيث مضت قرون وقرون والناس تلعن هذا الرجل

المسكين؟

لحظتها اندهش الرجل التقي ، ثم ابتسم وكأنه عرف أنك قد مُسست بي وتلبستُك ، وتجسّدت في هيأتك. ولحظتها أيضًا لم يعد يهمني بماذا كان سيجيب إذ اختفيت! لكنه رآني كظلٍ وأنا أغادر المقام.

ومع كل هذا فأنا أنت. أنا ظلك لكني الهارب عنك ، المنفصل ، أنا أنت بكل شكوكك وتجردك من رغبات الحياة ومتعها! لا. لا تندهش أنا لستُ أنت. فما معنى ذلك! أتكتب لنفسك عن نفسك؟ كيف؟

سأقول لك شيئًا. الظلال لا تموت إلا في النور. لكن تلك الظلال هي الظلال الفيزياوية التي تتشكل من حجب النور عن الأشياء في مقام النور ، وعادة تختفي في الليل والظلام ، بيد إني ظل روحاني ، موجود ليس كظل تراه في مقام النور وإنما أنا موجود في قاع الظلام أيضًا. ترى حركتي وحضوري وعيوني المضيئة إذا ما تأملتني في الظلام. أنا موجود في أعماق الأعماق.

وأضيف لك شيئًا آخر ، الظلال لا تنتحر أبدًا ولا تيأس! أنا لست أنا! لا ظل أنا ولا إنسان! أنا امرأة اسمها حواء الغافري.

قناع حواء الغافري

سأرجع لأقول لك أنا حواء الغافري. ولدت في محافظة جنوبية ، في قرية صغيرة اسمها غريب نوعًا ما ، لأب عسكري وأم قروية بسيطة. قيل لي ولدت صباحًا في المشفى. عشتُ طفولة عادية.

لم يبق من مشاهد طفولتي سوى لقطات من بستان جدي ، وأتذكر لحظة ولادة أختي ، ومع ذلك أتذكر مشاهد من فترة الثالثة من العمر. أتذكر حينما كنت في الخامسة تعرضت لتحرش جنسي من رجل عربي جاء من بلد مجاور ليعيش في بلادنا. كنت حينها بعمر الخمس سنوات ، وكان هو جارنا ، وأهلي يثقون به ،

وكان أحيانًا يأخذني معه لنتجول أو يأخذني إلى المطعم ، وكان أهلي يعتقدون أنه يعاملني كابنته.

وذات مرة أخذني معه لكنه في منتصف الطريق قال لي نسيت أشياء في شقتي لنذهب إلى أخذها ونرجع مرة أخرى ، وهذا ما جرى. وفي الشقة صار يلتصق بي من الخلف بطريقة لم أفهم مغزاها لكني كنت مستغربة لها. كان يهتز ثم رفع ثوبي من الخلف وصار يلتصق بي ، وكنت أشعر بشي صلب ينضغط علي ، ثم أحسست بسائل يبللني ورأيته يمسحني بورق التنظيف ، ورق المائدة. وقال لي لا تخبري أحدًا وإلا لن آخذك مرة أخرى إلى المطاعم ولا أشتري لك الحلوى. طبعًا حين كبرت عرفت أن ذلك كان تحرشًا جنسيًا ، لذا صرت أخاف جدا من ترك ابني عند أي شخص مهما كانت درجة قرابته مني.

أمي كانت أهم شخص في حياتي ، هي من عائلة بسيطة جدًا ، قروية ، فلاحة ، تزوجت أبي وهي صغيرة لأنها يتيمة الأب وكان زواجها من أبي لضمان الأكل والسقف الآمن. أما أبي فقد كان عسكريًا ، وينتمي لعائلة كبيرة جدًا. عانت أمي من خدمة الجميع لكنها تأقلمت وتعودت على ذلك فهي أساسًا لم تعرف الرفاهية والراحة في عمرها.

في الحرب المجنونة التي كانت مع بلد جار لنا استشهد عمي. كان ضابطًا. أبي كان متعلقًا به ، فقدانه سبب له أزمة نفسية ، فقام أبي بتزوير كتب رسمية وحول نفسه من متطوع إلى مكلف وسرّح نفسه من الجيش. ولكي لا يكون تحت الأنظار انتقلنا لمدينة مقدسة قريبة من هذه المدينة. وافتتح والدي مطعمًا صغيرًا لنعيش من وارداته.

لكن الذي حدث إن عميّ الثاني هرب إلى إيران فالتحقت زوجته به ، فصارت العائلة مدانة من قبل السلطة. لكن أبي ، ربما

من خوفه ورعبه من السلطة ، مات في الفراش ذات ليلة. فقد سمعته أمي يشخر شخرة قوية بحيث أيقظتها من النوم ، وحين استدارت نحوه كي تلومه على شخيره العالي انتبهت إلى أنه لا يتحرك ولا يتنفس ولا يجيب وتأكدت من أنه قد مات.

اسمعني. أنا وحيدة برغم الضجيج الذي يعلو في حياتي وسنوات عمري وحولي. أحتاج لطاقة تساعدني على المسير وتمنحني الحياة. أحتاج لوهمٍ جميل. فربما سأجد حلمي يتحقق في هذا الخان. في مطهر الخطايا المقدسة. لذا سأبوح لك بأشياء عن نفسي فربما ستعرفني من بين نساء الخان المحجبات.

لا أدري إن كنت تعرف بأن في كل لذة شيء من الألم ، حتى لو كان على شكل ندم وشعور بالذنب ، بل يحدث أحيانًا أن يجد الإنسان في الألم شيئًا من الراحة في تقبل العقاب ويشعر بمتعة إذلال النفس.

وربما ستسأل: كيف؟ كيف للراحة أن تأتي من خلال التمتع بالألم وبإذلال النفس!؟

أنا خبرت مثل هذا الشعور. كنتُ أستاء من نفسي وأذلها وأشتم نفسي أحيانًا ، بل واحتقرها لضعفها ولهاثها وراء الشهوة. كنت معقدة ، فكنت كلما أنجذب لرجل ، أتأجج معه وتتعالى نيران رغبتي ، لكن بعدها تترك لي متعتي أكوامًا من رماد الندم والشعور بالذنب.

كنت أذل نفسي وأهرب من من ذاك الرجل لفترة إلى أن يتلاشى رماد الندم في ريح الرغبة المتجددة فأعود من جديد مع رجل جديد. وتدور عجلة القدر بدوائر مختلفة.

لذلك لا تستغرب حين أقول لك أيها الشيخ الفتي بأن بعض النفوس تجد في الإذلال والمهانة وتقبلها راحة تزيح عنها الشعور بالذنب والندم!

ربما ستتفق معي في أن الإنسان لغزٌ غامض ومحيّر. فأنا أعرف ، أن الإنسان أحيانًا يجد الراحة في البكاء ، والتجلي من خلال الشعور السامي في لحظات تقبل التضحية بالنفس. لكن كما تعرف فإن أحد فلاسفة اللذة ، كما قرأت في أحد الكتب ، قال بأن اللذة تبعد الألم بل تبعد شعورنا بالخوف من الموت.

نعم هذه قناعتي. الإنسان لغز ، وأعماق الإنسان عالم من الضباب ، هاوية يختلط فيها الضباب الأبيض والأسود. هاوية لا قاع لها.

ومع ذلك لم أحدثك عن نفسي ما يمنحك الخيط لمعرفتي بين نزلاء الخان!

كنت طفلة مشاكسة وذكية. أول تجاربي مع مشاعر التعلق والوله كانت حين دخلت المدرسة ، وفي صفي الأول تعلقت بمعلمتي. في العاشرة انتبهت لربيع أنوثتي. انتبهت لتكور الصدر وظهور الشعر في بعض الأماكن.

أتذكر أنني كنت ألعب في الشارع حين انتبهت لدمٍ لوّث ملابسي الداخلية فركضت إلى البيت ، وكانت أمي قد نبهتني لذلك ، وأعادت عليّ بعض التعليمات بخصوص ذلك.

لم أعرف الحب كعلاقة ، لكني أعرف مشاعر الحب ، لأني أحببت ، وأنا في السنة الثانية عشرة ، معلمًا ، وسيمًا ، عصبي على الدوام ، أحببته لأنه كان يهتم بي لأني التلميذة الأفضل في صفي.

والغر يب أني لم أتخذ من القراءة هواية ، لكني بدأت أخط خواطري منذ التاسعة عشر من العمر.

أنا فوضوية ، تلقائية ، حياتي لها علاقة بجاذبية اللحظة ، لذا حتى في بوحي تراني اتنقل بشكل غير مترابط من بوح لآخر ، وأحيانًا مترابط جدًا ، لأنه هذه أنا.

علاقتي مع الدين كانت وما زالت عادية. تعلمت الصلاة بعمر

العاشرة. حين مات والدي ، وكنت حينها في الخامسة عشرة من العمر ، راودتني الشكوك حول معنى الحياة وسر الموت؟ وجدوى المجيء والرحيل ، من أين وإلى أين؟

أتعرف معنى أن تكون البنت الكبرى في العائلة أو الأبن الأكبر ، إذ يتم التعامل معك كشخص ناضج عليك التنازل لأخوتك الأصغر منك بحجة أنني الأكبر والأفهم والأنضج. لكن ما كان يميزني في العائلة أني كنت متفوقة في المدرسة.

انتبهت لأنوثتي منذ الثالثة عشرة عامًا ، وكنت فرحة بأنوثتي ، فلم يخطر ببالي يومًا أن أكون ذكرًا. لكن التحول الكبير في حياتي حدث بعد وفاة أبي ، حيث تخلى عمومتي وأخوالي عنّا ، فاضطررنا إلى دخول ميتم ، أسسه الإنكليز في مدينتا ، فصار مأوى وملجأ لنا.

في الملجأ أحببتُ ، بل أحبّني أحد الموظفين هناك ، وتقدم لخطبتي ، فرفض أخوالي بحجة عدم نضجي ، وفعلًا كنت في السادسة عشر من العمر ، والغريب أن جدي أراد تزويجي وأنا في الرابعة عشر من العمر فاعترض أخوالي أيضًا.

أنا شبه نباتية فيما يخص أكل اللحوم. والقهوة من طقوسي الصباحية ، لكني أشرب الشاي أيضًا. يقولون عني إنني جميلة ومغرية جدًا.

ليس هناك ثبات في سلوكي فأنا محافظة ، ومتحررة حد الانفلات والجنون ، ومتزمته حسب المقام وشخصية المقابل. أقنعتي جاهزة. معي مجموعة من الأقنعة الجاهزة في حقائب الأعماق. التزم دينيًا في شهر رمضان فقط.

أحيانًا أسأل نفسي سؤالًا جارحًا ، لكني أخاف من جرأتي في طرح السؤال على نفسي فاستغفر الله سريعًا على وقاحتي ، والسؤال هو: إن كان الله موجودًا فلماذا كل هذا الظلم والفقر

والأمراض والكوارث والشر في الحياة. لماذا كل هذا القبح!؟..

استغفر الله عن هذه الأفكار المارقة! لكنني أعرف نفسي: مجنونة ، متمردة ، مشاكسة ، عصبية ، طيبة ، حنونة ، أسامح لكن لا أنسى ، واضحة لأبعد الحدود ، وصريحة لدرجة أخبر من أمامي بعيوبه. لكني لا أؤذي أحدًا بهذه الأفكار ، وأنا أمارس حياتي من دون أذية أحد ، وهذه هي أفكاري ، التي تخطر بمشاكسة ثم تختفي أو أتراجع عنها واستغفر ربي عن الشيطان الذي أيقظها في رأسي! لا أريد من الحياة سوى الأمان.

أريد رجلًا متفتح الأفكار ، ناضج الخبرة ، يكون قويًا ، ويحتوي مشاكساتي ، وفي الوقت نفسه ، يكون حنونًا وأحس معه بالأمان.

في الثامنة عشرة من العمر تزوجت ابن خالتي. كان وسيمًا ، مشاكسًا ، ففي اليوم الأول من إعلان خطوبتنا تعامل معي وكأني زوجته. معه تعرفت على عالم الرجال. على نزواتهم ومزاجياتهم. كان هو عالمي ، آدم الذي اختزل كل الرجال. وصدمني بخيانته ونزواته الغريبة التي أتقزز من ذكرها لك مع كل جرأتي التي هي أقرب للوقاحة.

من طبعي ما إن أضع رأسي على الوسادة حتى أغفو وأغط في النوم العميق. لكن ثمة كابوس يلاحقني ، فثمة امرأة تلاحقني في المنام ، امرأة تريد بي شرًا. ربما لأن النساء هن وراء خيانة زوجي لي ومن ثم طلاقي منه! المهم. لم أخرج من هذه التجربة ، تجربة الزواج ، سوى بابني الذي هو معنى حياتي.

لكن مع أني ما زلت في ريعان الشباب كما في التعبير الشائع ، لكني أحب الرجل ضخم البنية ، الذي يغزو الشيب رأسه ، العصبي ، والحنون في الوقت نفسه.

أنا أخاف الموت ، الموت يرعبني. الدين ملأ رأسي بثعابين القبر. وحين أتخيل نفسي ميتة وداخل القبر يشلني الرعب. وبقدر

رعبي من الموت أحب الحياة. حتى الألوان التي تستهويني هي ألوان تضج بالحياة: الأبيض ، والبنفسجي ، والوردي ، والأحمر. ومع كل هذا البوح المنفلت والفوضوي ، أود أن أخبرك شيئًا قد لا تصدقه.

قد أبدو لك سطيحة وساذجة. دجاجة تحلم بديكٍ أبدي. لكني لستُ كذلك. أنا أهرب من نفسي نحو هذا السطح الهش من كياني ووجودي الجسدي.

أنا مكتظة بالشكوك وبالرعب من فكرة الموت والفناء. فكرة الموت تسكنني ، لكنني ككل البشر أتقبل هذه الحقيقة بأنني سأموت يومًا ، وربما تقبل الفكرة يكون حينما أفكر بمليارات البشر ، لكن حين أكون وحدي وأفكر بأنني سأغادر الحياة وحدي ، وحدي ، من دون أحد مهما كان لدي من أبناء وبنات وإخوة وأخوات وأم وأب ، وأنني إذا ما أدخلوني المشرحة ووضعوني في ثلاجة للموتي ربما أود أن أكون نسيًا منسيًا ، بل حين أتخيل نفسي في ثلاجة الموتى يشلني الرعب ، فكيف بفكرة أن أكون في ظلمة القبر ويضغط التراب بثقله على جسدي ، أو إذا أمطرت السماء وتسرب الماء إلى القبر ليبللني وأنا ملفوفة بكفني ومشدودة بحيث لا يمكنني الحراك! أو إذا ما جاء ثعبان شاقًا الأرض ليصل إليّ ويلتف على جسدي ، فالثعبان هو أسد التراب.

كثيرًا ما أفكر مع نفسي. صحيح أنني ولدت من علاقة أبي بأمي وزرع نطفته في رحمها ، لكن ، هل كان أبي وأمي يفكران بي ، أم بشهوتهما وشبقهما المتأجج في تلك اللحظات؟

ربما تسخر من أفكاري. أنا لست سوى الحيمن الذي انتصر في صراع البقاء كما يقول العلماء. بل أفكر أبعد من ذلك. إذ أسأل نفسي أين كنت قبل تلك الليلة التي زرعني أبي فيها في رحم أمي؟ هل كل شيء مقدر كما تقول الأديان أم هي مصادفة عبثية بحتة؟

أعرف أن أفكاري سوداوية ، وكئيبة جدًا ، وقد تبدو سطحية ، لكنني محتارة بالسؤال عن مكان وجودي وتشكلي في جسد أبي! وحين أفكر فيما يقوله العلم والبايولوجيا أزداد حيرة. فالنطف والحيامن تنتجها الخصية عند الذكور ، وكذا البيوضة تنتج في أرحام الأناث. مليارات الحيامن وملايين البويضات تنتج وتذهب للهباء والفناء شهريًا وعند الرجال في كل قذف. فلماذا نحن بالذات؟ لماذا نحن الحيامن والبويضات التي تنتصر من دون غيرها؟ ما الحكمة في ذلك؟ وهل ذلك مقدر سلفًا؟ هذا ما يحيرني بشكل غامض ، بل وأين كنت قبل أن أنتج في جسد أبي وأمي كحيمن أو بويضة؟

نحن البشر ظلال متداخلة. حيوات غامضة ممتزجة بعضها ببعض. في داخلنا ظلال لأشخاص هم نحن وفي الوقت نفسه ليسوا نحن. في داخل كل منا يستقر حيوان هو طوطمنا. حيوان نشبهه في المزاج والسلوك ، وليس عبثا إن البشر يشبّه بعضهم بعضًا بالحيوانات ، فهذا ماكر كالثعلب ، وذاك غادر كالذئب ، وذاك أملس لكنه يعض كالأفعى ، وهذا يلدغ كالعقرب ، وذاك شجاع كالأسد ، وهذه شبقة ككلب السلوقي ، وتلك متملقة كالقطة ، وتلك فقيرة لا حول ولا قوة لها كالدجاجة ، وذاك غبي كالحمار ، وهذا نجس كالخنزير ، وذاك نتن كالضبع ، وتلك بلهاء كالنعجة ، وهكذا. ولو تأملنا أعماقنا جيدًا لوجدنا ميلنا نحو حيوان محدد هو نحن إذا ما كنا في هيئة حيوان!

بالنسبة لي أنا قطة! نعم ، أنا «بزونة» ، كما نسميها بالعراقي. وأنا كما أتذكر كنت في زمن سحيق قطة في سفينة نوح. وقبل ذلك كنت قطة في معبد سومر. ولا أعرف كيف أُرسلتُ كهدية إلى فرعون مصر ، فصرت قطة فروعونية!

بعد خمسة آلاف سنة ، وفي إحدى الحفريات الآثارية ، تم

العثور عليّ في مقبرة «سيدي الكاهن». كنت مومياء قطة. أخذوني إلى المتحف ، وفي ليلة غامضة ، دبت الحياة فيّ ، فمزقت اللفائف التي كانت تغطي جسدي ، وحين تحررت منها وجدت نفسي في قفص زجاجي موضوع على طاولة ، فتحركت وهززته لفترة طويلة حتى انقلب وانكسر القفص الزجاجي وهربت!

ثمة فجوات في ذاكرتي ، ولا أعرف فيما بعد ماذا حدث! إذ انتبهت إلى نفسي وأنا قطة مبتلة تحت المطر في زاوية شارع في مدينة غريبة. ثم صحوت على نفسي وأنا أخرج من رحم امرأة بدينة ضخمة ، وضعتني وأنا ملطخة بالدماء على صدرها وأرضعتني نهدها ، وهمست ، وهي تنحني عليّ بحنان عظيم: أهلا وسهلا بك أيتها الحواء الصغيرة. أيتها البزونة الجميلة! هل ولدتُ قطة أم بشرًا؟

لا أعرف كيف جئت إلى هنا! أنا لديّ مشكلة مع التذكر. أحس أنني أفقد الكثير من هويتي حين لا أتذكر! أتدري أيها الشيخ الفتي الوسيم! أنا أمارس الإحساس بوجودي من خلال تذكري للحظات ومواقف وحيوات عشتها! أحيانًا يتوهج لدي الشغف بحيث أجلس وحيدة لساعات وأجبر نفسي على التذكر! أبحث عن هويتي الحقيقية الأولى ، وحتى لو أصل إليها وأتعرف عليها ، فأنني أحس وكأنني لست هي ، أو أن العودة إلى تلك المراحل مستحيل ، لكنني يمكن أن أعود مرات ومرات وبأشكال مختلفة!

وعلى أية حال فإن التذكر وظيفتي ، لأنني ، ببساطة ، أشعر بالحياة من خلال عملية التذكر. وبالمناسبة ، وددت أن أقول لك بأنه ليس هناك زمن ماض أو ماض مستمر ، وإنما هناك حاضر مستمر في الذاكرة نسميه الماضي بسياقاته المختلفة! هل أنا أهذي؟ ربما!

هل صدّقت كلامي!؟

أنت ممسوس بالأدب وشطحاته ، وبالسحر والأساطير والخرافة! الكتب الصفراء والتاريخ المليء بالدم والغبار أكلت مخك. فأنا لست قطة ، لا ولا حواء الغافري ، لستُ حواء المهندس ، ولا حواء المشتت ، وإنما أنا حواء ذات الضفائر النارية ، أو هكذا كان اسمي الذي صار لي لقبا. لا تصدق ما رويته لك ودع حواء ذات الضفائر النارية تروي لك حكايتها من خلال قناعها. بل وحتى هذا القناع الجديد لحواء لا تصدقه!

أنا مجموعة من الظلال والأقنعة. هل عرفتني الآن!؟

★★★

انتهى النص بشكل مفاجئ.

من كتب لي هذه الأوراق؟ بالتأكيد ثمة شخص داخل الخان قد كتبه! فقد سمعتُ الطرق على الباب ، ورأيت كيف دُفعتْ الأوراقُ من خلال فتحة الباب السفلى. لكن كل هذا الكلام لا يشي بشيء. ولا يدلني إلى من كتب هذه الحكايات عن الأقنعة والظلال والمعاناة الإنسانية.

كيف لي أن أهتدي إلى هذه المرأة ، بل من يقول إنها مرأة فلربما هي رجل أراد أن يتلاعب بي.

لكن ما هذا النقيق المدوي فجأة.

حين فتحتُ باب غرفتي وجدت مئات بل آلاف الضفادع تملأ الممرات وباحة الخان وجدرانه ، ضفادع تتراكم فوق بعضها ، وتنق نقيقا مزعجًا بل ومخيفًا. كيف جاء هذا الجيش العرمرم من الضفادع إلى هنا؟ وفجأة بدا لي الخان وكأنه خربة مهجورة ، فلا صوت يُسمع ولا نأمة تشي بوجود نزيل أو كائن ما!

تراجعتُ وأغلقت الباب ليس خوفًا فحسب وإنما استغرابًا ودهشة. رجعتُ لأجلس على طرف سريري ، لكنني انتبهت إلى أنني جلست على الأوراق التي كانت بين يدي ووضعتها على السرير

حين توجهت لفتح الباب.

فجأة سمعت ما يشبه زئير العاصفة أو صوت أوار نيران ملتهبة طغى على هدير نقيق الضفادع فاقتربتُ بحذر من الباب ، وفتحته بتوجس وخوف فهالني ما رأيت. كان الرجل الأفعى يقف منتصبًا كأفعى كوبرا هائلة الحجم بشكل مخيف ويبعث النيران من فمه ليحرق جيوش الضفادع التي صارت تختفي ولا تحترق ، وكأنه يكنسها ويشفطها في مكنسة الغيب!

وخلال لحظات تطهّر الخان وأروقته وباحته من جيش الضفادع الغامض.

تجمّدتُ في مكاني. فقد سبق لي وأن رأيته في هيأة أفعى لكن ليس بهذا الحجم الهائل ، وإنما كأفعى أقرب إلى الأوكوندا الطويلة الممتدة على الأرض. كان الرجل الأفعى يقف قرب الباب مستندًا على حلقات ملفوفة من جسده ، وينتصب بقسمه الأعلى بحيث كان رأسه يقارب السقف في الممر. كانت منطقة الرأس عريضة كأذني فيل ضخم ، ومستعدًا بمهابة ، فاتحًا شدقيه ، وكان مشغولاً بجيش الضفادع. وحين شفط أو حرق جيش الضفادع استدار نحوي حدّق فيّ للحظات. كان وجهه يأخذ شكله الآدمي ، وقال لي:

- اذهب إلى السوق القديم ، وإِدخل زقاق الدراويش ، ستجد منعطفًا يقود إلى «مطهر الخطايا المقدسة» ، وهناك ستجد مبنى يبدو كفندق مهجور ، تعلوه لافتة عريضة مكتوب عليها بخط عريض وباللون الأحمر: «فندق باب السماء». اِدخله من دون تردد. ستنتظرك الأسرار هناك. لا تخف ولا ترتبك مهما كان ما تراه مؤلمًا. سأحميك من الألم! هناك سينتظرك ألم لم تسمعه وتراه.

وبلمح البصر ورفّة عين اختفى من أمامي وكأن شيئًا لم يكن.

★★★

حين غادرتُ الخان كانت السماء تمطر بشدة. صوت زغات

المطر وهي ترتطم بالأرض تبعث في النفس حزنًا شفيفًا وكآبة غامضة. لكن لم يكن الوصول إلى المكان سهلًا. متاهة من الدروب والأزقة والمنعطفات ، التي ، وياللغرابة ، كلها كانت مقفرة ، وكأنني أسير في مدينة مهجورة.

كنت وأنا أسير بين متاهة الأزقة أفكر بالرجوع ، فأخذت أُثبّت في ذهني علامات وإشارات شارع ترابي ، فمنعطف مبلط بالإسفلت ، فزقاق مردوم بالحجارة ، ثم آخر مبلط بالإسفلت ، فآخر مبلط بالإسمنت ، ثم زقاق ترابي ، ثم أخذت الدروب والأزقة تتكرر ، ولم يعد بالإمكان وضع إشارة في البال ، إلى أن وصلت إلى منعطف مبلط بطابوق مربع الشكل ، ينفتح على زقاق عريض مبلط بالإسمنت ، مقفر لا بيوت فيه سوى سياج صخري لم أتبين إلى ماذا يقود.

تلفّتّ حولي لأتأكد من المكان ، فلمحتُ صفيحة زرقاء على أعلى جدار المنعطف ، مكتوب عليها «زقاق الدراويش». مشيت فيه بحذر ، وفجأة وعلى غير توقع من وجود منعطف جديد ظهر أمامي منعطف ضيق ، مغلق ، يقود إلى بنيان شاهق ، غريب المعمار ، يشبه القلاع الحصينة التي يروى عنها بأنها مسكونة بالأشباح والأرواح ، تعلوه لافتة سوداء يتوسطها عنوان المكان بلون أحمر متوهج: «فندق باب السماء» ، فعرفت أني وصلت.

حين تقدمتُ نحو هذا المكان الغامض شعرتُ بإرتعاشة تسري في جسدي. فما إن خرجتُ من الخان ، إلى أن وصلت هنا ، كنت وكأني أسير في مدينة مهجورة. ما دلني أحد إلى هذا المكان ، لكني اهتديت إليه وكأن قدميّ قادتاني إليه بوحي من قوة غامضة. كنت مبتلًا بالمطر. عمامتي ، جبتي الصوفية الثمينة ، بل وصل البلل إلى جسدي.

كان المبنى يبدو كخرائب مهجورة أو قلعة مسكونة بالأشباح ،

تبعث الخوف والرهبة لمن يقف أمامها. واندهشت من تسميته بـ «فندق» فهو أبعد ما يكون عن أن يكون فندقًا. ومع ذلك تقدمت مجتازًا العتبة داخلًا إلى صالة الاستقبال. ولشدّ ما كانت دهشتي حين رأيت أربعة نساء، بل لأقل فتيات، جميلات يجلسن وكأنهن على مقاعد متجاورة وكأنهن ينتظرن أحدًا. وما إن رأينني حتى نهضن وكأنهن كن بانتظاري.

وعلى الرغم من كون المبنى من الخارج يبدو كقلعة من العصور السحيقة، لكن الصالة بدت وكأنني في فندق حديث ومعاصر لي. التفت نحو جهة مكتب الاستعلامات والاستقبال فلم أجد أحدًا. ومع ذلك تقدمت لأتأكد من أنني في فندق حديث من فنادق القرن الحادي والعشرين. وفعلًا، رأيت الأجهزة التقنية المعروضة كلها، من أجهزة حاسوب وفاكس وأجهزة هاتف حديثة. وعلى جانب من المكتب لوحة تكشف عن صورة فوتوغرافية كبيرة للمبنى وعلى وسط اللوحة كتب «مطهر الخطايا المقدسة»، فسألت نفسي: لماذا لافتة المبنى من الخارج تحمل اسم «فندق باب السماء» بينما هنا تحمل الصورة اسم «مطهر الخطايا المقدسة»؟.

في تلك اللحظة سمعتُ هديرًا قادمًا من أعماق مكتب الاستعلامات، إذ انشق الجدار، وتحرك بشكل دائري إلى الداخل لتخرج من أعماق العتمة خلف الجدار امرأة أنيقة خمّنتُ بأنها المديرة.

أقبلت المرأة وعلى وجهها ابتسامة ترحيب وقالت لي باهتمام:

- أهلا بك. أنا حواء الرحماني مديرة استقبال «فندق باب السماء» والمهتمة بشؤون «مطهر الخطايا المقدسة». كنت بانتظارك. البرقية التي وصلتنا لتبلغنا عن وصولك لم تؤكد على مدة الحجز لك. وهذا ما وضعنا في إ حراج حقيقي، فالفندق مكتظ.

- برقية وصلتكم! مَن أرسلها؟

نظرت المرأة إليّ بارتباك لجهلي بالمرسل الذي يفترض أنني أعرفه جيدًا ، فقالت بدهشة واضحة:

- كيف لا تعرفه؟ إنه الرجل الأفعى!

حين سمعت اسم الرجل الأفعى تجمّدتُ في مكاني وشُل لساني فلم أستطع الاستفسار أكثر.

★★★

حين وصل آدم السيد إلى ذلك المقطع من بوح آدم الشاحب ، الفتى الشيخ ، السيمرغ الحزين ، تذكّر أنه هو نفسه جاء مع صديقه الرائد آدم عبدالسميع إلى «فندق باب السماء» الذي عرفه منذ لحظة اجتياز بوابته بأنه «مطهر الخطايا المقدسة» ، وهو حاليًا يعيش فيه!

كما أن إيفا ماجدولينا نفسها دخلت الفندق وتعرفت إلى مديرة مكتب الاستقبال حواء الرحماني التي ارشدتهم إلى «مطهر الخطايا المقدسة»! وسأل نفسه كيف هذا؟ فهذه الدفاتر تروي قصة معادة منذ قرون؟ وكيف تروي قصة معادة والفتى صاحب الدفتر يتحدث عن القرن الحادي والعشرين؟

التفتَ إلى إيفا ماجدولينا التي كانت قد غطّت قسمها الأسفل بشرشف أبيض. وسألها:

- هل انتبهتِ لما يجري في حكاية هذا السيمرغ الحزين؟ إنه يتحدث عن «فندق باب السماء» وعن « مطهر الخطايا المقدسة» ، وكما تعرفين نحن الآن في هذا المكان الذي يتحدث عنه أيضًا! لكنه يصفه بطريقة مختلفة عمّا رأيناه حين جئنا هنا. وهو يتحدث في زمان ومكان مختلفين. فكيف هذا ونحن في المطهر نفسه؟ كما أن مديرة مكتب الاستقبال هي نفسها حواء الرحماني. ومثلما رأينا لقد انشق الجدار وخرجت من المغارة التي خلفه. هل انتبهت لكل

التفاصيل التي جاءت في الدفتر.

تحركت إيفا ماجدولينا قليلًا ورفعت جسدها وهي تغطي جسدها حتى رقبتها بالشرشف الأبيض، وقالت:

– نعم انتبهت. غريب حقا ما روى! وكأنما هناك سلسلة من الفنادق تحمل اسم «باب السماء» وفي كل منها «مطهر للخطايا المقدسة». وكأن الجميع في «المطهر» أو أن «المطهر» في أعماقنا، ولكل منا «فندقه» و «مطهره“!

نظر إليها بحنان وقال لها مبتسمًا بطيبة:

– كلامك عميق يا حكيمتي، ويا توأم شلعتي التي تمنحني الحياة.

نظرتْ إليه بغنج وقالت:

– لم أكن أعرف بأن لديّ هذه المكانة عندك؟

فقربها منه ضاما إياها بحنان إلى صدره وهو يقول:

– أتعرفين. أنا وحيد على الرغم من كل هذا الضجيج الذي حولي. أحتاجك شعلة تضيء دربي وتساعدني على المسير في عالمي. أنت وهمي الجميل وحلمي الذي تحقق لي في «فندق باب السماء.“

رفعت رأسها عن صدره ونظرت إلى عينيه، لم تقل شيئًا. أرخت رأسها واستندت إلى صدره، وأخذت تنظر في أفق خارج الغرفة وعلى وجهها ملامح التفكر. أخذ الدفتر وواصل القراءة:

★★★

– هاتيك الفتيات ينتظرنك منذ قرون؟ قالت مديرة مكتب الاستقبال.

التفتُّ نحو الفتيات اللواتي رأيتهن حين دخلت، وتوجهت نحوهن، وما إن خطوت باتجاههن حتى سمعت هدير الجدار والتفت للحظة فلم أجد مديرة مكتب الاستقبال، فخمّنت أنها

غادرت المكان داخلة إلى ما وراء الجدار.

وقفتُ أمامهن محتارًا ، فأنا لا أعرفهن ، ولا أعرف ما المطلوب مني ، فقد وجهّني الرجل الأفعى كما نعتته مديرة مكتب الاستقبال نحو هذا المكان الغامض. ولكي استوعب معنى وجودي هنا سألت:

- هل تنتظرن مني شيئًا؟

تبادلن النظرات فيما بينهن ، وكأن كل منهن تريد أن تتأكد من سيبدأ بالحديث ، فقالت أصغرهن عمرًا ، بل وأجملهن:

- نعم. قيل لنا إن بوحنا لك بما جرى لنا ربما سيمنحنا أملًا أخضر في هذا المكان الغامض!

تألقت وجوه بقية الفتيات ، والتمع بريق الترقب في عيونهن ، وكأن الفتاة الأصغر عبّرت عمّا وددن قوله ، لكهن فوجئن بجوابي وارتسمت علائم الحيرة على وجوههن حين قلت:

- وما فائدة الكلام والبوح؟ هل سيسمح بوحكن لكُنّ بمغادرة المكان؟

- أعتقد ذلك.

تمتمت الفتاة الأصغر عمرًا ، ثم واصلت:

- كل شيء يبدأ بالكلام. النجوى والصلاة والدعاء كلام يوجه للبارئ حتى لو كان كلامًا صامتًا ينطقه القلب ، بل حتى الرب كان يخاطب البشر بالكلام ، فالكتب التي تسمى مقدسة هي كلام! الحساب والعقاب يتجسد من خلال الكلام أيضًا!

شعرت بصدق كلامها ومصداقيته ، فقلت لهن:

- سأستمع لكُن ، ولا أدري أكثر من ذلك فلقد أُرسلت لكي استمع فقط!

استرخت ملامحهن. لكني احترت كيف أبدأ معهن وأين ، ويبدو أنهن انتبهن لما خطر في بالي ، فقالت واحدة أخرى منهن:

- نحن هنا في «مطهر الخطايا المقدسة» كل واحدة منّا لها

كهفها في الطابق الأول ، كهفها المسجل باسمها ، ونأمل إنك لا تخاف الكهوف!

فأجبت لا إراديًا:

– لكل منّا كهفه!

في تلك اللحظة سمعت هديرًا قادمًا من جهة مكتب الاستعلامات فالتفّتُ ، وحينها لمحت المُربي ، الرجل الأفعى وهو داخل إلى المغارة التي خلف المكتب ، ورأيت انطباق الجدار على فوهّة المغارة. وحين التفت نحو الفتيات لم أجدهن.

كنت في حيرة ، إذ إن الرجل الأفعى الذي ربّاني ، وأمرني بالمجيء إلى هذا المكان لمقابلة الفتيات ، لم يلتفت إليّ ، ولم يخبرني بوجوده ، ولا جاء ليحدثني ، بل اِنسلَ خفية إلى عمق المغارة خلف الجدار ، فمن هو ياتُرى؟ وما علاقته بهذا المكان؟ ولِمَ لم ينبهني لوجوده هنا؟ ومن هنّ هاتيك الفتيات؟ كيف سأقابلهن لأستمع لهن؟

بلى. لقد قلن لي إن كهوفهن في الطابق الأول ولكل واحدة كهف باسمها! كهف؟ كيف يعشن في الكهوف بينما نحن هنا في فندق حديث وليس مكانًا جبليًا؟ لكن لا غرابة ، فكل ما يحيط بي خارج حدود المنطق والعقل والواقع الصلب والهلامي في الوقت نفسه.

★★★

وجدتُ نفسي في قاعة الاستقبال وحدي ، حتى شككتُ بأني رأيت الفتيات والسيدة حواء الرحماني كما أتذكر اسمها ، ولا رأيت انشقاق الجدار وخروجها أو اختفاءها خلفه ، لا ولم أرَ الرجل الأفعى يدخل المغارة خلف الجدار أيضًا. فها أنا وحيد في مكان مقفر ومهجور يحمل اسم «مطهر الخطايا المقدسة» في فندق اسمه «فندق باب السماء..»

ثم سمعت نداءً يشبه النداءات التي يعلن عنها في المطارت:

(على السيد آدم الشاحب ، السيمرغ الحزين ، أن يتوجه للمصعد رجاءً). ووجدت نفسي لا شعوريًا اتلفّت ، ثم توجهتُ نحو جهة المصاعد لينفتح باب أحدها لحظة وصولي وكأنه ينتظرني.

كانت غرفة المصعد زجاجية وتطل على فضاء ووديان عميقة. استغربت ، فالفندق يقع على مساحة أرضية ، وأنا الآن في طابقه الأرضي فكيف أبدو وكأني معلق بالسماء ، في طابق عال ومرتفع جدًا!؟ والغريب أنه ما إن صرت فيه حتى بدأ يصعد بي بسرعة خارقة ، وحين نظرت من الجهة المقابلة لباب المصعد وجدت وكأن المصعد دخل إلى نفق مظلم لكن بشكل عاموي يمضي إلى الأعلى!

انتهى النفق إلى طابق في الفندق نفسه ، استغربت لأني أحسست وكأنني تحركت بالمصعد ولم أتحرك في الوقت نفسه! حين خرجت من كابينة المصعد واجهتني لوحة مكتوب عليها «الطابق الأول- ممر القتلى. "

كان الفندق حديث الطراز ، ولم أفهم لماذا قالت الفتيات بأنهن في كهوفهن ، فهذا فندق عمارته حديثة الطراز ، وكما يبدو فالممر يضم غرفًا متجاورة جنبًا إلى جنب وليست كهوفًا.

مشيت في الممر الوحيد الذي أمامي ، فانتبهت إلى أبواب الغرف التي تحمل أسماء من يسكن فيها. وتوقفت عند أول باب. راودني خاطر بأن أتعرف على جميع الأبواب ، لكني ألغيت هذا الخاطر وطرقت الباب الأول المكتوب عليه اسم «حواء الفيلي» وأنا غير متيقن مما أفعل ، فسمعت صوتًا رقيقًا يقول لي من الداخل:

- تفضل أيها السيمرغ الحزين. الباب مفتوح!

حين دخلت ارتعبت. حتى إنني أردت مغادرة الغرفة هاربًا ، لكن ذلك الشيء الذي كان يجلس على الأريكة صدر منه صوت رقيق ومسالم:

- لا تخف أيها السيمرغ الحزين. لا تخف مني.

أحسست بالشلل في ساقي فلم استطع التحرك ، فما كان أمامي جسد أنثوي فتي ، عارٍ ، مشوه ، ومهشم ، ومقطع بشكل بشع. كان الوجه بمحجرين فارغين إذ تم قلع العينين من مكانيهما ، كما تمَ اجتثاث الشفتين بطريقة بدائية ، أما الأطراف فقد هُشمت ، الذراعان لويتا بطريقة معاكسة ، الساقان هشمتا والقدمان كسرتا تتجهان للخلف ، وكان ما بين فخذيها يبدو ممزقًا بطريقة بشعة ومشوهة ، وكأنه ضُرب بهراوة أو فأس حادة.

ويبدو أن هذا الجسد المشوه قد انتبه لرعبي الواضح من المنظر ، فجاء الصوت الذي لا أعرف من أين لكنه كان مسموعًا وأنثويًا وهادئًا ، وبنبرة تبعث الطمأنينة في النفس:

- تقدم أيها السيمرغ الحزين ، يا آدم الشاحب ، لا تخف ، أنا حواء الفيلي التي تحدثتُ معك في قاعة استقبال الفندق. لا تخف مني.

- أهي أنتِ؟ كيف هذا؟

ومن دون أن أكمل واصلت هي:

- أنا حواء الفيلي. عمري ثمانية عشرة عامًا حين حدث ما حدث. فأنا قد ولدتُ وترعرعتُ في عائلة طيبة ، تحب الخير للناس ، وعلاقتها مع الجيران وسكان المنطقة على أحسن ما يكون. عائلة متوسطة الحال تعيش في بحبوحة مالية تبعد عنا العوز وتلبي كل ما نحتاجه من غير ضيق أو اسراف.

لن أطيل الحديث. كان لدي أخ ، طالب جامعي ، يكبرني بسنتين وآخر متزوج في منتصف العشرينات. وحين انتفض الشباب وتجمهروا في ساحة التحرير اختفى أخي الجامعي الذي كان صديقي المقرب أيضًا. ارتعب والدي لاختفائه إذ ذهبت به الظنون بأنه مختطف وكان ينتظر أن يتصل به الخاطفون ليطلبوا

مالًا دية لإطلاق سراحه، وما زاد من خوفه وقلقه أن أخي نسي هاتفه النقال في البيت. لكن بعد يومين طُرق بابنا فخرج والدي ليفتح الباب. كان الطارق ابن جيراننا فأخبر والدي بأن أخي في ساحة التحرير مع أخوته المنتفضين، وأنه ينام في إحدى الخيام هناك. وأنه طلب منه أن يطمئننا عليه.

وفي تلك الليلة راود أمي كابوس مرعب فاستيقظت من نومها خائفة وأيقظت أبي وأخي وأيقظتني. رأت ثمة عقارب سود هائلة الحجم حاصرت أخي وانقضّت عليه. وطلبت من أبي وأخي أن نذهب صباحًا إلى ساحة التحرير لنراه ونطمئن عليه!

ذلك الصباح كان منعطفًا في تاريخنا العائلي. شخصيًا رأيت الحشر السعيد كله في ساحة التحرير ومحيط حديقة الأمة ونفق السعدون، ورأيت الرايات والشعارات على المطعم التركي.

كان الشباب هم القوة المهيمنة على الساحة ويهتفون بصوت مدوٍ: «نريد وطنا»! حينها انتبهت إلى أن وطننا مسلوب ومختطف منّا فعلًا. وتسربت الحماسة في أوصالنا وقرر أبي المساهمة في دعم الانتفاضة بما يستطيع، فطلب من أمي الذهاب إلى الأسواق التجارية في منطقة الشورجة. وفعلًا جاءت بالمواد الغذائية والفواكه والبطانيات، وأخذنا نوزع على المنتفضين الطعام والأغطية.

وفي آخر الليل رجعنا إلى البيت بينما بقي أخي. وهكذا استمر الحال. كنّا يوميًا نخرج صباحًا متجهين إلى ساحة التحرير. وسمح لي والدي أن أبقى ليلًا في الخيمة التي فيها أخي مع فتيات جامعيات أخريات.

وحدث ذات مساء، حين أردت أن أعود إلى البيت لأغير ملابسي. وما إن خرجت من محيط الساحة، وسرتُ على الرصيف المقابل لابتعد عن الزحام، إلى حيث يمكن أن أجد سيارة أجرة

تقلني إلى بيتنا في شارع فلسطين ، حتى شعرتُ بسيارة تشبه سيارات الإسعاف تصطف إلى جانبي ويُفتح بابها الجانبي. ولا أعرف كيف اختطفتني أذرع قوية وشديدة وأدخلتني بخفة إلى داخل السيارة ، وانطلقت السيارة مسرعة وهي تطلق صوت المنذر بوجود حالة خطرة كي يفسح لها المجال في تلك الزحمة على الرغم من أن الزحمة تخف في المساء.

- هل كانت فعلا سيارة إسعاف؟

- لا أتذكر جيدًا. لكنها حين أطلقت صفارة التنبيه فكرت في أنها سيارة إسعاف.

- وماذا جرى معك؟

- أتذكرُ إن أحدهم احتضنني بقوة بحيث لم يكن بمقدوري التحرك. وآخر وضع شريطًا لاصقًا عريضًا على فمي كي لا أستطيع أن أصرخ أو أطلب النجدة. سأقول لك شيئا غريبًا. ما إن امتدت الأذرع الأخطبوطية لتمسك بي وتدخلني إلى أعماق الحافلة حتى شعرت بنهايتي.

في تلك اللحظات المرعبة بالنسبة لي تذكرت وجه أمي الحنون والتي كانت تخاف علينا كما تخاف الدجاجة على صيصانها ، ووجه أبي الذي تمتزج فيه مشاعر الفخر بابنه الذي يتحدى السلطة الفاسدة ، والخوف عليه من بطشهم ، فهم قتلة وأوغاد. فالشباب يتساقطون يوميًا برصاصهم وقنابلهم الغازية تباعًا.

حين كانت تتحدث معي تذكرتُ شكلها حين حدثتني في بهو الفندق وكنت منبهرًا بجمالها ، بينما الآن أسمع الصوت يأتي وكأنه هذا المسخ المخيف الذي أمامي هو يتحدث ، فأرعبني معرفة ما جرى معها ، لكني كنت مأخوذا بهول الجريمة فسألتها:

- وماذا فعلوا معك؟ ومن كان هؤلاء؟

- لا أعرف من كانوا. فقد كانوا يضعون ما يشبه جوارب النساء

الخفيفة السوداء على رؤوسهم ، لكن وجوههم ، كما بدت لي قبل أن يشدوا على عينيّ بقطعة من القماش ، كانت ملتحية ، والذي وضع الشريط اللاصق على فمي كان على جبينه زبيبة من أثر السجود كما هو معروف ، أما ماذا فعلوا معي فكما ترى ما فعلوا!

صمتُّ من هول ما توقعت أنه قد حدث معها ، لكنها واصلت:

– ظلت السيارة تمشي لفترة طويلة. تناهى إلى سمعي صوت نباح كلاب ، مثلما انقطع ضجيج الشوارع وأصوات منبهات السيارات ، فأحسست بأننا خرجنا من بغداد وصرنا على أطرافها. هكذا خُيل إليّ ، لكن أثناء تلك المسافة كان الرجل الذي اختطفني يحضنني بقوة هائلة بذراع عضلاتها تضغط على جسدي الرقيق ، وبكفه الأخرى كان يعبث بجسدي وبمفاتني بوقاحة وابتذال ، ومدّ كفه تحت سروالي وأخذ يدخل إصبعه الوسطى هناك بقوة أوجعتني حتى اخترقني بإصبعه ، ثم أخذ يضحك ويقول للرجل الذي معه وللسائق:

– إنها حليقة وملساء وكنزها صغير جدًا وغير مفتوحة ، وقد فتحتها بإصبعي!

هذه الجملة رسخت في ذاكرتي ، قالها وضحك وضحك الآخرون وتداولوا نكات مبتذلة تكشف عن أخيلتهم الشبقية المريضة وماذا سيفعلونه معي. حينها أدركت ما ينتظرني. أدركتُ بأنهم سوف يغتصبونني. ولحظتها فكرت كيف سأنظر إلى وجه أبي وأمي وأخوتي حينما يعرفون بأني أُغتصبت.

لكني لم أتخيل وحشيتهم أبدًا. فلم أكن أعرف بأن هؤلاء ليسوا بشرًا ، ولا حيوانات حتى. لم أدرك بأنهم سيقلعوا عينيّ من محجريهما ، ويهشموا ذراعيّ وساقيّ بعد أن يقيموا حفلة الاغتصاب الوحشي بل ويمزقوا مهبلي ورحمي بالهراوة والسكاكين ، ثم يرموني عند باب بيتنا.

كنتُ أتخيل رعب هذه الفتاة الرقيقة في تلك اللحظات ، لكني لم أعلّق وإنما تركتها تروي حكايتها المرعبة ، فكانت وكأنها تعرف ما يدور بخاطري فواصلت:

- أنت تراني أمامك. هذا ما فعلوه بي. قلعوا عينيّ من محجريهما ، كانوا يتغزلون بكل عضو يخربونه ويشوهونه. عيناي ناعستان إذًا عليهم أن يقلعوا عينيّ من محجريهما. ولأن نهديّ كاعبان فقطعوهما. ولأن ساقيّ متناسقتان فقد كسروهما وصارت كل قدم تتجه للخلف ، أما ذراعي وأصابع كفيّ الرقيقة فقد قُطعت بفأس حادة النصل ، بل تمادوا في وصف وجمال عضوي الأنثوي لذلك ضربني أحدهم بهراوة على تلك المنطقة وآخر أدخل سكينا حادة هناك وأخذ يمزقني يمينًا وشمالًا.

- ما الذي أرادوه منك؟ ولماذا اختطفوك؟

- صدقني إذا ما قلت لك بأني لم أعرف ما أرادوه مني. فلست قائدة سياسية ، ولست ناشطة في التنسيقيات التي كانت منتشرة في ساحة التحرير. ربما جذبهم جمالي الذي أجج الحقد لديهم على كل ما هو جميل في الوجود ، ودفعتهم إلى ذلك غرائزهم المنحطة. لا أعرف. بالمناسبة ، كانت هناك فتيات أخريات في المكان ذلك الذي قادوني إليه ، وقد أحسسته وكأنه يشبه مرآب أو ورشة لتصليح السيارات من خلال روائح الزيت والديزل التي كنت أشمّها.

- كيف عرفتِ ذلك؟

- لأنهم أول ما وصلت لم يباشروا باغتصابي. تركوني في زاوية من ذلك المكان. فقبل ان يبدأوا معي وصل اتصال لأحدهم الذي يبدو كبيرهم ، اقترب منه أحدهم وقال له: «الحاج يقول لك لا تقتلوا الفتيات الأخريات والشبان الذين لديكم ، بنات وأبناء الرفيقات القذرات ، أبناء السفارات الأجنبية والجوكرية. فهناك

من يدافع عنهم ، ووسائل الإعلام تتحدث عنهم ، وهناك ضجة ستصل إلى مستوى دولي دفاعًا عنهم ، لكن أمنّوا أنفسكم بحيث لا يخرجوا إلى وسائل الإعلام ويفضحونكم. لا نريد آثار ضرب وتعذيب واضحة على الوجوه والجسد». وسمعت الرجل الذي كان قربي يقول آمرًا الآخرين: « افعلوا بالفتيات واغتصبوهن ليتأدبن وصوروا ذلك. صوّروا الفتيات عاريات وبأوضاع يخجلن طول عمرهن منها ، صورًا وفيديو حتى لا يبررن ذلك بأن الصورة مزيفة ومفبركة. حتى لا تجرؤ أيٌ منهن على قول كلمة ضدنّا في وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي أو القضاء حتى ، واغتصبوا الشبان وصوروهم أيضًا كما الفتيات“.

– وأنت. لماذا لم يكتفوا باغتصابك وتصويرك كما فعلوا مع الفتيات الناشطات والرجال الناشطين ، أي اغتصابهم وتصوير ذلك؟

– أنا لستُ سياسيةً ولست من الناشطاتِ. كنت أوزع الطعام على الخيمة التي فيها أخي والخيم القريبة من مكانه. تطوعت للخدمة ولستُ قائدة. لكن كما قلت يبدو إنهم استضعفوني وعرفوا إن أهلي لا حول لهم ولا قوة ولا علاقات تربطهم بالأحزاب الإسلامية وقادة المليشيات ، وهذا يعني سوف لا يأبه أحد لأمري ولا ضجة تثار حولي ولا أحد سيتدخل لانقاذي.

لقد كنت سعيدة بين هؤلاء الشبان والشابات ، شعرت بكرامتي. شعرت بالعراق بأنه وطني الذي فقدناه مع هذه السلطة الفاسدة التي حولت حياتنا إلى لون أسود وإلى لطم وطين.

كنتُ عاجزًا عن تخيل عمق الألم وكثافته الذي تعرضت له وعانته هذه الفتاة مخيفة الجسد ، التي لم يبق منها سوى مسخ مشوه ومقطع الأوصال ، فسألتها:

– وماذا جرى بعد ذلك؟

- ماذا يمكن أن يجري. فبعد اغتصابي المتكرر ومن دون انقطاع تم تقطيعي وأنا ما زال أنبض بالحياة الواقعية. هل تعرف ما معنى أن تقلع عيناك من محجريهما وأنت حي لديك كل الإحساس بالألم؟ هل تعرف ما معنى أن يقطع نهداي وأنا أشعر بالنصل يجتث لحمي من الجذور بحيث يصل عظم القفص الصدري؟ هل تعرف معنى أن توضع كفك على سندان ثم يهوى عليها بفأس حادة النصل؟ أو أن تلوي ركبتك بقوة إلى أن تتهشم العظام وتلتف قدمك إلى الخلف؟ بل قطعوا شفتي من جذرهما حتى بان فمي مثل جمجمة تبتسم.

- يمكنني تصور ذلك. لكني لا ولن أستطيع تجسيد كثافة الألم والوجع في تلك اللحظات.

- وحين لم يبق فيّ شهقة ونفس واحد للحياة وضعوني في كيس قمامة أسود وألقوا بي أمام باب دارنا. تصور. إنهم طرقوا الباب وغادروا مسرعين بسيارتهم ، كنت أرى ما يجري معي وأنا فوقهم كطائر ، كانت روحي ترفرف وهي تنظر إلى باب بيتنا ، كنت أرى ما يجري وكأنه فيلم سينمائي.

بعد لحظات خرجت أمي الكئيبة والحزينة والمرعوبة ، وما إن فتحت الباب ورأت جزءًا من جسدي المقطّع الظاهر من الكيس الأسود حتى صُدمت وشُلت وسقطت مغشيًا عليها عند الباب ، كم كان بودي أن أمسك أمي وهي تنهار أمامي.

سمع أبي وقع سقوطها ، فخرج مع أخي الآخر وركضوا إليها ، وحين انتبهوا للكيس الأسود أخذوا يولولون مثل النساء ويضربون على رؤوسهم بأكفهم. روحي كانت تبكي مع أبي الذي اشتقتُ له كثيرًا. وبعد أسبوع أصيب أبي بجلطة دماغية. أتعرف ما هو السؤال الذي يحيرني؟

- ما هو؟

- لماذا وجدتُ في هذه الحياة؟ لماذا جئتها وغادرتها بهذه الطريقة البشعة؟ لم أعرف شيئًا من هذه الحياة. لم أعشق وأحب ولم ألحق لكي أكون أما. فلماذا خلقت لكي أكون مصدر عذاب لأمي المسكينة وأبي الطيب وإخوتي؟

لم استطع تحمل سماع بقية حكايتها ، ووجدتني لا إراديا أسألها وكأني أهرب من قسوة هذه الحكاية المأساوية:

- ولماذا أنت هنا؟ في هذا المكان الغامض « فندق باب السماء»؟

- أنا هنا في «مطهر الخطايا المقدسة». أنا روح تائهة تبحث عن قاتليها!

- لكن في المطهر يفترض ألا تكوني مشوهة ومقطعة.

- أنا هنا لستُ مقطعة ، فقط لأريك تجسد وحشيتهم!

وخلال أقل من ثانية كانت الفتاة البهية الجميلة التي حدثتني في بهو الفندق جالسة أمامي. حينها سألتها:

- وماذا عن بقية الفتيات اللاتي كن معك؟

- كلهن أنا. حكاياتهن لا تختلف كثيرًا عن حكايتي سوى في طريقة القتل. ستسمع منهن قصة واحدة عن العنف الوحشي وحيونة الإنسان وخسته. اغتصاب وتصوير الاغتصاب من خلال كاميرات الفيديو ، ومضاجعة الفتيات بأوضاع مختلفة وإجبارهن على القيام بأشياء مبتذلة ودفعهن للإدلاء باعترافات مزيفة عن العمالة واستلام الأموال من السفارت الأوربية وعن ممارسة الدعارة في خيام الناشطين بحجة التظاهر..و..و..و..! وكذا مع الشباب حيث يتم اغتتصابهم وتصوير ذلك وإجبارهم على اعترافات بالتجسس وقبض الأموال من السفارات وغير ذلك.

في تلك اللحظة أحسست وكأن زلزالًا هزّ المبنى ، فطلبت منها أن نغادر الغرفة والمبنى. لا أدري إن كانت قد سمعتني لأني توجهت

لباب الغرفة ، وما إن فتحته حتى اختفى كل شيء. نعم اختفى كل شيء ، ووجدت نفسي في العراء ، في أرض جرداء وأمامي حي سكني عرفته فورًا فهو المكان الذي أعيش فيه ، والذي فيه الخان ، «مطهر الخطايا المقدسة» أيضًا.

عدتّ إلى الخان منكسر النفس ، لكني انتبهت إلى أن الأزقة التي قطعتها راجعًا ليست هي الأزقة التي وصلت عبرها إلى الفندق ، وإنما كانت شوارع عريضة على جانبيها أشجار مختلفة ، فشارع تمتد على جانبيه أشجار ضوئية متوهجة ، وشارع آخر على جانبيه أشجار من نار ، وآخر أشجار من الكريستال ، وساحة تتوسطها نافورة مرمرية وأشجار من المرمر. وحين وصلت الخان رأيته كله من الزجاج الشفاف ، ولا أحد فيه ، لكن البناء والتصميم هو ذاته ، فصعدت مأخوذًا إلى حيث غرفتي الزجاجية أيضًا.

كنت وحيدًا ، مفرغًا من أية انفعالات ، لا أعرف معنى كل ما جرى! ولماذا أنا هنا؟ ومن أنا؟ وفي تلك اللحظات ترآى لي الرجل الكوبرا ، لكنه لم يكن أفعى ، وإنما رأسه رأس إنسان ، أما بقية أطرافه فهي تمتد كأفعى.

انتصب أمامي. بقي للحظات يتأملني وكأنه يريد أن يقرأ ما يجول في بالي ، ثم ابتسم وقال لي:

– آن لي أن أودعك. وآن لي أن أكشف لك سرك ، وأقول لك من أنت؟

شعرت بارتعاشة تجتاح روحي وكياني المحسوس كله فقلت:

– تقول لي من أنا؟ أأنا غير الذي هو أنا؟

– نعم...

– ومن تراني؟ ومن تراه الذي هو أنا؟

أطرق برأسه ولف ذيه فانتصبت قامته ، وقال لي:

– اعلم أن أكثر الأشياء التي تدركها حواسك تنبعث من حفيف

أجنحة جبريل ، وأنك أحد أصوات حفيف أجنحة جبريل!

- ما معنى هذا؟
- كيف لي أن أشرح لك أيها السيمرغ الحزين!
- السيمرغ الحزين؟
- نعم.
- ولماذا الحزين؟
- لأنك لم تصل إلى جبل قاف.
- جبل قاف؟
- أنت كنت طائرًا عجيبًا تقتات من النار. انطلقتَ ذات يوم من حجرة النساء متخلصًا من بعض قيود لفائف الأطفال ، في ليلة تبدّدتْ الظلمةُ التي هي أخت العدم فيها ، وبعد أن أمسيتَ في غاية القنوط من هجمات النعاس والنوم أخذتَ شمعةً وقصدتَ إلى حراس قصر أمك ، وطوّفت في الليل حتى مطلع الفجر. حينها سُمح لكَ بدخول تكية والدك. وكان للتكية بابان ، أحدهما يقود إلى المدينة والآخر إلى الصحراء والبساتين ، ومنذ تلك اللحظة دخلتَ عالم الملكوت.

- أنت لا تذكر شيئًا ، لكنك حين فتحت الباب المفضية إلى الخلوة وجدت نفسك في حضرة الحكماء العشرة ذوي الجمال الباهر والجالسين حسب درجاتهم. وبالرغم من الخوف الذي انتابك فقد بادرتَ الحديث مع أول حكيم قريب منك. ومنه عرفت بأن هؤلاء الحكماء جاءوا من بلاد «اللا أين.“

- ولكن ما معنى كوني كنت طائرًا؟
- معناه كونك روحًا في هذه الدنيا ، سجين الجسد ، تقطع الوديان والجبال والوهاد في أعماق نفسك الباطنة وصولًا إلى عالم الملكوت. إلى قمة جبل قاف! وأنت لم تصل بعد!

قال لي ذلك ثم دار حول نفسه دورات خارقة السرعة وغاب.

وغرقتُ في الضباب! وحينما انقشع الضباب وجدتني في غرفتي الاعتيادية في الخان.

زادت حيرتي أكثر من الأول ، فلم يجيبني الرجل الكوبرا عن هويتي والجواب على سؤال: من أنا؟ ومن أين جئتُ؟ وماذا يعني إنني سيمرغ حزين ، وأن عشي فوق جبل قاف؟ وما معنى بلاد «اللا أين» وعالم الملكوت؟.أنا لا أذكر شيئًا مما ذكره بأني قمتُ به من دخول التكية ولقاء الحكماء.

وفي أول لقاء لي مع شيخي سألته عن جبل قاف! نظر إليّ بدهشة وقال:

– إعلم يا بُني إن الوصول إلى جبل قاف يفترض رحلة طويلة ، رحلة روحية ورحلة نفسية ، وهو جبل كوني وجبل نفسي ، الوصول إليه يكون من خلال عبور القمم العالية للوصول إلى أعلى قمة التي هي بوابة الملكوت. حيث تبدأ مدينة «اللا أين.“

والحقيقة أن الوصول إلى جبل قاف هو بداية الرحلة ، فبعدها تصل إلى الجوهرة التي تضيء الليل ، وبعد ذلك تصل شجرة التوبة ، إلى أن تصل أخيرًا إلى «عين الحياة» التي تمّكن من يشرب منها بألا يحس بأي ألم. وصولًا إلى بحر الفناء!عليك أن تذهب إلى الشيخ السهروردي المقتول.

– اعترف لك بأني لم أفهم شيئًا إذا كان السهروردي مقتولًا فكيف سأذهب إليه؟!

– هذه أمور لا تُعرف من خلال عالم المحسوس وإنما من خلال عالم الملكوت. عالم الروح والتصوف. ألم ينادك مستغيثًا؟

– ومن أين عرفتَ أنت بذلك؟

– أنا هو...

– كيف أنت هو؟ وها أنت تتحدث معي ، بينما تتحدث عنه بضمير الغائب وتقول إنه مقتول؟ إنني الآن مثل أعمى يقف أمام

مرآة.

- أعمى يقف أمام مرآة!؟ ألم تعرف محنة السؤال الذي وجه لي؟

- كيف ؟ لم أفهم؟

- سُئلت: هل الله قادر على كل شيء قدير؟ قلت هو الله الواحد الأحد ، إذا قال كن فسيكون! وسُئلت هل تصدق النبي وأحاديثه! فقلت إنه لا ينطق عن الهوى! فقيل لي هل يستطيع الله أن يرسل نبيا بعد النبي فقلت: إنه قادر على كل شيء قدير! قالوا لكن النبي يقول: لا نبي بعدي! أتنفي وتتنكر لقول النبي بأنه لا نبي بعده!؟ إذن أنت كافر ومرتد!

- إنها محنة السؤال ومعضلة النص! لكن من أنا؟

- أنت لا أحد! أنت أعمى ينظر في مرآة!

ففزتُ من يقظتي ودخلت نومي الطويل ، ومع ذلك هل أنا نائم ، أم يقظ!؟ لا أدري.

★★★

- هل فهمتَ شيئًا من حكاية هذا السيمرغ الحزين؟ سألت إيفا ماجدولينا وهي تتشمم رقبة آدم السيد.

- نعم ولا. فهمت ولم أفهم!

- وماذا فهمت؟

- هذه تجربة صوفية وردت عند السهروردي في معظم رسائله! لكن الأحداث غرائبية بل وخرافية!

- ما الذي أرادت أن تقوله هذه الدفاتر!

- من الصعب حصر ما أرادت قوله في كلمات وجمل بسيطة! علينا ببساطة أن نحس ما ورد فيها.

- نعم ، هذا الصحيح!

في تلك اللحظات بالذات سُمعت طرقات شديدة على باب

الجناح ، فزّ آدم السيد وإيفا ماجدولينا من شدة الطرق المباغتة. قفزا من السرير وارتديا ملابسهما على عجل وخرجا من الغرفة ، فتوجهت إيفا ماجدولينا إلى غرفتها وتوجه آدم السيد ليفتح الباب الذي تصاعد الطرق عليه بشكل يثير الريبة.

حين فتح آدم السيد الباب اندفع الرائد آدم عبد السميع داخلًا إلى الصالة ، ومع حالة الانفعال التي كان فيها إلا إنه كان يبحث بعين المحقق عن وجود إيفا ماجدولينا التي خرجت وهي ترتدي فستانا أسود شبه مغلق من الأعلى يكشف عن جمال جسدها ويضفي رزانة وهيبة على شخصيتها ، فارتبك حين رآها ، وتوجه إلى صديقه آدم السيد قائلا بانفعال:

- لقد علمت بأن آدم الحديدي كان هنا ، لكن ورد اتصال هاتفي من خارج الفندق فغادر المطهر! هو الآن في بغداد!

- هل أنت متأكد؟

- نعم. حواء رحماني مديرة مكتب الاستقبال أخبرتني بذلك.

- من هو آدم الحديدي؟ سألت إيفا ماجدولينا مستفسرة.

انزعج الرائد آدم عبد السميع من سؤالها وكأنها تتدخل فيما لا يعنيها ، إلا أن آدم السيد قال لها بهدوء:

- إنه قاتل. حاول اغتيالنا ، أشبه بأخيك الذي ضربك ضربة قوية أوقعتك على الطاولة المرمرية.

- وكيف صار هنا في فندق باب السماء؟

- أثناء محاولته اغتيال الرائد آدم ، تعثر بزجاجة فيها أفاعٍ ، وهذه هي هواية الرائد آدم وهي جمع الأفاعي في أحواض زجاجية وبقناني الزجاج ، فسقطت الزجاجة ولدغته الأفعى التي فيها! لكن يبدو هناك من حاول علاجه خارج الفندق. لذا غادر المطهر!

- أعليكما اللحاق به خارج الفندق؟ سألت إيفا ماجدولينا ببراءة.

نظر الرائد آدم إلى آدم السيد وكأنه ينتظر منه الإجابة على سؤال إيفا ماجدولينا ، الذي قال:

– الأمر ليس بيدنا. الاتصال يأتي من خارج الفندق ، وحينها إذا استجبنا للنداء فسنكون خارج الفندق.

– علينا أن نتعقبه أيها السيد المستشار. قال الرائد آدم بتوكيد.

– نعم. لكن علينا الانتظار فالاتصال بنا لن يكون برغبتنا.

– أعرف. قال الرائد آدم باستسلام.

ظل الرائد واقفًا من دون أن يعرف ماذا عليه أن يفعل ، فقال وكأنه يريد المغادرة:

– لا أدري ماذا أفعل! عليّ الانتظار في غرفتي فربما يأتيني اتصال من خارج الفندق.

– ونحن أيضًا. قال آدم السيد وهو ينظر إلى إيفا ماجدولينا.

غادر الرائد آدم الجناح على مضض ، وعند باب الخروج التفت إلى آدم السيد وسأل:

– وماذا عن آدم بهاء الدين. فهو هنا أيضًا؟

– كيف صار آدم بهاء الدين هنا في المطهر؟ سأل آدم السيد من مكانه من دون أن يجيب على سؤال الرائد آدم.

– هذا سر آخر عليّ التحقق منه!

وغادر الجناح غالقًا الباب خلفه بقوة. كانت إيفا ماجدولينا واقفة وهي في مكانها تتأمل آدم السيد متجهًا نحوها ، وحين وقف أمامها سألته بهدوء ومن دون توتر:

– أريد أن أسألك يادكتورنا! لماذا لدي إحساس بأن الرائد آدم يبغضني؟ أحس إنه لا يطيقني ، لا سيما حينما تكونا معًا؟ وكأنني شخص غير مؤتمن بحيث لا يمكنه أن يناقشك في أمر أمامي؟

فوجئ آدم السيد بهذه المواجهة الصريحة. صمت للحظة ،

أعجبته جرأتها في التعبير عمّا يجول في نفسها ، واستشف سعيها إلى الوضوح. نظر إليها للحظات ، ثم ارتسمت على محياه ابتسامة طيبة ، وقال:

- ملاحظتك بأن الرائد آدم يبغضك ربما مبالغ فيها. هذه هي طبيعته التي تملكته بحكم مهنته كمحقق ، وربما لأنه انتبه لتقاربنا فتولدت لديه مشاعر الغيرة ، لكنها في كل الأحوال غيرة ليست قاتلة. وربما لأنك لا تعرفين حكايتنا ولماذا نحن هنا ، لذا لا تدركين بالكامل لماذا هو متوتر دائمًا ، وكأنه برميل بارود على وشك الانفجار. هو شخصية مثلثة!

- ماذا تقصد؟

ابتسم لها آدم السيد بطيبة وقال:

- هناك بعض المحللين النفسانيين يصفون البشر وفق الأشكال الهندسية ، فهناك الشخصية المربعة ، وهناك الشخصية المثلثة ، وهناك الشخصية الدائرية ، وهناك الشخصية المستطيلة ، وهناك الشخصية المتعرجة. وهكذا!

- لم أسمع بمثل هذا من قبل؟

- هل سمعت بالعبقري ليوناردو دا فنشي؟

- وهل هناك من لم يسمع به ؟ فهو رسام شهير. لكن ما علاقته بتوصيفات البشر وفق الأشكال الهندسية؟

صمت آدم السيد لهنيهة ثم قال:

- لقد بحث هذا العبقري في مخطوطات قديمة إغريقية ورومانية في الهندسة ، ورسم إنسانًا جعل سرته مركز ذلك التخطيط فصار الجسد البشري مركزًا للدائرة ، فهو كان يرى الكون دائريًا ، لكنه رسم ذلك الإنسان مشرعًا ذراعية في حركات مختلفة تجعله في شكل مربع. وهكذا ربط بين الأشكال الهندسية والجسد البشري وطبيعة الإنسان. عمومًا كان يرى الكمال في

الدائرة والمربع. لكن بعد قرون، وبعد فتوحات علم النفس جاء المحللون ليفسروا الطبائع البشرية وفق الأشكال الهندسية!

– لكنك وصفت الرائد آدم عبدالسميع بالشخصية المثلثة. فما هي مواصفات الشخصية المثلث!؟

صمت آدم السيد للحظات ثم قال:

– الشخص المثلث متمسك بالتقاليد، عملي، لا يعترف بالخطأ، عصبي، يغضب بسرعة، لا يتوانى أن يكون عدوانيا. لديه حب للسيطرة وفرض الرأي، متهور، حين يُحاصر يهجم، قاس على نفسه وعلى الآخرين. يحب الانضباط بشكل مزعج. ويبقى كيف يمكن أن تتعامل معه بحيث تتجنب سلبياته!

– وأنا. أية شخصية أنا!

نظر إليها بلطف وقال:

– لا أعرفك بعد؟ لكني أظن أنك شخصية دائرية أو مربعة!

– وكيف هي صفات هاتين الشخصيتين!

– سأخبرك. لكن تعالي الآن لنجلس سوية نعد لأنفسنا شايًا.

– طيب. أنا سأعد لنفسي فنجان قهوة وأعد لك كوبًا من الشاي. استرح أنت على الأريكة.

جلس آدم السيد على الأريكة الطويلة، بينما توجهت إيفا ماجدولينا نحو الزاوية التي فيها عدة الشاي والقهوة.

تعالى رنين جرس الباب الخارجي. توقفت إيفا، وقبل أن ينهض هو توجهت هي لفتح الباب. وما إن انفرج الباب قليلًا حتى دخلت مديرة مكتب الاستعلامات حواء رحماني مسرعة، وهي تسأل:

– أين الدكتور آدم السيد؟

– أنا هنا.

نهض آدم السيد حين صارت في وسط الصالون.

- ماذا هناك؟

نظرت إليه مديرة مكتب الاستقبال بتوتر مكتوم ، وقالت:

- أريدك...
- خيرًا. ما الذي حصل؟
- آدم الأورستي فرّ من مغارته.
- آدم الأورستي؟
- نعم. ذاك الذي قتل أمه وعشيقها!
- هذا الذي أمه هنا أيضًا؟ إيفا آرجوس!
- نعم هو.
- وهل يعرف أن أمه هنا؟
- لا أعرف.
- لكن ماذا عليّ أن أفعل؟ ولماذا توجهت لي أنا بالذات؟
- لا أدري. ربما لأنكم بين عالمين. وقلت ربما إن الرائد سيعرف مكانه بما إنه محقق فسيعرف كيف يجده. لا بد لآدم الأورستي أن يرجع إلى كهفه أو مغارته أو جناحه ، لا سيما وأن المنتقمات موجودات في المطهر أيضًا!
- المنتقمات؟
- نعم. كن قد أرسلن عليه الذباب لمعاقبته سابقًا.
- الذباب؟
- ما بك يا آدم السيد؟ يبدو إنك لا تتذكر آدم الأورستي ، ولا آدم السارتري!
- بلى. أتذكر كل التفاصيل. حتى آدم الإسخيلوسي أتذكره!
- بالضبط.
- لكن ماذا تفعل المنتقمات في المطهر؟ وماذا عليّ أن أفعل؟
- أريدك أن تساعدني في البحث عنه.
- وأين سأجده؟

- ربما في «حانة الجحيم السعيد». وأنا سأذهب إلى حيث إيفا آرجوس فربما يريد قتلها ثانية!

قالت ذلك واستدارتْ لتغادر الجناح ، وحين صارت عند الباب توقفت والتفتت إليهما قائلة:

- خذ إيفا ماجدولينا معك فربما ستتعرف على بعض جوانب نفسها هناك!

وأطبقتْ الباب خلفها.

نظر هو إلى إيفا ماجدولينا متأملًا ، ثم قال:

- هل تريدين المجيء معي أم البقاء هنا؟

- أريد أن أذهب معك. كنت أود أن أعرف شخصيتي الدائرية أو المربعة ، لكن مديرة المكتب قالت لك عليك أن تأخذني معك فربما سأتعرف على بعض جوانب نفسي.

- وهل أنتِ إلى الآن لم تتعرفي على بعض جوانب نفسك؟

- لا أدري. لكن شيئًا واحدًا أدريه هو إنني لا أستطيع أن أكون من دون وجودك معي.

- حقًا..؟

صُدمت إيفا ماجدولينا بما قال وأحست بالإهانة الخفيفة وكأنه يتهمها بعدم الوفاء أو إمكانية التقلب ، فقالت:

- لماذا تعتقد ذلك. أنا لستُ من هاتيك النساء اللاتي يجاملن في مشاعرهن ، ولستُ ممن تغريها المظاهر. أنا أبحث عن الأمان والارتياح والثقة وكلها أجدها معك. حتى الحب بالنسبة لي هو الأمان والراحة والثقة وليس الرغبة فحسب. وإذا كان الحب لا يعني الشعور بالأمان مع الآخر ، ولا يعني الثقة والارتياح النفسي مع الآخر فهو شعور مزيف وكلام شاعري لا أكثر.

- اتفق معك. والآن لنمض في هذه المهمة التي لا أعرف معنى تكليفي بها.

– نعم. وأنا لم أفهم أيضًا لماذا توجهت مديرة مكتب الاستقبال إليكَ. ما علاقتكَ به. ثم قد يكون هذا الشخص خطرًا فيؤذيك؟

نظر إليها بمودة ولطف وقال:

– لا. آدم الأورستي شاب نبيل. أمه مع عشيقها قتلت والده وكان هو صغيرًا حينها فهرّبته أخته إلى عمه ، وحين بلغ الرشد عاد متخفيًا إلى بلاد أمه وعشيقها ودخل قصرها وقتلها هي وعشيقها. آلهة المدينة انتقمت منه ، فأرسلت نحوه جيوشَ من الذباب تطارده.

– أف أف. لكن كيف تجرأ وقتل أمه!

– هذه تراجيديا. هي اتخذت عشيقًا. لم تكن تستطع تحمل ضغوطات الرغبة الجنسية. فبحثت عن تبرير نفسي لها كي تتخذ عشيقا. هذا العشيق كان يريد الانتقام من زوجها ، القائد العسكري الإغريقي الشهير آدم الآغامنوني ، وأقسم مع نفسه أن ينتقم منه ويهينه من خلال مضاجعة زوجته على فراش الزوجية ، فصار يتقرب لها ويمنحها الحنان وكلمات الغزل والحب والتغني بجمالها ويذكرها بوحدتها. وبالتأكيد يركز على أخطاء زوجها وأنانيته. إلى أن تمكن منها وفتحت فخذيها له. ومن حينها صار هو المتحكم بها وبجسدها. وحين عاد زوجها خافت منه فقتلته هي وعشيقها.

ولأن ابنتها إيفا ألكترا وابنها آدم الأورستي كانا يعرفان كل شيء وشاهدا كل ذلك ، فأدركت غريزيًا بأن هول الجريمة وكيفية ذبح والدهما سيزرع الرغبة في الانتقام لدى ابنها ، لذا فكرت بقتله أيضًا لكن ابنتها التي رأت والدها مذبوحًا وغارقًا بدمه على فراش الزوجية أدركت خوف أمها من أخيها الصغير ومن انتقامه المستقبلي ، فقامت بتهريب أخيها إلى حيث يعيش عمها. وكانت طول السنين اللاحقة تزرع وترعى في أخيها مشاعر الانتقام لأبيه. وبعد سنوات عاد الابن وقتل أمه وعشيقها!

أحسّت إيفا ماجدولينا بالانقباض عند سماعها هذه القصة ، فقالت:

– لا أعرف لمن أوجه شفقتي؟ للأم القاتلة أم للابن القاتل المعذب!

– لكليهما فالإنسان كائن ضعيف وهش. لكن لنمض!

توجها إلى باب الخروج. وحين وصلا إلى لحظة المغادرة رنّ الهاتف فأسرعت إيفا ماجدولينا من دون أن تلتفت إلى تنبيهات آدم السيد بألاّ ترفع السماعة ، بل وجاء ليمنعها من ذلك لكنه لم يصل إليها في الوقت المناسب ، فما إن رفعتْ سماعة الهاتف وقالت: ألو ، حتى اختفت من الجناح.

صُدم آدم السيد ، وأحسّ بغرابة ما يجري ، وفي تلك اللحظة اكتشف عمق حبه لإيفا ماجدولينا ، فهي الآن توأم شعلته وزوجته ونصفه الروحي الآخر. وفكّر مع نفسه بأنها ستعود ، وأدرك أنها الآن خارج الفندق ، وأحس برغبة في أن يكون معها خارج الفندق ، لكن كيف؟ الانتقال إلى خارج الفندق لن يحصل برغبته ، ثمة أمر غامض يجري خارج الفندق هو الذي يدفع للاتصال بالأشخاص في المطهر.

راوده شعور بالضياع لاختفاء إيفا ماجدولينا . هو يعرف أنها الآن خارج الفندق ، وتمنى أن يكون معها أو ترجع إليه.

في تلك اللحظات رنّ جرس الجناح. فزّ هو من تهويماته. ظلّ واقفًا للحظات لا يدري ماذا يفعل. كان مرتبكًا ويشعر بفراغ هائل في أعماقه لغيابها. اتجه نحو الباب الذي ظل جرسه يرن.

حين فتح الباب واجهه رجل أربعيني وسيم. أحس آدم السيد أنه يعرف هذا الرجل ، وفي الوقت نفسه لا يتذكر عنه أي شيء. إلا إن الرجل أدرك حيرة آدم السيد في محاولة لتذكيره فقدم له نفسه:

- أنا آدم آل عيون السود؟

فوجئ آدم السيد وتذكره فجأة ، فقال بدهشة:

- أنت الذي قتلت أمك؟

استغرب الرجل الأربعيني سرعة بديهة آدم السيد له مباشرة ، فقال موضحًا أكثر:

- نعم ، وأنا آدم غراس ، وآدم الأورستي أيضا.

صمت آدم السيد للحظات وهو يحاول أن يربط بين الأسماء التي ذكرها الرجل الذي يقف أمامه ، وقال:

- أعرف أن آدم آل عيون السود وآدم غراس هما شخص واحد ، لكن أن تكون آدم الأورستي فهو أمر غريب؟ أنت عراقي وهو إغريقي ، وبينكما عشرات القرون من الزمان؟

- الجريمة واحدة ولا علاقة لها بالزمان. هو قتل أمه وأنا قتلت أمي!

انتبه آدم السيد أنهما يتحاوران عند الباب فطلب منه أن يدخل الجناح على الرغم من أنه كان متوترًا ومنذهلًا ومحبطًا لغياب إيفا ماجدولينا:

- تفضل. تفضل!

ودخلا إلى الجناح.

★★★

- أيهما أنت؟ آدم غراس أم آدم آل عيون السود؟

- كلاهما. وكما قلت لك أنا آدم الأورستي أيضا!

- كيف هذا؟ وما علاقتك بالأجنبي الذي عثروا على جثته هنا في فندق باب السماء؟ هل أنت هو الأجنبي نفسه؟

- لا.

- كيف لا؟ أحد الدفاتر التي جاءت بها النساء الثلاث اللاتي تقدمن ليثبتن معرفتهن بالأجنبي ، فيه اعترافاته وقصة اغتيالك

لأمك ، وسفرك إلى أوربا ، وعودتك إلى بغداد باسم آدم غراس ، بعد أن مت بحادث اصطدام سيارتك وأنت في طريقك لمطار فينا عائدًا إلى بغداد ، ووصولك إلى هناك ، وموتك في بغداد ، وتوجهك إلى هنا ، إلى فندق باب السماء! فمن أنت؟ وما علاقتك بالأجنبي؟

أحس الرجل الأربعيني بالارتباك ، واستغرب بأن آدم السيد يعرف عنه كل شيء. فهو لم يكن يعرف بأن الدفتر الذي أعطاه لأخته صار بعد الإعلان عن جثة الأجنبي لدى الرائد آدم عبدالسميع ، والرائد بدوره أرسله لصديقه الخبير والمستشار الدكتور آدم السيد لدراسة الخطوط في الدفاتر الثلاثة! ومن هنا فهو يعرف كل تفاصيل حياته وموته؟

في تلك اللحظات رن جرس الباب. توجه آدم السيد ليفتحه. وما إن انفرج الباب عند فتحه حتى مرقت مديرة المكتب وهي متوترة. وسألته:

- لماذا لم تأت يادكتور؟

- إلى أين؟

- إلى «حانة الجحبم السعيد». ألم أخبرك بأن آدم الأورستي قد فر من كهفه؟

- آدم الأورستي أو آدم آل عيون السود موجود هنا!

استغربت مدير مكتب الاستقبال. ومشت إلى وسط الصالة فرأت الرجل الأربعيني جالسًا على الأريكة. نهض حين رآها. التفتتْ إلى آدم السيد وقالت له:

- هذا ليس آدم الأورستي ولا آدم آل عيون السود أو آدم غراس؟ لكن أين إيفا ماجدولينا؟ هل جاءها اتصال فردت وانتقلت إلى خارج الفندق؟

ارتبك الرجل الذي إدعى بأنه آدم آل عيون السود ، بينما أجاب

آدم السيد:

– نعم. اختفت لحظة الاتصال ، لكن من هذا الرجل إذن؟

أخذت تتنقل بنظراتها بين الرجلين ثم قالت:

– أنا رأيت آدم آل عيون السود حين جاء الفندق. إنه يشبهه لكنه ليس هو.

ذهبت حواء الرحماني إلى حيث الثلاجة. ابتعدت عنهما ، ثم طلبت من الرجل الأربعيني أن يتقدم إليها ، فتقدم إليها مرتبكًا لكنه كان يحاول السيطرة على نفسه. وحين وصل إليها طلبت منه أن يرجع إلى مكانه ، فرجع. عادت إلى حيث يقف آدم السيد وقالت له:

– هذا الرجل ليس آدم آل عيون السود ، أو آدم غراس!

– كيف؟

– آدم آل عيون السود كان يعرج قليلًا بسبب الشلل الذي أصابه في طفولته. وهذا لا يعرج أبدًا!

تذكر آدم السيد حكاية آدم آل عيون السود في الدفتر الذي قرأه حين كان خارج الفندق ، وكيف أن الشرطة ألقت القبض عليه بعد أن شهد الجيران أنهم رأوا مراهقًا يعرج قليلًا وهو يهرب في حارتهم مباشرة بعد سماعهم لصوت إطلاق الرصاص على جارتهم.

– من أنت؟ سأل آدم السيد وهو ينظر للرجل الآخر.

نظر الرجل الأربعيني لهما لثوان ثم فرّ بسرعة خاطفة مغادرًا الجناح تاركًا آدم السيد ومديرة مكتب الاستعلامات في حيرة.

– من هذا الرجل؟ لا بد وأنكِ تعرفينه فلا يدخل الفندق والمطهر أحد من دون أن يمر عند مكتب الاستعلامات!

صمتت حواء الرحماني للحظات ، ثم وكأنها تذكرت شيئًا فقالت:

- أعتقد إنه آدم بهاء الدين؟ وهو صحفي وكاتب كما أعتقد.

فقال آدم السيد مندهشًا:

- آدم بهاء الدين؟

- نعم. هل تعرفه؟

- لا. لكن لا بد وإن الرائد آدم عبدالسميع يعرفه لأنه قابله وحقق معه.

- إذن عليك سؤال الرائد عنه.

- وأين سأجد هذا الرجل. لقد هرب حين كشفتِ أنت هويته المزيفة. لكن لماذا زيف هويته وأدعّى بأنه آدم آل عيون السود؟

- لا أدري. هناك سر وراء ذلك. المهم علينا الآن أن نعيد آدم الأورستي إلى كهفه.

- وماذا عن إيفا ماجدولينا.

- لا أعرف. الاتصال يعني إنها عادت للحياة خارج الفندق، وربما لن ترجع! لنذهب الآن وسنرى ما سيحدث.

وغادرا الجناح!

الفصل التاسـع
عودة آدم الحديدي

دخل النقيب آدم المسماري غرفة الطبيب المسؤول في مستشفى الطورئ ليستعلم منه عن وضع الرائد آدم عبدالسميع والدكتور آدم السيد الذين يرقدان في غرفتين متجاورتين بقسم العناية المركزة.

وفي غرفة مجاورة لغرفتيهما فتحت إيفا ماجدولينا عينيها فجأة ، بعد أن كانت في غيبوبة. حينها لم تكن تعي أين هي. كان كل شيء يدور في رأسها ، إلى أن استقرت الأشياء شيئًا فشيئًا.

كان رأسها ملفوفًا بالشاش ، وكانت تحس بصداع قوي وألم في رأسها. تلفتتْ فيما حولها فأدركت أنها في مستشفى ، وانتبهت إلى كيس المصل المغذي المعلق على حمالة من الألمنيوم إلى جانب السرير ، والمربوط عبر إبرة بكفها. لذا لم تستطع تحريك تلك الكف ، لكنها سعت بكفها الأخرى أن تلمس رأسها فعرفت أنه مشدود بلفائف من الشاش.

بمرور الوقت بدأت تستوعب الواقع الذي هي فيه. ومع ذلك ظنت في اللحظات الأولى أنها تحلم ، فواقعها الحقيقي هو «فندق باب السماء» ، وبالتحديد مطهر الخطايا المقدسة! كانت شبه متيقنة بأنها تعيش حلمًا ما.

في تلك اللحظات دخلتْ ممرضة محجبة مهمتها مراقبة سريان المادة المغذية في جسدها ، وحين رأتها قد أفاقت من غيبوتها غادرت الغرفة مسرعة من دون أن تحدثها. ولم تمض سوى دقائق قليلة حتى عادت الممرضة ، يتقدمها المحقق النقيب آدم المسماري والطبيب المسؤول عن الجناح.

توجسّت إيفا ماجدولينا خوفًا عند دخولهم عليها واقترابهم من سريرها. مدّ الطبيب ذراعه وفتح جفنها ليفحص بؤبؤ عينيها بينما بالكف الأخرى كان يمسك بمصباح ضوئي يسلطه على العين التي يتفحصها. كانت هي، ضعيفة، واهنة القوى، مستسلمة لفحص الطبيب الذي ابتسم لها قائلًا:

- الحمد لله على سلامتك، لقد عبرتِ مرحلة الخطر! هل تعرفين من أنتِ؟

استغربت إيفا ماجدولينا هذا السؤال وتمتمت بصوت ضعيف:

- نعم أعرف.

- من أنتِ؟

وبرغم حالتها الصحية والنفسية قالت بارتباك وتردد:

- أنا إيفا ماجدولينا.

- وهل تتذكرين ما جرى لك؟ ولماذا أنت هنا؟

- لا أدري. الأشياء غائمة تدور في رأسي.

في تلك اللحظة تقدم النقيب آدم المسماري من السرير أكثر وقال لها معرّفًا بنفسه:

- أنا النقيب المحقق آدم المسماري.

لم تجب هي، ارتبكت، وشعرت بخوف لا إرادي، ولم تفهم سبب حضوره، وماذا يريد منها، بينما واصل النقيب كلامه:

- الحقيقة أنا جئت للتحقيق في وضع الرائد آدم عبدالسميع والدكتور المستشار آدم السيد. لكن كما فهمت من الممرضات ومن الدكتور المسؤول والمتابع لحالتك الصحية، بأنك في أثناء غيبوبتك ذكرتِ اسميهما أكثر من مرة. وبودي أن أسألك إن كنت تعرفينهما سابقًا.

ارتسمت علامات الدهشة على وجه إيفا ماجدولينا، وظلّت صامتة كأنها تحاول أن تستذكر الرجلين اللذين يحملان هذين

الاسمين. كان وجهها يعكس موجات من المشاعر المتضاربة، نظرت إلى النقيب وقالت، وكأنها تخفي شيئًا:

- لا أتذكر الأشياء بوضوح، لكن سمعت بهذين الاسمين. لكني لا أتذكرهما.

كان النقيب يدرس ملامحها وكأنه يريد التأكد من قوة تركيزها ومصداقية أجوبتها، فقال لها:

- ربما وضعكِ الصحي الآن لا يسمح لك بالتركيز والتذكر، فقد عدتِ الآن من غيبوبتكِ. لكن بالتأكيد إن لكِ معرفة بهما وإلّا لماذا رددتِ اِسميهما في غيبوتكِ؟

في تلك اللحظات دخل رجل بملابس مدنية. اقترب من النقيب آدم المسماري وأدى التحية، وقال له:

- لقد عرفنا كل المعلومات عن الرجل الذي لدغته الأفعى، والذي اسمه حسب الوثيقة التي وجدت في جيبه عند دخوله المستشفى: آدم الحديدي. لقد بقي لمدة يوم في مستشفى مدينة الطب نتيجة لدغة أفعى، وقد خرج أمس. وقد عرفنا إنه كان سجينًا سابقًا بجريمة قتل، وقضى سنوات طويلة في السجن، وإنه كان صديقًا للرائد آدم عبدالسميع وللمستشار آدم السيد!

- هذا يعني أن له علاقة بحادثة الاغتيال. الأمر شبه مؤكد. فأنت تعرف أن هواية الرائد آدم عبد السميع كانت جمع الأفاعي ووضعها في أقفاص وأحواض زجاجية، وأن أفعى كوبرا تسللت من شقته، فأوقعت الرعب في قلوب سكان البناية، وكان باب شقته مفتوحًا. وبما أن المعلومات عنه كما تقول بأنه صديقهما. فهذا يعني أن له صلة ما. حاولوا إحضاره بأي شكل للتحقيق. ألم تتستقصوا عن عنوان سكنه؟

- بلى سيدي. لقد عرفنا إنه، بعد خروجه من السجن، كان يسكن في «فندق باب السماء» الذي في منطقة الحيدرخانة!

حين ذكر الرجل اسم آدم الحديدي و«فندق باب السماء» انتبهت إيفا ماجدولينا وارتسمت علائم الدهشة والغرابة على وجهها ورددت مع نفسها بصوت مسموع:

- فندق باب السماء.

انتبه الجميع لها ، فسألها النقيب مباشرة:

- هل تعرفين هذا الفندق. لقد كنتِ ترددين اسمه في أثناء غيبوتك!

نظرت إيفا ماجدولينا إلى الجميع نظرة متسائلة ومتوجسة وقالت بتردد وخشية وتعب واضح:

- نعم كنتُ فيه. كنتُ في مطهر الخطايا المقدسة وسمعتُ باسم آدم الحديدي.

صُدم النقيب المحقق بما سمعه منها ، فهو لا يعرف فندقًا بهذا الاسم ، ثم كيف كانت هذه المصابة في ذلك الفندق ، وكيف سمعت باسم آدم الحديدي؟ لذلك ظنها تهذي ، فنظر إلى الطبيب الذي كان في حيرة مثله وكذا المضمدة المساعدة.

التفت النقيب المحقق إليها ثانية وسألها:

- هل أنت متأكدة من إنك كنت في فندق يحمل اسم «فندق باب السماء»؟ وسمعت باسم آدم الحديدي؟ ثم ما هذا المطهر الذي ذكرتيه؟ وكيف رأيتِ آدم الحديدي وهو كان في مستشفى مدينة الطب أمس؟

حدّقتْ إيفا ماجدولينا في وجوه الآخرين التي كانت تحملق مندهشة في وجهها وقالت بصوت مرهق ومتقطع:

- لا أعرف عما تتحدثون به. لكنني الآن أتذكر بوضوح. كنتُ في فندق باب السماء الذي فيه مطهر الخطايا المقدسة. وهناك. نعم هناك تعرفت على الدكتور آدم السيد والرائد آدم عبدالسميع ، وسمعتُ منهما وهما يتحدثان مع مديرة مكتب الاستعلامات بأنهما

يبحثان عن شخص قاتل اسمه آدم الحديدي!

كان الرائد آدم المسماري منتبهًا لكل كلمة تقولها ، ويقرأ ملامحها ، فلربما هي في حالة هذيان وهلوسات بسبب الإصابة والإغماء ، وكان بين مصدق وعير مصدق ، لا سيما حين ذكرت بأنهما يبحثان عن قاتل اسمه آدم الحديدي ، لذا سألها:

– إذن أنت تعرفين الدكتور آدم السيد والرائد آدم عبد السميع جيدًا؟

وشيئًا فشيئًا أخذت إيفا تستعيد ذاكرتها ، لكن ليس بشكل كامل فما زال هناك ضباب في سماء الذاكرة ، وقال بنبرة غير واثقة ، ومرتبكة:

– لا أدري. اعتقد إنني أعرفهما. لا سيما آدم السيد ، زوجي. هذا الأمر يبدو لي وكأنه في المنام.

فجأة ، أخذت تلوي رقبتها وتدير رأسها يمينًا وشمالًا. فقال الطبيب:

– يجب أن تخرجوا رجاءً ، فحالتها بدأت تسوء ، وربما ستدخل حالة الإغماء من جديد.

اقتربتْ الممرضة منها ، بينما قال لها الطبيب:

– علينا أن نزرقها بمهدئ كي ترتاح..

واستعدوا للخروج ، بينما قال النقيب لتابعه الذي كان بالملابس المدنية:

– لكن لا يوجد فندق في بغداد كلها باسم «فندق باب السماء» بينما أنت تقول إن عنوان الرجل ، آدم الحديدي ، الذي لدغته الأفعى هو فندق باب السماء في الحيدرخانة.

– نعم سيدي. كما تقول: لا يوجد يعني لا يوجد. كلامك أمر ما دمت تقول ذلك. لكن مع ذلك يوجد فندق اسمه فندق باب السماء في الحيدرخانه سيدي.

وقبل أن يغادرا الغرفة قال النقيب آدم المسماري للطبيب:

– إنها تهذي بلا شك. فالرائد آدم عبدالسميع والدكتور آدم السيد يرقدان في الغرفة المجاورة في وضع حرج بينما هذه تتحدث عن مطهر للخطايا المقدسة وأنها رأتهما وتعرفت عليهما هناك في فندق غامض اسمه فندق باب السماء. وأن الدكتور المستشار آدم السيد زوجها ، وأن الرجل الذي لدغته أفعى هو قاتل ، وهما يبحثان عنه. هل تثق بكلامها؟ ألا تعتقد أنها تهذي؟

– نعم إنها تهذي ، وربما هذا من هول الصدمة! سنرى حين تتحسن صحتها.

وغادر النقيب مع مرافقه ، وبقي الطبيب والممرضة ، حيث توجها لإيفا ماجدولينا وزرقاها بمادة مهدئة.

★★★

– مَن الطارق؟

– هذا أنا.

– من أنت؟

– أنا آدم الحديدي.

– لا أعرف شخصًا بهذا الاسم.

– أنا صديق المرحوم آدم السيد. تعارفنا أنا وأنت عنده في شقته.

ما إن سمعتْ باسم آدم السيد حتى فتحتْ الباب لترى الطارق. لم تتذكر آدم الحديدي حين ذكر اسمه لكنها وجدت نفسها متلهفة عند ذكر اسم آدم السيد ، وانزعجتْ حينما تلفظ الطارق بصفة «المرحوم.»

حين رأته تذكرته مباشرة. لم تشعر بالراحة لرؤيته ، فقد استعادت في ثوان قليلة وقاحته حين حملت مع أختها الطعام لآدم السيد ورأته هناك. لكنها كما تتذكر كان قد أولى انتباهه لأختها ،

لكنه الآن هنا ، فماذا يريد؟» هكذا فكّرتْ ، وقطع عليها تدفق تداعياتها وتفكيرها صوت:

- مرحبًا.

- مرحبًا.

- أعرف إنك ستستغربين مجيئي إليكِ. ألستِ السيدة حواء اللبّان؟

- نعم أنا.

- لا أدري إن كان ثمة أحد في الشقة. هل يمكنني الدخول؟

- لا أحد في البيت. ابنتي في الجامعة وزوجي في العمل ، ولا يمكنني استقبال شخص غريب في الشقة وحدي.

- صحيح جدًا. اتفهم لكني لستُ غريبا فأنت تعرفيني. ومع ذلك أتفهم وضعك. لكن ماذا عن أختك؟

فوجئت بسؤاله عن أختها. سكتت للحظات. وقالت:

- أختي غير موجودة أصلًا.

- هل يمكنني أن أتحدث معك؟

- عن أي شيء تود أن تحدثني ؟

- لنجلس وستعرفين.

- لا أستطيع أن أدخلك إلى الشقة..فربما سيأتي أحد.

- طيب لنجلس في بيت المرحوم آدم السيد. أخمّن إن المفتاح لديك.

صُدمت لوقاحته وجرأته ، ووجدت في نفسها الرغبة أن تستعيد عالم آدم السيد وأمه ، لكنها لم تسمع من الأطباء بأنه توفي وإلا لأبلغوها ، فقد أعطتهم رقم هاتفها حينما اتصلت بالطوارئ والشرطة ، فنقلوهما إلى المستشفى وهما مصابان إصابات خطيرة.

صمتتْ للحظات. كان هو يتأمل وجهها المتناسق المثير. وكانت

هي مرتبكة وغير واثقة من نفسها ، فقالت له على عجل وبنبرة مرتبكة:

– أنا لم أدخل الشقة منذ ليلة الحادث. فبعد أن جاءت سيارة الإسعاف أغلقتُ الشقةَ ولم أدخلها. لا ضير يمكننا الجلوس فيها قليلًا لأسمعك. انتظرني لحظة لآتي بالمفتاح.

تذكّرت حواء اللبّان أن الأمر كان كرؤيا مخيفة بالنسبة لها ، فقد بدا لها وكأنها حين فتحت باب شقة الدكتور آدم السيد ، وفي تلك اللحظة رأت آدم السيد وصديقه وهم ينويان مغادرة الشقة ، فارتدت مرعوبة ، لأنهما اجتازاها ونزلا السلّم.

لكنها تعرف أنها رأتهما جالسين على كرسيين متقابلين في الشقة أيضًا وهما مصابان وقد نزفا دمًا كثيرًا. اتصلت بالشرطة وبسيارة الإسعاف التي جاءت ونقلتهما وهما مصابان إصابة خطيرة. وظلت تسأل نفسها بدهشة وخوف: «كيف رأيتهما ينزلان السلّم وكيف تم نقلهما وهما مصابان؟». كانت في حيرة من أمرها ، ولا تزال الحيرة تسكنها.

ارتسمت علامات الفزع على وجه آدم الحديدي فقال بانفعال:

– ماذا قلتِ؟ جاءت سيارة الإسعاف؟ هل نُقل الدكتور آدم السيد إلى المستشفى؟ هل كان حيّا؟ لقد سمعتُ بأنه توفي في بيته.

استغربت حواء اللبّان من دهشته وانفعاله عند سماعه بمجيء سيارة الإسعاف وكأنه كان يتمنى موت صديقه فقالت له:

– لم يكن وحده وإنما كان مع شخص آخر أيضًا.

– لم يكن وحده؟

– نعم. لقد دخلتُ عليه مصادفة حاملة له الطعام فوجدتهما جريحين ومصابين إصابات خطيرة ، فاتصلت بالطوارئ فجاءت سيارة الإسعاف ونقلتهما للمستشفى.

- من كان معه؟ هل كان الرائد آدم عبد السميع؟

فوجئت حواء اللبّان من معرفة آدم الحديدي لهوية الشخص الآخر الذي سمعت اسمه من النقيب المحقق الذي كان حاضرًا في غرفة الإنعاش الواسعة التي نُقل إليها المصابان ، فعرفت منه اسم وهوية الشخص الآخر.

راودها الشك في آدم الحديدي وتوجسّت منه ، وانتبهت إلى أنها وعدته بأن تأتي بالمفتاح لكنها حاولت مع نفسها أن تماطل ولا تجلس معه ، إلا إنه عرف بأن الشكوك بدأت تدب إلى نفسها ، فقال لها بطريقة مخاتلة وهو يكتم انفعاله:

- على أية حال. أتمنى أن أسمع منك تفاصيل الحادث. كما إنني جئت لأحدثك عن أختك.

- أختي؟

- نعم.

- وبماذا ستحدثني عنها؟ سألت مستفسرة بتوتر.

- لنجلس أولًا...

- لحظات.

ابتعد آدم الحديدي للحظات ينتظر عند باب شقة آدم السيد إلى أن خرجت حواء اللبّان من شقتها المقابلة وفتحتْ باب شقة آدم السيد ، فدخلت هي ثم تبعها هو ، لكنها تركت الباب مفتوحًا تحسبًا.

★★★

ما إن خطت حواء اللبّان داخلة إلى الشقة المقابلة حتى شعرت بأنها اقترفت خطًأ كبيرًا بدخولها معه إلى شقة آدم السيد. فقد أحسّتْ بالخوف من هذا الرجل ، واستذكرتْ ، بسرعة البرق ، ذلك المشهد الذي رأته مع هذا الرجل للمرة الأولى حين جاءت مع أختها وهما تحملان الطعام لآدم السيد حينما عرفتا بأن المنظفة

التي تطبخ له في إجازة ذلك اليوم.

تتذكر الآن أنها دخلت إلى الصالة التي تتوزع فيها الآرائك الوثيرة وعلى جدرانها اللوحات وفوجئتا بهذا الرجل المدعو آدم الحديدي عنده!

ما إن جلستْ، الآن، حتى استذكرت المشهد الذي صار حاضرًا بقوة في مخيلتها. كانت تحمل صينية فيها طعام وأختها معها تحمل قارورة اللبن. وكيف أن هذا الضيف الثقيل بادرهما بالدعوة للجلوس وليس الدكتور آدم السيد صاحب الشقة وجارهما القديم، بل وتتذكر أنها اعتبرت ذلك وقاحة وقلة ذوق. فكيف يدعوهما بينما صاحب الشقة لم يطلب ذلك.

واستحضرت المشهد الذي خلاله نظرت في عيني آدم السيد بتركيز وكأنها تسأله إن كان عليهما الجلوس أم لا، فلاحظت ارتباكه فأدركت بحسها الأنثوي بأنه لا يرغب بذلك، مع أنه قال لهما مجاملة بأن يجلسا، لكنها اعتذرت حينها.

كان آدم الحديدي أيضًا يستعيد مشهد لقائه الأول مع آدم السيد ومع حواء اللبّان وأختها، وكيف جلس على الأريكة الوثيرة وأخذ يتأمل منبهرًا بالصالة والأثاث والتحفيات واللوحات بنظرة تبدو بريئة لكنها كانت نظرة تخفي وراءها تساؤلات غامضة، وكأنها تقول: من أين لك كل هذا يا آدم السيد؟.

سألت حواء اللبَان في تلك اللحظات نفسها: «كيف تهورت الآن وفتحتْ الشقة لتجلس في غياب صاحبها الذي يرقد في حالة خطرة في مستشفى الطوارئ، ومع شخص أدركت بأن الدكتور آدم السيد لم يرتح له؟.“

كانت بغريزتها تحس بأن هذا الرجل، الوقح وغير المريح، له علاقة بما حدث لجارها وصديقه! بيد أنه قال بأنه يريد أن يحدثها عن أختها. ولحسم الأمر وإنهاء هذا اللقاء المتوتر وغير

المريح نفسيًا لها سألته بحزم:

– ما الذي تريد أن تحدثني به عن أختي؟

نظر آدم الحديدي إليها للحظات متأملًا وسألها:

– هل أختك متزوجة؟

فوجئت حواء اللبّان بالسؤال فأجابت لا شعوريًا:

– كانت ، لكنها الآن تجري معاملة الانفصال عن زوجها. لماذا؟

حدّق آدم الحديدي في عينيها بتركيز وكأنه يرصد رد فعلها ، ثم قال:

– لأنها أعجبتني وفكرت أن أتقدم لطلب يدها. وإذا ما انفصلت فأود أن أتزوجها. هل ستوافق؟ ومتى تنتهي قضية الطلاق؟ هل لي أن ألتقيها؟

بهتت حواء اللبّان من طريقته الاندفاعية في الكلام لتحقيق ما يريد ، وقالت:

– لا أعرف. يمكنني أن أسألها. ربما لا تريد الارتباط مرة أخرى.

– طيب. لدي رجاء.

– تفضل.

– هل لي أن أتحدث معها لأسمع منها وتسمع مني?

– تسمع منها؟ ماذا تريد أن تسمع منها؟

– أقصد أسمع رأيها منها شخصيًا.

– سأكلمها فربما لا تريد أن تلتقيك أصلًا!

– كلميها أولًا ، وحتى لو رفضت لقائي سأسعى إلى لقائها.

صمتت حواء اللبّان للحظات مستغربة من إلحاح هذا الشخص المريب ، وفجأة سألته:

– أود أن أسألك؟ لماذا تريد أن ترتبط بأختي وأنت لم ترها سوى مرة واحدة ولدقائق معدودة؟ ثم إنك تعرف إنها على وشك

الطلاق. أي لم تنفصل بعد Kفربما ستبقى مع زوجها. ولماذا تريد الارتباط بمطلقة ولا تأخذ فتاة باكرًا؟

– لأن المرأة المطلقة تحافظ على زواجها وتحرص على زوجها أكثر من المرأة التي لم تجرب الطلاق! قال ذلك بنبرة واثقة.

صمتت حواء اللبّان للحظات وراودها سؤال ترددت في طرحه ، حاولتْ لكنها فضّلت ألا تسأله. انتبه هو لحيرتها فسألها:

– هل تفكرين في شيء أو تودين أن تقولي شيئًا؟

صدمها إدراكه لحيرتها فقررت مواجهته ، لذا سألت:

– كيف عرفت أن المصاب الذي كان مع الدكتور آدم السيد هو صديقه الرائد الذي ذكرتَ اسمه؟

لم يكن آدم الحديدي ينتظر منها مثل هذا السؤال ، وأدرك أنه فاه بما يكشف عن علاقته بما جرى ، فقال على عجل:

– لأنهما صديقان لا يفترقان!

أحسّت حواء اللبّان بارتباكه فسألته سؤالًا أكثر ارباكًا:

– نعم. لكن كيف عرفت إنه مصاب إصابة خطيرة مثل الدكتور آدم ، وإنه هو وليس غيره؟

ارتبك آدم الحديد ارتباكًا شديدًا لكنه حاول السيطرة على نفسه فقال بشكل غير مترابط:

– هما صديقان متلازمان. كانت بينهما عداوة قديمة من أجل امرأة ، وتأجج بينهما ثأر مكتوم ، وكان لا بد لهذا الثأر والانتقام أن يظهرا بشكل دموي. لذا حين قلتِ بأنه لم يكن وحده ، فبالنسبة لي لا يمكن أن يكون غير الرائد آدم عبد السميع ، لكن يبدو أنهما كانا متأهبين. لذا أصاب كل منهما الآخر. عمومًا صار عليّ الذهاب. سأمر علي حضرتك بعد يومين. اتصلي بأختك وأخبريها بالأمر كي نلتقي ونتحدث.

وقام يريد المغادرة قاطعًا عليها المزيد من الأسئلة ، فأحسّت

هي بالخوف الذي أعقبته راحة نفسية لانتهاء اللقاء بينهما ، لكنها انتبهت لارتباكه وعصبيته التي حاول كتمانها.

★★★

حين دخلت حواء اللبّان البيت عرفت منذ الخطوة الأولى لها بأن زوجها في البيت ، وانتبهت بأنه ليس وحده فقد كان يتحدث مع شخص ما. ولم يتسن لها سماع صوت الضيف ، لكنها ما إن دخلت الصالون حتى صُدمت. فقد كان الرجل الذي ضاجعها في شقة آدم السيد نفسه. صديق زوجها الذي أغواها فمنحته نفسها.

أرادت أن تعود أدراجها لكن الضيف نهض واقفًا مستقبلًا إياها ومرحبًا بحفاوة لم ينتبه الزوج لخصوصيتها في التعبير.

كان وجود هذا الشخص بعد اللقاء مع آدم الحديدي صدمة غامضة. متى جاء زوجها أصلا؟ فهي لم تتأخر كثيرًا في شقة آدم السيد ، ولماذا جاء بهذا الضيف الفضيحة؟

شعرت بالحرج وتذكرت فورًا أنها وعدت آدم السيد بأن تقطع علاقتها معه للأبد. وحاصرها سؤال داخلي: ما الذي جاء به؟ وماذا يريد؟ فهي تعرف أنه اختلق أمرًا ما كي يجيء بينما زوجها الغافل استجاب لنواياه الخبيثة.

في تلك اللحظة قال زوجها إن صديقه آدم الغبّان جاء بطلب ويأمل ألا تردينه. استغربت حواء اللبّان كلام زوجها ونظرت إليهما مستفسرة ، فواصل زوجها:

– أنت تعرفين الأستاذ آدم الغبّان. صديقنا. صحيح إنه من بغداد لكنه سيترشح عن محافظة البصرة في الانتخابات النيابية المقبلة عن أحد الأحزاب الإسلامية. لذا فعليه أن يسافر ليوم واحد أو يومين إلى البصرة. المشكلة أن أمه مريضة وشبه مقعدة ، وليس لديه من يبقى لرعايتها ، وجاء بطلب أن تكوني معها ليوم أو يومين لحين عودته. وإذا ما كنت تنتظرين موافقتي فمن ناحيتي

أنا موافق.

شعرت حواء اللبّان وكأن كفًا قويةً ضربتها من الخلف ، ولكمة أتتها على الفم ، فلم تستطع النطق ، فقد حسم زوجها الأمر بموافقته. لم تقل شيئًا ، وإنما انسحبتْ من الصالة لتلوذ إلى المطبخ بحجة إعداد الشاي أو القهوة.

وبينما هي حائرة في المطبخ جاء كلام زوجها من الصالة:

- لا تعدي الشاي. الأستاذ آدم مستعجل ويريد السفر ، لذا استعدي للذهاب معه.

لم تصدق حواء اللبّان ما يجري. شعرت بالعجز أمام خبث ووقاحة آدم الغبّان الذي جاء ليجرها برضا زوجها إلى بيته. ولكي تتخلص من الأمر وتجد مخرجًا تسد الباب أمام خبثه للانفراد بها ، فقالت:

- طيب لانتظر أختي ونمضي كلانا لخدمتها.

فانبرى زوجها قائلًا:

- أختك مهمومة ومشغولة بأمر طلاقها. هما يوم أو يومان لحين رجوعه من البصرة.

أحست باندفاعات الغضب تجتاحها ضد هبل زوجها وسذاجته. لكنها أرادت أن تنهي الموضع بشيء من المواجهة الصريحة فقالت:

- أليس من الأفضل على السيد آدم الغبّان أن يطلب من إحدى الممرضات المتمرسات أن تكون مع والدته على أن أكون أنا معها ، فعلى الأقل تستطيع الممرضة أن تقوم باللازم في حالة حدوث أي طارئ.

فقاطعها الضيف وهو يعرف محاولاتها للتهرب من المجيء معه قائلًا:

- أنت محقة بالكامل. لكنني حاولت وسألت ، فقد ذهبت إلى

عيادة أحد الأطباء من أصدقائي ، فاعتذر عن توفير ممرضة تبقى معها ، وشخصيًا لم أتمكن من ذلك من إيجاد واحدة. ياليت هناك ممرضة تقبل البقاء معها.

وجدت حواء اللبّان نفسها مثل ذبابة وقعت في شبكة عنكبوت ، ولولا أنها كانت معه في شقة الدكتور آدم السيد في وضع جنسي مفضوح رآه آدم السيد بعينيه ، لرفضت بشكل صريح مدعية بأنها لا تقبل أن تنام في غير بيتها ، لكنها لا تستطيع أن تدعي العفة ، فقد كانت تلهث تحته وتتوسله على اختراقها بقوة. ولا شعوريًا استعادت تلك المشاهد في شقة جارها الدكتور آدم السيد ، وارتعبت من نفسها حين أحست بدبيب الرغبة يسري في جسدها مجددًا ، وضعفها أمام شهوتها. وانتبهت على وضعها حين سمعتْ زوجها يقول لها:

– لا ضير ياحواء. هو يوم أو يومان. هذا عمل خير يُحسب لك يوم القيامة. ثم إذا ما فاز في الانتخابات فإن خيره سيعم على الجميع. حضّري حالك كي تذهبي معه.

فتدخل المدعو آدم الغبان قائلًا بنبرة حماسية واحتفائية:

– أكيد أكيد ، وأولهم السيدة حواء التي سأجازيها خيرًا كثيرًا. وربما سأجد لها وضعًا وظيفيًا ممتازًا في مكتبي. قال آدم الغبّان بحرارة وتملق واضح.

قال ذلك وهو ينظر إليها مرتبكًا ، تعصف به مشاعر الانتصار وفي الوقت نفسه خوفه من ردود فعلها غير المحسوبة ، فهو يعرف أنها لا تريد الذهاب معه ، لا سيما أن تبقى لديه يوم وليلة أو يومان. وهو يعرف بأنها تعرف خطته وأن الأمر كله تلفيق في تلفيق.

شكر الضيف آدم الغبّان مضيفه آدم اللبّان على هذا الموقف الذي لن ينساه ، وتوجه إلى حواء بالاعتذار لأنه يكلفها بالغياب عن بيتها وعائلتها ليوم أو أثنين ، وتعهد بأنه سيسعى وسيبذل أقصى

ما يمكنه لإنهاء مهمته في يوم واحد.

★★★

يحدث أحيانًا أن نجد أنفسنا عاجزين عن اتخاذ أي قرار أو فعل لننقذ أنفسنا من هاوية نمضي إليها بعيون مفتوحة. نشعر بالشلل والاستسلام كما تستسلم الذبيحة قبيل الذبح ، نصمت صمت الحملان ، بل نمضي في هذا الدرب الذي نعرف أن في نهايته الهاوية ، نمضي بإرادتنا وكأننا قد تملكنا اليأس من العودة إلى حيث كنّا ، وكلما مشينا فيه أكثر ازداد هذا الشعور بالعجز والتوهان والحيرة وعدم الثقة بالنفس. بل وحتى لو قدر لنا الرجوع ، فإننا نتلفت ، وسنجد طريق العودة صار طويلًا وبعيدًا وموحشًا ، فنمضي نحو قدرنا ، وربما نبحث عن تبريرات كي نتجنب تأنيب الضمير وأمواج الندم.

كانت حواء اللبّان تمشي خلفه في أزقة ضيقة وفارغة وهي ملتفة بعبائتها العراقية. كانت مستغربة من سذاجة زوجها الذي يسلمها لهذا الوغد طواعية وبرحابة صدر هوجاء. لكن فجأة خطر في ذهنها هاجس أربكها: «أترى زوجي يعرف كل شيء ، أو لديه مصلحة ما مع هذا الوغد ويقدمني له عربونا لمصالحه؟ أتراه كان يخمن أو حتى يعرف نوايا صديقه هذا لكنه لم يعترض؟ هل زوجي صار قوادًا وديوثا»؟

فزّت حواء اللبّان. كانت الغرفة مظلمة. وجدت نفسها مبتلة بالعرق مع أن جو الغرفة ليس حارًا. سمعت شخيرًا فتنبهت إلى أنه شخير زوجها الذي اعتادت عليه. أحسّت بالأمان حينما أدركت بأن كل ما كان ليس إلا كابوس ، فهي لم تقابل آدم الحديدي ، ولم تلتقيه في شقة الدكتور آدم السيد ، كما لم يكن آدم الغبّان موجودًا عندهم في البيت ، ولا ذهبت معه إلى بيته بحجة رعاية أمه المريضة ، لكنها استغربت من رؤيتها لهذا الكابوس.

بسملت مع نفسها وحوقلت بصوت خفيض جدًا. أرادت أن تعرف كم هو الوقت ، لكن ظلام الغرفة كان كثيفًا فلم تستطع أن ترى أرقام الساعة المنضدية التي تستخدم كمنبه.

في تلك اللحظات الأولى من يقظتها فكرت مع نفسها بأن عليها أن تزور الدكتور آدم السيد في العناية المركزة لتسأل عن تطور حالته الصحية ، فربما رؤيتها لآدم الحديدي له علاقة بوضع الدكتور ، لكنها أيضًا فكرت في الحوار الذي جرى بينهما في الحلم وشكها بعلاقته بمحاولة اغتيال الدكتور آدم وصديقه الذي عرفت اسمه من الحلم. الرائد آدم عبدالسميع. وستتأكد حين تذهب للمستشفى من الاسم.

لكن هل لآدم الحديدي علاقة بالجريمة فعلًا أم هي أضغاث أحلام؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا حضر في الحلم ودار بينهما ذلك الحوار المريب الذي يكشف عن صلته بالجريمة الغامضة؟

نعم. عليها الذهاب إلى المستشفى والاستعلام عن حالة الدكتور آدم السيد فهي تريده أن يتعافى ، ففضله كبير عليها لأنه لم يفضحها حين استغلت شقته للقاء بعشيقها آدم الغبان ، وأيضًا تريد بعد هذا الحلم أن تتأكد من اسم صديقه الآخر ، فهي في الحلم ومن خلال آدم الحديدي عرفت أن اسمه الرائد آدم عبدالسميع ، وعليها أن تتأكد من هذا الأمر حقيقة وفي الواقع ، فإذا اتضح أن اسمه الرائد آدم عبدالسميع فستخبر الجهات التي تحقق في الأمر بتفاصيل الحلم الذي شاهدته؟ لكن ربما سيضحكون منها! هكذا فكرت مع نفسها. ثم تذكرت بأن النقيب المحقق ذكر اسم الرائد حينما نقلوهما إلى العناية المركزة. وانتقلت بتفكيرها إلى القسم الثاني من الحلم وهو وجود آدم الغبّان في الحلم وتفاصيل ما جرى؟

ما معنى ذلك؟ هل هي تريد أن تعيد العلاقة معه لكن بطريقة ملتوية؟ هل تفكر في استغلال شقة آدم السيد الفارغة الآن لتلتقي به من دون مخاطر؟

تفكيرها كان مشلولًا ولم يجد الإجابة لا رفضًا ولا موافقة ، لكنها أحسّت بدبيب الرغبة تسري في جسدها رغمًا عنها.

بهدوء قامت من سريرها وتوجهت إلى باحة الشقة. نظرت إلى الساعة الجدارية في الصالون ، كانت الساعة تقارب الخامسة فجرًا ، وهذا يعني أن الفجر قد زحف على المدينة ، ولوّن السماء بلون أبيض يميل إلى العتمة. هو وقت السَحَر ، إنها تحب هذه الدقائق القصيرة التي هي عمر الفجر قبل أن تشرق الشمس.

توجهت إلى المطبخ وفتح نافذة تطل على الشارع والحي الذي تسكنه. كانت ترغب في رؤية السماء فهي تحب هذا اللون من البياض الذي يختلط بشي من العتمة ، وتعشق السكون والشوارع الفارغة ، وأنها الوحيدة التي في حالة يقظة بينما الناس جميعًا نيام ، فهي حاضرة في الوجود وحدها ، لكن الذي قطع عليها هذه المشاعر مرور قطة سوداء عبرت الشارع متوجهة لبرميل قمامة موضوع على الرصيف ، فانزعجت من مرور القطة السوداء ، فالقطط السود لا تبعث على التفاؤل.

في تلك اللحظات سمعت وشوشة تأتي من غرفة ابنتها التي تقع إلى جانب من الصالة. استغربت أن تكون ابنتها يقظة إلى هذا الوقت ، «أتدرس؟» سألت نفسها. «لا. لا. إنها تتحدث بهمس وكأنها تتحدث مع شخص.“

اقتربت بخطى خافتة من باب غرفة ابنتها ، وقبل أن تلتصق بالباب تعثرت بمنضدة صغيرة على جانب الأريكة فسقطت الصينية التي كانت عليها محدثة صوتًا بدا قويًا في صمت الشقة المريب.

وحين اقتربت من باب الغرفة مرة أخرى كان الصمت مطبقًا

والهمس قد توقف. «أتراها سمعتني فصمتتْ، أم تراني تخيلتُ ذلك؟."

بقتْ للحظات واقفة قرب الباب، ثم انسحبتْ إلى غرفتها، لتواصل نومها. كانت تشعر بشيء من الأمان بأن كل ما كان لم يكن سوى كابوس مزعج.

توجهت إلى غرفة نومها لتواصل النوم. لكن ما إن استلقت في فراشها حتى استعادت صوت همسات ابنتها، وظلت تفكر وتؤكد لنفسها بأنها سمعت همس ابنتها مع شخص ما، ولم يكن هذا الأمر مريبًا لو كان في وقت آخر، لكن المريب هو الوقت. وفي لجة التفكير لا تعرف كيف غاصت في النوم.

الفصل العاشر
حانة الجحيم السعيد

حين دخل آدم السيد إلى «حانة الجحيم السعيد» صُدم. ظن أنه سيدخل حانة كتلك التي في بغداد سواء قبل الزلزال السياسي الكبير أو بعده! كان حزينًا لاختفاء إيفا ماجدولينا ، لكن ثمة هاجس عميق في داخله يقول له بأنها ستعود.

,,حانة الجحيم السعيد» التي سمّتها له مديرة مكتب الاستقبال في الفندق لم تكن حانة اعتيادية ، وإنما صالة كبيرة وواسعة على مدّ البصر. مئات بل آلاف من الرواد الجالسين حول موائد منفردة بشكل مثير للغرابة كأنهم شخصيات شبه جامدة ، شخصيات تاريخية من مختلف الشعوب ، وشخصيات فنية وأدبية وتراثية ، شعراء وكتاب ، وشخصيات عادية من يوميات الحياة.

وقرب مدخل الحانة كانت هناك وجوه لنساء ورجال أحسَّ كأنه يعرفها. لكن وجهًا جذبه من بين هذا الحشد الهائل من الوجوه. كان مأخوذًا به بل أثار استغرابه أن يجده هنا. وجه لفتاة لم تبلغ العشرين ربما ، غاية في البراءة والجمال. تجلس وحيدة حول طاولة كبيرة. كانت نظراتها شاردة ، ومع شرودها كانت تنظر في الوجوه ، كأنها تبحث عن شخصٍ ما.

أحس بأنه منجذب لها. ارتعش قلبه لرؤيتها. إذ بدا له أن ثمة خطأ ما في وجودها هنا ، في «حانة الجحيم السعيد». في تلك اللحظات راوده حدس بأنها ربما أخت إيفا ماجدولينا التي جاءت تبحث عنها ، فهي تشبهها إلى حد كبير.

كان هو يبحث عن آدم الأورستي ، الفتى الذي قتل أمه ، لكنه كان يرغب ، حين انطلق للبحث ، في أن يلتقي آدم بهاء الدين فهو

يحمل معه سرًا ، وإلّا لماذا ادّعى أنه آدم آل عيون السود أو آدم الأورستي؟ وسأل نفسه: «لكن من هي هذه الفتاة ، وكأني أعرفها. أتراها أخت إيفا ماجدولينا فعلًا!؟.“

كان منجذبًا لها بشكل مسحور ، تشده رغبةٌ قوية في أن يجلس معها حول الطاولة نفسها ويتعرف عليها. فهو يحس بأنها قريبة منه أو من إيفا ماجدولينا؟ وكلما أمتد وقوفه متأملًا إياها كان يقينه يشتد بأنها أختها. أراد أن يجالسها ويسألها عن اسمها ، بيد إنه كان ملتزمًا بمهمته التي جاء الحانة من أجلها.

حين نظر إلى أعماق القاعة أحس بالإحباط ، فهي تمتد إلى ما لانهاية ، وأمامه آلاف الحواءات والأوادم كدمى جامدة تجلس حول الطاولات التي تصطف متدرجة واحدة خلف الأخرى على جانبي القاعة وبشكل لا نهائي. ووجد في ذلك فرصة للبحث عن تبرير داخلي في أن يترك المهمة بحجة ، شاور نفسه بها ، وهي «كيف لي أن أجده بين آلاف الرواد لهذه الحانة الغامضة؟». ووجد في نفسه الرغبة في أن يجالس هذه الفتاة البريئة ، لذا سألها بلطف شديد وارتباك يشوبه الخجل:

- هل تسمحين لي سيدتي بالجلوس..؟

نظرت إليه وكأنها لم تسمعه أو تفهمه ، لكن نظرتها تغيرت ، وكأنها كانت تستذكر شيئًا ، ومع ذلك لم تجبه مباشرة ، فقال لها:

- أتسمحين لي بالجلوس؟

لم تجبه وإنما أومأت برأسها إليه بما يشير إلى لا مبالاتها سواء جلس أم لم يجلس. لكن آدم السيد اعتبر ذلك موافقة ، فجلس قبالتها على المصطبة الممتدة حول الطاولة.

لم تعره اهتمامًا يذكر وكأنه غير موجود أمامها ، واستمرت بنظراتها الشاردة في جانب القاعة الممتد أمامها نحو المدخل.

كانت في بلوزة وردية اللون وتنورة سوداء ، بينما كان شعرها

ينسدل على جانب من كتفيها. انتبه لجمال صدرها ونهديها ورقة عنقها ، ولملامحها الأنثوية المثيرة والبريئة في الوقت نفسه.

لا يعرف لماذا شعر بتدفق جارف من الحنين إليها. وسأل نفسه وهو منشغل بتأملها: «أمن المعقول أن ترى شخصًا ما وتحس نحوه بكل هذا الانجذاب الغامض؟ من هي هذا الكائن الملائكي في «حانة الجحيم السعيد»؟ أمن المعقول إنها كانت في «الجحيم» ، والآن في «المطهر»؟ لربما هي أحد ملائكة الجحيم؟ ومع كل هذه الاحتمالات ، أشعر بهاجس قوي بأنني أعرفها.“

لم يطق آدم السيد صبرًا ، فوجد نفسه يسألها:

– هل أنت مقيمة هنا منذ فترة طويلة؟

انتبهت لسؤاله. نظرت إليه نظرة متفحصة وكأنها انتبهت لوجوده توًا. تأملته وأحسّت بإرتعاشة سرت في جسدها. ثمة شيء لم تدرك كنهه بعد لكنه هزّها. ووجدت نفسها تقول له بنبرة اعتيادية ، لا أثر للعدوانية والتوتر فيها ، بل بهدوء يشي بالرضا:

– لا أدري إن كنت هنا منذ فترة. ففي المطهر لا معنى للزمن. إنه جحيم الانتظار.

انتبه لصوتها الطفولي ، وسألها برقة ولطف:

– لكنك تبدين وكأنك تفتشين عن شخص ما أو تنتظرين شخصًا ما؟

– جئت أبحث عن أختي. قالت بعفوية وبنبرة فيها حنين ولهفة حزينة.

– من حضرتك؟ ومن هي أختك؟ فربما يمكنني أن أساعدك من خلال مسؤولة مكتب الاستعلامات السيدة حواء الرحماني!

نظرت إليه نظرة متفحصة لكنها سريعة وكأنها تريد أن تستأمنه ، وقالت:

– أنا إيفا ماريا. السيدة حواء الرحماني هي التي أخبرتني

بوجود أختي هنا.

- إذن ستجدينها بلا شك ياإيفا ماريا<

نظرت إليه بتساؤل ممزوج بشيء من الألفة وقالت:

- لكن هناك ثمة مشكلة!

- ما هي؟ أية مشكلة؟ سألها.

- حينَ غادرتُ العالمَ كنتُ في الثامنة عشر من العمر. وكانت هي ما بين الخامسة والسادسة ، ويفترض هي الآن في العشرين ، أي أنها أكبر مني عمرًا ولا أتذكر شكلها اليوم إذا ما قابلتها!

ازداد يقين آدم السيد بأن محدثته هي أخت إيفا ماجدولينا ، فقد روت له بأن أختها كان لديها ثمانية عشر عامًا حين غادرت الحياة بعد أن أشعلت النار في جسدها ، بينما هي كانت في السادسة. وكم تمنى لو أن إيفا لم تستعجل وتجيب على الاتصال الهاتفي ، لكانت الآن تجلس مع أختها التي جاءت تبحث عنها. ووجد نفسه يقول لها.

- ستساعدك السيدة حواء الرحماني. وإذا لم تستطع ذلك فسيسعدني مساعدتك في البحث عنها! ما اسمها؟

- إيفا ماجدولينا. اسمها إيفا ماجدولينا... قالت إيفا ماريا بحنان وبعيون تتألق شوقًا للشخص الذي يحمل هذا الاسم.

- ماذا؟ قال آدم السيد بدهشة كبيرة.

- نعم ، إيفا ماجدولينا. أتعرفها؟ سألته بلهفة وفضول واضح.

- هي حبيبتي وتوأم روحي ، وقد جاءت فندق باب السماء باحثة عنكِ. إذن أنت أختها؟

- نعم أنا أختها إيفا ماريا. لكن كيف تقول إنها توأم روحك وحبيبتك وهي ليست معك؟

شعر آدم السيد بالارتباك ، وتمتم بصوت حزين:

- مع الأسف غادرت المطهر إلى خارج الفندق!

- كيف؟ أيعني هذا إنني لن استطيع رؤيتها؟ سألت بقلق.

- لا أعرف بالضبط. أنا نفسي أفتقدها بشدة. ربما تعود وربما تفضل البقاء هناك. أنا وهي عالقان بين عالمين ، خارج الفندق وهنا في المطهر. قال موضحًا.

لم تفهم هي مقصده بالضبط ، لكنها فهمت بأنهما ليسا موتى بالكامل ، بل هما موتى أحياء ، وقالت باستسلام:

- وأنا مقيمة هنا في المطهر لأني متُ ولستُ عالقة بين عالمين!

- أعرف. قال بحزن واستسلام.

- هل حدّثتك عني؟ سألته بفضول.

صمت للحظات. لم يكن يعرف من أين يبدأ الحديث! فقال لها متجنبًا أن يقول شيئًا لا تفقهه ، لأن معظم ما سمعه عنها كان عمّا جرى بعد موتها ، فقال:

- حدثتني بشكل مقتضب.

- ماذا قالت عني؟ قالت الفتاة بنبرة متلهفة.

- قبل كل شيء هي جاءت لتبحث عنك.

- وكيف عرفت إنني هنا؟

- هي قالت في عقيدتكم يحرم قتل النفس ، والذي ينتحر يذهب إلى الجحيم الأبدي. لأن الانتحار خطيئة الخطايا ، لكنها كانت واثقة بأنك ملاك ولست بشرًا ، وإنك طيبة جدًا وتحبين مساعدة الآخرين ، وعملت الكثير الكثير من الطيبات والخير ، لذلك كانت على يقين بأن القدير سيغفر لك ويعفو عنك.

- حبيبتي إيفا ، وماذا أخبرتك عني أيضًا؟ قالت بنبرة حنينة ومرتجفة الصوت.

تأثر آدم السيد بكمية الحنان والبراءة التي تشع من هذا الكائن الملائكي الذي القى بنفسه في الجحيم بلحظة يأس ،

فواصل قائلًا:

- أخبرتني عنك بأشياء غير مترابطة جدًا ، لأنها كانت صغيرة حينما انتحرتِ. لكن الآن وهي امرأة ناضجة قالت عنك مسترجعة ذلك الوقت بأنك تعرضتِ لضغوطات نفسية هائلة. قالت عنك بعض التفاصيل ، بأنك كنت تحبين الدردشة ، وكنتِ تقومين بدور الأم والمعلمة التي تساعدها في أداء الفروض المدرسية ، وإنك كنت متواضعة وبسيطة جدًا. لكنها تتذكر بأنك كنت عصبية جدًا ، كنتِ تثارين من أبسط الأسباب ، وكانت هي تخافك. كنتِ بمثابة الأم ، وتتذكر أن أخاك الذي يصغرك بعام كان يسيء إليك بالكلام ويزعجك جدًا ، بل كشفتْ عن سر عائلي بأن أمكم كانت على علاقة برجل ، بينما كان الأب في السجن بتهمة ملفقة. كانت تراك ملاكًا يمشي على الأرض.

كانت عيناها مترعة بالحنين وبفرح غامض ، وكان الانبهار مرتسمًا على وجهها ، وسألت:

- كل هذه الأشياء كانت صغيرتي إيفا تراها فيّ؟ وماذا أخبرتك عني أيضًا؟

أحس آدم السيد بالحنين لإيفا ماجدولينا وتمنى لو كانت موجودة لترى كمية الحب والحنان في عيني أختها الحبيبة ، لذا واصل قائلًا:

- أخبرتني بأنك كنتِ تحبين الدراسة ، وكنت تحلمين بدراسة الطب لتتخصصي في جراحة القلب. لكنك من جانب آخر كنتِ ترفضين الوضع الأخلاقي والنفسي للعائلة.

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهها وقالت:

- أردت معالجة القلوب لكنهم حرقوا قلبي. وماذا قالت عن العائلة ووضعها الأخلاقي؟

صمت آدم السيد للحظات ، ثم قال:

- كان الأب في السجن ، بينما الأم تلقي بكل اهتمامها على عشيقها ، إلى جانب أن كل العائلة والأقارب يعرفون بأن إحدى عماتك كانت قوادة.

ارتبكت حين سمعت ما قاله آدم السيد ، وقالت:

- أف. هل أخبرتك حتى عن عمتي؟ يبدو أنها تحبك كثيرًا بحيث تأتمنك على أسرار العائلة التي لا يمكن الحديث والكشف عنها ببساطة. وماذا أخبرتك أيضًا؟

- أخبرتني عن قصة حبك المأساوية.

ارتسمت علامات الدهشة على وجهها البريء وسألت:

- لكنها كانت صغيرة؟ كيف كان لها أن تعرف هذه الحكاية؟

- ربما في حينها لم تعرف شيئًا واضحًا لكنها بعد حادث الانتحار حرقًا ، فبالتأكيد ، سمعت أحاديث العائلة حول علاقتك بالضابط العراقي. لا سيما وأن بعض الأقرباء اتهموك بأنك كنت حاملًا من حبيبك وإنك انتحرت بعد أن أخبرته بذلك ، وتقدم هو ليلملم الفضيحة لكن أهلك رفضوه لأنه من عقيدة أخرى ، وإنك انتحرت درءًا للفضيحة ، أو حتى انتقامًا من العائلة لأنها رفضته ، وبالتحديد أمك!

- الناس تتهم وتغتاب وتنافق من دون أية دراية أو علم وفهم بتفاصيل ما يتحدثون عنه ويشّهرون به.

- هذا صحيح مع الأسف. لكن أين الحقيقة؟

صمتت للحظات ، وتجولت بنظراتها في أنحاء القاعة ، ثم عادت لتنظر في وجهه وقالت:

- أتبحث عن الحقيقة هنا في مطهر الخطايا المقدسة؟ أية حقيقة تريد أن تسمعها؟

ارتبك آدم السيد من هذه المواجهة الحازمة ، وتمتم قائلًا:

- لا أعرف عن أية حقيقة أبحث؟ الجميع يبحث عن الحقيقة ،

لكن كل يبحث عن حقيته الخاصة به. الحقيقة وهم من صنع إرادتنا وذاتنا. أنا شخصيًا عرفتُ جانبا من الحقيقة.

– وماذا عرفتَ عن حقيقتي؟ سألته مقاطعة.

– كل ما عرفته قد عرفته مما روته لي إيفا ماجدولينا ، فقد روت لي بأنك وفي أثناء مراجعتك السجن ، حيث يقبع والدك بتهمة ملفقة خطيرة ، تعرفتِ هناك على ضابط وسيم من ديانة أخرى ، وكنت حينها تذهبين مع والدتك ، لكنك أخذت تكثرين من زيارة والدك بمفردك ، لا سيما وأن والدتك في تلك الفترة كانت على علاقة مع رجل آخر. وتعمقتْ العلاقة بينك وبين الضابط ، وصار يساعدك ويساعد والدك بإيصال السجائر والملابس والطعام ، وكان ممنوعًا عليه تلقي أي شيء من خارج السجن.

وحدث إنك كنت ذات يوم تتحدثين مع حبيبك عبر الهاتف ، فإذا بأمك تسمع كلامك العاطفي معه ، واعتبرت ذلك جريمة. كانت متعصبة دينيًا جدًا ومتناقضة لحد اللعنة ، فهي تتخذ عشيقًا بينما زوجها في السجن لكنها من جهة أخرى ترى أن حديثًا عاطفيًا بريئًا بين اثنين يحبان بعضهما بعضًا جريمة وخطيئة لا تغتفر ، فقط لأنهما من ديانتين مختلفين؟ المهم ، كما فهمت من إيفا ، إنك أخبرتِ حبيبك بما جرى ، وكيف أن أمك حقّقت معك عائليًا ، وفي اجتماع عائلي ، فصرتِ وكأنما أنت مشعوذة مسكونة بالشياطين وسط محكمة من محاكم التفتيش.

لكن الضابط كان صادقًا فجاء ليبين حسن نيته وصدق حبه لكِ وليطلب يدك رسميًا ، لكن أمك كانت قد أمرت أخويك ألا يصافحاه ، بل ويتعاملا معه بجفاء ويطردانه.

– أمي. آخ من أمي؟ إنها كذّابة ومشعوذة وأنانية. إنها تكذب بثقة تفوق ثقة أي إنسان في قول الحقيقة. ومع ذلك فهي أمي. وماذا قالت لك صغيرتي إيفا.

صمت آدم السيد للحظات وهو يحاول استذكار التفاصيل التي اخبرته فيها إيفا ماجدولينا عن أختها المنتحرة. رفع رأسه إليها وقال:

- أتعرفين. مشاركة الحزن تخفف منه ، ومشاركة الفرح تضاعفه ، لكنني لا أعرف الآن هل سيخفف خبر وجودك هنا من حزن إيفا ماجدولينا لفقدانك. أم سيضاعف الفرح باحتمال لقائكما؟

- لكنك قلت بأنها خارج المطهر !تمتمت إيفا ماريا بإحباط.

- نعم ، هي خارج المطهر الآن. لكنها تفتقدك كثيرًا. هي لا تنسى مشهدًا من ذلك اليوم المأساوي حين طلبت أمك منك أن تحميها معك ، وربما لأنك كنت مصممة على أن تشعلي النار في جسدك ، لذا رفضت ذلك. حدثتني إنها كانت على الدرج الذي ينزل من الطابق الأول حين رأتك تخرجين من غرفة الحمام والنيران تلتهم جسدك. وكيف أن أخاك لجهله ، وربما لرعبه من المشهد ، رش عليك الماء ليطفيء النار ، مما سبب لك مضاعفات خطيرة قتلت جسدك.

- أتعرف. كل ما رويته وترويه عني بالنسبة لي ذكرى باهتة لا أشعر بها. فنحن هنا في مطهر الخطايا المقدسة. في جحيم الانتظار لا علاقة لنا بالجسد الدنيوي.

- في جحيم الانتظار نحتاج إلى الصبر.

- الصبر؟ الصبر لا يعني قدرتنا على الانتظار ، وإنما كيف يمكننا احتواء الروح في لحظة الانهيار والوهن وتحملها عبء الخطايا. الانتظار زمن ، ولا وجود للزمن في المطهر. لذا علينا تطهير الروح من شوائبها وبما علق بها فيما كان يسمى الحياة. أتعرف ما هو أقسى عقاب يواجه سكان المطهر؟

- ما هو؟

- أن يعاد بهم إلى الحياة. العودة إلى الحياة عقاب!

صمت آدم السيد للحظات. نظر إليها بتردد ، لكنه حزم أمره و سألها:

- أنا أعرف أنك أشعلت النار في جسدك. لكني لا أجد أثرًا لذلك عليك.

- هذه تجليات الروح ، جسد الروح وليس الجسد الفيزياوي. أنا اختلف عنكما ، أنا ميتة بينما أنت وإيفا عالقان بين عالمين. لكني مشتاقة لرؤيتها.

أيقظت كلماتها شوقه إلى إيفا ماجدولينا ، فهو لا يطيق التواجد حتى في المطهر من دونها ، أحس بالحنين الجارف إليها ، لذا قال مداريا دفق انفعالاته التي اربكت ملامحه:

- وهي أيضًا. إنها تبحث عنك ، هي تحبك كثيرًا. إنك ما زلتِ حيةً في أعماقها. ليس في عالمها غيرك وغير البابا كما تسميه ، وقد حدثتني عن مأساة والدك بعد انتحارك.

- قيل لي إنه في المطهر أيضًا. فعرفت إنه قد مات أيضًا لكن علي الصبر!

فوجئ آدم السيد بقولها بأن والدها في المطهر أيضًا ، فسأل بدهشة:

- البابا في المطهر أيضا؟ آه لو تعلم إيفا بذلك؟ حتى أنا مشتاق لرؤيته ، لقد أحببتكما أنتِ والبابا من خلال حديث إيفا عنكما! لقد تأثرت جدًا بما جرى له بعد انتحارك.

- لا أعرف ما جرى له؟ لكني أخمّن بالتأكيد هول العذاب الذي تركته له ، فقد كنت أقرب إنسان إليه ، كنت صديقته المقربة ولست ابنته ، كان يسرّني أشياء لا تعرف حتى أمي بها. وطبعًا كان متعلقا بإيفا الصغيرة. حبيبتي وابنتي إيفا. لكن حدثني عما جرى.

هبطت غيمة من الحزن والأسى على آدم السيد ، فقال وهو

يسترجع حديث إيفا ماجدولينا عن والدها:

– كان في السجن حين أشعلتِ النار في جسدك ، ولم يستطع الأطباء أن يفعلوا شيئًا ، إلقاء الماء على جسدك من قبل أخيك أضرك جدًا ، وحدث تسمم في جسدك المحترق. وحين أتوا بجثمانك المتفحم إلى السجن ، أخرجته إدارة السجن من زنزانته لساعة كي يودعك ويلقي عليك النظرة الأخيرة. لا أعرف تفاصيل ما جرى ، لأن إيفا كانت صغيرة ، وقد سمعت تفاصيل ما جرى من ممن حضر ذلك المشهد. قيل إنه أبكى حتى السجانين ومدير السجن. فقد ألقى بنفسه على تابوتك وهو ينشج ويولول وينتحب ، وبالكاد استطاعوا أن يبعدوه عن التابوت ، ولا أحد يعرف كيف كان حاله حينما عاد للزنزانة. وحينما خرج من السجن تحول إلى مدمن خمر. إنهار نفسيًا ، كان محكومًا عليه بالإعدام ، لكنه خرج بطريقة ما من السجن بينما موتك كان إعدامه الحقيقي. لقد أخبرتني إيفا بأنك كنت الأقرب إليه ، بل كنت سلوته وصديقته أكثر مما كنت ابنته ، وكان يزور قبرك سنويًا. وفي آخر زيارة لقبرك تعرض لأمر صحي ، ومات فجأة.

نظرت إليه بعينين مليئتين بالحنين والشوق واللهفة وقالت:

– كم أشتاق لرؤية البابا ورؤية حبيبتي إيفا ماجدولينا.

صمتت للحظات وهي شاردة النظرات ، وبدت كأنها تفكر في شيء بعيد ، ثم التفتت إليه وقالت:

– يبدو أن حبيبتي إيفا ماجدولينا تحبك جدًا بحيث روت لك تفاصيل التفاصيل عني وعن العائلة التي كنت ابنتهم فيها.

– وأنا أحبها جدًا. هي توأم روحي ، توأم شعلتي.

نظرت إليه بمودة وتعاطف وقالت:

– أنا انتظرها ، وانتظر لقاء والدي أيضًا ، روحي كانت عمياء ، بينما كانت لديّ عينان كالصقر ، لكنني كنت أتعثر في الحياة ،

فروحي ، كما قلت ، عمياء ، لذا لم أرَ مطبات السلوك البشري ، ومصائد الأخلاق الدينية المزيفة ، وفخاخ الكلام العاطفي الجميل ، ومنحدرات الرغبة التي تقود إلى الهاوية. هنا روحي يقظة ، كلي روح. ومع ذلك روحي ترى وتستشف الأزمنة ، مشتاقة لإيفا ، لأبي. أريد أن ألتقي بهما.

- ستلتقون بالتأكيد ، بل أود أن أشهد هذا اللقاء أيضًا.

- لكنك قلت إن إيفا غادرت المطهر إلى الحياة خارج الفندق.

- نعم ولا أدري هل ستعود؟ ومتى تعود؟

- وماذا إذا لم ترجع إلينا؟

في تلك اللحظة دخل الحانة الرائد آدم عبد السميع ، وجال بعينيه في القاعة بنظراته المستفزة إلى أن وقعت عيناه على آدم السيد الذي كان جالسًا حول الطاولة بمواجهة أخت إيفا ماجدولينا. فاتجه نحوه.

حين وصل إلى حيث يجلس آدم السيد ألقى نظرة على الفتاة التي تجالسه ، فلم يستطع إلا أن يبدي إعجابًا بجمالها الملائكي ، لكنه سرعان ما عاد لطبيعته الانفعالية الحامية فوجه كلامه إلى آدم السيد قائلًا:

- ظننتك تبحث عن آدم الآورستي؟ المهم. لقد التقيت آدم بهاء الدين وأخذته إلى غرفتي وأغلقت عليه الباب بالمفتاح. علينا أن نذهب كلانا إليه ، أعتقد هو يعرف الكثير!

شعر آدم السيد بالحرج من طريقة الرائد غير اللائقة ، فهو لم يلق التحية على الفتاة ، وبدا عصبيًا وهو يحدثه عن آدم بهاء الدين. لكنه كان مضطرًا إلى أن يوضح الموقف للفتاة ملائكية الوجه قائلًا:

- هذا صديقي الرائد آدم عبدالسميع.

ورفع رأسه إلى الرائد قائلًا:

- هذه إيفا ماريا. إنها أخت إيفا ماجدولينا ، وهي تنتظر اللقاء بها وبوالدهما!

استرخت ملامح الرائد قليلًا وحاول أن يكون لينا لكن تصنعه لم يسعفه ، ومع ذلك قال:

- أهلا بك. إنك تشبيهن إيفا ماجدولينا كثيرًا ، لكنك عبثًا تنتظرين ، فقد غادرت إيفا ماجدولينا المطهر إثر اتصال هاتفي جاءها من خارج الفندق. ولا أحد يعرف إن كانت سترجع للمطهر أم لا؟

كانت الفتاة تنظر إليه بصمت حينما كان يتحدث. وشعرت بعدم الارتياح له ، لكنها قالت له بهدوء:

- أعتقد إننا في المطهر ، والمطهر جحيم الأمل ، جحيم الانتظار ، ونحن هنا أيضًا في حانة (الجحيم السعيد) ، فلا تبخل عليّ بالأمل في لقائها ، ولا تبخل علي بالانتظار. سأنتظرها ، ليس أمامي سوى الأمل والانتظار!

كان آدم السيد يتأمل وجهها الملائكي وهي تتحدث مع صديقه الرائد وأعجبته سرعة بديهتها وعمق جوابها ، وبما أن الحديث يجري عن زوجته الروحية ، فقد قال معلقًا من دون أن يوجه كلامه نحو أحد:

- دع الأوراق تنتثر ، دعها تذهب مع الريح ، وكفّ عن الشكوى ، فخير أن تساعد بزفيرك الرياحَ الهابة على أغصانها. انفخ على هذه الأوراق ليتبدد من حولك كل شيء عراه الذبول.

أحس الرائد آدم عبد السميع بالارتباك وكأنه المقصود بما قاله آدم السيد ، بينما نظرت إيفا ماريا إليه وفي عينيها بريق أمل حزين وقالت:

- لا أدري أين سمعت بمثل هذا الكلام؟ شكرًا لك. فحتى الزفير هنا في المطهر يكون بمثابة نسمة!

- نعم. هي جملة قالها نبي ملحد ومجنون.

ازداد ارتباك الرائد آدم عبد السميع لأنه انتبه للإنسجام بين آدم السيد وإيفا ماريا لا سيما وهي أخت حبيبته إيفا ماجدولينا ، فقال بحيوية لإنهاء الموقف:

- جئت في أمر خاص جدًا وأريدك أن تساعدني ، فلا أجد غيرك أيها المستشار.

- وما هو؟

- لقد عرفت بأن ثمة امرأة قاتلة ، قتلت خطيبة زوجها في عرسها ، وانتقامًا من زوجها قتلت طفليها. لا أعرف عنها الكثير. أنت تعرف كل هؤلاء الأسلاف في كهوف التاريخ. أريد أن تساعدني في التحقيق معها.

- أين التقيتها؟ سأل آدم السيد مستغربًا.

- لم التقيها بعد؟ أجاب الرائد متربكًا.

- كيف لم تلتقها ؟

ارتسمت علامات الدهشة على وجه آدم السيد ، وقال له بذهول:

- أتقصد أن حواء الميدية هنا أيضًا؟ فهي من قتلت طفليها انتقامًا من زوجها ، وقيل قتلت خطيبته أو زوجته الجديدة. أية رحمة ومغفرة يمكن أن تطالها وهي القاتلة؟

- لا أعرف. دعنا نذهب إليها!

- كيف التقيتها؟ سأل آدم السيد مستغربًا.

- لم التقها بعد؟ أجاب الرائد مرتبكًا.

- كيف لم تلتقها بعد بينما تريد التحقيق معها؟ وكيف تعرف أنها قاتلة؟ ثم ألا تعرف أن كل سكان المطهر قد تمت محاكمتهم وصدر الحكم عليهم. ومن هنا فقد قضت محكوميتها في الجحيم وهي في فترة الانتظار لمغادرته.

سكت الرائد آدم ولم يقل شيئًا ، واحس أن مهمته قد فشلت لتحقيق في جرائم تلك المرأة. لكنه حاول تبرير موقفه فقال:

– الحقيقة أنا كنت مارًا بالمصادفة وسمعت صرخات امرأة تتحدث بما يشبه الولولة والنحيب ، وحين اقتربت من باب ذاك الجناح سمعت صوتا انثويًا يقول:

,,لقد كنت أكثر صمتًا من الأسرار. فاسكتي أيتها الأشباح الدنسة ، يا أشباح مملكة الظلام. آه ، ليت السفينة لم تبحر ولم تمخر العبّاب ، ولم تتلوى وتستدير كالأفعى بين الصخور الداكنة ، بل وليت أشجار البلوط ما قُطعت لتمد بالمخاذيف لقبضات الرجال الذين أبحروا من أجل الفروة الذهبية.,, ...

لم افهم معنى تلك اللغة والاستعارات ودلالتها ، لكني سمعت صوت خفيضًا لامرأة أخرى يقول لها:

,,اسكتي ياسيدتي. وجهي شكواك الدفينة نحو حزنك الدفين. إن من يتحمل ضربات القدر العنيفة بصمت وصبر سيكون قادرًا على رد الضربات بشكل أقوى. فالكراهية حينما يفصح عنها تفقد فرصة الانتقام.“

لكن المرأة التي تبدو من صوتها هي السيدة قالت بحقد ومرارة: «أتمنى له أمنية واحدة ، هو أن يظل هائمًا عبر مدن مجهولة ، سواء هنا أو في فيافي الجحيم ووديانه الخانقة ، أن يبقى سواء هنا أو في الجحيم منفيًا ، مكروها من زبانية الجحيم. لا ظل يأويه ويقية سموم الجحيم ، ولا متكأ يستند عليهi“

– ومن أين عرفت بأنها قاتلة واقترفت جرائم؟ سأل آدم السيد بعفوية.

– من السيدة حواء الرحماني. فقد كانت متجهة نحو الحانة ، فاستوقفتها وسألتها عن الأصوات والحوار الذي سمعته ، فقالت لي هذه قاتلة ، هربتْ من أهلها مع عشيقها وتزوجته وانجبتْ منه

طفلين ، لكنه ملّها وطمع بالزواج من ابنة البلاد التي هرب إليها معها ، فانتقمتْ منه وقتلت طفليها ، وسممت المرأة التي كانت غريمتها.

- واين السيدة حواء الرحماني الآن؟

- دخلت عليهما.

- ما لم تفهمه السيدة حواء الرحماني بأن القدير لا يرحم جريمة قتل طفلين بريئين أو القتل العمد لإنسانة أخرى. بينما هي الآن في المطهر ، ومعنى ذلك إنها بريئة من جريمة القتل ووجودها في الجحيم كان لأسباب أخرى لم تعرفها السيدة حواء الرحماني.

- وما هي تلك الأسباب؟ سأل الرائد بفضول.

- أن هذه المرأة تم الافتراء عليها تاريخيًا ، فهي لم تقتل طفليها ، على العكس ، مَن قام بذلك هم رجال المدينة القساة ، فلأن زوجها هو أمير بلاده وجزيرته ، ولأنه أنجب منها ولدين ، أي هما من سيحكمان ويرثان العرش من بعده؟ لذلك قام قادة البلاد وأعيانها وكهنتها بالافتراء عليها لأنها في نظرهم أجنبية ، وأن العرش سيصير لاحقًا لابنيها الغريبين ، لذك قتلوا الطفلين واتهموها بقتلهما.

- ما هذا؟ وكيف عرفت! ثم كيف خرجت من الجحيم وجاءت إلى هنا؟

تألق وجه إيفا ماريا وهي تسمع الحوار بين الرجلين ، وقبل أن يفتح آدم السيد فمه بالإجابة قالت:

- الرحمة والمغفرة سمة الإله القدير ، مالك الفردوس والجحيم. الرحمة هي لغزه العظيم ، فما دامت هذه المرأة هنا إذن فالقدير مسها بريشة رحمته اللانهائية!

شعر آدم السيد بالارتباك وبخجل روحي من عمق كلامها ، فهو

كان يتحدث بالمنطق الأرضي والذاكرة التاريخية خارج الفندق ، بينما هي تتحدث من أعماق اللا نهاية.

قام آدم السيد من مكانه ، وقبل أن يذهب مع صديقه المحقق آدم الرائد قال لها:

- نحن هنا في مطهر الخطايا المقدسة سنلتقي. أنا على يقين غامض بأن إيفا ماجدولينا ستأتي. هي أملي في هذا المطهر. أنا أتطهر من خلال وجودها معي ، أتطهر من كل آثامي وخطاياي. كنت مكتظًا بالآثام والخطايا قبل لقائي بها. حملت آثام العصور. سألتقي بكما ، أنت وهي ، وربما بوالدكما الذي أحببته من خلال مأساته. لا يمكن لإيفا أن تتركني هنا وحيدًا في مطهر الخطايا المقدسة. لا يمكن. هي توأم روحي. كلانا ناقص من دون الآخر.

تألقت عينا الفتاة وارتسمت ابتسامة حزينة على وجهها ، وقالت:

- لقد أحببت حبكما لبعضكما بعضًا ، وهذا الحب هو الذي سينقذكما من جحيم الانتظار. ولأنها حدثتك عن تفاصيل التفاصيل عن حياتنا العائلية الأرضية ، فهذا يعني أنها وجدت فيك توأمها أيضًا. لا تيأس ، أنا أعرف صغيرتي إيفا ماجدولينا ، فهي تتعلق بأشيائها جدًا وتتمسك بكل ما له علاقة بعالمها. ستأتيك وستنقذك من جحيم الانتظار.

أخذ الر ائد يتضايق من حوار صديقه مع الفتاة وحديثهما عن إيفا ماجدولينا ، فقال بنفاد صبر:

- أتمنى أن تأتي معي أيها المستشار فلا وقت لدي. أريد أن أتأكد من روايتك عنها. ما اسمها؟ يبدو إنك عرفتها.

نظر آدم السيد إليه مستغربًا ، لكنه عرف أنه مستفز من الحديث عن إيفا ماجدولينا ، فقال له:

- ما بك يا صديق؟ لا وقت في الجحيم فاللانهاية فتحت

أبوابها. لا معنى للزمن هنا. فنحن أصلًا في جحيم الانتظار. والمرأة التي تقصد. أظنها هي إيفا حواء الميدية!

وما إن استعد الرجلان للمغادرة حتى رأى الثلاثة السيدة حواء الرحماني مقبلة ووجها يتألق بالبشارة ، كان الرجلان واقفين بينما ظلت الفتاة جالسة على مقعدها حول الطاولة ، وهي توجه نظراتها نحو حواء الرحماني التي كانت تركز نظراتها نحوها أيضًا. وحين وصلت توجهت للفتاة مباشرة:

- لدي خبر سعيد لك في هذا الجحيم السعيد ياإيفا ماريا.

- لي..؟ سألت إيفا ماريا بفضول ودهشة.

- نعم لك. أبوك قد وصل.

- ماذا تقولين؟ البابا هنا؟ كم اشتقت إليه ، وإيفا ماجدولينا؟

نظرت حواء الرحماني نحو آدم السيد وقالت:

- هي خارج الفندق ، ربما تعود وربما لا. ليس لي أن أتمنى لها العودة أو البقاء هناك ، لكن سيكون لك لقاء مع والدك أولًا. لقد خصصت له جناحًا واسعًا ليضمكم جميعًا. أنت ووالدك وأختك إيفا ماجدولينا إذا ما عادت.

كان الرجلان يستمعان للحديث بين المرأتين ، وأحب آدم السيد أن يلتقي والد إيفا ماجدوليبنا أيضًا ويشهد اللقاء مع ابنته الكبرى. لذا توجه إلى حواء رحماني سائلًا:

- هل لي أن أحضر اللقاء أيضًا!

- لا أستطيع أن أوافق أو أرفض. يمكن لها- وأشارت لإيفا ماريا- أن توافق أو لا!

فقالت إيفا ماريا بحرارة:

- طبعًا أوافق. وكم أتمنى أن تكون إيفا ماجدولينا معنا.

★★★

في مستشفى الطوارئ ببغداد. وبعد ساعات من زرق جسد إيفا

ماجدولينا بإبرة المهدئ المؤقتة ، دخل الطبيب الخفير ليتفقد المرضى في العناية المركزة. وكانت معه ممرضة جديدة غير التي كانت نهارًا.

حين قرأ الطبيب اللوح الذي يضم تقرير تطور الحالة الصحية للمريضة استغرب ، قال للممرضة:

– يفترض أنها قد أفاقت من تأثير المنوم منذ ساعات؟

وأخذ يجس نبضها وفتح عينيها وسلط عليهما الضوء بمصباحه الطبي الصغير ، وقال للمرضة:

– إنها دخلت حالة الإغماء مرة أخرى. علينا أن نعالج الأمر بسرعة!

حاولا إفاقتها ، لكن إيفا ماجدولينا كانت قد عادت لغيبوبتها.

في جناحها الذي شاركت آدم السيد به أفاقت إيفا ماجدولينا من غيبوتها ووجدت نفسها مستلقية على الأريكة. فتشت بعينيها في أرجاء الجناح تبحث عن أثر لوجود آدم السيد. لكن الجناح كان خاليًا منه. وسمعت هديرًا عاليًا هز الفندق كله ، وكأنه النفير العام. ارتعش قلبها وكأن شيئًا غير عادي قد حدث أو سيحدث لها.

خافت من وحدتها داخل الجناح فقررت مغادرة الجناح ، متذكرة بأنه كان عليها مرافقة حبيبها آدم السيد إلى «حانة الجحيم السعيد» ، لذا قررت أن تتجه إلى هناك. فغادرت الجناح.

لم تكن تصدق عينيها حين رأت آدم السيد والرائد ومديرة مكتب الاستقبال حواء الرحماني ومعهما شخصًا آخر ، غرفته مباشرة. إنها إيفا ماريا أختها وحبيبتها ، وهم يقبلون نحو الممر الذي هي فيه.

تجمّد الثلاثة ، الرجلان ومديرة مكتب الاستقبال ، حينما صاروا بمواجهتها ، فقد فاجأهم عودتها إلى المطهر. أما إيفا ماريا فلم تفهم شيئًا من دهشتهم ، إذ لم تكن تعرف بأن هذه الفتاة

الطويلة الجميلة هي أختها الصغيرة إيفا ماجدولينا ، لكنها حين انتبهت لوقوف مرافقيها الثلاثة أدركت الموقف ، وغمرتها تيارات الحنين والمشاعر الروحانية الفياضة ، فتقدمت نحوها ، وحدها ، بينما بقيّ الثلاثة ينظرون إلى هذا اللقاء الغريب والغامض الذي يجري في مطهر الخطايا المقدسة بين روحين ، أختين ، روح شبح الجسد الذي كان يضمها موتًا ، وروح أخرى عالقة بين عالمين ، عالم فندق باب السماء ، وعالم الواقع في بغداد التي يغمرها الظلام في مثل هذا الوقت.

إيفا ماجدولينا عرفتْ أختها مباشرة ، فهذه هي صورتها وتجسيدها قبل أن تشعل النار في جسدها ، لكن الأخت حدست أنها أمام صغيرتها إيفا ماجدولينا التي صارت امرأة فائقة الحسن. اقتربتا من بعضهما البعض جدًا.

بدأت الكتابة بهذه الرواية في ٢٠١٩/١٢/١٠ بالغردقة في مصر، ثم واصلت الكتابة فيها في برلين بألمانيا، وتم الانتهاء من كتابتها فجر يوم ٢٠٢١/٤/٢٤ في أربيل.